موسوعة
من تراث القبط



المجلد الأول

رئيس التحرير
أ. د. سمير فوزي جرجس

من تراث القبط

المجلد الأول

من تاريخ القبط

رئيس تحرير الموسوعة
د. سمير فوزى جرجس

رئيس تحرير المجلد
د. سمير فوزى جرجس

مدير تحرير الموسوعة
د. موريس أسعد

اســـم الكتـــــاب : موسوعة من تراث القبط
المجلد الأول : من تاريخ القبط
رئيس التـحـــرير : د. سمير فوزى جرجس
الطـــــبعــة : الأولى
الجـمـع التـصـويرى والطبـاعـة والنشـر } دار القديس يوحنا الحبيب للنشر
١ شارع تيمور - سانت فاتيما - مصر الجديدة
تليفون : ٦٣٤٨٦٧٢ - فاكس ٢٤١٧٩٩١
التـــــوزيع : مكتبة الرجاء
١٨٦ شارع النزهة - مصر الجديدة - ت: ٦٣٤٥٧٧٤
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠٤/٨٧٤٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. : 977-5506-22-0

أيقونة الغلاف

السيد المسيح محب البشر يضع يده على كتف القديس الشهيد افامينا، رئيس دير القديس أبوللو (باويط، القرن الساد س - السابع الميلادى، متحف اللوفر فى باريس).
فى مواجهة المتأمل فى الأيقونة كتب ⲡⲥⲱⲧⲏⲣ أى المخلص. بينما كتب على اليسار اسم القـدس ⲁⲡⲁ ⲙⲏⲛⲁ . وتحتفل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بتذكار القديس يوم ١٧ أمشير من كل عام قبطى .

إهداء

إلى

حضرة صاحب الغبطة والقداسة
البابا شنودة الثالث

هيئة تأسيس وتأليف :

«موسوعة من تراث القبط»

يسعدها ويشرفها إصدار هذا العمل الضخم الذى يقع فى ستة مجلدات.

بأقلام علماء متخصصين

بمناسبة عيد ميلاد قداسته الثمانين، ومرور تسعة وأربعين عاما على سيامته راهبا، وواحد وأربعين عاما على رسامته أسقفا للتعليم، وبمناسبة اعتلائه عرش القديس مارمرقس الرسول منذ عام ١٩٧١ م .

"باسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد، الى الأبد . آمين"

" يا من يقول إن عمانوئيل الذى تجسد هو مجرد إنسان، غير مدرك أن توما سجد له كإله حق.... إخجل من صوت الآب الصادر من السماء "هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت".

لا تمزق ربنا يسوع المسيح الواحد إلى إثنين . ولئن صار جسدا من امرأة إلا أنه مع أخذه الجسد ذا النفس العاقلة فهو الإله مثلما كان".

رسالة البابا ديسقوروس الأول إلى دومنوس أسقف قورش
(من أعمال مجمع أفسس الثانى).

ديوسقوروس الأول

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الخامس والعشرون

٤٤٤ - ٤٥٤ م

الذى أدين ظلماً، منذ أكثر من ١٥٥٠ عاماً دون وجه حق

تقدير وإمتنان

إلى الذين انتقلوا إلى الأمجاد السماوية ممن تعبوا فى إعداد موسوعة من تراث القبط وكرسوا حياتهم لإحياء التراث القبطى.

- الانبا باسيليوس مطران القدس والشرق الادنى
- الانبا أثناسيوس . مطران بنى سويف والبهنسا
- الانبا يؤنس . أسقف الغربية
- الانبا غريغوريوس . أسقف عام الدراسات العليا والثقافة القبطية والبحث العلمى
- القمص يوحنا سلامة
- القمص صليب سوريال
- الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية
- الأستاذ الدكتور كمال جرجس
- الأستاذ الدكتور حشمت مسيحة
- الأستاذ الدكتور خليل مسيحة
- الأستاذ الدكتور سليمان نسيم
- الأستاذ الدكتور وليم سليمان قلادة
- الأستاذ الدكتور أنور لوقا
- اللواء مهندس / توفيق اسحق

رئيس التحرير

سمير فوزى جرجس

زيورخ

كلمة شكر

يسعدنى ويشرفنى أن أتقدم بعظيم الشكر وصادق الولاء لحضرة صاحب الغبطة الأنبا شنودة الثالث بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية لما اتسمت به رعايته طوال هذه الأجيال بالمحبة والتفانى ونكران الذات.

كما يشرفنى أيضاً أن أتقدم بأطيب الشكر والتمنيات إلى جميع الأخوة مؤلفى كافة المداخل وإلى أعضاء الهيئة التنفيذية تحت اشراف د. موريس أسعد وعضوية الدكتور موريس تواضروس والمهندس داود خليل مسيحة.

وكذا أيضاً لجنة المراجعة اللغوية تحت رئاسة الأستاذ نسيم مجلى والأستاذ وديع فلسطين لما بذلوه من جهود طائلة فى مراجعة اللغة العربية. والدكتور كمال فريد فى مراجعة اللغة القبطية.

وأيضاً إلى جميع العاملين بدار القديس يوحنا الحبيب للنشر تحت رعاية الأنبا بطرس الأسقف العام لما اتسمت به جهودهم من تضحيات جمة مكنتهم من تذليل جميع المصاعب التى صادفتهم.

كما نشكر كل من الأستاذ زكى بولس حبشى
الأستاذ جمال ذكرى بساده
القس أيوب (الأستاذ عبد الشهيد زكى يوسف)

رئيس التحرير
سمير فوزى جرجس
زيورخ

المقدمة العامة لموسوعة من "تراث القبط"

الأستاذ الدكتور سمير فوزى جرجس

يشكو معظم الباحثين الاقباط من تعود زملائهم الأجانب إساءة فهم تراثهم وعرض مقوماته، بالرغم من المحاولات العديدة والجهود الضخمة التى يبذلونها لتصحيح هذه الأخطاء الشائعة بطرق منهجية علمية سليمة. ولعل اللمحة التالية قد تصور لنا شرعية هذه الشكوى.

إن هذه الظاهرة العميقة الجذور، قديمة قدم التاريخ ذاته، وواسعة التشعب حتى أنها قد احتوت على العديد من مظاهر حياتنا، مبتدئة من تسمية بلادنا، وممتدة الأطراف لتتضمن معالم تاريخنا وحضارتنا.

الم يستبدل قدماء الإغريق التسمية الأصلية لبلادنا، التى تعود إلى ابائنا الفراعنة أن يطلقوها على أرضنا منذ فجر التاريخ، الا وهى "كيميت" أى الأرض السوداء، تمييزاً لها عن الارض الحمراء[1]، اى الصحراء القفراء، على جانبى وادى النيل الخصيب؟[2].

إن هذا الاسم الأصلى "كيميت" حافل بالمعانى، إذ يفشى لنا ببعض معالم حياتنا اليومية، ويعكس لنا بعض مقوماتها. فهو يشير إلي الأرض السوداء، الأرض الخصبة، أرض الفيضان، أرض الزرع والحصاد، علي ضفتى النهر الخالد، منبع الحياة الذي تعودوا على عبادته وتكريمه كاحد اقدم الآلهة "HAPI". فالمواطن هو ابن الأرض السوداء، هو "الفلاح" الذى يعيش علي ما وهبه الخالق من مياه عذبة، وأرض خصبة وجهد بشرى. فالمواطن هو الذى يحيا على ثمر الاستثمار والإكثار، وليس كما اعتادت الشعوب البدائية، علي استنزاف المصادر الطبيعية. فابن هذا الوطن، هو بصفة عامة "ابن الأرض السوداء" "الفلاح، المثمر المنتج".

الم يستبدل الإغريق هذا الاسم الحافل بالمعانى بلفظ "Aiyu p "tos، وهو صيغة مشوهة لاسم عاصمة من عواصم الدولة القديمة فى العهد الفرعونى. عدا ذلك الكثير من الامثلة المشابهة مثل "ممفيس"، "طيبة" وخلافه ...

بطبيعة الحال لم يقتصر الامر على استعارة واستعمال الأسماء الجغرافية الغريبة التى لا صلة لها بالمسمى وخصائصه، بل اتسع نطاق هذه الظاهرة لتشمل أسماء الأعلام واستمر ذلك أيضاً حتى الآن. وأود أن أذكر على سبيل المثال ما أدى إليه ذلك من اساءة تفسير وتأصيل الاسماء القبطية والمصرية القديمة للمبشرين الاقباط في أوريا، مثل شهداء الفرقة الطيبية التي

---

١ - لذلك اطلق على البحر المجاور اسم "البحر الأحمر".

٢ - لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع الى الهامش الاول صفحة ١٨.

قامت بنشر المسيحية في وسط أوربا وغربها، خاصة سويسرا وغرب المانيا وشمال إيطاليا وجنوب شرق فرنسا، وذلك فى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلادى.

الم يعتقد الكثيرون من الكتاب والمؤرخين الغربيين أن ينسبوا بعض اكتشافات واختراعات وإنجازات أجدادنا وأسلافنا الدينية والحضارية والثقافية إلى الآخرين، وأن يُملوا تلك الفروض على الجميع، مثل اختراع نظام الحساب الستينى ونسبة هذا الاختراع المصرى القديم قدم التاريخ خطأ إلى السامريين والبابليين وما ترتب على ذلك من نتائج ضارة.

اليس من المعلوم أن أبناء مصر القديمة هم أول من اخترع أول تقويم شمسى فى عام ٤٢٤٢ قبل الميلاد، أو ليس من الثابت المعلوم أنهم قسموا العام فى هذا التقويم الشمسى فى صورته الأولـــى[١] إلى اثنى عشر شهراً كل منها يتكون من ثلاثين يوماً، بالإضافة إلى أيام النسىء الخمسة فى نهاية العام؟؟؟[٢]

اليس هذا التقسيم الذى يعد أساس تقويمنا الميلادى فى كافة أنحاء العالم حتى اليوم يعتمد على النظام الستينى؟؟؟ أولم يكن الفراعنة هم أول من قسم اليوم إلى ٢٤ فترة زمنية، أولم يعتمد هذا التقسيم على أساس النظام الستينى أيضاً، الذى أعتاد الكتاب والمؤرخون الغربيون على حسابه ضمن اختراعات السامريين والبابليين؟؟؟

الم يعتقد الكثيرون من الباحثين والمؤرخين الغربيين نسبة العديد من مثل هذه الكشوف والاختراعات المصرية الصميمة الأصل، والفرعونية المنبع، إلى حضارات أخرى، مثل فن بناء أعمدة سقارة (٢٧٥٠ قبل الميلاد) التى استعارها الإغريق فى الأعمدة الأيونية والدورية والكورينثية بعد الفى عام (القرن الثامن قبل الميلاد)، أو نشأة البازيلكا (Basilica) طبقاً للفن المعمارى فى العهد البطلمى[٣]، أو إضافة المنارات إلى الكنائس والجوامع رمزاً للإشعاع الروحى ونور الهداية مثلما كان فنار الإسكندرية ملجأ الاستنارة والاسترشاد من قبل، أو تأثر الفن

١ - ربط قدماء المصريين بين ظاهرتين طبيعيتين هما ظهور النجم Sirius فى مجموعة الكلب الكبير (The Big Hound) بعد غياب طويل ووصول الفيضان، فاتخذوا من هذا اليوم بداية للعام الجديد الذى أعادوا على تقسيمه وفقاً للنظام الستينى كما يلى اثنى عشر شهراً كل منها ثلاثون يوماً + ٥ وكل يوم ٢٤ ساعة وفقا للنظام الستينى أيضاً.

٢ - تم تصحيح حساب طول العام الشمسى مرتين: الأولى بناء على تكليف يوليوس قيصر عقب وصوله إلى مصر متعقباً عدوه اللدود بومبيوس، فى عام ٤٥ قبل الميلاد. تم التصحيح بإضافة يوم كل عام كبيس، أى كل أربعة أعوام.
الرجاء الرجوع إلى سقف مقبرة سينموت بالدير البحرى، التى ترجع إلى حوالى عام ١٤٩٠ قبل الميلاد (الأسرة الثامنة عشرة من المملكة الجديدة ١٢٨٠حتى ١٠٥٨م).
وكان التصحيح الثانى بناء على توصية البابا جريجورى الثالث عشر، وكان من نتائج هذا حذف الأيام العشرة التى كانت قد أضيفت خطأ على مر العصور. (١٥٨٤ ميلادى).

٣ - الرجاء الرجوع إلى:
Samir Fawzy Girgis, "The Egyptians and Western Civilization", St. Pachom's Pubications, VI, 2001

القوطى (فى القرن الثانى عشر الميلادى) بفن البناء في مصر الإسلامية[١]، ونود ان نذكر على سبيل المثال جامع ابن طولون[٢] .

ومثل ذلك الكثير .....

الم يتعود الكثيرون من الباحثين الأجانب على تبنى العديد من المفاهيم الغربية باسمنا وإملائها علينا، بينما تعودنا علي تقبل مصداقيتها دون فحص وتمحيص؟؟؟ وذلك رغم تعارض هذه المفاهيم الخاطئة مع مقايسنا ووسائل الاستيعاب السليم لحقائق الأمور؟؟؟ واقاموا من انفسهم دعاة وقضاة فى نفس الوقت؟؟؟

الم يداوم الباحثون الأجانب علي وصم عقيدة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية القويمة، التى يفخر بها أبناؤها طوال العصور، بوصمة "Monophysitism". هذا الاتهام الفاضح الذى لا أساس ولا مبرر له علي الاطلاق، والذى أخذ يتنقل بين علماء اللاهوت والمؤرخين الأجانب دون أدنى حق، جاعلين من القبط شرذمة من المنحرفين عن الإيمان السليم، ومتجاهلين كافة المصادر الأصلية والمحلية، مما يتعارض وأبسط مناهج البحث العلمى السليم ؟.

ولقد ضاعف من نتائج هذا الخطأ الجسيم تصميم مثل هؤلاء الباحثين على وجهة نظرهم الخاطئة، مُدّعين، بما عهدنا فيهم من كبرياء، تفقههم لمفاهيمنا اكثر منا ... فرض وإملاء الخطأ علينا ظلماً ثم إداننا لاعتناقنا مثل هذه المفاهيم الراسخة لدينا.

الم يدعوا أن كنيسة الإسكندرية، مركز الكرازة المرقسية، كنيسة "قومية"، بينما هم يهدفون فى واقع الأمر إلى تحجيمها واعتبارها "كنيسة محلية" .

إن وطنية الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وإخلاصها المتفانى للوطن حقيقة تاريخية ثابتة لا جدال فيها. إن استعمالهم كلمة كنيسة قومية، بمعنى كنيسة محلية، إنما يهدف إلى نفى عالمية كنيسة الإسكندرية ودعوتها. وهذا بلا شك خطأ مقصود وخلط هدام للمفاهيم دون تأصيل منهجى علمى سليم.

الم يفعلوا ذلك متجاهلين عالمية دعوة كنيسة الإسكندرية ودور مقومات الحضارة القبطية فى بناء صرح الحضارة المسيحية فى كافة أنحاء العالم حتى يومنا هذا؟؟؟ الم تكن تلك المقومات

---

١ - تضمنت الدراسة السالفة الذكر عرضاً منهجياً سليماً للعديد من مثل هذه الامثلة اى الانجازات المصرية التى أسندت خطا إلى حضارات ومنابع أخرى.
القى موجز هذه الدراسة فى المعهد الفيدرالى بزيورخ يوم ٢٠ مايو ١٩٨٧ بمناسبة "يوم مصر الثقافى فى أوربا" وبناء على دعوة مكاتبنا الثقافية فى باريس وبرن .
٢. شيد فى القاهرة فيما بين عام ٨٧٦ و ٨٧٩ ميلادية .

بمثابة المنبع الخصب فى تشييد أركان الحضارة المسيحية على الإطلاق [١].

لقد كان انكماش الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قرونا طويلة نتيجة للعزلة التى فرضت عليها منذ خلقدونية والفتح العربى. ولقد أساء العديد من الباحثين الغربيين استغلال هذه الظاهرة لادعاء "محلية" دور الكنيسة القبطية، متجاهلين عالمية دعوتها ونتاجها الحضارى والثقافى واللاهوتى فى بناء صرح الحضارة المسيحية شرقا وغربا.

الم يفعلوا ذلك متناسين صراع أبناء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المتفانى والفريد النوع من أجل حماية الإيمان السليم من بدع وهرطقات العصور الأولى مثل الأريوسية والنسطورية والأبطوخية وخلافها.؟؟؟

الم يتجاهلوا دور أبناء هذه الكنيسة فى صياغة قانون الإيمان السليم الذى كان ولايزال بمثابة أساس الديانة المسيحية وعماد إيمانها ومحور ارتكاز وتجمع كافة مذاهبها حتى يومنا هذا ؟؟؟

الم يتجاهلوا فى ادعائهم الخاطئ، دور مدرسة الإسكندرية الفريد الشامخ فى هذا الصدد، أولى مدارس اللاهوت المسيحى والفلسفة المسيحية التى انجبت أشهر اباء الكنيسة شرقا وغربا.[٢]

الم يتناسوا فى صبغ كنيسة الإسكندرية بصبغة "محلية قومية" عالمية هذه الكنيسة ودور ابنائها فى تشييد صرح الكنيسة الجامعة الرسولية.[٣] والحضارة المسيحية ؟؟؟

---

١ - انظر:

Samir Fawzy Girgis, "The Egyptians and Western Civilization", lecture delivered at the Federal School of Technology in Zurich on the occasion of "The Day of Egyptian Culture", which was sponsored by the Cultural Offices of Egypt in Paris and Berne. St. Pachom's Publications, VI.

٢ - الرجاء الرجوع للأجزاء والمدخل الخاص بمدرسة الإسكندرية.

٣ - هامش خاص بالمقدمة عما يدعونها الكنيسة القومية والتلاعب بالمفاهيم لنفى عالمية كنيسة الإسكندرية ورسالتها.

"الكنيسة الجامعة"

من الوجهة اللاهوتية نقول إن تكوين الكنيسة كوحدة جامعة لعدة كنائس محلية - كما ترى الكنيسة الكاثوليكية - هو دخيل على تعاليم الوحى. إن ما يكون الكنيسة المحلية هو إمكانية هذه الجماعة الاحتفال الكامل بالوليمة أى الافخارستيا والاشتراك فيها. ومن تناول الكثيرين للخبز الواحد ووحدتهم فيه على الصعيد المحلى، انطلق التفكير بصلة الشركة بين الكنائس المحلية ووحدتها فيما بينها، وهكذا كان تكوين الكنيسة الفوق محلية على اساس الشركة فى الخبز الواحد دلالة على الوحدة فى الإيمان والمحبة والشهادة. إن الكنيسة كلها حاضرة على اصغر هيكل فى أصغر قرية حيث يقيم الذبيحة كاهن مع اسقفه. الكنيسة لا تتجزأ. الكنيسة كلها حاضرة فى الكنيسة المحلية او الأبروشية، كما فى كل رعية يحتفل فيها بسر الأفخارستيا. إن الكنيسة المحلية ليست مجرد وحدة إدارية ولا فرعا من الكنيسة الكبرى، ولكنها تملك بالحرى ملء الكنيسة. الكنيسة الجامعة اللاتينية، وهى ليست مدينة للغرب المسيحى، لا يحدودها ولا بتراثها الروحى او اللاهوتى او الطقسى او النظامى. فقد أسسها الرسل وخلفاؤهم الباشرون (المبشرون). ولذلك لا تقبل الكنيسة الأرثوذكسية القول بالأولوية (وضع بطرس وخليفته فى الرتبة الأولى) ولكنها تلقب بالجامعة وتعتبرها ضرورية للكنيسة.

يقول القديس إغناطيوس "حيثما كان الأسقف فهناك الكنيسة". فالكنيسة بملئها قائمة حيثما كان شعب حول أسقفه وحيثما يقام القداس الإلهى. المسيح يفعل ويمتد بكل قواه بالروح القدس حيثما اجتمع المعمدون باسمه.

الم يتجـاهلوا فى هذا الافتـراء نشـأة الرهبانيـة والديرية فى أرض مصـر، هذا النتاج النسكى الفريد، الذى كان ولايزال له عظيم الأثر فى بناء معالم الحضارة المسيحية فى جميع أركان العالم ؟؟؟

الم يتجاهلوا مدى اتساع رقعة تبشير ابناء هذه الكنيسة فى نشر المسيحية من ايرلندا غربا إلى الهند شرقـا، ومن حـوض نهـر الراين شمـالا إلى السـودان والحبشـة بل وشرق إفـريقـيا وجنوبها ؟؟؟ ومثل ذلك الكثير ....

الم يفعلوا كل ذلك بإصرار شديد متجاهلين العديد من الحقائق التاريخية الموثقة والشواهد العديدة التى تثبت عالمية نتاج هذه الكنيسة وابنائها فى تشييد صرح الحضـارة المسيحية فى كافة أنحاء العالم حتى اليوم ؟؟؟

الم يتشبثوا بإنكار عالمية هذه الكنيسة وجهودها؟ الم يصروا على وصـمها بوصمة "المحلية" دون مبالاة بالعديد من مثل تلك الحقائق والوقائع السـالفة الذكر، التى تتسم أولا وقبل كل شىء "بالعالمية" دون التوقف عند أى حدود زمنية أو جغرافية، عنصرية كانت أو اجتماعية أو سياسية؟

ها نحن نرى آباء الكنيسة الأولى يتدفقون من كافة البلدان إلى منبع الإسكندرية الخصب.

ها نحن نرى إشعـاع الرهبانية والديرية فى بقاع العالم كافة، بينما امتلأت الأديرة المصرية بابناء الكنائس المسيحية من كافة أنحاء العالم فى ذاك الوقت ...

الم يفسح القبط عرش القديس مارمرقس الرسول ليتربع عليه إخوانهم فى العقيدة والإيمان السليم، رغم اختـلاف الجنس واللغة والحضـارة والثقافة ؟؟؟؟ مثل البـابا سيـمون (سـمـعان) البطريرك الثـانى والأربعـون (٦٨٢م)[1]، والبـابا أبرام بن زرعـه، البطريرك الثـانى والسـتون (٩٧٦م)[2]، والبابا مرقس الثالث بن زرعه، البطريرك الثالث والسبعون (١١٦٥م) ..... الا يتضح لنا هنا بجلاء، تام مدى سيطرة العالمية والتدين على الفكر المصرى Cosmopolitism منذ البدء ؟؟؟؟ الا يوضح ذلك اولوية وافضلية التقييم لديهم وعالمية دعوتهم وعقيدتهم التى لم تقف عند حدود بلادهم او حتى قارتهم ؟؟؟؟

اولم يتربع القبط أيضـا على عرش بطريركية إخوتهم السريان مثل البطريرك تيودور (الثالث والأربعين : من ٦٤٩ الى ٦٦٧م)، والبطريرك بولس الثـانى (الأسـود)، البطريرك الثـامن والثـلاثين

١. فى عهد إمارة العزيز بن مروان. انظر ساويرس، "سير الآباء البطاركة، المجلد الأول، الجزء الثانى ص ١٣١ – ١٣٢، نشر جمعية الآثار القبطية، القاهرة ١٩٤٨.

٢. تربع على عرش القديس مارمرقس الرسول باسم افراهام السريانى (ذلك فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله. انظر: ساويرس، المجلد الثانى، الجزء الثانى ص ٩٤–٩٥.

انظر ايضا أ.د. سيدة إسماعيل كاشف، "مصر الإسلامية واهل الذمة"، نشر فى تاريخ المصريين رقم ٤٧ عام ١٩٩٣، ص ٥٤.

(٥٥٠-٥٧٥م) ؟؟؟؟

الا تشير كل هذه الشواهد إلى مدى عالمية كنيسة الإسكندرية وتراثها الذى كان ولايزال ينبض بالحياة والفاعلية فى أنحاء العالم كافة ؟؟؟؟

إن هذا النعت، ألا وهو وصف كنيسة الإسكندرية بأنها كنيسة "محلية"، إنما هو اتهام فاضح وافتراء، صارخ هدام، يهدف إلى نفى عالمية هذه الكنيسة ودعوتها، وبالتالى يهدف إلى الإقلال من مكانة هذه الكنيسة العريقة والهبوط بها إلى مستوى التبعية ...

إن وصف كنيسة الإسكندرية بكونها كنيسة محلية فى التفكير والهدف، افتراء أجنبى فاضح لا أساس له من الصحة.

الم يخلط هؤلاء الباحثون بين الأسباب الحقيقية لهذا الانطواء ؟؟؟ ألم يكن هذا الانطواء نتيجة لانقسام خلقدونية وما تلا ذلك من العزلة والاضطهاد البربرى الأثيم اللذين فرضا على كنيسة الإسكندرية وأبنائها؟ ألم يتحمل أبناء هذه الكنيسة الأمرين من أجل المحافظة على سلامة الإيمان والعقيدة؟ الا يوضح لنا هذا أفضلية تقييم مقومات حضارتهم دون تحفظ جغرافيًا كان أو بشريًا أو سياسيًا؟

هذا، ولقد اعتاد الكثيرون من الباحثين الأجانب إخفاء الأهداف الهدامة لهذا الادعاء الخطير بتزيينه بزهور جذابة الشكل، سامة الفعل، وذلك باستعمال محاسن لفظية خلابة مثل "كنيسة قومية"، والتى قد تفهم بمعنى "كنيسة وطنية"، بينما يعنون فى واقع الأمر أنها "كنيسة محلية" ويهدفون من وراء ذلك إلى الحطُّ من مركز كنيسة الإسكندرية العالمى ورسالتها إلى مرتبة كنيسة محلية، والهبوط بها إلى مستوى التبعية.

اعتاد مثل هؤلاء الكتاب من رجال اللاهوت والمؤرخين إلباس هذا الطعم الخانق غطاءً مغرياً جذاباً، كلفظ "كنيسة وطنية أو قومية"، ولكنه يخفى فى داخله مرارة السم القاتل ألا وهو "كنيسة محلية"؟!

وإنه لمن العجيب حقا أن الكثيرين من باحثينا وعلمائنا قد وقعوا فى هذه الشباك المحكمة وصاروا ضحية لهذه النعوت الجذابة شكلاً والهدامة حقاً، فاعتادوا تبنى مثل هذه الصفات والافتراضات دون تمحيص دقيق، غير مدركين مدى خطورة هذا الادعاء والافتراء الهدام الذى يتعارض مع كافة شواهد العيان الواضحة منذ البدء.

وكما أوضحنا من قبل، إن "وطنية" الكنيسة الأرثوذكسية وإخلاصها المتفانى للوطن حقيقة تاريخية لا جدال فيها طوال هذه القرون والأجيال. أما استخدام الكتاب الغربيين لهذا اللفظ

الجذاب، أى استعمالهم لفظ وطنية "، للإيحاء بمحلية هذه الكنيسة ودعوتها، إنما هو خلط لغوى وتضليل مقصود يتنافى مع الحقائق التاريخية - كافة.

أخيراً وليس آخراً يسعدنى فى هذا المقام أن اقتبس بضعة أسطر من أستاذ الأجيال، ثاقب البصيرة، الأستاذ الدكتور طه حسين فى هذا الشأن. جاء فى كتابه الفريد "مستقبل الثقافة فى مصر" الذى نشر فى عام ١٩٣٨ ما يلى:

"والكنيسة القبطية مجد مصرى قديم، ومقوم من مقومات الوطن المصرى، فلابد أن يكون مجدها الحديث ملائما لمجدها القديم" ويرى طه حسين [١] حتمية الاهتمام بالكنيسة المصرية مؤكداً أن دور هذه الكنيسة "اكثر اتساعا ويمتد الى خارج حدودها فيقول" فالكنيسة القبطية مصدر الثقافة الدينية لأوطان أخرى غير مصر فيجب أن تصدر لهذه الأوطان ثقافة دينية تلائم حاجتها الحديثة أيضا".

ألم يحاول معظم الباحثين الغربيين الإقلال من شأن القديس مارمرقس الرسول بإصرار دائم على اعتباره مجرد سكرتير أو مترجم أو تابع للقديس بطرس الرسول ؟؟؟ أولم ينسبوا إنجيل القديس مرقس، أقدم البشائر الأربعة، إلى القديس بطرس مستندين فى هذا الفرض إلى بعض المراجع الثانوية، مثل ادعاء Papias الذى استشهد به يوسابيوس القيصرى ؟؟؟ الم تهدف هذه الفروض والمزاعم إلى تدعيم مبدأ رئاسة روما فى قيادة العالم المسيحى ؟؟؟ أولم يرفضوا فى هذا المجال قبول حصن بابليون المصرى مكاناً لكتابة رسالة القديس بطرس الأولى وبالتالى الم ينفوا تواجد القديسين بطرس الرسول ومرقس الرسول آنذاك سويا فى مصر، واستبدلوا

---

(١) الرجاء الرجوع الى لستة مؤلفات الكاتب، خاصة ما نشر منذ عام ١٩٨٤

هامش خاص بوطنية القبط والكنيسة القبطية:

إن هذا الموضوع حافل بوفرة فائضة من المراجع، لا يتسع ذكرها فى هذا المدخل المقتضب ، ولكننا نود أن نذكر لمحة عابرة على سبيل المثال من الدراسات التالية فى هذا الصدد:

الراهب انطونيوس الانطونى، وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها، الجزء الأول القاهرة ١٩٩٥، الجزء الثانى عام ٢٠٠٢، الجزء الثالث ٢٠٠٢

رفيق حبيب ومحمد عفيفى، تاريخ الكنيسة المصرية، تقديم رفعت السعيد، القاهرة ١٩٩٤،

طارق البشرى، المسلمون والاقباط فى إطار الجماعة الوطنية، الطبعة الثانية، دار الشروق ١٩٨٨،

رشدى امين الطوخى، مصر والأقباط فى مائة عام، جمعية التوفيق، القاهرة ١٩٩٤،

رفعت السعيد، ماذا جرى لمصر مسلمين وأقباط، القاهرة ١٩٩١،

عبد اللطيف المناوى، الاقباط، القاهرة ١٩٩٢،

القمص بولس باسيلى، الاقباط وطنية وتاريخ، الطبعة الثالثة ١٩٩٩،

سليمان نسيم، الكنيسة القبطية ودورها القومى والحضارى ١٩٩٥،

سيدة إسماعيل الكاشف، مصر الإسلامية وأهل الذمة، فى سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥٧ عام ١٩٩٢،

توفيق حنا، تاريخنا القومى، اكتوبر ١٩٨٩،

B.L. Carter, The Copts in Egyptian Politics 1918 - 1952, American University in Cairo, 1986.

بيابليون المصرية مدينة بابل مابين النهرين، وذلك بناء على فروض واهية لا أصل لها على الإطلاق، وذلك للإقلال من دور مصر والقديس مرقس الكرازى؟؟؟[1].

الم يتجاهلوا أهمية المصادر المحلية فى معالجتهم لأكثر المسائل والمواضيع حساسية، مثل سيرة القديس مارمرقس وأقوال البابا ديوسقوروس الأول بابا الإسكندرية الخامس والعشرين (٤٤٤-٤٥٤م) ؟؟؟... أولم يؤد كل هذا إلى إساءة تفسير وفهم العديد من أوجه البحث والدراسة، خاصة فى شرح واستيعاب العقيدة القبطية؟؟؟

الم تداوم الغالبية العظمى من الكتاب والمؤرخين على عنونة تاريخ بلادنا منذ نهاية الأسرة البطلمية (٣١ قبل الميلاد) وحتى الفتح العربى (٦٣٩- ٦٤١م)، تلك الفترة الحاسمة فى تاريخ مصر والعالم الدينى والحضارى، باسم "مصر البيزنطية" أو "مصر الرومانية"، وذلك بالرغم من تميز نتاج ذلك العصر الروحى، الحضارى، والثقافى، والفلسفى والعلمى "بمصريته"، أى بقبطية المصدر والمنبع... فلننظر إلى المدرسة اللاهوتية وسيادة الإسكندرية، إلى اختراع وتطور وانتشار الرهبانية والديرية، وإلى الصراع الفريد فى قهر الهرطقات، وحماية الإيمان الصحيح، وصياغة أهم أسس العقيدة، إلخ... ألم يكن كل هذا النتاج الروحى والحضارى والثقافى مصرى المنبع، قبطى المصدر، بالرغم من الحكم الأجنبى الغاشم الذى اعتاد استغلال تفوقه العسكرى لاستنزاف موارد بلادنا؟.

إن تسمية عصور تاريخنا بأسماء الأسر الأجنبية الحاكمة إنما هو تزييف لمعالم تلك الفترات التاريخية ... لم تكن هناك قط "مصر البيزنطية" أو "مصر الرومانية"، بل هى "مصر القبطية" إذا ما أخذنا فى الاعتبار تقييم الإنتاج الروحى والحضارى لهذه الفترات. نعم "مصر تحت الحكم الرومانى او تحت الحكم البيزنطى"، لا "مصر البيزنطية أو الرومانية".

لقد وفقنا الله منذ عام ١٩٨٤ إلى تأصيل هذه التسمية فى عدة دراسات منهجية سليمة. كم أسعدنى أن أجد أستاذنا الكبير الأستاذ الدكتور حشمت مسيحة قد وصل إلى نفس الغاية واقترح نفس التسمية لذلك العصر دون أن يكون لنا اتصال فى هذا المجال طوال الأحقاب الثلاث السابقة...

وكم أسعدنى حقا هذا الموقف المنهجى السليم، موقف النقد البناء الذى يعبر عن التحرر، والاستقلال الفكرى الذى عمل به بعض مؤرخينا مثل الأستاذ الدكتور حشمت مسيحة والأستاذ

---

١. للمزيد من التفاصيل الرجاء الرجوع الى:
S. F. Girgis, "The Chronology of Saint Mark", St - P's Publications XIV 2nd ed. ST. Mark Foundation New Jevsy 2002

الدكتور محمد عمارة فى مؤلفه الذائع الصيت "عندما صارت مصر عربية" [1] بصرف النظر عن شعبية التسميات الأخرى. وكم أتعسنى تبنى الكثيرين من كتابنا وعلمائنا تلك التسميات الزائفة التى لا تعبر عن مضمون محتواها دون بحث أو تمحيص. نعم "مصر القبطية"، لا مصر "البيزنطية" أو "الرومانية".

لم تكن هناك "مصر البيزنطية" أو "مصر الرومانية" بل هى مصر القبطية"، المصرية الفكر والإبداع فى كافة ميادين الحياة، مصر التى احتوت الغزاة رغم تعدد أجناسهم واختلاف طباعهم. مصر التى احتوت الغزاة دون أن يحتووها التى طبعتهم دون أن تنطبع بهم، التى صبغتهم بمياه النيل وحضارة أبنائه وثقافته دون أن تصطبغ بخصالهم. فلا عجب أن نقرأ الفيلسوف الفرنسى مالرو (وزير الثقافة فى حكومة ديجول) ما يلى:

"إن الشعب المصرى الأصيل، شعب عظيم، فهو شعب يحتوى الغزاة فى هدوء وصبر طويل.... لم يستطع محتل أن يصبغه إنما العكس هو الصحيح".

لا شك أن هناك عوامل كثيرة أدى تفاعلها إلى هذا التراكم المؤسف، الذى أدى بدوره إلى سوء التفسير واستيعاب المفاهيم. ونود أن نذكر على سبيل المثال بعض هذه المظاهر ومقوماتها لدى الكثيرين من الكتاب الأجانب:

+ تجاهل المصادر المحلية لسبب أو لآخر.

+ اختلاف الحساسية والقابلية الذى أدى إلى عدم إدراك جوهر العديد من الحقائق.

+ اتباع فروض مبدئية لخدمة أهداف معيَّنة منذ بدء البحث بل قبل ذلك.

+ تبنى صيغ مشوهة قد انتقلت من كاتب إلى آخر دون بحث أو تمحيص منهجى محايد.

تعالى الذات وتنصيب أنفسهم بمثابة المدعين والقضاة فى نفس الشخص، استمرارية لفكرة التسيد والسيادة الغائرة فى نفوس العديدين لعوامل تاريخية كثيرة.

ساهمت هذه العوامل الفعالة فى التستُّر على نشأة وتطور هذه الفجوة البالغة التى أدت إلى صعوبة التلاقى.

فى نفس الوقت يتحتم علينا محاولة الإلمام بمدى مسؤولية الكتاب المحليين فى نشأة هذه السلبيات الخطيرة، وتطورها ومنها:

---

١. محمد عمارة، "عندما أصبحت مصر عربية"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ودراسة فى المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى بيروت ١٩٧٤، ص ٥

+ موقف العزلة والانطواء والاكتفاء الذاتى الذى عاشته كنيسة الإسكندرية وأبناؤها، سواء كان هذا مفروضا عليها أم لا. ففى واقع الأمر لقد فشل الكثيرون من الباحثين المحليين فى تقديم مفاهيم قضاياهم وعرضها بأسلوب موضوعى ومنهجى سليم قرونا طويلة ...

واود أن أذكر على سبيل المثال فشلنا فى الأجيال الماضية فى دحض الادعاءات الغربية والفروض الوهمية التى تعود معظم علماء الغرب، بما عهدناه فى الكثيرين منهم من تعال وتشامخ، إلصاقها بنا وفرضها علينا افتراء، معتمدين فى ذلك على مظاهر واهية وإشارات ودلائل دون حجة واضحة وأدلة قاطعة. فشلنا فى عهود كثيرة وأزمنة طويلة فى مقابلة هذه الادعاءات بدراسات منهجية سليمة تستند إلى القرائن الواضحة والتأصيل السليم، مكتفين فى معظم الأحيان بالتغاضى عن المواجهة العلمية وبتجاهل هذه الادعاءات.

والأسوأ من ذلك أن بعض كتابنا قد تبنى مثل تلك الفروض والادعاءات واقتبسوها دون مصداقية فى التمحيص، مثل تسمية العصر القبطى "بمصر الرومانية" أو "البيزنطية"، أو مثل ما اعتادوه من تشكيك فيما يتعلق بسيرة القديس مارمرقس الرسول، تاريخ زياراته الثلاث للإسكندرية، تواجده فى بابيلون المصرية مع القديس بطرس الرسول حيث كتب الأخير رسالته الأولى، تفسير طبيعة علاقته بالقديس بطرس (مترجم، تابع وخلافه) كتابة إنجيل مرقس علاوة على كثير من الفروض والشكوك دون أدلة، بل على العكس اعتمدت هذه الفروض على نفى المصادر الأصلية وما جاء فيها (مثل تواجد الرسولين فى بابيلون المصرية). اعتادت الغالبية العظمى من كتاب الغرب تقديم هذه السيرة بعبارة "وفقاً للأساطير" فهبطت السيرة إلى مستوى القول الشائع أو الفرض. علاوة على ذلك، فلقد اتسم انتاج بعض الباحثين المحليين بتناقض ملحوظ، يجمع بين الشعور بالنقص، كما نرى ذلك فى تبنى العديد من المزاعم والفروض والمفاهيم الغربية من ناحية، والشعور بالتفوق نتيجة لمحافظة القبط على صرح إيمانهم السليم وعقائدهم الراسخة من ناحية أخرى. إن هذا التناقض الملحوظ لدى البعض إنما هو نتيجة لما سبق ذكره من رواسب متخلفة طوال العصور الماضية.

قد نستطيع إسناد الشعور بالنقص هذا إلى أسباب موضوعية متعددة مثل قصور الوسائل وفقر الإمكانيات المتاحة من ناحية، أو القصور اللغوى وعدم إجادة اللغات الأجنبية والعالمية من ناحية اخرى، مما جعل هؤلاء الباحثين والعلماء الكبار بمثابة "بحور مغلقة"، فلم يفض علمهم الغزير فى وادى التنوير المقفر، ولم يساهم فى إصلاح المفاهيم الخاطئة الشائعة التى ذكر بعضها من قبل. أما فيما يتعلق بشعور التفوق والتعالى، فهو نتيجة تلقائية لاعتقادهم الراسخ بتميز كنيستهم فى المحافظة على العقيدة والتراث بتفانيهم الفريد، وذلك رغم الظلم المجحف الذى

عانوه طوال تلك القرون.

لذلك تهدف هذه الدراسة إلى إتاحة الفرصة لبعض الباحثين المحليين لتزويد القارىء بلمحة عابرة لهذا التراث الخالد، الذى يحتاج احتواؤه الى مكتبات تخصصية كاملة، فى عرض موضوعى، وبحساسية قبطية دون تحيز أو مساس بمبادىء البحث المنهجى السليم.

مقدمة المجلد الأول

يتضمن المجلد الأول لمحة عابرة وعرضا شديد الإيجاز لجزء يسير من الإطار التاريخى لهذا التراث الخالد. وغنى عن التعريف فى هذا الشان استحالة الإلمام بأوجه هذا التراث المتعددة فى موسوعة أو موسوعات عدة، وأن هناك مكتبات تخصصية ضخمة تهدف فى جهودها الكبيرة إلى الإحاطة ببعض نواح من هذا التراث، الذى كان ولا يزال يعمل فى الخفاء... هذا وستخصص الأجزاء الخمسة الباقية للتعريف بالنزر اليسير من نواحى هذا التراث الحى الفريد.

اما فيما يتعلق بهذا الإطار التاريخى الموجز، فإننى أود تذكرة القارئة والقراء الأفاضل، أن هذا العرض لا يهدف إلى تجميع أو إعادة صياغة وطباعة ما عرف، إنما هو إطار يتضمن رغم إيجازه الشديد اثراء المكتبة التاريخية شرقاً وغرباً بالجديد مما لم يدرس منهجيا من قبل. إن قطبى محور هذا التجديد هما:

أولا: الترتيب الزمنى والجغرافى لسيرة القديس مارمرقس الرسول، مؤسس كنيسة الاسكندرية.

وتعد هذه الدراسة أول بحث فى هذا الميدان، منذ القرن الأول الميلادى.

وجدير بالذكر أننا فى مسيس الحاجة لمثل هذه الدراسات التى نفتقر إليها تماماً فيما يتعلق بتلاميذ السيد المسيح، إذ ليس لدينا حتى الآن سوى منهجية واحدة فى هذا الصدد وهى عن حياة القديس بولس الرسول.

ثانيا: إثبات الأصل القبطى (المصرى) للفرقة الطيبية التى أدخلت المسيحية إلى وسط أوربا من شمال إيطاليا وحوض نهر الراين عبر سويسرا وألمانيا.

وكما ذكر من قبل، إن هذه المداخل التاريخية المقتضبة تعد بمثابة إطار تضمن الإشارة للجهود الشامخة والنتاج الفريد فى نشأة مقومات التراث القبطى وتطوره وتعد بلاشك من أهم دعامات الحضارة المسيحية فى كافة أنحاء العالم. فى هذه المداخل نكتفى بمجرد الإشارة إلى هذه الأعمال الضخمة لأسباب عدة منها:

أولا: وجود دراسات تخصصية كثيرة ومتميزة فى معظم هذه المواضيع التى اكتفينا بالإشارة إليها مثل الرهبانية والديرية، ومثل مدرسة الإسكندرية، ومثل آباء مدرسة اللاهوت وخلافه ... إننا فى مثل هذه الحالات نكتفى بالإشاره إلى مثل هذه الدراسات المتكاملة لتزويد الباحث والقارئ بمصادر البحث الخاصه بالموضوع، مما يوفر عليهما عظيم الجهد.

ثانيا: إنه كان يتحتم علينا منذ البدء الالتزام باتساع معين وبعدد محدود من الصفحات، هذا

العدد الذى لا يكفى فى واقع الأمر لمعالجة أى من هذه المواضيع معالجة مستفيضة موثقة.

إن هدف هذه الدراسات، كان ولايزال منذ البدء، يهدف لا إلى تجميع ماهو معروف ومدروس، بل الاكتفاء بالإشارة إلى ذلك بإيجاز تام مع إضافة النتاج الجديد تفصيلاً ... وعلى سبيل المثال بينما نكتفى بالإشارة إلى الجهود التبشيرية العظيمة للأقباط فى السودان والحبشة، تلك الجهود الضخمة التى عولجت فى دراسات شاملة عديدة، نعرض تفصيلا دور الأقباط التبشيرى فى غرب أوربا الذى أهمل طوال القرون الماضية والتى كانت المكتبة القبطية تفتقر إليه افتقارا تاماً.

وإزاء الاتساع الجغرافى والزمنى الشاسع لموضوع دراستنا، ونظراً لتعدد الأزمنة والبيئات واختلاف جميع ظروف الحياة الاجتماعية والحضارية والاقتصادية وغيرها التى أحاطت بما تتناوله هذه الدراسة من أحداث، فإنه يتحتم علينا منذ البدء تقييم كل هذه الأحداث (أو كل منها) فى ظل خصائصها، كل فى زمنه ووفقاً لظروف عصره السائدة فى ذاك الحين. وهذا يتطلب من المؤرخ قصارى الجهد للحد من خطورة التمركز حول الذات والحكم بمقاييس نسبية قد تؤدى إلى تشويه الحقائق التاريخية وتفهمها فى إطارها المتميز. لذلك يجب علينا مراعاة الأساسيات الآتية:

أولا: خطورة "التمركز حول الذات" البالغة الأثر والتى تعد من أخطر عوامل النقص والقصور فى نقل وعرض الحقائق التاريخية فى إطارها المتميز جغرافياً وزمنياً، وسياسياً واجتماعياً...

لاشك أن لكل مؤرخ زاوية الرؤية الخاصة به، فهو لا يستطيع التخلص تماماً من "التمركز حول الذات"، بل هو مضطر أن يكون نسبياً فى رؤيته وتقييمه للأحداث. لذلك فإن المؤرخ الصادق لابد أن يدرك تماماً هذا النقص. وعليه أن يبذل كل الجهد للإقلال من احتمال تشويه الأحداث نتيجة لهذه الظاهرة، إلى أدنى حد. لذا ينبغى عليه أن يلم بمختلف الوقائع وأن يقدمها فى ضوء الظروف السائدة فى ذاك الوقت، وأن يوضح مقوماتها وعواملها الزمنية وظروفها الاجتماعية والسياسية فى ذلك الحين.

لذلك فإن أشق مهمة يتعرض لها المؤرخ الصادق، ولا أعنى هنا كاتب الحدث الذى يكتفى بالتحقق من وقوع الحدث ويهتم بمصداقيته ووصفه وتدوينه ونقله، بل المؤرخ الذى يهتم علاوة على ذلك بتأصيل الحدث وفقاً لظروف العصر السائدة. لذلك فإنه من أشق مهام المؤرخ المتمعن محاولته الحد من مؤثرات الإطار المحيط به وخصائصه، والانطلاق منه للخروج بالحدث موضوع البحث من نطاق **"هنا"** و **"الآن"** إلى **"هناك"** و **"حينذاك"** حسب تعريف أستاذنا الكبير وعميد مؤرخى القرن العشرين الأستاذ الدكتور

أرنولد توينبي،[1] وذلك حتى يستطيع القارئ، فيما بعد تقييم الحدث تقييماً قوياً في التربة التي قد نما فيها ... هذه الصفة الأساسية حتمية للإقلال بقدر الإمكان من التقييم الخاطئ، المترتب على التمركز حول الذات، وحتى يستطيع المؤرخ [2] لا كاتب التاريخ، تزويد القارئ، بعرض موضوعي للأحداث بقدر الإمكان، احتذاء بمنهجيه عميد المؤرخين Thucydides والتي تختلف الى حد بعيد عن طريقة Herodot ابو كتاب التاريخ.

ثانيا: لقد كان الدين والتدين دائما بمثابة العمود الفقري للكيان المصري والعصب الرئيسي لفكر المصريين وطريقة حياتهم، تلك الظاهرة التي نراها بجلاء طوال تاريخهم الحافل.

اتسمت الثقافة والحضارة المصرية القديمة منذ البدء، بطابع الدين والتدين والارتباط بما وراء الوجود المادي، أي الارتباط بالآلهة والحياة الأبدية. فلا عجب أن نقرأ في مؤلف هيرودوت أبي كتاب التاريخ (٤٨٤–٤٢٤ ق.م) مايلي: "إن المصريين هم أول الشعوب التي اقامت الاحتفالات الدينية، ولقد تعلم الإغريق هذه الأشياء منهم. إنني أعتقد أن هذه الأشياء قديمة جداً عند المصريين، وأنها دخلت حديثا في بلاد اليونان. فالمصريون يقيمون الاحتفالات للآلهة في كل يوم مرات عديدة، وليس مرة واحدة. إنهم متشددون جداً في توقيرهم للأماكن المقدسة .... كما ينسب المصريون كل يوم وشهر إلى أحد الآلهة ....."

إننا قد ندرك مدى تغلغل الدين وسيطرة التدين على فكر أبناء مصر إذا ما علمنا أن ٩٠٪ من شواهد وآثار مصر الفرعونية ذات ارتباط وثيق بالآلهة والآخرة والحياة الباقية ...

ألم يشيدوا معابدهم ومقابرهم من الحجر الصلب وبعناية فائقة مما كتب لها البقاء، بينما اقاموا مبانيهم الدنيوية بالطوب النئ وبقليل من العناية فكان مصيرها الانهيار والفناء؟

---

١. عالج بروفسر توينبي هذا الموضوع بما عهد فيه من علم غزير ودقة متناهية في العديد من مؤلفاته. جدير بالذكر في هذا المجال خاصة الإشارة إلى كتابه الآتي:

Toynbee Arnold. An Historian'sApproach to Religion", Oxford 1956,p. 1-6.;

Wittram Interesse an der Geschichte. (Göttingen. 1965); wittram, R., Anspruch und Fragwürdkeit der Geschichte. (Göttingen,1972); Wittram, R., Das Vergangene und die Geschicte. Festschrift für Reinhard Wittram zum 70. Geburtstag. herausgegeben von Rudolf von Thadden. Gert von Pistohlkors und Hellmut Weiss. (Göttingen. 1973).

٢. Herodot of Halikarnass المعروف بلقب ابي كتاب التاريخ. (٤٨٤–٤٢٤/٤٠٢ قبل الميلاد)، الذي قام بعمل رحلات عدة في اليونان وبلاد الشرق الأوسط لدراسة هذه البلدان وشعوبها (Historian) باللغة اليونانية. وقد حاضر شفهياً عن هذه المعلومات التي كان قد جمعها واكتسبها في هذه الرحلات في مدينتي ساموس واثينة، ثم دون مؤلفاته التسعة في مدينة توريي Thurii بجنوب ايطاليا حيث عاش هناك منذ ٤٤٤ قبل الميلاد.

Thucydides من مواطني اثينة، عميد مؤرخي العصر (٤٥٥ تقريبا حتى ٣٩٥ قبل الميلاد) كتب اثناء مدة نفيه ثمانية كتب عن تاريخ شبه جزيرة البلوبنيز Peloponnes. تعد كتاباته بدء التاريخ التأصيلي المقارن وتقييم الأحداث في ظروفها الخاصة.

الم ير أبناء مصر أن حياتهم الدنيا مجرد لحظة عابرة وإعداد لآخرة أبدية دائمة؟؟ ها نحن نبحث عبثاً عن كلمة مدفن او مقبرة فى لغة اجدادنا الهيروغلفية، فنجدهم يسمون المدفن "البيت الأبدى"...

هذه الظاهرة المميزة تكّون دون شك اساساً لاغنى عنه من اجل الوصول إلى فهم موضوعى لتاريخ الاقباط الطويل، وهى تسهم إسهاماً بالغاً فى فهم الخلفية الروحية لسلوكياتهم. كما تساعد على كشف الغموض وتوضيح خصوصيات حولياتهم التاريخية.

إن هذا التدين العميق الجذور هو الذى يفسر نسبياً الانتشار السريع للمسيحية والإخلاص الشديد لها فى مصر. وجدير بالذكر فى هذا الشان ان الانتشار السريع للمسيحية فى مصر فى العصور الأولى لا يرجع كما يظن معظم الباحثين إلى تشابه بتاح ـ تحمت ـ نفرتم بالثالوث المقدس، أو بثالوث إيزيس وأزوريس وحورس، او تشابه قيامة السيد المسيح ببعث أوزوريس بعد الموت .... إن هذا التشابه المغرى الجذاب كاذب ومضلل .

الم تتضمن الأساطير المصرية القديمة الكثير من الثالوثيات ذات العقائد والأيدولوجيات المختلفة تماماً عن عقيدة التثليث فى المسيحية، مثل ثالوث آمون ـ موت ـ خونس أو ثالوث بتاح ـ سخمت ـ نفرتم.

الم تتضمن أساطير الفراعنة الدينية أيضاً وحدات دينية متعددة الأرقام مثل تاسوعية مدينة "أون" (هليوبوليس) حيث يتربع أتوم على قمة هذا التجمع ؟؟؟

ألم يدفعهم هذا التدين إلى تبنى الحروف اليونانية لكتابة لغتهم الديموطيقية، نظراً لعدم اتساعها لشمول مصطلحات الديانة المسيحية الجديدة ؟ الا يشير هذا ايضا إلى مكانة العقيدة وأولية التدين فى تقييم مقومات حضارتهم الروحية والدنيوية ؟؟؟

الم يدفعهم هذا التعمق وهذا الإخلاص للدين الجديد إلى النفور من سلوك ابائهم وأجدادهم، حتى لقد صارت كلمة "فرعون" ذات دلالة سلبية فى اللغة العامية ؟؟؟

إن هذا التدين العميق الجذور هو الذى يفسر لنا سر موقفهم المثالى فى تحمل أشد أنواع الاضطهادات وأفظعها فى صلابة لاتهتز على مدى تاريخهم الطويل،تحت حكم الرومان والبيزنطيين مثلاً. فلا عجب أن يبدأ التقويم القبطى بعام الشهداء "Anno Martyrii"، وهى السنة التى تولى فيها الإمبراطور الرومانى دقلديانوس مراسم الحكم فى الإمبراطورية الرومانية (٢٨٤ـــ ٣٠٥م) وهو الذى أمر بتعذيب عشرات الآلاف من أبناء مصر المسيحيين وقتلهم. وجدير بالذكر فى هذا الشأن ان عدد شهداء القبط فى العصر الرومانى كان ولايزال يحتل رأس

القائمة بالنسبة لما قدمته كل أمة من أمم العالم من أرقام الشهداء من أجل العقيدة والإيمان.

إن هذه الظاهرة بعينها يمكن أن تسهم فى كشف الغموض فيما يتعلق بنضالهم الفريد فى محاربة الهرطقات الأولى مثل الأريوسية والنسطورية والأيطوخية وخلافها فى ذلك العالم الذى كان يحمل لهم كل ألوان العداء ويضع فى طريقهم أسوأ المصاعب ووسائل التعذيب والاضطهاد. ذلك هو الموقف الذى عاشه أثناسيوس الرسولى الذى لولاه على حد قول عالمة القبطيات الألمانية الشهيرة برونر تراوت Brunner- Traut "لكان من الممكن أن تنحرف الكنيسة بأكملها عن الإيمان السليم".

الم يكن هذاالتدين هو المنبع الذى مكنهم من إمداد الحضارة المسيحية فى جميع أنحاء العالم بأثمن مافيها من مكونات ومقومات، مثل مدرسة اللاهوت بالإسكندرية وأبائها المشهورين، الم يمكنهم هذا التدين من اختراع الرهبانية والديرية، الم يمكنهم ذلك التفانى من النصر فى صراعهم الفريد ضد هرطقات القرنين الرابع والخامس وفى حماية الإيمان السليم منذ مجمع خلقدونية (٤٥١) ؟؟؟ .... الخ.

الم يمكنهم هذا التدين والتفانى من المحافظة على كنيستهم، كنيسة الساعات الأولى منذ فجر المسيحية حتى يومنا هذا ؟؟؟

فلا عجب أن يستحيل على الباحث فصل التاريخ المصرى عن تاريخ ديانته، تاريخ القبطى عن تاريخ كنيسته، ولا عجب أن يتخذ المؤرخون تاريخ الكنيسة وتسلسل أبائها البطاركة، محور الإطار الزمنى الذى يقيمون من خلاله عرض تاريخ بلادهم فى تلك العصور، مثل ما فعله مانتو مع ملوك مصر القديمة وأسرها الحاكمة فى عرض الترتيب الزمنى لتاريخ الفراعنة. [١]

ولا عجب أن نقرأ فى تقديم الأستاذ الدكتور رفعت السعيد لكتاب تاريخ الكنيسة المصرية لمؤلفيه الدكتور رفيق حبيب والدكتور محمد عفيفى، لا عجب أن نقرأ فى هذه المقدمة "مصر.. الدين"، "مصر المسيحية..." "مصر .. الإسلام" نسيج متداخل يصعب انتزاع أى من أطرافه " فمصر والدين قطعة واحدة. لكنها قطعة متجانسة عبر تفهم وتفاهم كامل". [٢]

ملحوظة أخيرة:

لما كان من أهم أهداف هذا المدخل تزويد الباحث بأكبر قدر ممكن من المصادر فلقد اتبعنا فى دراستنا هذه منهجاً جديداً لتحقيق هذا الهدف. لذلك فقد قررنا إضافة الهوامش بلغاتها

١ ـ قام الكاهن المصرى مانتو Manetho من مدينة Sebennytos، الذى عاش فى عهد الملك بطليموس الأول (٣٠٥ الى ٢٨٥ ق م)، بكتابة تاريخ وطنه باللغة اليونانية. رغم ضياع الأصل فإننا نلم بجزء منه مما اقتبسه أو ذكره الكتاب السالفون مثل Julius Africanus ، Eusebius و Josephus. وقد تضمن تقسيمه الزمنى لتاريخ الفراعنة ثلاثين أسرة حاكمة.

٢ ـ دكتور رفعت السعيد "فى تقديمه ل "تاريخ الكنيسة المصرية" لمؤلفيه رفيق حبيب ومحمد عفيفى، ١٩٩٤ ص٩.

الأصلية لتجنب أخطاء الهجاء والتحريف الناتج عن الترجمة، مما يؤدى إلى ضياع عظيم الجهد للعثور على المراجع اللازمة. اتبع هذا النظام أيضاً فى تسمية البلدان المذكورة فى سيرة الرسل وفى كافة الخرائط اللازمة وذلك لتجنب مثل هذه الأخطاء المذكورة بعاليه.

بطبيعة الحال نحن لا نجرؤ أن ندعى أو نزعم أن هذه الموسوعة الصغيرة قد تتسع أو تفسح مكاناً لائقاً لهذا البناء الشامخ. إن هذه الموسوعة فى واقع الأمر تعد بمثابة نظرة عابرة لبضعة أوجه لهذا التراث الخالد.

وبطبيعة الحال أيضاً لا نستطيع أن ندعى أو نزعم أن هذه الموسوعة قد بلغت الكمال، فما هى سوى عامل مساعد للتعريف بالقليل من أوجه هذا التراث، ولتسهيل البحث والتمحيص، راجين العلماء والباحثين أن يصلحوا الخطأ، وأن يكملوا النقص، فى جهد مشترك وأسلوب بناء، لغاية نبيلة تهدف إلى استقصاء الوقائع فى ظروفها المعاصرة المتباينة، استقصاً منزهاً عن الأهواء ....

كلمة شكر وامتنان .

خواطر غالية تجاه جميع الإخوة الزملاء، رؤساء الأقسام وأعضاء اللجنة التنفيذية، وكتاب كافة المداخل... خواطر غالية تتسم بعميق الشكر وصادق الإعجاب لجهودهم الشامخة رغم المصاعب المتراكمة والإمكانيات المحدودة للغاية .

هذا وأود أن أوكد فى كلمة أخيرة أن رئيس كل قسم هو المسئول عن كافة مداخل قسمه من جميع النواحى ....

الباب الأول

"منذ دخول المسيحية فى مصر حتى مجمع خلقدونيا"
٤٥١م

بقلم

أ.د. سمير فوزى جرجس

زيورخ

كلمة "قبط"

اعتاد المصريون أن يطلقوا على بلدهم اسم "Km.t" أى "التربة السوداء" وهى سمة مميزة لتربة وادى النيل السوداء الخصبة ، فى مقابل الصحراء القاحلة على جانبى الوادى التى اعتادوا أن يسموها "dsr.t" "الأرض الحمراء". فلا عجب أن سمى البحر الذى يجرى على حدود هذه الصحراء "البحر الأحمر" (١).

فالأقباط ، وهم النسل المنحدر مباشرة من الفراعنة، استمروا فى استخدام هذه التسمية لوطنهم. فسموها فى لهجة أهل الصعيد أى أقباط مصر العليا KHME وفى لهجة البحيرى أى أقباط الدلتا "XHMI" (٢).

لكن الإغريق(٣) سموا هذا البلد إيجيتوس Αιγυπτοδ وهى صيغة مشوهة لأحد أسماء عاصمة المملكة القديمة فى عهد الفراعنة (من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة) (٢٦٤٠ـ ٢١٦٠ق.م) التى تعنى "بيت روح بتاح" وهو الإله المشهور فى الأساطير المصرية(٤).

إن اسم "ممفيس" الأصلى يعنى "معبد روح الإله بتاح" كان يتكون من مقاطع ثلاثة، هى :

المقطع الأول:

= "h.t" ومن المرجح أن تكون أصلاً "hv.t"، وتعنى "مكان فسيح" أو "مدينة" لكنها إذا استعملت كمقطع أول فى كلمة مركبة ، فعندئذ تعنى "منزل".

المقطع الثانى:

ويعنى "روح". كان هذا المقطع يستعمل كثيراً كجزء من أسماء الأعلام المركبة. ويقابلها فى القبطية "KI" باللهجة الصعيدية و "XOI" باللهجة البحيرية.

يقابلها فى اليونانية أيضا "KE" و "XOI"

إن الكلمة المركبة من هذين المقطعين السالفى الذكر ḥt.kȝ كانت تستعمل فى الدولة القديمة بمعنى "معبد جنائزى". وفى الأسرة التاسعة عشرة والعشرين من الدولة الحديثة

1- انظر Vycichl, Dictionnaire Etymologique de la Langue Copte. Leuven 1983.p.81; Herman Grapow & Adolf Erman ,Wörterbuch der ägyptischen Sprache , Leipzig 1925-83.

2- Vycichl, p. 81;E.w.Crum, Coptic Dictionary,London 1929,Vol.,p.11

٣ـ قام إسكندر الاكبر بغزو مصر فى عام ٣٣٢ ق . م . وقد استمر حكم اسرة البطالة الإغريقية لمصر حتى ٣١ ق . م . حين انتصر اوكسطس الرومانى (٣١ ق . م حتى ١٤ م .) على انطونيوس وكليوباترا واحتل مصر التى اصبحت منذ ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية .

٤ـ Grapow, Herman, ibid, Vol. iii, Leipzig 1928, p.5; E.A.W. Budge, An Egyptian Hieroglyphic Dictionary , N.Y. 1920, p. 1018.

برجاء الرجوع إلى

Grapow , H. ibid, Vol.i.p.565 & Vol. iii., p. 242 & Vol. V.p. 86-91

(١٥٥٠ ق.م. إلى ١٠٧٥ ق.م. تقريباً)، كانت هذه الكلمة تستعمل بمعنى "معبد" إحدى الآلهات.

المقطع الثالث :

كان هذا المقطع يتكون من اسم  الإله المشهور "بتاح":

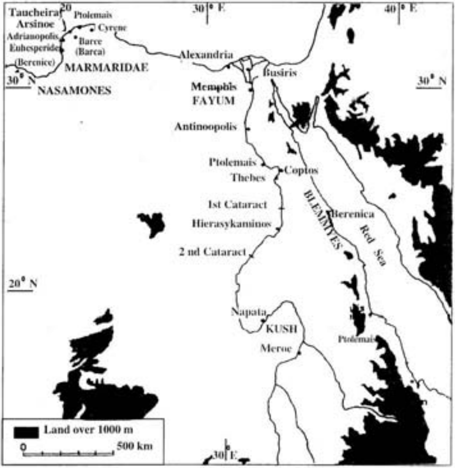
طبقاً لهذا فإن الاسم المركب موضوع البحث كان يعنى حرفياً "منزل روح الإله بتاح"، أى "معبد الإله بتاح".

من هذه الكلمة الإغريقية اشتقت أخيراً الأسماء المختلفة للقطر المصرى نتيجةً للتحريف الذى أحدثه الإغريق، مثل " Egypt, Egypte, Ægypten إلـخ ...وبعد الفتح العربى (٦٣٩ ـ ٦٤١م) استخدم الغزاة جذر الكلمة اليونانية " GYPT" وتنطق "قبط » QIBT " لتسمية الأبناء الأصليين للبلاد أى كل المقيمين عليها والذين تحولوا إلى المسيحية قبل ذلك بقرون.

وبناء عليه صارت "قبط" "Copt" تعنى من الناحية الاشتقاقية "مصر" و"المصريين" واستمر استـخـدام هذا الاسم على انه الاسم الخـاص لسكان هذا البلد الأصليين ، أى المسيـحـيين المصريين الذين جرى العرف على اعتبارهم شرعاًالأبناء المباشرين لقدماء المصريين [1].

---

١ . إميل ماهر ، أسماء مصر والمصريين ، يتضمن هذا البحث مسحا غنياً وموثقاً للافتراضات المتعددة فى هذا الشأن .



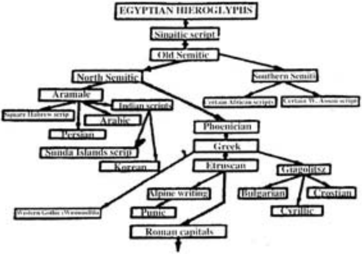
NORTH- EASTERN AFRICA
under Hellenistic & Roman Rule

Courtesy: J.D. Fage
The Cambridge History of Africa
Vol. II

اللغة القبطية

اللغة القبطية التى مازالت تستخدم حتى الآن فى القداس الإلهى وفى العديد من طقوس كنيسة الإسكندرية، هى فى واقع الأمر الطور الرابع والأخير من أطوار كتابة اللغة المصرية القديمة. أما الأطوار السابقه فهى الهيروغليفية والهيراطيقية ثم الديموطيقية . كانت الهيروغليفية بمثابة اللغة المقدسة التى تستعمل قبل كل شىء، للأغراض الدينية فى المعابد والمقابر و فى كتابة البرديات أيضاً، أما الهيراطيقية فهى مبسطة نسبياً وكانت تستخدم عادة فى المكاتبات الرسمية والخدمات الدينية ايضاً، أما الديموطيقية فهى صورة شعبية عامية مبسطة للغاية.

بمجىء الإغريق (غزو الإسكندر لمصر كان فى عام ٣٣٢ق.م.) وتشييد الدولة البطلمية (٣٢٣ ق.م-٣١ق.م.) وانتشار المسيحية فى البلاد أثناء الحكم الرومانى البيزنطى (٣١ق.م-٦٣٩-٦٤٠م)، صارت الديموطيقية عاجزة عن استيعاب المصطلحات الدينية الجديدة بما اشتملت عليه من تعبيرات ومعان كثيرة لم تكن موجودة من قبل. وإزاء اعتناق المصريين للدين الجديد بمصطلحاته وروحانياته الجديدة ، تبنوا الكتابة الإغريقية وأخذوا فى ترجمة نصوصهم وكتاباتهم ونقلها إلى الحروف اليونانية التى أضافوا إليها سبعة من أحرف الديموطيقية للتعبير عن الأصوات المصرية التى لم تكن موجودة فى اليونانية (الأحرف السبعة الأخيرة من حروف الهجاء القبطية) . هنا نرى بجلاء أن تمسك المصريين بديانتهم المسيحية الجديدة قد حدد أولوية تقييمهم للأمور، المحافظة على كتابتهم الأصلية أم التخلى عنها من أجل استيعاب الدين الجديد بروحانيته ومصطلحاته الغزيرة . لقد جاء تحديد الأفضلية فى الاختيار لصالح العقيدة الجديدة، التى صارت تحتل المركز الأول لديهم.



Family tree of the alphabets from Egyptian Hieroglyphs
to Roman Capitals

ولو توسعنا قليلا فى مجال التأصيل والتحقيق وتابعنا بحثنا هذا إلى أغوار أعمق ، فسوف يدهشنا أن نتبين حقيقة هامة، وهى أنه فى قيام المصريين بهذا الاقتباس اللازم (تبنى حروف الهجاء الإغريقية لكتابتهم)، فإنهم يكونون قد استردوا فقط جزءاً يسيراً من الدين الثقافى الضخم الذى يدين به لهم اليونانيون .[1] إن كتابة الفراعنة القديمة كانت من أهم دوافع اختراع حروف الهجا الفينيقية، التى هى بدورها أصل الكتابة اليونانية القديمة. وقد يتضح لنا الأمر بجلاء، بإلقاء نظرة عابرة على شجرة اختراع الكتابات المختلفة وتطورها التى وضعها العلامة الكبير بروفسر Hering.

ومن ثم فإن القبطية ليست فى واقع الأمر سوى الطور الأخير من أطوار كتابة اللغة المصرية القديمة التى كتبت أخيراً بحروف اللغة اليونانية بعد أن أضيفت إليها الأحرف السبعة الأخيرة من الديموطيقية. علاوة على ذلك ، فان اللغة القبطية إنما تمثل اللهجات المصرية القديمة أيضاً، مثل البحيرى (مصر السفلى)، الصعيدى (مصر العليا)، الفيومى ، ثم لهجة إخميم واللهجة البشمرية ...إلخ.[2]

استمرت القبطية حية وظلت مستعملة فى المكاتبات الرسمية بعد الفتح العربى (٦٣٩-٦٤١م) وكانت أول الضربات التى وجهت إليها هى المرسوم الذى أصدره الوالى الأموى عبد الله بن عبد الملك فى عام ٧٠٦ بإحلال العربية محل القبطية فى المكاتبات الرسمية فى الدولة . وبالرغم من ذلك فقد استمر استعمال اللغة القبطية ليس فقط فى الطقوس الدينية بل أيضاً كلغة الكلام بين أفراد الشعب حتى القرن الثالث عشر الميلادى. وظهر عدد من العلماء والباحثين الأقباط الذين عُرفوا بإتقانهم للغتين خصوصاً فى عصر الدولة الفاطمية (٩٦٩-١١٦١م) والأيوبية (١١٦١-١٢٤٩م)[3] مثل أولاد العسال[4]، وأبى البركات بن كبر[5] الذين برهنوا بكتاباتهم على أن اللغة القبطية كانت حية ومنتشرة انتشاراً واسعاً فى عصرهم . لقد أخذت القبطية فى التقهقر بدءاً من عصر المماليك، ورغم استثناءات متقطعة قُدر لها البقاء حتى عصور متأخرة، كما يشهد بذلك الرحالة الألمانى فانسلب Vansleb [6] الذى زار مصر فى عام ١٦٦٤ . وفى العقود الأخيرة

١ - للتأصيل ومزيد من التفاصيل : Samir Fawzy Girgis , The Egyptians and Western Civilization. Zurich & Vienna 1987 .

٢- للمزيد من التفاصيل الرجاء الرجوع لقسم اللغة القبطية تحت إشراف أ. د. جودت جبرة .

٣- G.Graf.Geschichte der christlichen arabischen Literatur.5vols.Vatican City 1944-53, especially Vol. II, pp. 294-475.

يذكر جراف عدداً من الكتاب فى المجالات المختلفة مثل المفسرين والمؤرخين واللغويين إلخ...

٤ - هؤلاء هم الصافى أبو الفدا ، والأسعد أبو الفرج هبة الله ، والمؤتمن أبو إسحق إبراهيم . ولابد من اعتبارهم المؤسسين البارزين لدراسات اللغة القبطية . وقد توفوا جميعاً قبل عام ١٢٦٠م. راجع الداخل الخاصة إلى الموسوعة القبطية ص ٣٠٩ ، ٣١١.

٥ - انظر أيضا جراف ، الجزء الثانى ، ص ٣٩٨، ٤٠٣ ، ٤٠٧ .

٤ - انظر الموسوعه القبطيه ص ٠ ٢ ص ٢١ ، ١٢٦٧، ٦٤ ، ١٤٧٢ ، ٣ .

٦ - معروف أيضا باسم G.M.Wansleben وقد قام H.E.G.Paulus بنشر مخطوط فانسليب المعنون "Ungedruckte Beschreibung von Aegypten im Jahre 1664" وذلك فى مجموعة . Sammlung der merkwürdigsten Reisen in dem Orient. Gena1792-1803, Vol.III,pp. 1-122.

من الواضح أن فانسليب قد عاد إلى مصر وكتب مؤلفاً جديداً ترجم إلى لغات عدة ، وعنوان هذا المؤلف الجديد بالانجليزية هو : The Present State of Egypt, or, A New Relation of a Late Voyage into that Kingdom, performed in the years 1672 and 1673, London 1678.

فانسليب قام أيضاً بكتابة تاريخ الأقباط تحت العنوان الآتى : Histoire de l'Église d'Alexandrie Fondée par S.Marc, que nous appelons celle des Gacobites-Coptes, Ecrites au Caire même en 1672 et 1673. Paris 1677.

. فإن عملية إحياء اللغة القبطية، بفضل جهود مدارس الأحد فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أصبحت تفوق كل التوقعات المتفائل.[1]

علاوة على ذلك، فجدير بالذكر أن القبطية قد اثرت تأثيراً قوياً فى اللغة العربية، ليس فقط بإثراء معجم المفردات اللغوية،[2] بل وأيضا فى قواعد اللغة العامية.

هروب العائلة المقدسة[3]

يرتبط الأقباط ارتباطاروحياً عميقا بالمسيحية، وهذا الارتباط العميق الجذور يعود بنا إلى الوراء حتى هروب العائلة المقدسة إلى مصر وتحقيق نبوءة العهد القديم: "من مصر دعوت ابنى"(متى٢:١٥). فلا عجب أن بعض الكنائس القديمة وأشهر المزارات الدينية والعديد من الأعياد الشعبية المحبوبة تحتفل بذكرى هذا الحدث العظيم حتى الآن.

استغرقت مدة إقامة العائلة المقدسة فى مصر ثلاث سنوات ونصف سنة، وتبعاً للتقليد والمراجع القبطية، فإن خط سير العائلة المقدسة بدا كما هو موضح على الخريطة التالية:

كانت المحطات الرئيسية للرحلة هى Rhinocolura (العريش الآن)، فمدينة بلوزيوم (الفرما الآن) وهى مشتقة من الكلمة القبطية (فيرومى)، ثم بوباستيس (تل بسطة الآن)، عاصمة الأسرة الثانيه والعشرين فى العصر الفرعونى، وهى التى زارها هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد، ثم عبرت العائلة المقدسة فرع دمياط إلى بلدة سخا، ومن هنا عبرت فرع رشيد إلى وادى النطرون، فإلى قرية المطرية وهى ضاحية تقع الى الشرق من القاهرة ، ثم حارة زويلة وفيها يوجد دير من أقدم أديرة الراهبات التابعة للكنيسة القبطية الارثوذكسية حتى الآن، ثم إلى بابليون (مصر القديمة) حيث مكثت العائلة فى الكهف الذى أعيد التعرف عليه والذى اقيمت عليه كنيسة القديس سرجيوس أو أبى سرجة فى القرن الرابع الميلادى، ومن عند المعادى الحالية، وهى إلى الجنوب من مصر القديمة استقلت العائلة المقدسة قاربا إلى صعيد مصر مارةً بالبهنسا ثم جبل الطير (مقابل مدينة سمالوط) ومنها إلى الأشمونين (هيرومويوليس البطلمية)، ثم ديروط الشريف ، فالقوصية حتى جبل قسقام حيث شيد فيما بعد دير سيدتنا العذراء مريم فوق أول مذبح حجرى فى المسيحية ويسمى"دير المحرق" ووفقا للمصادر المحلية فإن العائلة المقدسة قد اقامت اكثر من ستة أشهر فى هذا المكان.

---

١ . لقد قام معهد الدراسات القبطية بمبناه بالأنبا رويس بالعباسية والمسئولون بالكنيسة ببذل جهود بالغة فى هذا المجال .

٢ . بخصوص تأثير اللغة القبطية فى لغة الحديث العربية فى مصر ، انظر جورج صبحى ، كلمات عامية من أصول يونانية وقبطية فى اللغة العربية المنطوقة فى مصر ، منشورات جمعية الآثار القبطية ، القاهرة ١٩٥٩ ، انظر أيضاً أيوب فرج إبراهيم ، التحليل العلمى للغة العوام ، القاهرة ١٩٧٨ .

٣ . عن هروب العائلة المقدسة الى مصر ، الرجاء الرجوع الى : الأنبا إغريغوريوس فى صحيفة الجمهوريه ، ٨ يونيه ١٩٩٢ :
Atiya , A.S. "A History of Eastern Christianity", London 1968 ;
Budge , E. A. W., Legends of Our Lady Mary the Perpetual Virgin and Her Mother Hanna , London 1922 ; Coptic Encyclopedia Vol . IV, pp. 1117-8; Meinardus, O.E.A. , "In the Steps of the Holy Family from Bethlehem to Upper Egypt", Cairo 1963.S.F.Girgis , "A Short Introduction to the Coptic Orthodox Church of Alexandria +. Zürich and Vienna, 1987; S.F.Girgis,"Aegypten" ,Walter Verlag Olten & Freiburg i.B., 3rd ed.1988, p.186-7, map on page 183;

سمير وليم فريد ، الهروب إلى مصر ، القاهرة ١٩٦٥ ، الطبعة الثانية بواسطة وليم فريد باسيلى ، القاهرة ١٩٦٨ .

عن تحقيق المواقع الجغرافية راجع :
Aélineau, E., "La Géographie de l'Egypte à l'Époque Copte", Paris 1893;

عن تتابع طريق العائلة المقدسة فى مصر : انظر أيضاً :
Girgis Daoud, "The Holy Family in Egypt", Cairo 1992.



100 km

Egypt in the Christian Era

مصر فى العصر المسيحى

——— Route of the flight

——— طريق الهروب

♁ Deserted monasteries

♁ أديرة الصحراء

● Present monasteries

● الأديرة الموجودة حاليا

نقلاً عن كتاب اد. سمير فوزى جرجس Aegypten

* صفحة طبعة أولى ٨٤

طبعة ثالثة ٨٧

غرس المسيحية فى مصر

البداية

يرجع دخول المسيحية إلى مصر إلى الساعات الأولى من تاريخ هذا الدين، فها نحن نقرأ فى أعمال الرسل أن بعض علماء اليهود بالإسكندرية قد اعتنقوا التعاليم الجديدة:

"ثم أقبل إلى افسس يهودى اسمه ابلوس إسكندرى الجنس، رجل فصيح مقتدر فى الكتب. كان هذا خبيراً فى طريق الرب وكان وهو حار بالروح يتكلم ويعلم بتدقيق ما يختص بالرب عارفاً معمودية يوحنا فقط . وابتدا هذا يجاهر فى المجمع. فلما سمعه اكيلا وبركسيلا اخذاه إليهما وشرحا له طريق الرب باكثر تدقيق. وإذ كان يريد أن يجتاز إلى آخائية كتب الإخوة إلى التلاميذ يحضونهم أن يقبلوه ..." (أعمال ١٨:٢٤-٢٧)

لكن غرس المسيحية الغائر فى مصر وتأسيس كنيسة الإسكندرية ، يرجع أولاً إلى القديس مرقس البشير ، الذى كتب أقدم الأناجيل الأربعة بالوحى الإلهى، وهو أحد السبعين رسولا الذين اختارهم الرب يسوع.

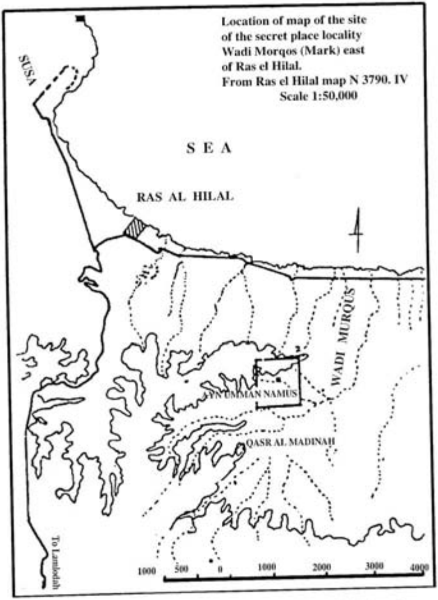
ملخص حياة القديس مار مرقس الرسول

ولد القديس مرقس لأبوين من أثرياء اليهود هما أريستوبولس ومارى ، فى مدينة "Cyrene" قورينة، وهى مدينة ليبية تقع بالقرب من حدود مصر الغربية وكانت جزءاً من "البنتابوليس" (أى المدن الخمس الغربية)، وكانت خاضعة للبطالمة طيلة سنوات حكمهم لمصر، وعلى وجه التحديد منذ ان تدخل بطليموس الأول فى النزاع الداخلى الذى كان مشتعلاً بين هذه المدن (٣٢٢ ق.م)، واستمر هذا الحال حتى ضمها الرومان إلى إمبراطورياتهم فى عام ٧٤ ق.م. [١]



Pentapolis

١ . دراسة تفصيلية جديدة المنهج :
داود حلاق ، مرقس الإنجيلى ، فى "أوشاز الأسلاف"، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى ، الهيئة العامة للسياحة ، ١٩٩٣ . وفقا لرأى الباحث ونتائج دراسته :
• تحديد مكان ميلاد القديس مار مرقس الرسول ص ٢٢،٣٠
وادى مرقس ص ١٢٧
وادى الإنجيل ص ١٦٢



داود حلاق: "مرقس الإنجيلي".

وبعد عدة عقود، ضمت مصر إلى الإمبراطورية الرومانية بعد هزيمة كليوباترا[١] ، آخر حكام البطالمة (٣١-٣٢٢ ق.م) مع أنطونيوس فى معركة أكتيوم البحرية بجوار الساحل الغربى لليونان (٣١ ق.م). وقد انتصر فى هذه المعركة جايوس أوكتافيوس، ابن يوليوس قيصر بالتبنى ، الذى خلع عليه مجلس الشيوخ فى روما (Senate) فيما بعد لقب اغسطس أى (المعظم)، وهو الذى بدأ بعهده نظام الحكم الإمبراطورى فى الدولة الرومانية المترامية الأطراف وضم إليها مصر لتكون بمثابة ولاية قيصرية أى تحت حكمه مباشرة.

فى هذا العصر ولد جون مارك (=مرقس)، أى فى وقت ميلاد السيد المسيح تقريباً. كان اسمه الأصلى هو جون، وهو اسم يهودى، أما اسم الشهرة فهو مارك، الذى حل محل الاسم العبرى مع مرور الأيام، وذلك كما حل اسم بطرس محل اسم سيمون[٢].

وبعد مولده بقليل هاجرت الأسرة إلى فلسطين وأقامت فى قانا الجليل بالقرب من أورشليم. وبعد أن فقد مرقس أباه فى طفولته ، قام سيمون بطرس، الذى تزوج إستترابولا، إحدى قريبات والد مرقس اريستوبولس، بالاشتراك مع أمه وأخيها برنابا[٣] فى تربيته. وقد يفسر لنا هذا سر الصداقة الحميمة بين مرقس وبرنابا، وكذلك بين مرقس وبطرس الذى تعود أن يدعوه ابنه .[٤]

اصبح القديس مرقس منذ البداية خادماً مخلصاً للديانة الجديدة. فقد خدم فى عرس قانا الجليل،

---

١ . استمر استعمار الإغريق لمنطقة برقة Cyrenaica من عام ٦٣٩ ق.م. إلى عام ٣٣٢ ق.م. وتضمنت هذه الحقبه فترتين هما :
+ عصر ملكيه البتيادى Battiadi Monarchy التى استمرت حتى ٤٣٩ ق.م.
+ العصر الجمهورى الذى دام حتى الغزو البطلمى فى سنة ٣٢٢ ق.م. فيما بعد اشير إلى منطقة Cyranaica باسم البنتابوليس ، اى المدن الخمس . وهذه المدن الخمس هى: Cyrene, Apollonia, Ptolemais, Taucheira and Euhesperides. ٢. المزيد من التفاصيل عن القديس مرقس الرسول فى :

+ السنكسار القبطى ، ٣٠ برمودة ، ترجمة إلى الالمانية روبرت وليلى سوتر ، مطبعة دير الانبا انطونيوس ، Waldsolms-Kröffelbach، المانيا .

+ ساويرس ابن المقفع ، تاريخ الآباء البطاركة ، C.F.Seybold (Arabic), in Historia Patriarcharum Alexandrinorum in Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium. Scriptores Arabici. Seres Tertia, T.IX, Beirut & Paris 1907-15;

النص العربى مع ترجمة إنجليزية بداها B.T.Evetts in History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria, "in Patrologia. Oriental's, 2 vols in 4 Facs. Paris 1907-15;
واصل هذا العمل Yassa Abd El-Messih , O.E.H. Burmester & Atiya.A.s. in the Publications of the Society of Coptic Archeology , 3vols,Cairo 1943-59.

+ كامل صالح نخلة ، تاريخ القديس مار مرقس البشير ، القاهرة ١٩٥٢ .

+ القس منسى يوحنا ، تاريخ الكنيسة القبطية ، القاهرة ١٩٨٣ .

+ غبطة الانبا شنودة الثالث ، مار مرقس الرسول ، نشر بالالمانية فى St. Pachom's Publications, Zurich &Vienna 1992.
+ Paul Cheneau, Les Saintes d'Egypte, 2t, Jerusalem, 1923;
Groves, C.P., The Planting of Christianity in Africa, 4 vols, Vol. I , London 1948-58 ;
J. J. L. Burgès, Homélie sur Saint Marc , Texte arabe et traduction et notes . Paris 1952 ;
Bishop Gregorius , Bishop Samuel & others (Hakim Amin Abd El-Sayed , Zaher Riad , Maurice Tawadros , Morcus Daoud, Mary Kamil Daoud , Mary F. Massoud , Naz . y Nathan & RaghebMoftah) in "Saint Mark and the Coptic Church", Coptic Orthodox Patriarchate 1968.

٣. الاسم الأصلى هو جوزيف أو يوسف ، وقد أخذ فيما بعد اللقب الارامى "بارنابا" من الرسل ومعناه ابن الشجاعة او ابن الوعظ" (اع٤:٣٦)، وربما بسبب موهبته الطاقية (الكارزمية) فى النصح والارشاد (اع ١١:٢٣، رومية ١٢:٨) اكلمنضس الاسكندرى ويوسابيوس يحسبونه ضمن ال٧٢ تلميذاً الذين ذكروا فى لوقا ١٠:١ . تكرر ذكر القديس برنابا على انه ابن اخ بولس ، وتبعاً لسفر الاعمال فإنه ، اخو مارى أم مرقس. [اع ١٥:٣٧-٣٨] انظر أيضاً ص ١٦

٤ . بطرس الأولى : ٥ ، ١٣.

وشهد معجزة تحويل الماء إلى خمر[١]. وكان بيته مركزا للتجمع المسيحي، بل كان بالفعل أول كنيسة في العالم إذ احتفل فيه السيد المسيح بعيد الفصح[٢] وبعد قيامة المسيح وصعوده صار هذا البيت مكانا لاجتماع التلاميذ، حيث ظهر الرب لهم[٣]. وفيه حل الروح القدس أيضاً عليهم، [٤] وهنا صلوا معاً من أجل القديس بطرس أثناء سجنه [٥]. ومن هذه البقعة انتشر التلاميذ بعد عيد العنصرة في جميع بلاد المسكونة للتبشير بكلمة الله لكل البشر حسب قول السيد المسيح.

قام القديس مرقس بنشاط تبشيري هائل كما هو موضح في سيرته المعروضة على الصفحات التالية. فقد رافق القديس بولس والقديس برنابا إلى أنطاكية [٦]. ثم مضى إلى برجه Perga بالقرب من إهسانيا Ihsaniya في تركيا، حيث قرر القديس مرقس أن يعود إلى أورشليم [٧]. وكما يبدو من سيرته فإنه رافق برنابا فيما بعد إلى قبرص، وعمل مع القديس بطرس والقديس بولس في إيطاليا[٨]، وقام بأنشطة تبشيرية هائلة في المدن الخمس الغربية (البنتابوليس) وفي الإسكندرية.

ومما هو جدير بالذكر هنا، أنه على الرغم من الخلاف الذي وقع بين بولس وبرنابا على أثر عودة مرقس من برجه إلى أورشليم [٩]، فإن القديس بولس أثنى على جهود القديس مرقس المخلصة في الخدمة ثناءً كبيراً ودعاه (رفيقه في العمل) [١٠] الذي اعتمد عليه ووضع فيه ثقته أثناء غيابه في السجن.[١١] هنا نرى مرقس كرفيق للقديس بولس في روما، وهو يحيّي جماعة المسيحين في كولوسي (بالقرب من دييبزلي Doebizli [١٢]) في تركيا وفي أثناء سجن القديس بولس الأخير في روما كتب القديس بولس إلى تيموثاوس يطلب حضور القديس مرقس ومعونته قائلاً (لأنه مفيد في خدمتي).[١٣]



صورة الصليب القبطي وهو يمثل وحدة الثالوث القدس على جوانبه الاربعة ، بالإضافة إلى ذلك فهو يمثل عدد الاثني عشر رسولا والسيد المسيح في وسطهم كشمس البر

١ - يوحنا ٢: ١-١١
٢ - مرقس ١٤ :١٣، ١٤ . شمس الرياسة ابن كبر ، مصباح الظلمة ، ٤٠، ٤٦ .
٣ - يوحنا ٢٠ : ١٩
٤ - أعمال ٨ :١٤ & ١١ :٢٢
٥ - أعمال ١٢ :١٢
٦ - أعمال ١٢ :٢٥ & ١٣ :٥
٧ - أعمال ١٣ :١٣
٨ - تبعا للتقليد، فمن المفروض أن القديس مار مرقس قد بشر في منطقة الأدرياتيك، فلا عجب أن يعتبر مار مرقس قديس مدينة البندقية وشفيعها التي أرسلت إليها رفاته في عام ٨٢٨م .
تفاصيل نقل رفات القديس وفقا لأقدم مخطوطة لاتينية تمت ترجمتها إلى الألمانية وجاري ترجمتها إلى العربية بواسطة كاتب هذا المدخل وهي في طور الإعداد للنشر . تتضمن هذه الدراسة أيضا مدى التأثير العميق الجذور لكنيسة الإسكندرية في هذا الإقليم وخاصة طقوس Aquileia كماتبين ذلك من بيان مجمع Aquileia في خطابه الى الإمبراطور تيودوروس في عام ٣٨١ .
٩ - أعمال ١٥ :٣٦، ٣٨
١٠- فليمون ١٤، انظر ايضاً تيموثاوس الثانية ٤ :١١ ، كولوسي ٤ :١٠
١١- فليمون ٢٤
١٢- فليمون ٢٤ ،٦ ، كولوسي ٤ :١٠
١٣ - تيموثاوس الثانية ٤ :١٠

كرونولوجيا القديس مار مرقس الرسول

الترتيب الزمنى والجغرافى لسيرة القديس مار مرقس الرسول

متى جاء القديس مار مرقس الرسول إلى الإسكندرية لأول مرة ؟

تختلف التواريخ فى هذه النقطة اختلافا كبيراً. يؤكد يوسيفوس Josefus Flavius أن دخوله المدينة قد حدث فى عام ٤٣م [١] تحقيق روفر وليم، فى حين يعتقد ساويرس بن المقفع Severus Ben El-Moqaffa بأن هذا الحدث قد كان بعد صعود السيد المسيح بخمسة عشر عاما أى فى سنة ٤٨م [٢] هذا بينما ذكر ماكسيموس مظلوم Maximus Maslum بطريرك الروم الكاثوليك أن هذا الأمر قد وقع فى عام ٤٩م [٣] ووفقا لسليم سليمان وفرنسيس العتر ومنسى يوحنا [٤] فان القديس مار مرقس قد جاء إلى الإسكندرية فى سنة ٥٥م بينما يزعم بن كبر [٥] أن دخوله الإسكندرية كان فى عام ٥٨م، أما باول شينو P.Cheneau [٦] فإنه يفترض وقوع هذا الحدث فى سنة ٦٠م، فى حين يذكر السنكسار القبطى [٧] أن ذلك الحدث كان فى سنة ٦١م. أما غبطة البابا شنودة الثالث، [٨] وكامل صالح نخلة، [٩] وعزيز سوريال عطية، [١٠] وايريس حبيب المصرى [١١] وغيرهم فقد عرضوا هذه التواريخ وناقشوا بعضها من ناحية الأسباب التى تبرر هذا التاريخ أو ذاك. دون تفصيل قاطع لأيها.

ونحن نعتقد أن هذه التحديدات والافتراضات المتضاربة يمكن توضيحها والكشف عن صحتها من خلال عملية فحص وترتيب دقيق لوقائع حياة القديس مار مرقس الرسول وبمقارنتها بوقائع سيرة القديس بولس والقديس بطرس، إلى جانب ذكر المعلومات التى تشير إليه فى المصادر الأصلية القديمة ودراستها بدقه وتمحيص.

---

١ ـ Josefus Flavius تاريخ اليهود، ترجمة إلى الألمانية زيورخ ١٧٣٦م، ترجمة إنجليزية ، ١٠ أجزاء، لندن ١٩٥٨، ١٩٨١ .
٢ ـ ساويرس بن المقفع ، تاريخ البطاركة ، Fasc 144 .
٣ ـ مكسيموس مظلوم، كنز العباد الثمين فى أخبار القديسين، النص العربى ، بيروت ١٨٦٨ .
٤ ـ منسى يوحنا، تاريخ الكنيسة القبطية، القاهرة ١٩٨٣ ص ١٣: أنظر أيضاً فرنسيس العتر، القديس مرقس، ١٩٥١ .
٥ ـ ابن كبر ، أبو البركات شمس الرياسة ابن كبر ، مصباح الظلمات فى أداء الخدمات.
Le calendrier d'Abou-L-Barakat, Arabe , traduit par EugèneTisserant, Turnhout, Belgique 1974.
٦ ـ Paul Cheneau, Les Saintes d'Egypte, Jerusalem 1923, T.I,p.497
٧ ـ السنكسار القبطى، ٣٠ برمودة، ترجم إلى الألمانيه بواسطة روبرت وايلى سوتر ، طبع بدير الأنبا انطونيوس فى Kröffelbach، ألمانيا .
٨ ـ البابا شنودة الثالث ، مار مرقس، ترجم إلى الألمانيه ونشر بواسطة St.Pachome's Publications ، زيورخ وفيينا ١٩٩٢، ص ٤٨ .
٩ ـ كامل صالح نخله ، تاريخ القديس مارمرقس البشير ، القاهره ١٩٥٢، ص ٥٧،٨
١١ ـ Atiya, A.S. ,"A History of Eastern Christianity", London 1968, p. 26-7
Iris Habib El-Masry, "The Story of the Copts, Middle East Council of Churches 1968, p. 13

ملخص لسيرة القديس بولس والتى تشير الى القديس مرقس فى سيرته ورسائله

إن سفر الأعمال الذى كتبه القديس لوقا[1] عن حياة الرسل، وكذلك رسائل القديس بولس هى التقارير الوحيدة الأصلية الموثوق بها بالنسبة لحياة القديس بولس. وطبقا لما يقوله الباحثون المحافظون فإن الرسائل الأربع عشرة كلها تنسب إليه، ما عدا رسالته إلى العبرانيين، التى اعتبرها كثير من المفسرين من إنتاج احد تلاميذ القديس بولس. والعديد من النقاد يؤكدون مصداقية ثمانى رسائل فقط وهى الرسالة إلى أهل رومية ، ورسالته الأولى والثانية إلى أهل كورنثوس، والرسالة إلى فيلبى ، وكولوسى ، وفيلمون . أما باقى الرسائل مثل الرسالة الثانية إلى تسالونيكى، والرسالة إلى افسس، والرسالة الأولى والثانية إلى تيموثاوس والرسالة إلى تيطس [2] فلا ينسبونها إليه باكملها ولا تتضمن سوى عناصر قليلة من فكر بولس الرسول حسب رأيهم. وجدير بالذكر فى هذا الشأن ان مجادلاتهم فيما يختص باختلاف الأسلوب وتطور الفكر ليست مقنعه على الإطلاق، إذ يمكن نسبتها إلى عدد من معاونيه وإلى أطوار مختلفة فى نشاط بولس التبشيرى المتعدد الأوجه.

من التواريخ الثابتة التى يمكن لها ان تساهم فى الترتيب الزمنى لاحداث هذه السيرة نود ان نذكر ما يلى:

أولاً:أن ولاية جونيوس أنيوس جاليو Gunius Annaeus Gallio فى أخايا كانت بين ربيع ٥٢م وربيع ٥٣م.[3]

ثانياً: أن تولية فيستوس Festus إدارة الشئون المالية فى اليهودية Judea كانت فى عام ٥٩-٦٠م[4]. وهذا يعنى ان ذلك كان أثناء سجن القديس بولس لمدة عامين فى مدينة قيصرية (أعمال ٢٣ : ٢٥).

ثالثاً: تم القبض على بولس فى أورشليم فى عيد الخمسين سنة ٥٨م وقضى عامين سجيناً فى قيصرية وفى نهايتها تظلم إلى الإمبراطور باعتباره مواطناً رومانياً ووصل إلى روما مقيداً بالسلاسل فى ربيع ٦٠م.

تتكون خدمة القديس بولس التبشيرية من مراحل خمس:

سجلت المراحل الأربع الأولى منها فى الكتاب المقدس، فى حين تستند المرحلة الخامسة إلى الرسائل الرعوية والتقليد الموروث . هذه المراحل الخمس هى:

١ - السنوات الأولي من تحوله إلى المسيحية فى عام ٣٣ - ٣٤ حتى الرحلة التبشيرية الأولى

1 - See : F. Schröder , Entry about Saint Paul in New Catholic Encyclopedia , Vol. IX, N. Y.see also : Robert Jewett in the Encyclopedia of Religion. Vol. XI, N .Y. 1987 . Both entries include very large and reliable bibliographies.

2 - Schröder , ibid, Vol. IX, p. 2-3

٣ - أعمال ١٨ : ١٢ - ١٧

٤ - أعمال ٢٥ : ١ ، انظر ايضاً Wikenhauser, Intrduction to the New Testament , pp. 360 -61

فى عام ٤٧ م.

٢ ـ أول رحلة تبشيرية من عام ٤٧ ـ ٤٩م.

٣ ـ الرحلة التبشيرية الثانية من عام ٥٠ ـ٥٢ م.

٤ ـ الرحله التبشيرية الثالثة من ٥٣ ـ ٥٨ م، ثم زيارته الأخيرة لأورشليم حيث تم القبض عليه فى عيد العنصرة عام ٥٨ م . وبعد قضاء عامين فى السجن بقيصرية (٥٨ ـ ٦٠م)، استانف القضية عند الإمبراطور فى روما باعتباره مواطناً رومانياً، ووصل إلى هناك فى شتاء ٦٠ ـ ٦١م وينتهى سفر الأعمال بعبارة تقول إن القديس بولس قد ظل اسيراً فى روما عامين آخرين (٦١ ـ ٦٣).

٥ ـ السنوات الاخيرة بين ٦٣ ـ ٦٧م (٦٤؟) فهى تشمل رحلته التبشيرية إلى إسبانيا وإلى الشرق وكذلك فترة سجنه الثانية فى روما.

اولا : القديس بولس: من تحوله الإعجازى إلى المسيحية حتى أول رحلاته التبشيرية (٣٤ ـ ٤٧)

"رسول الأمم" يهودى من عشيرة بنيامين، ولد فى السنوات الأولى للمسيحية بمدينة طرسوس وهو يحمل الجنسية الرومانية. تشير الشواهد فى رسالة فيلبى (٣:٣ـ٤) و(غلاطية ١:١٣ ـ٢٤) إلى انحداره من اسرة يهودية تعيش فى الشتات Diaspora وتربى لكى يصير فريسياً (اعمال ٥:٢٦) وتلقى جزءاً من تعليمه على يد الحاخام المشهور غمالائيل (اعمال ٢٢ : ٣) الذى كان بولس يرفض تسامحه. إن تفوق بولس فى اليونانية وتمكنه من فن الخطابة اليونانية والرومانية يدلان بوضوح على مركز عائلته المتميز الذى مكنها من أن توفر له تعليماً كلاسيكياً وتعليماً عبرياً. إن حصوله على صفة المواطنة الرومانية يدل ايضاً على أن عائلته قد اسدت للإمبراطورية خدمات جليلة ، ومكافأة لهم حصلوا على هذا الامتياز العظيم. وقد مكنته مهنته فى صناعة الخيام من كسب عيشه . وكان حماسه للشريعة قد جعله خصماً عنيداً للمسيحية ومن ثم نراه يساعد فى استشهاد القديس اسطفانوس إذ قام بحراسة ملابس الذين قاموا برجمه (اع٧:٥٨).

أما قصة تحوله فى ٣٣ـ٣٤م كما رواها سفر الأعمال فى الأصحاحات (٩:١ـ١٩، ٢٢:٥ ـ ١٦ ، ٢٦: ١٢ ـ ١٨) وكما ذكرت فى إشارتين موجزتين من رسائله (١كو ١٥:٨، وغلا ١:١٥ـ١٧)، فإنها لا تختلف إلا فى التفاصيل وليس فى المضمون إذ سرعان ما اعتمد بعد ذلك وعاد واسترد بصره الإعجازى على يد حنانيا (أعمال ٩:١٧).

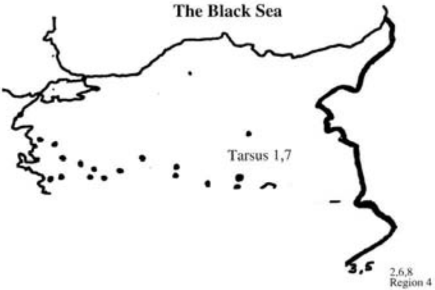
منذ معجزة تحوله الى المسيحية ومعجزة دمشق "تحول حماس بولس للشريعة اليهودية إلى نقيضه، والزم نفسه بإدخال الأمم إلى جماعة السيد المسيح دون فرض عبء الشريعة عليهم" [(١)] فلا عجب أن أصبح رجل الاضطهادات سابقاً، هدفاً للاضطهاد والانتقام من جهة اليهود.

بعد أن تم تعميده مباشرةً تقاعد القديس بولس فى إقليم نباتا وهو إلى الجنوب الشرقى من دمشق لمدة ثلاثة أعوام (غلا ١ـ ١٧ ولم تذكر فى الأعمال) ، ثم ابتدا فور عودته الى دمشق يعلم "أن المسيح هو ابن الله"(أعمال ٩:٢٠). لكن عندما أعد اليهود مؤامرة لقتله، اضطر للهرب بأن

١. Robert Gewett, "The Encyclopedia of Religion", Vol. XL, p.212.

أنزلوه من فوق حوائط المدينة داخل سلة كبيرة (أعمال ٩:٢٣ ـ٢٥، كو الثانية ١١: ٣٢ـ٣٣).

ذهب بولس الرسول بعد ذلك الى أورشليم وكان ذلك بعد ثلاثة أعوام من تحوله إلى المسيحية سنة ٣٧م تقريباً. هنا عرّفه برنابا على القديس بطرس والرسل الآخرين. وبعد إقامة قصيرة لمدة اسبوعين قضاها فى تعليم كلمة الرب لليونانين فى أورشليم، اضطر للهرب من جديد لينجو بنفسه من مؤامرة يهودية جديدة، ثم سافر إلى مسقط رأسه فى طرسوس (غلا ١:٢١ـ٢٤ وأعمال ٩:٢٦ـ٣٠) ولم يُعْرَف أى شىء عن نشاطه فى السنوات القليلة التى تلت ذلك إلى أن أحضره برنابا من طرسوس لكى يساعد فى خدمة جماعة المسيحيين النامية المزدهرة فى مدينة أنطاكية وكان ذلك حوالى عام ٤٤م . وتكللت خدمة الرسولين ببركة ونجاح عظيم (أعمال ١١:٢٥ ـ ٢٦) . ثم قامت جماعة المؤمنين بإيفاد الرسولين ومعهما اعانة المجاعة الى أورشليم لمساعدة المتضررين منها .



القديس بولس : من التحول حتى الرحلة التبشيرية الأولى (٣٤ ـ٤٧م)

١ ـ طرسوس (مسقط رأسه) .
٢ ـ أورشليم ، القديس اسطفانوس .
٣ ـ دمشق (تحوله ٣٤) .
٤ ـ إقليم نباتا لمدة ثلاث سنوات .
٥ ـ دمشق (مؤامرة يهودية) .
٦ ـ أورشليم (برنابا يقدم بولس للرسل الآخرين ويعرفهم ببعض) .
٧ ـ هروبه إلى طرسوس نتيجة لمؤامرة يهودية ثانية فى أورشليم .
٨ ـ أحضره برنابا إلى انطاكية ليعاونه فى الخدمة .
٩ ـ ٤٧ م Ca . جماعة المسيحيين فى انطاكية ترسل برنابا وبولس "بمعونة المجاعة إلى أورشليم" .

ثانيا : الرحلة التبشيرية الأولى (٤٧ - ٤٩ م)

وعند عودة برنابا وبولس من أورشليم أخذا معهما مرقس (أع ١٢: ٢٥)، وتبعاً لإرشاد الروح القدس قام "الأنبياء والمعلمون" فى كنيسة انطاكية بفرز برنابا وبولس للتبشير خارج حدود مجتمعهم (أع ١٣: ١-٣) وخط هذه الرحلة التبشيرية مبين بالرسم فى الخريطة التالية (أع ١٣: ١ - ١٤، ٢٧).

وكانت المحطات الرئيسية على الطريق هى كالآتى: سلوكيا، وسلاميس (قبرص) ثم بافوس (قبرص) ومنها إلى اطاليا Attalia (واسيا الصغرى) ثم برجة حيث تركهما القديس مرقس، نتيجة لبعض الخلافات وعاد إلى أورشليم (أع ١٣ - ١٣). وحينئذ مضى بولس وبرنابا لتبشير الإقليم الجنوبى من غلاطية الرومانية فى ايقونية، ولسترة ثم دربة. وفى لسترة شفى القديس بولس أحد المقعدين حتى لقد اعتبره الوثنيون هو وبرنابا ضمن الآلهة (أع ١٤: ١١). وبعد ذلك قامت الجموع بتحريض من اليهود برجم بولس وجروه خارج المدينة، ظانين أنه مات، وبالرغم من ذلك فقد نجحا نجاحاً كبيراً حتى أنهما فى رحلة العودة اختارا شيوخا وعينوهما لرعاية الجماعات المسيحية النامية فى تلك المدن (أع ١٤ : ٢٣). وعاد الرسولان براً إلى أنطاكية (٤٩م) حيث أعلنا لجماعتهما المزدهرة تقريراً عن نجاح خدمتهما بين الأمم (أع ١٤ : ٢٧).



Underlined towns : St. Barnabas, St. Paul & St . Mark.

Not underlined : St. Barnabas & St. Paul without St.Mark.

ثالثا : الرحلة التبشيرية الثانية (٥٠ - ٥٢م)

وعند رجوعهما إلى انطاكية، واجه الرسولان مشكلة أساسية خطيرة، تتعلق بطلب اليهود فرض الختان على الأمميين، لأنه طبقاً للشريعة اليهودية، لا يمكن لهم نوال الخلاص بدون الختان . من أجل هذا توجه بولس وبرنابا إلى أورشليم لمناقشة هذه المشكلة مع القديس بطرس والرسل الآخرين (أع١٥).

انتهى المجمع فى حوالى ٤٩ - ٥٠م بالدعم الكامل لوجهة نظر بولس، التى عاد بها إلى انطاكية ومعه برنابا وسيلا ويهوذا . وبعد وقت قصير، أراد بولس أن يذهب هو وبرنابا إلى أماكن نشاطهم التبشيرى السابق لكنهم اختلفوا بسبب يوحنا الملقب مرقس. وكان برنابا يريد أن يأخذه معه، لكن بولس رفض لأن مرقس تركهم فى برجة فى رحلتهم الأولى (أع١٥ : ٣٧ - ٣٨) . ونتيجة لهذا الخلاف تفكك شمل الفريق، وشرع بولس فى رحلته التبشيرية الثانية مع سيلا (سيلفانوس)، الذى رافقهم فى رحلة العودة من أورشليم. وذهب مرقس فى صحبة برنابا إلى قبرص. أما المحطات الرئيسية لرحلة بولس الثانية (بالخريطة) فهى: -

أعاد زيارة الجماعات المسيحية فى جنوب غلاطية التى انشأها فى أثناء رحلته الأولى ماراً بالبلدان الآتية: طرسوس،بوابات قلقيلية Cilician Gates، دربة، لسترة، ثم ايقونية. وفى لسترة اختار تيموثاوس لرافقته (أع ١٦ :١ -٣) . بعد ذلك سار فى فريجيه Phrygia إلى تراوس Troas ثم غرباً إلى الساحل. بعد ذلك عبر البحر إلى مقدونية استجابة لرؤية رآها فى المنام، وهناك أنشأ تجمعات مسيحية فى فيليبى، وتسالونيكى، وبيرو، وذلك بالرغم من الصعوبات الهائلة التى واجهته بسبب اليهود .

فى اثينة، حيث كان فى انتظار تيموثاوس وسيلا، لم يحقق سوى نجاح ضئيل بعد مناقشات حادة مع بضعة من الفلاسفة الرواقيين والأبيقوريين فى المحكمة الأريستقراطية العليا بأثينة المسماة Areopagus . منذ ذلك الحين شرع القديس بولس الرسول فى تغيير طريقة تبشيره وتعليمه معتمداً كلية على السيد المسيح وقوته وحكمته الإلهية بدلاً من الحوار والمجادلات (أع: ١٧ : ١٦-٣٣).

هذا النجاح المحدود الذى تحقق فى اثينة تم التعويض عنه بإنجازات عظيمة فى كورنثوس حيث أنشأ فيها جماعة كبيرة فى غضون عام ونصف عام وهى مدة إقامته من بداية عام ٥٠ حتى صيف ٥١م. وكان زمن هذه الإقامة فى اثناء ولاية جاليو Gallio (أع ١٨:١٢) مما يمكننا من وضع جدول زمنى لترتيب أحداث رحلة القديس بولس بدقة، ازاء تحديد هذا التاريخ بعام ٥١ - ٥٢م. هنا كتب القديس بولس رسالته الأولى والثانية إلى تسالونيكى، وبعدها عاد إلى انطاكية.

رابعا : الرحلة التبشيرية الثالثة (٥٣ - ٥٨ م)

فور عودته إلى أنطاكية شرع بولس فى رحلته التبشيرية الثالثة، والتى اوصلته اولاً إلى الجماعات المسيحية فى آسيا الصغرى (غلاطية وفريجيا): طرسوس ودربة ولسترة وايقونية ثم إلى أفسس حيث ظل ثلاث سنوات يعمل هناك كسب فيها اعداداً كبيرة ممن تحولوا إلى

المسيحية (أع ١٨:٢٣، ١:١٩- ٤٠ -٣١:٢٠، أنظر أيضاً الخريطة) وهنا كتب رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس "وطبقا للرأى الشائع، كتب غلاطية أيضاً وفى النهاية اضطر إلى ترك المدينة إثر عملية شغب قام بها صناع الفضة بزعامة ديمتريوس، لأن حرفتهم الخاصة بصناعة صور الإلهة ديانا "أرتميس" أصبحت مهددة بالخراب نتيجة لانتشار المسيحية.



Courtesy: Samir Fawzy Girgis

الرحلة التبشيرية الثانية للقديس بولس

المحطات الرئيسية : Cilician Gate .
ا ـ انطاكية ـ طرسوس ـ دربة ـ ليسترة ـ ايقونة دوريلايوم ـ Troas .
ب ـ فيلبى ـ امفيبوليس ـ ابولونيا ـ تسالونيكا ـ بيرو ـ أثينا ـ كورينث .

فرحل القديس بولس إلى فيلبى فى مقدونية حيث كتب رسالته الثانية إلى اهل كورنثوس (كتبت ٥٧م) وحيث جاءه تيطس ايضاً باخبار سارة من كورنثوس (٢كو٧ : ٦)، بعد ذلك اجتاز تسالونيكى، بيريه ، واثينة وكورنثوس حيث قضى ثلاثة شهور هناك (اع ٢٠ : ٣.١) وفى كورنثوس كتب رسالته إلى أهل رومية بينما كان يخطط للذهاب إلى روما (اع١٩: ٢١، روم ١٥: ٢٢-٢٤).

وقرر العودة عبر مقدونية، لكى يهرب من مؤامرة جديدة دبرها اليهود ضده. ووصل إلى فيلبى فى ربيع ٥٨ م، حيث احتفل بعيد الفصح، ثم ابحر إلى Troas (اع٢٠:٦) ثم اتجه إلى أورشليم ومعه مندوبو الكنائس والمعونات التى جمعوها لإعانة اخوتهم المحتاجين فى الكنيسة الأم (اكو ١٦: ٣ ...) (رو ٥: ٢٥ ...) وساروا فى طريقهم عبر ساموس وميليتوس حيث ودع شيوخ أفسس الذين جاءوا للترحيب به وحيث تنبأ بدخوله السجن فى أورشليم فى القريب (أعمال ٢٠ : ٢٢...) وفى النهاية وصل إلى أورشليم وسلمهم المعونة (رو ١٥ :٢٥ - ٢٩).



1. See: The Oxford Dictionary of the Christian Church, p. 1047; New Catholic Encyclopedia, Vol. IX.

فى سجن قيصرية ٥٨ـ٦٠
فى رحلة إلى روما (شتاء) ٦٠ ـ ٦١
فى السجن لأول مرة فى روما ٦١ـ٦٣

فى رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (كتبت فى فيلبى ٥٧م)، قال القديس بولس إنه قد أصبح نزيلاً "فى السجن بصورة متكررة" (٢كو ١١ : ٢٣)، لكن المعلومات المباشرة والمؤكدة التى تتوفر لدينا تتعلق بفترات سجنه فى أورشليم وقيصرية وروما فقط.

وخلال إقامته فى أورشليم، أحضر بولس أحد الأممين المسيحيين إلى الفناء الداخلى للمعبد فأثار البعض شغباً ضده. ونظراً لأنه يحمل الجنسية الرومانية فقد حبس حبساً وقائياً. وعندما تم اكتشاف مؤامرة يهودية لقتله، أمر ليسياس، القائد الرومانى لمدينة أورشليم، بنقله إلى قيصرية، وكانت مقر الحاكم الرومانى ماركوس أنطونيوس فيليكس، واستمر فى السجن لمدة عامين (٥٨ ـ ٦٠).

وعندما وجد أن الحاكم الرومانى الجديد فيستوس Festus يميل إلى الإذعان لرغبات اليهود (أع : ٢٤ : ٢٧ ، ٢٥ :٩) وهى تعنى موت بولس، مارس الأخير حقه كمواطن رومانى ورفع دعواه إلى الإمبراطور .

وبينما هو فى طريقه إلى روما تحطمت السفينة قرب مالطه، وتلا ذلك تحديد إقامته لمدة عامين آخرين فى بيته، وطبقا لنظام هذا التحفظ، سمح له باستئجار مسكنه واستقبال زواره، فكان يُعَلِّمْ ويكرزْ بملكوت الله.

وهناك اعتقاد عام بأن بولس الرسول كتب رسائله الأربع المسماة "رسائل الأسر" أى أفسس، كولوسى، فليمون، فيلبى فى السجن. لكن هناك عديداً من الباحثين الذين يحتجون بأن بولس الرسول قد سبق أن تعرض للسجن لعدة شهور فى أفسس، وهم ينسبون هذه الرسائل أو على الأقل رسالة فليمون ورسالة كولوسى إلى سجنه فى هذه الفترة.

وفيما يختص بهذا الأمر، فإن المؤلف يسعده أن يشير إلى البحث الممتاز الذى أعده I. Schroeder حول هذا الموضوع فى الموسوعة الكاثوليكية الجديدة ، نيويورك. الجزء التاسع. ١٩٦٦.

خامسا : السنوات الأخيرة (٦٣ ـ٦٧ أو ٦٤)

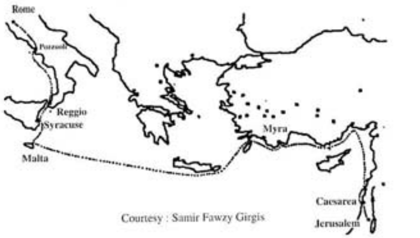
الرحلة التبشيرية الرابعة

ثم سجنه للمرة الثانية فى روما

السنوات الأخيرة للقديس بولس على الأرض تتضمن الرحلة التبشيرية الرابعة إلى إسبانيا وإلى الشرق وكذلك فترة سجنه للمرة الثانية فى روما.

وكما ذكرنا سابقا ، فإن سفر الأعمال ينتهى ببيان أن القديس بولس ظل فى سجنه بروما لمدة عامين فى المرة الأولى أى من ٦١ ـ ٦٣ م. وفيما بعد ذلك نحن نعتمد على الرسائل الرعوية والتقليد الموروث كمرجع بالنسبة للسنوات الأخيرة من سيرة القديس بولس على الأرض. ولعل أهم تلك المراجع هو ما سجله كليمنضس الرومانى Clement (البابا كليمنضس الأول ٨٨ ـ ٩٧)، وكيرلس الأورشليمى، وأبيفانيوس، وكريسستوم ، وجيروم، وقانون الموراتوريان (السطور ٣٨، ٣٩)، وأسفار الأبوكريفا لبطرس)

وحسب رأى القديس كليمنضس الرومانى الذى كتبه بعد استشهاد بولس الرسول بحوالى ثلاثين عاماً . فإن القديس بولس رحل حتى "نهاية بلاد الغرب"، "إلى حدود بلاد الغرب" (كليمنضس ٥:٥ ـ٧) أى إلى إسبانيا ، وذلك بعد أن أطلق سراحه من سجنه الأول فى روما [١] وهذا يؤكد عزمه على زيارة إسبانيا بعد رحلته إلى روما (رومية ١٥: ٢٤، ٢٨) وطبقاً للرسائل الرعوية. [٢] فإنه عاد وزار مراكز التبشير الشرقية فى افسس، ومقدونية، واليونان، تاركا تيطس وتيموثاوس فى كريت وأفسس لتنظيم أمر الجماعات المسيحية والتصدى لتصحيح الأخطاء والهرطقة هناك. (تيطس ١:٥، تيموثاوس ١:٣) ثم عاد إلى روما حيث أعيد القبض عليه فى النهاية ووضع فى السجن حتى نال اكليل الشهادة فى عهد نيرون واضطهاده للمسيحيين. وطبقاً لراى يوسابيوس القيصرى فقد حدث هذا سنة ٦٧ م وفى سنة ٦٤ طبقاً لراى كليمنضس الرومانى وتيرتوليان، وقد أضاف الأخير قوله أن القديس بولس قد قطع راسه [٣].



Courtesy : Samir Fawzy Girgis

١ ـ القديس كليمنضس ٥: ٥ ،٧
٢ ـ ربما كتبت بعد عودة القديس بولس من إسبانيا
بعض الباحثين يشككون فى صحة الرسائل الرعوية بدون دليل مقنع ، فى شرويدر فى دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة ، ج ٩ ، ص ٧ ، قاموس اكسفورد الخاص بالديانة المسيحية ، ص ١٠٤٧
٣ ـ Tertullian. De Praesct XXXVI

وبناء على ما سبق فإننا يمكننا التاكد من صحة الترتيب الزمنى والجغرافى لسيرة القديس بولس الرسول على النحو التالى، وذلك كما رسم معالمها المؤرخ البير شرويدر فى دائرة المعارف الكاثوليكية الجديد : (1)

التاريخ بالتقريب	الحدث	الرسائل
٣٣ ـ ٣٤	التحول إلى المسيحية	
٣٤ ـ ٣٧	دمشق، الصحراء السورية	
٣٧ ـ ٣٨	اول زيارة للرسل فى أورشليم	
٣٨ ـ ٤٤	فى طرسوس	
٤٥ ـ ٤٧	فى انطاكية	
٤٧ ؟؟؟	زيارته الثانية لأورشليم (زمن المجاعة)	
٤٧ ـ ٤٩	أول رحلة تبشيرية مع القديس برنابا والقديس مرقس	
٥٠	مجمع الرسل فى اورشليم	
٥٠ ـ ٥٢	رحلته التبشيرية مع سيلا لكن بدون برنابا ومرقس	
	خلاف بين بولس وبرنابا بسبب مرقس	
٥١ ـ ٥٢	فى كورنثوس	
٥٣ ـ ٥٨	رحلته التبشيرية الثالثة	
	٥٤ ـ ٥٧ فى أفسس	
	٥٤ أو ٥٧	الرسالة إلى غلاطية
	٥٧ (ربيع)	كورنثوس أولى
	٥٧ (صيف) فى مقدونية	
	٥٧ خريف	رسالة كورنثوس الثانية
	شتاء ٥٧ ـ ٥٨ فى كورنثوس	رسالة رومية

1 - I. Schroeder, "New Catholic Encyclopedia", Vol. IX, pp. 1 FF.

التاريخ بالتقريب	الحدث	الرسائل
	قبض عليه فى أورشليم	
٥٨ عيد الخمسين أو العنصرة		
٥٨ - ٦٠	سجن فى قيصرية	
٦٠ - ٦١	(شتاء) رحلته إلى روما	
٦١ - ٦٣	فترة سجنه الأولى فى روما	الرسالة إلى كولوسى الرسالة إلى فليمون الرسالة إلى افسس الرسالة إلى فيلبى
٦٤ ؟؟؟	فى إسبانيا ؟؟	
٦٥ ؟؟؟	فى الشرق (فى افسس وكريت) ؟؟	الرسالة إلى تيموثاوس الاولى الرسالة إلى تيطس الرسالة إلى العبرانيين ؟؟؟
٦٤	فترة سجنه الثانية فى روما	الرساله الثانية الى تيموثاوس
٦٤ - ٦٧	الاستشهاد	

٤ ـ الإشارات الواردة فى رسائل بولس الرسول عن القديس مرقس ونشاطه التبشيرى .

المصدر	مكان وجود القديس	التاريخ	الواقعـــــــــــــــة
أعمال ١١ : ٢٧ ـ ٣٠ ١٢ ـ ٢٤	من أنطاكيـــة إلى أورشليم ثم الرجـوع إلى انطاكية .	٤٧ م	. ذهاب القديس بولس والقديس برنابا إلى أورشليم أثناء المجاعة وهى الزيارة الثانية التى قام بها القديس بولس لهذه المدينة منذ تحوله الى المسيحية . . عودتهما من أورشليم ومعهما القديس مرقس .
أعمال ١٣ ، ١٤	أولى الرحـــلات التبشيرية .	٤٧ م	خرج برنابا وبولس ومرقس من انطاكية إلى سلوكية وسلاميس وبافوس واطاليا وبرجة (بالقرب من اهسانيا الحديثة فى تركيا) حيث عاد القديس مرقس إلى أورشليم بينما واصل برنابا وبولس الرحلة إلى ايقونية وليسترة، ودربة ثم رجعا إلى انطاكية عن طريق ليسترة وايقونية.
أعمال ١٥ : ٣٦ ١٨ : ٢٢	الرحلة التبشيرية الثـــانيـــة .	٥٠ ـ ٥٢م	بعد إجتماع أورشليم ٤٩ ـ ٥٠م عاد بولس وبرنابا إلى أنطاكية فى صحبة رجلين متقدمين من الإخوة هما يهوذا الملقب بارسابا وسيلا ثم العودة إلى انطاكية (أعمال ١٥ : ٣٦ ـ ٣٩) . . رفض القديس بولس أن يأخذ معه مرقس لأنه تركهما فى برجة وعاد إلى أورشليم أثناء الرحلة التبشيرية الأولى (أعمال ١٥ : ٣٦ ـ ٣٩) . . بناء على ذلك انفصل بولس وبرنابا عن بعضهما فخرج الأول مع سيلا بينما اصطحب مرقس خاله برنابا إلى قبرص. وهناك نال القديس برنابا اكليل الشهادة.

كولوسى ٤: ١٠-١١	دخوله السجن لأول مرة فى روما .	٦١ - ٦٣م	"يسلم عليكم ارسترخس رفيقى فى السجن، ومرقس ابن أخت برنابا (الذى أخذتم لأجله وصايا إن أتى إليكم فاقبلوه) ويسوع، المدعو يسطس، الذين هم من اهل الختان، هؤلاء هم وحدهم العاملون معى لملكوت الله، الذين صاروا تعزية لى "(كولوسى ٤: ١٠-١١). وكما نرى من النص السابق ، هناك توقع بوصول القديس مرقس إلى كولوسى (بالقرب من دينيزلى الحديثة فى تركيا) أى فى الشرق للمرة الثانية.

رسائل كتبها تيخيس وأونيسموس من روما إلى اهل كولوسى

المصدر	مكان وجود القديس بولس	التاريخ	الواقعـــــــــــــــــة
فليمـــون	دخوله السجن لأول مرة فى روما .	٦١ - ٦٣م	. "يسلم عليكم ابافراس ، رفيقى فى السجن من أجل المسيح، مرقس، وأرسترخس، وديماس ولوقا الذين يعملون معى".
*كتبت فى روما الى Philemon بواسطة Onesimus أحد الخدام .			
تموثاوس ٢: ٤-١١	دخوله السجن للمرة الثانية فى روما .	٦٤ م أو ٦٦-٦٧م	."لوقا وحده معى. خذ مرقس وأحضره معك لأنه نافع لى للخدمة". . فالقديس مرقس فى الشرق للمرة الثانية، فى أفسس. وقد طلب من القديس تيموثاوس أن يحضره معه من هناك إلى روما.

* كتبت فى روما وأرسلت من هناك اثناء وجود القديس بولس فى السجن اثناء اضطهاد الطاغية نيرون للمسيحين .

هذه الاشارات الموجزة الواردة عن القديس مار مرقس الرسول فى تاريخ حياة القديس بولس الرسول، تزودنا ببضع نقاط ضمن وقائع حوليات مسيرة القديس مرقس التاريخية ونشاطه التبشيرى . هذه النقاط تعد بمثابة جزئيات قليلة فى لوحة من الموزايك الكثيرة القطع والالوان .

٤٣ ـ ٤٤م . استشهاد القديس يعقوب أخى يوحنا، قبيل نهاية حكم نيرون (٣٧ ـ ٤٤م).

إطلاق سراح بطرس الرسول من السجن بفعل المجازين ثم "اتى إلى بيت مريم أم يوحنا الملقب مرقس ، حيث كان هناك كثيرون مجتمعين وهم يصلون " (اعمال ١٢: ١٢)

٤٧م . زيارة القديس بولس وبرنابا إلى أورشليم فى وقت المجاعة وعند عودتهما إلى انطاكية أخذا معهما القديس مرقس .

٤٧ ـ ٤٩م . اول رحلة تبشيرية لبولس الرسول ومعه كل من القديس برنابا والقديس مرقس.

ثم عودة القديس مرقس من برجة إلى اورشليم (٤٨م).

٥٠ ـ ٥٢م .الرحلة التبشيرية الثانية التى قام بها القديس برنابا والقديس مرقس إلى قبرص.

٦١ ـ ٦٣م .وجود القديس مرقس فى روما فى وقت وجود القديس بولس فى السجن وهو أحد الفعلة القليلين "العاملين معى لملكوت الله" (كو٤: ١٠) أنظر رسالة فليمون أيضاً ـ مع ذلك كانوا يتوقعون رحيله إلى كولوسى .

وتبعاً لهذا فها هى المحطات الرئيسية لنشاط القديس مرقس التبشيرى بحسب ورود ذكرها فى حياة بولس الرسول :

١	اورشليم ٤٧م، عندما اخذه القديس برنابا والقديس بولس معهما من اورشليم إلى انطاكية عند عودتهم بعد تقديم "إعانة المجاعة".
٢	انطاكية ٤٧م
٣	سلوكية، سلاميس، وبافوس (قبرص)، واطاليا، وبرجه (اسيا الصغرى) ٤٧ ـ ٤٨م.
٤	اورشليم ٤٨ ـ ٥٠م .
٥	انطاكية ٥٠م .
٦	قبرص ٥٠ ـ ٥١م .
٧	روما بين ٦١ ـ ٦٣ م. (أنظر الخريطة على الصفحة التالية)
٨	كولوسى بين ٦١ـ٦٣م.
٩	افسس ٦٤م.
١٠	روما ٦٦م.

١. Robert Gewett, "The Encyclopedia of Religion", Vol. XL, p.212.

Accordingly the main stations of St. Mark's missionary activities mentioned in St. Paul's life are as shown below:

1. Jerusalem ca A.D.47; when St. Barnabas and St. Paul took him along from Jerusalem to Antioch on their return after delivering the "famine collection".
2. Antioch A.D.47
3. Seleucia,Salamis & Paphos (Cyprus), Attalia, Perga (Asia Minor) A.D.47-48
4. Jerusalem A.D. 48-50
5. Antioch A.D. ca 50
6. Cyprus A.D. 50-51
7. Rome between A.D. 61 & A.D. 63
8. Colossae between A.D. 61-63
9. Ephesus ca A.D.64
10. Rome A.D. ca 66.



Courtesy: Samir Fawzy Girgis

القديس مرقس ورسالة بطرس الأولى

إن مرجعنا الأول والأساسى فيما يتعلق بالاشارات الواردة عن القديس مرقس ضمن نشاط القديس بطرس الرسول التبشيرى، هو رسالة بطرس الأولى، وهى إحدى الرسائل السبع التى تسمى "الرسائل العامة" أو "القانونية". [1]

إن صحة كتابة القديس بطرس لرسالتة الأولى هذه لم تكن مثار ادنى شك فى العصور القديمة، والأدلة التى تشير إلى صحة نسبتها إلى بطرس ترجع الى ايرانيوس وكليمنضس السكندرى[2] أما الشكوك التى أثيرت فيما بعد والتى تتعلق بهذا الامر[3]، فقد تولى دحضها تماما T.W. Leathy.[4]

إن الحجج الرئيسية التى تستند إليها هذه الشكوك هى:

١ ـ صياغة الرسالة بأسلوب أدبى رفيع فى اللغة اليونانية بمستوى لا تصل اليه مقدرة صياد من الجليل.

٢ ـ إحتواؤها على كثير من التعبيرات الشائعة فى كتابات القديس بولس.

٣ ـ الاضطهاد الذى تذكره الرسالة لا يمكن أن يكون قد حدث فى هذا التاريخ المبكر.

ورداً على هذا النقد فإننا نقدم الأدلة الآتية:

ان ارتقاء اسلوب الرسالة الأدبى الى هذا المستوى الرفيع وتشابه بعض عباراتها مع كتابات القديس بولس، قد يرجع إلى سيلا (سيلفانوس) الذى كتب رسالة بطرس الأولى (١بطرس ٥: ١٢)، وهو شخصية مسيحية بارزة رافقت القديس بولس بعد اجتماع أورشليم وفى رحلته التبشيرية الثانية (٥٠ ـ ٥٢).

---

١ ـ الرسائل العامة "هى سبع رسائل قصيرة فى العهد الجديد تسمى عادة بهذا الاسم، لانها لم توجه إلى كنائس محددة او اشخاص بعينهم مثل رسائل بولس. ويطلق عليها ايضا اسم الرسائل "الكاثوليكية" . الدلالة على نفس المعنى ." وهذه الرسائل هى يعقوب، ١ ، ٢ بطرس ١ ، ٢ ويوحنا ١ ، ٢ ، ٣ ويهوذا. لكن هذه السمة لا تتماشى مع يوحنا ٢، ٣ وكذلك بطرس الأولى، فرسالتا يوحنا موجهتان إلى عناوين محددة ، بينما رسالة بطرس الاولى موجهة ايضا إلى إقليم باكمله .
إن قبول هذه الرسائل كرسائل قانونية حدث بطريقة تدريجية من ناحية، واختلف فى ذلك الشرق والغرب من ناحية اخرى . وفقا لمصــدر Muraterian الذى يشير الى ماكان متفقاً على اعتباره ضمن الرسائل القانونية فى روما فى النصف الثانى من القرن الثانى، فإنه يذكر ثلاث رسائل فقط ، وهى رسالتا يوحنا ورسالة يهوذا . أما فى الشرق فقد قبل Origen الرسائل السبع بالرغم من بعض الشكوك بالنسبة لرسالة يعقوب ، وبطرس الثانية ويوحنا ٢، ٣. أما يوسابيوس القيصرى فلم يقبل إلا بطرس الاولى ويوحنا الاولى (أوائل القرن الرابع)، ويبدو أن قبولهم جميعا قد تم فى العقود التالية فى الشرق والغرب ، ما عدا الكنيسة السريانية، فإن ال Peshitta الخاصة بهذه الكنيسه قبلت رسالة يعقوب وبطرس الاولى ويوحنا الاولى ، وقد اضيفت هذه الرسائل سنة ٥٠٨م خلال مراجعة Philoxian .

٢. ايرانيوس (adv . Haer. IV.XIX,!) كليمنضس السكندرى (Strom. III, 18, 110) .

٣ ـ بالنسبة للدراسات النقدية فى هذا الشأن ـ انظر:

F.W. Beare, The First Epistle of St. Peter. ; 2ed. Oxford 1958; K.II. Schekle , Die Petrusbriefe, der Judasbrief) Herders theologischer Kommentar zum Neuen Testament, Freiburg 1961;

R. Leconte, Les Epêtres Catholiques (42, 1961; F.L. Cross , I Peter é A Paschal Liturgy , London 1954.

٤ . T.W. Leathy in New Catholic Encyclopedia , Vol. IX, pp. 231

زد على ذلك ، إن أسانيد هذا النقد إنما تظهر لنا بجلاء عدم منطقية منهج هؤلاء النقاد على الإطلاق، إذ يقبلون معجزة الخمسين (عيد العنصرة) وحلول الروح القدس على التلاميذ الذين قاموا لفورهم بالتحدث بشتى اللغات المختلفة، ثم يشككون فى صحة نسبة هذه الرسالة إلى القديس بطرس بسبب رقى أسلوبها الأدبى.

أما فيما يختص بحجتهم الثالثة المذكورة بعاليه والخاصة بعدم وجود اضطهاد عنيف فى مثل هذا الوقت المبكر، فعليهم آلا يسندوا ما ذكر فى الرسالة من اضطهاد إلى اضطهادات حكومية منظمة ومكثفة ، ثم إن سفر الأعمال ورسائل بولس الرسول تزودنا بمعلومات كافية عما وقع من حالات قمع واضطهاد عنيف بدرجة أجبرت المؤمنين على التشتت فى الخارج. وقد وقعت هذه الأحداث بعد استشهاد القديس اسطفانوس وقبل وضع بطرس الرسول فى السجن وقبيل نهاية حكم هيرودس أجريبا مباشرة سنة ٤٤م. (أعمال ١:٨).

الإشارات الواردة فى رسالة بطرس الأولى عن القديس مرقس وبابل المصرية

رغم ضآلة المعلومات الخاصة بالقديس مرقس فى رسالة بطرس الأولى، فإنها تعد على جانب كبير من الأهمية فى تأسيس وقائع هذه السيرة التاريخية التى يجرى بحثها.

فقد اتفق الباحثون الغربيون بالإجماع على إنكار أن تكون بابل المصرية هى المكان الذى كتبت فيه الرسالة [١] بحجة أن اسم "بابل" كان يستخدم استخداماً مجازياً كرمز للشر والابتعاد عن الله ، وهو الاسم الذى شاع استخدامه فى روما حيث كتبت الرسالة ، بحسب رأيهم [٢].

إن منهج استخدام أسماء مستعارة وكلمات رمزية، أمر لم يحدث على سبيل المثال قط فى كتابات القديس بولس الرسول، وهذا يساند أيضاً رأينا، إن مثل هذا النقد مجرد افتراض دون أدلة مقنعه ، انتقل من مؤرخ الى آخر وشاع استعماله بين الكثيرين دون تمحيص وتأصيل كاف. وبناء على ذلك، يحتم علينا دراسة هذه المسألة دراسة دقيقة، بصرف النظر عن المضمون الرعوى والتعليمى لهذه الرسالة .

---

١ ـ لقد اجمعت الغالبية العظمى من الباحثين الغربيين على هذا الافتراض دون ذكر ادلة مقنعة . هناك عشرات الباحثين من المؤرخين ورجال اللاهوت ، الذين تبنوا هذا الافتراض .

٢ ـ H. Michlin Lexikon für Theologie und Kirche , Freiburg 1957, I.P. 1170

الكاتب، وجهة الرسالة، المكان والزمان

أ - الكاتب: -

كتبها سيلفانوس (سيلا) وهو شخصية مسيحية بارزة رافقت القديس برنابا والقديس بولس إلى انطاكيه بعد اجتماع المجلس فى أورشليم، وقد صار سيلا فيما بعد رفيق عمل مقرب من القديس بولس فى نشاطه التبشيرى .

ب - وجهة الرسالة المرسلة إليها: -

كانت رسالة بطرس الرسول الأولى موجهة إلى الجماعات المسيحية فى بونط، غلاطية، كابودوكية، آسيا وبيثينية.

"بطرس، رسول يسوع المسيح، إلى المتغربين فى شتات بنط وغلاطية وكابودوكية وآسيا وبيثينية" (١ بطرس ١ : ١)

جـ - المكان والزمان: -

"تسلم عليكم الجماعة التى فى بابل ، المختار معكم، ومرقس ابنى" (بطرس ٥ : ١٣). وكما ذكرنا آنفاً أن جميع الباحثين الغربيين رفضوا بالإجماع أن تكون بابل هذه فى مصر، وتبعاً لتفسيرهم، فإن بابل استخدمت من قبيل التشبيه، كشفرة ترمز إلى روما. وحجتهم الأساسية أنهم لا يعرفون أبداً أن هناك جماعة من الجماعات المسيحية قد سكنت مكاناً بهذا الاسم قبل اضطهادات نيرون، فى الوقت الذى كتبت فيه الرسالة.

ومن الحجج التى تنقض هذا نجد الآتى: -

إن بابل هى أقدم أجزاء العاصمة الحالية لمصر، وهى تقريباً تقع على الحد الذى يفصل بين الصعيد والدلتا ، حيث يوجد مصب القناة التى حفرت سنة ٦٠٠ ق.م لكى تربط النيل بالبحر الأحمر. وقد ذكر الكتاب القدامى[١] أن هذه المدينة قد بناها البابليون من اهل الرافدين Mes-opotamia[٢]

وفيما بعد أمر الإمبراطور Trajan (١١٧ - ١٣٤م) ببناء قلعة هناك على الأساس القديم، الذى يمكن مشاهدة آثاره حتى الآن فى مصر القديمة. ويقع هذا الحى إلى الجنوب الشرقى من القاهرة وهى العاصمة[٣] الحديثة لمصر. وفى أيام الرومان كانت هذه المدينة تعتبر أهم حصون القطر.

وقد كانت هذة البقعة ذاتها أحد المراكز الرئيسة للتجمعات فى مصر على مدى قرون طويلة ، وهى البقعة التى لجأت إليها العائلة المقدسة قبل ذلك بعقدين من الزمان .

---

١ انظر Diodorus Siculus , I. 56. 3; Strabo , 17. 1. 30. Later studies : E. A. Amelineau , Le géographie de l'Egypte á l'Époque Copte, Paris 1893; A. H. Gardiner, . Ancient Egypt Onomastica , II, London 1947 ; Toy. S., Babylon of Egypt , Journal of the British Archaeological Association , 3 ser. I, 1937 , p. 5278.

٢ Ancient Egyptian Etymology of the name in Gardiner , ibid, p. 143; further details in :the Coptic Encyclopedia , Vol . II, pp. 317 .

٣ Peter Grossmann , ibid, II, p. 317 .

وعندما تفجرت حوادث الاضطهاد العنيف فى أورشليم، بعد استشهاد القديس اسطفانوس تشتت المسيحيون خارجها (أعمال ٨:١) مقتفين اثر العائلة المقدسة، وربما لجأوا إلى حصن بابل (المعروف بحصن بابيلون فى مصر).

وقد يفسر هذا سبب وجود بعض المسيحيين فى هذا المكان فى وقت زيارة القديس بطرس والقديس مرقس عندما كتب بطرس رسالته الأولى .

"وحدث فى ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التى فى أورشليم ، فتشتت الجميع فى كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل " (أعمال ٨: ١) .

وقد يفسر هذا أيضا معنى التعبير اليهودى الرنان "المغتربين فى الشتات" (١ بطرس ١:١) الذى استعمله بطرس الرسول فى مخاطبته هذه التجمعات، وقد استعمل هذا التعبير ذاته فى سفر الأعمال الذى استشهدنا به فيما سبق، لتصوير هذا الاضطهاد العنيف الذى وقع على المؤمنين فى أورشليم، وبينما جاء التحذير التالى : "أيها الأحباء لا تستغربوا البلوى المحرقة التى بينكم حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب ..." (١ بطرس ٤: ١٢)، فهو ملائم جدا لما حدث ويؤكد حقيقة القمع الذى كانوا يتعرضون له فى ذاك الوقت.

بعد إطلاق سراح القديس بطرس بمعجزة من السجن، قبيل نهاية حكم هيرودس أجريبا بقليل فى سنة ٤٤ م، نقرأ فى أعمال الرسل أن القديس بطرس رحل الى **"مكان آخر"** (أعمال ١٢: ١٧) دون ذكر لهوية هذا المكان.

هذه العبارة تدعم مصداقية المعلومات الواردة فى الرسالة ذاتها ، بانها كتبت فى بابليون وهى ملائمة جداً لتعليل أن الأربعينات هى أنسب التواريخ التى حددها كثير من المصادر القديمة كتاريخ مجىء القديس مارمرقس الرسول **إلى مصر** فى أول مرة ، أى فى عام ٤٣ م (يوسيفوس فلافيوس).[1]

التاريخ الأول، أى ٤٣م لدخول القديس مار مرقس الرسول لمصر لأول مرة ، هو اكثر هذه التواريخ مناسبة لسيرة حياته بناءً على الأسباب الآتية:

* ان القديس مرقس كان لا يزال فى أورشليم لأن رحيله الى انطاكية مع القديس برنابا والقديس بولس لم يحدث إلاّ بعد زيارتهما لأورشليم أيام المجاعة، أى بعد ٤٤م.

* غادر القديس بطرس اورشليم إلى ما سمى "مكان آخر" مباشرة بعد خروجه من السجن بمعجزة، قبيل موت هيرودس اجريبا فى ٤٤م (اعمال ١٢: ١٧). من اقدم تجمعات يهودية/ دليل ذلك اقدم Synagog

هذا التاريخ المبكر لزيارة القديس بطرس والقديس مرقس سوياً إلى بابل المصرية لا يتناقض مع التقاليد المتوارثة، او المصادر القديمة الخاصة بدخول القديس مرقس مصر لأول مرة وزيارته المتكررة للإسكندرية، ولا يتناقض أيضاً مع نشاطه التبشيرى المكثف فى الإسكندرية والبنتابوليس

١ ـ وفقا لساويرس بن المقفع ، فلقد كان اول دخول للقديس مار مرقس فى الإسكندرية فى العام الثانى من حكم الامبراطور كلاوديوس ، وهذا يعنى ان ذلك كان حوالى سنة ٤٣م

وأوربا وآسيا الصغرى. ويمكن الاطلاع على هذا ضمن ملخص سيرة القديس مرقس الذى نعرضه فى الفصل التالى.

يعطى السنكسار القبطى عام ٦١ كتاريخ لدخول القديس مار مرقس الرسول مدينة الإسكندرية لأول مرة وليس دخول بابل. ويتفق فى هذا قداسة البابا شنودة الثالث مع معظم المصادر القبطية الموثوق بها [٢]، وهذا يتناسب تماماً مع أقدم التواريخ القبطية التى تحدد مدة إقامة القديس مار مرقس فى الإسكندرية على رأس كنيستها حتى استشهاده بفترة سبع سنين وثمانية أشهر، أى من عام ٦١ (تاريخ دخوله الإسكندرية لأول مرة) حتى نال إكليل الشهادة فى عيد القيامة المجيد عام ٦٨م .

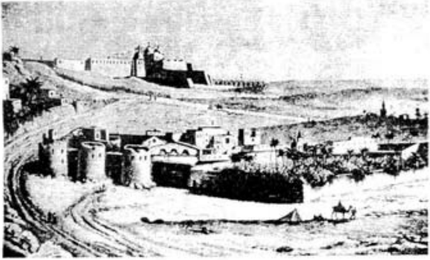
---

٢ - يوسابيوس، Ecclesiastical History, pp. 11 - 24; Hakim Amin , "Saint Mark in Africa", in Saint Mark and the Coptic Church , Coptic Orthodox Patriarchate , 1968 , p 10 ; Fowler , Christian Egypt , p. 1.

حصن بابليون، مصر القديمة

من M Gullien
L'Egypte Souvenirs Bibliques et Chrétiens
Little 1891 , p. 223

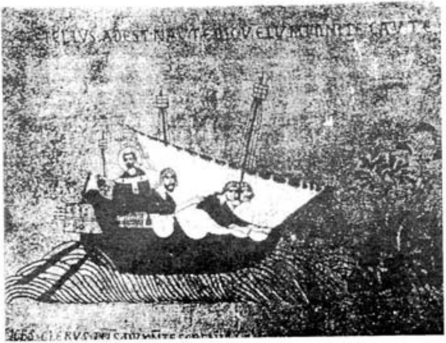
مأخوذة من
"Le Monde Copte" , XVII



منظر مصر القديمة من جهة الجنوب

(مختارات م . جوليان ، مصر ، ذكريات انجيلية ومسيحية ، Little ، ١٨٩١ ص ٢٢٣ .

١ - حارة القديس ميركورى .
٢ - قناة صناعية .
٣ - جامع عمرو بن العاص
٤ - دير الأرمن .
٥ - دير الموارنة
٦ - الكنيسة المعلقة .
٧ - كنيسة القديس مارجرجس (اليونانيه)
٨ - كنيسة القديسة بربارة
٩ - ميناء رومانى .
١٠ - قناة رومانية .



احدى لوحات الفسيفساء التى تزين قباب كاتدرائية القديس مار مرقس الرسول بمدينة البندقية :
"مار مرقس ينبه الملاح النائم باقتراب السفينة التى تحمل رفاته من ميناء البندقية [١]
حق النشر : دائره المعارف الكاثوليكية ، جزء رقم ، صفحة رقم ٧

١ ـ تفاصيل نقل رفات مار مرقس من الإسكندرية إلى مدينة البندقية فى :
سمير فوزى جرجس : "نقل رفات القديس مرقس من الإسكندرية إلى مدينة البندقية وفقا لأقدم مخطوطة لاتينية من اوائل القرن التاسع الميلادى" ، جارى إعداد نشر هذه الدراسة بواسطة دار القديس باخوميوس للنشر ، زيورخ وفينا .

مدينة الإسكندرية: مركز الكرازة المرقسية

كرسي القديس مار مرقس الرسول

وفقاً لرسالة القديس بولس إلى أهل كولوسي (٤: ١٠) فإننا نشهد القديس مرقس في صحبة القديس بولس أثناء فترة سجنه الأولى في روما (٦١ـ ٦٣)، وكان مرقس يعتبر واحداً من رفاق القديس العاملين معه من أجل ملكوت الله، وكان ذلك تعزية له في سجنه.

(كو ٤: ١٠ ـ ١١، وفليمون ٢٤). تتضح لنا هنا بجلاء نية القديس مرقس على الرحيل: "... الذي أخذتم من أجله وصايا، إن أتى إليكم فاقبلوه" (كو ٤: ١٠).

وطبقاً لمخطوط ابن الراهب وللسنكسار القبطي، فإن القديس مرقس بدأ كرازته بتبشير المدن الخمس الغربية، وهي موطنه الأصلي [١]. هنا قام بتعميد عدد كبير ثم مضى إلى الإسكندرية التي دخلها لأول مرة في عام ٦١ [٢]، وكان أول من آمن على يديه إسكافي يدعى حنانيا أو انيانوس[٣]، وتمضي القصة كالآتي:

ذهب القديس مرقس إلى إسكافي لإصلاح رباط حذائه. وبينما كان الإسكافي يصلح الحذاء دخل المخراز في يده، فشفى القديس مرقس يده بمعجزة، فصار أنيانوس أول الداخلين في المسيحية ثم دعا القديس مرقس إلى بيته، فآمن جميع أفراد العائلة وتم تعميدهم، وسرعان ما تحول الكثيرون من سكان المدينة إلى المسيحية. ونتيجة لانتشار التعاليم الجديدة، ازداد غضب الغوغاء ضده وراحوا يبحثون عنه في كل مكان، فرحل إلى المدن الخمس الغربية بعد تنصيب انيانوس أسقفاً في الإسكندرية مع ثلاثة من الكهنة هم ميليوس، كوردونس، بريموس، وسبعة من الشمامسة لرعاية المسيحين هناك (٦٢م). وظل مار مرقس في المدن الخمس الغربية لمدة عامين لتنظيم الخدمة الرعوية هناك وتنصيب من يلزم لأداء الخدمة في هذه الطائفة السريعة النمو (٦٢ ـ ٦٣م)[٤] ثم عاد إلى الإسكندرية وسرعان ما غادرها ثانية في اتجاه الشرق، إلى الجماعات المسيحية في آسيا الصغرى.

إن رسالة القديس بولس الثانية إلى تيموثاوس، التي كتبت في فترة سجنه الثانية في روما (٦٤م) تبين بوضوح أن القديس مرقس كان مع تيموثاوس في أفسس قبل أن يمضيا إلى روما. "خذ مرقس واحضره معك، لأنه نافع لي في الخدمة" (٢ تيموثاوس ٤: ١١). هذا يعني أن القديس مرقس رحل بعد إقامته القصيرة في الإسكندرية إلى التجمعات المسيحية في آسيا الصغرى، إلى أفسس حيث كان تيموثاوس يقيم (٦٤م)، وإذعاناً لرغبة القديس بولس، مضى

---

١ ـ السنكسار، ٣٠ برمودة.

٢ ـ نفس المرجع، الترجمة الألمانية المذكوره سابقا، ص ٢٢٢، البابا شنوده، القديس مار مرقس، الترجمة الالمانية، ص ٤٩ انظر ايضاً الهوامش هناك رقم ٢٦، ٢٩، السنكسار ص ٢٢٢، البابا شنودة الثالث نفس المرجع، ص ٥٠ فـ. عزيز سوريال عطية، ص ١٣ "تاريخ المسيحية الشرقية" ص ٣٧، حكيم أمين، القديس مرقس في إفريقيا. ص ١٢، أيضاً هاردى مصر المسيحية ص ١٣، كامل صالح نخلة، إيريس حبيب المصري. إلخ.

٤ ـ رغم غموض التاريخ في الأحقاب التالية، فإننا نجد مطراناً قبطياً في المدن الخمس الغربية يدعى باسيليدس، وذلك في عهد بابا الإسكندرية ديونيسيوس (٢٤٦ ـ ٢٦٤). يتضح لنا من هذا ان الكنيسة هناك كان قد جرى تنظيمها في ذاك التاريخ المبكر. انظر Hakim Amin , Saint Mark in Africa , p. 14

مرقس إلى روما وبولس مسجون للمرة الثانية هناك (٦٤ او ٦٦ ـ ٦٧م). لكنه رجع إلى الإسكندرية فقط بعد استشهاد القديسين بطرس وبولس فى زمن اضطهاد الإمبراطور نيرون للمسيحيين (٦٤ او ٦٧م). وسواء كان تبشير القديس مرقس فى حوض بحر الأدريا ، الذى ذكر فى التقاليد "يما بعد قد حدث وهو فى طريقه من أفسس إلى روما ، أو بعد رحيله النهائى من روما إلى الإسكندرية، فهو أمر غير معروف.

وعندما عاد القديس مرقس إلى الإسكندرية وجد المسيحيين قد تزايدوا بصورة عظيمة وانهم قد استطاعوا أن يشيدوا كنيسة ضخمة فى بوكاليس فى الحى الشرقى من المدينة ، وحين كان المسيحيون يحتفلون بعيد القيامة فى السادس والعشرين من إبريل عام ٦٨م، قام الوثنيون بمهاجمة الكنيسة ثم قبضوا على القديس مار مرقس الرسول وربطوه فى حبل ثم جرجروه فى شوارع المدينة، وظل محتجزاً لديهم طول الليل حيث ظهر له الرب يسوع ليقويه ويعزيه ويهنئه باقتراب صحبته فى ملكوته . وفى اليوم التالى أخذوا يجرجرونه فى الطرق حتى أسلم الروح ... وبينما كان الغوغاء يعتزمون إحراق جسده ، هبت عليهم عاصفة شديدة فرقت شملهم تاركين جسد القديس خلفهم . هنا جاء المؤمنون فحملوه خلسة ودفنوه تحت مذبح الكنيسة.[١]

بناء عليه

يكون القديس مار مرقس الرسول قد دخل مع القديس بطرس الرسول إلى مصر وأقاما فى حصن بابيليون مركز التجمع اليهودى والمسيحى (أعمال الرسل واحد مؤمن) ٤٣م.

تلا ذلك دخوله ثلاث مرات إلى الإسكندرية: أولاها حسب قول السنكسار (سنة ٦١م) مما يتماشى تماما مع أقدم المراجع اليهودية والقبطية.

١ . بخصوص نقل جثمان القديس مرقس إلى البندقية حسب المصادر الأولى ، راجع سمير فوزى جرجس ، باللغة اللاتينية ومعه ترجمة إنجليزية ، يتم إعداده للنشر فى سلسلة منشورات القديس بأخوميوس ، زيورخ ، فينا .



تخطيط مدينة الإسكندرية فى العصر البيزنطى
إسكندر بدوى ، "الفن القبطى وعلم الآثار"
مطبعة م.ا.ت ، ١٩٧٨ ، ٢٤

كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية
المكان الذى حفظ فيه رأس القديس

هدية من : "القديس مرقس والكنيسة القبطية" البطريركية القبطية بالقاهرة ١٩٦٨.



(قارن الخرائط أ، ب، ج، د، هـ و)

ووفقاً للعرض الموجز السالف الذكر، فقد أصبح ممكنا ترتيب سيرة حياة القديس مرقس علىٌ النحو التالى:

الزمان	المكان	المصدر	الوقائع
X.....	قورينا	ابن المقفع	مسقط رأسه.
X.....	أورشليم	مرقس : ١٤	احتفل الرب يسوع بعيد الفصح فى بيت مرقس.
X.....	أورشليم	يوحنا ٢٠ : ١٩	قيامة السيد المسيح من الأموات وظهوره للرسل فى بيت مرقس الرسول.
ــــ	أورشليم	أعمال ١٤:٨و١٢:١١	حلول الروح القدس على الرسل فى بيت مرقس
٤٣م	أورشليم	اعمال ١٢ : ١	اضطهاد هيروس اجريبا للمؤمنين. (مدة حكمه ٣٧ ـ ٤٤)
٤٣م	أورشليم	اعمال ١٢ : ٢	استشهاد القديس يعقوب.
٤٣م	أورشليم	١٢: ٣ ـ ١٢	وضع القديس بطرس فى السجن ثم خروجه بمعجزة وعودته للرسل فى بيت مرقس.
٤٣م	أورشليم	اعمال ١٢ : ١٧	رحيل القديس بطرس **إلى مكان غير معروف.**
٤٣م	بابليون	١ بطرس ٥ : ١٣	القديس بطرس ومعه القديس مرقس ، يكتب الرسالة الأولى فى بابليون ، **عصر دخول القديس مرقس مصر (بابليون) أول مرة**
٤٧م	أورشليم	اعمال ١١ :٢٧ـ٣٠	زيارة الجماعةالتى قام بها القديس برنابا والقديس بولس من انطاكية إلى أورشليم . وعند عودتهما لانطاكية اخذا معهما القديس مرقس .
ــــ	أورشليم	أعمال ١٢ : ٢٤	وهذا يعنى أن القديس مرقس كان قد عاد قبل ذلك من بابليون إلى أورشليم
٤٧م	انطاكية	أعمال ١٢ : ٢٤	القديس مرقس فى انطاكية مع القديس برناباوالقديس بولس .
٤٧م	سلوكية	اعمال ١٣:١ـ١٣	أول رحلة تبشيرية تضم بولس وبرنابا ومرقس .
٤٩م	سلاميس بافوس أطاليا برجة		

الزمان	المكان	المصدر	الوقائع
٤٨	أورشليم	اعمال ١٣:١٣	القديس مرقس يعود بمفرده إلى أورشليم.
٥٠م	أورشليم	اعمال ١٥	المجلس الرسولي في أورشليم ـ مجمع الرسل في أورشليم.
٥٠ ـ ٥٢	انطاكية	اعمال ١٥ : ٣٦	رحلة بولس التبشيرية الثانية. رفض القديس بولس أن يأخذ مرقس معهما.
٥٠ ـ ٥٢	قبرص	اعمال ١٥ : ٣٩	الرحلة التبشيرية الثانية لبرنابا ومعه مرقس.
٦١م	روما	فليمون ٢٤ ، كولوسي٤: ١٠-١١	القديس مرقس في روما وبولس مسجون للمرة الاولى.
٦١م	كولوسي	كو ٤: ١٠	من المتوقع أن يزور القديس مرقس كولوسي.
٦١م	Cyrenaica	السنكسار إلخ	أول زيارة يقوم بها القديس مرقس إلى البنتابوليس المدنُ الخمس الغربية.
٦١-٦٢	الإسكندرية	السنكسار	تأسيس القديس مرقس لأول كنيسة بالإسكندرية وتنظيم الخدمة والرئاسة الكنسية.
٦٢-٦٣	البنتابوليس	السنكسار	تنظيم الخدمة والرئاسة الرعوية هناك.
٦٣م	الإسكندرية	السنكسار	كنيسة Baucalis
٦٤ ـ ٦٦	افسس	تيموثاوس الثانية ٤: ١١	في بداية دخول القديس بولس السجن للمرة الثانية بروما، إذ طلب إحضار القديس مرقس إلى روما.
ـــــ	اكويليا ؟	ـــــ	القديس مرقس يبشر في منطقه الأدريا في طريقه من افسس إلى روما.
٦٤، ٦٦ او٦٦،٦٧	روما	تيموثاوس ٤: ١١	القديس مرقس في روما أثناء وجود بولس في السجن للمرة الثانية.
٦٤،٦٦م او٦٦،٦٧	ـــــ	-	رحيله من روما بعد استشهاد القديسين بطرس وبولس.
	اكويليا ؟؟	حسب التقاليد المتأخرة .	التبشير في Adria منطقه الأدريا.
٦٧،٦٨م	الإسكندرية	ابن المقفع والسنكسار	استشهاد القديس مرقس في ٦٨م (في عيد القيامة).

الخريطة
مخفاه
حفاظاً
على حقوق النشر

خريطة "أ"

السنوات الأولى:
من قورينة إلى أنطاكية،
منذ مولده حتى مشاركته للقديس بولس فى
رحلته التبشيرية الأولى، أى حتى سنة ٤٧م
١ - قورينة
٢ - أورشليم
٣ - بابليون
٤ - أورشليم
٥ - أنطاكية

رسم وحق النشر
سمير فوزى جرجس

الخريطة مخفاه حفاظاً على حقوق النشر

خريطة "ب"

منذ ان قام بمشاركة القديس بولس فى رحلته التبشيرية الأولى إلى برجة وعودته المفاجئة إلى اورشليم أى فى سنة ٤٨م .

٥ ـ أنطاكية
٦ ـ سلاميس
٧ ـ بافوس
٨ ـ اطاليا
٩ ـ برجة
١٠ ـ أنطاكية

رسم وحق النشر

سمير فوزى جرجس

الخريطة
مخفاه
حفاظاً
على حقوق النشر

خريطة "ج"

من أنطاكية إلى قبرص، ثم روما فكولوسى
رحلة القديس مرقس الثانية مع القديس برنابا
(٥٠-٥٢م) إلى روما فى وقت وجود بولس فى
السجن للمرة الثانية، أى فى سنة ٦١م.

١٢ - انطاكية
١٣ - قبرص
١٤ - روما
١٥ أ - إماعن طريق أدريا إلى كولوسى، أو
١٥ ب - عن طريق البحر إلى كولوسى
١٦ - كولوسى

الخريطة
مخفاه
حفاظاً
على حقوق النشر

خريطة "د"

من كولوسى إلى Pentapolis ، فالإسكندرية . (٦١م) ثم
عودته إلى بنتابوليس Pentapolis (٦٢ - ٦٣م)
فالإسكندرية ثانية .
١٦ - كولوسى ١٧ - Pentapolis الإسكندرية (٦١م)
١٩ - Pentapolis (٦٢-٦٣م)
٢٠ - الإسكندرية (٦٣م) .

رسم وحق النشر
سمير فوزى جرجس

الخريطة
مخفاه
حفاظاً
على حقوق النشر

خريطة "هـ"

من الإسكندرية (٦٣م) إلى افسس ، ثم عن طريق أدريا (أكويليا) أو بطريق البحر مباشرة إلى روما إبان سجن القديس بولس للمرة الثانية فى روما (٦٤ـ٦٦ / ٦٧م)

٢٠ ـ الإسكندرية (٦٣م) ٢١ ـ افسس .

٢٢ ـ عن طريق أدريا أو بطريق البحر مباشرة إلى روما.

٢٣ ـ روما أثناء سجن القديس بولس فى المرة الثانية . (٦٤ ـ ٦٦ ـ ٦٧م)

رسم وحق النشر
سمير فوزى جرجس

الخريطة
مخفاه
حفاظاً
على حقوق النشر

خريطة "و"

من روما بعد استشهاد القديسين بطرس وبولس فى زمن اضطهادات نيرون سنة ٦٧م وعن طريق أوربا أو عن طريق البحر مباشرة، عاد إلى الإسكندرية ، حيث نال إكليل الشهادة فى يوم عيد القيامة ٦٨ م .

٢٣ روما .

٢٤ أ ـ عن طريق أوربا،

٢٤ب ـ أو مباشرة عن طريق البحر،

٢٥ ـ الإسكندرية (٦٨م)

رسم وحق النشر

سمير فوزى جرجس

نبذة عن الحكم الرومانى فى مصر

التسلسل الزمنى لعصور الحكم الرومانى

٧٥٣ ق.م. تأسيس روما وفقاً للأساطير

٦٠٠ - ٥١٠ ق.م. العصر الأتروسكى الحكم الملكى الأتروسكى.

٥١٠ ق.م. إنهاء حكم الأتروسك، هروب آخر ملك أتروسكى Tarquinius Superbus تأسيس الحكم الجمهورى، Res Publica =الحكم مصلحة عامة للمواطنين كافة.

٣٩٦ - ٢٧٢ ق.م. غزو الرومان لوسط وجنوب ايطاليا (هزيمة اليونانيين بجنوب ايطاليا ٢٧٢ ق.م.)

٢٦٤ - ١٣٣ ق.م. احتلال حوض البحر الأبيض المتوسط عدا الدولة البطلمية.
احتلال غرب صقلية (هزيمة الفينقيين ٢٦٤ - ٢٤١ ق.م.)
احتلال جزيرة كورسيكا وجزيرة سردينيا (انسحاب الفينقيين ٢٣٨ ق.م.)
احتلال إسبانيا وجزر البليار ٢١٨ - ٢٠١ ق.م. (هزيمة هانيبال والفنيقيين) بعد حرب الفينقيين الثانية.
احتلال مقدونيا ١٤٨ ق.م. (معركة بيدنا ١٦٨ ق.م.)
احتلال قرطاجة ١٤٦ ق.م.

١٣٣ ق.م. الحصول على مملكة بيرجامون بالميراث (حليفة روما السابقة)

١٢١ ق.م. احتلال المستعمرة اليونانية سابقا ماساليا (حاليا مارسيليا)

٦٣ ق.م. حملة بومبيوس ضد سوريا وفلسطين والتنظيم الجديد للشرق الأوسط.

٦٠ ق.م. التحالف الثلاثى يوليوس قيصر ، بومبيوس ، كراسوس.

٥٨ - ٥١ ق.م. غزو غاليا بواسطة يوليوس قيصر .

٤٩ - ٤٨ ق.م الحرب الأهلية بين الحليفين السابقين، بين قيصر وبومبيوس .

٤٥ ق.م. حكم قيصر المطلق .

٤٤ ق.م. اغتيال يوليوس قيصر.

٤٣ ق.م. التحالف الثلاثى الثانى انطونيوس، أوكتافيوس، ليبيدوس.

٤٢ ق.م. هزيمة مغتالى قيصر فى معركة فيلبى.

٣١ ق.م. انتصار أوكتافيوس ضد أنطونيوس وكليوباترا، نهاية عهد الحروب الأهلية، بداية عصر الحكم الانفرادى + العهد الإمبراطورى)

٣١ ق.م. - ١٤ م حكم أغسطس (أوكتافيوس وبداية العصر الإمبراطورى)

أسرة يوليوس - كلاوديوس ١٤ - ٦٨م Tiberius 14-37, Caligula 37-41 Claudius 41-54/Nero 54 68

أسرة فلافيوس ٦٩ - ٩٦م Vespasian 69 - 79, Titus 79-81/ Domitian 81 - 96

أباطرة التبنى ٩٦ - ٩٢م Nerva 96 -98, Trajan 98-117, Hadrian 117-118, Antonius Pius 138-161, Marc Aurel, the Philosopher on the Throne 161-180 Commodus the Gladiator 180 - 192.

أسرة سويروس	١٩٣ ـ ٢٣٥ ,Septimius Severus 193 -211 Caracalla 211-217 Elagabal 218-222 / Severus Alexander 222-235.
حكم العسكر	٢٣٥ ـ ٢٨٤ ٣٦ إمبراطوراً فى ٤٩ عاما ولم يمت أى منهم ميتة طبيعية سوى إمبراطور واحد: الفوضى وبداية انهيار الإمبراطورية.
دقلديانوس ومكسيميان	واستحداث الحكم الرباعى ٢٨٤ ـ٣٠٥م
قسطنطين العظيم	٣٠٦ ـ ٣٣٧ قانون التسامح الصادر فى ميلانو عام ٣١٣ مجمع نيقية المسكونى ٣٢٥، تشييد العاصمة المسيحية القسطنطينية .
حكم يوليان المرتد	٣٦١ ـ ٣٦٣
الإمبراطور تيودوسيوس العظيم	٣٧٩ ـ ٣٩٥ مجمع القسطنطينية المسكونى ٣٨١، المسيحية دين الدولة الوحيد ٣٩١، تقسيم الإمبراطورية ٣٩٥ . الابن الاكبر اركاديوس (١٨ عاما) يحكم فى الشرق من مدينة القسطنطينية بمعونة القائد الغالى روفينوس ، الابن الأصغر أونوريوس (١١عاما) يحكم النصف الغربى من مدينة ميلانو ويعاونه القائد ستيليخو الذى ينتمى إلى شعب الفندال الجرمانى.
نهاية الإمبراطورية الرومانية فى الغرب	٤٧٦ استيلاء الضابط الجيرمانى Odoaker على السلطة وعزله لآخر إمبراطور رومانى (Romulus Augustus) ، الذى كان يلقب Augustulus سخرية ، اى القصير نظراً لصغر حجمه، إمبراطور القسم الشرقى يوافق على الاعتراف بالضابط الجرمانى أودواكر كحاكم للقسم الغربى، وهذا يعنى الاعتراف الضمنى بسيادة الشرق الشرعية ونهاية استقلال الإمبراطورية بالقسم الغربى.

الحكم الرومانى فى مصر

قبل المضى فى استطلاع تاريخ مصر تحت الحكم الرومانى، لابد لنا من عرض أهم الممارسات الإدارية والعسكرية للرومان فى مصر.

كان نظام الحكم فى روما حتى تولى اغسطس، اول الأباطرة الرومان، (٣١ق.م. ظ ١٤م) مهام الحكم فى بلاده، حكماً جمهورياً، إن أصل كلمة "جمهورية" (Republic) هو الكلمتان اللاتينيتان (Res Publica)، أى "شىء عام"، بمعنى أن مهام الدولة وحكم البلاد شأن عام مشترك يخص المواطنين كافة. فى ذاك الوقت كانت السلطة التنفيذية العليا فى البداية تحت قيادة اثنين من القناصل ينتخبهما المواطنون لمدة عام واحد ، كما كان لكل منهما حق إلغاء أوامر زميله (Veto) حتى لا يستطيع أى منهما السيطرة على السلطة والاستبداد بها بمفرده.

إلى جانب ذلك كان هنالك مجلس النبلاء، أو الشيوخ (Senate)، الذى كان يتكون أصلاً من ثلاثمائة عضو من النبلاء، وكبار رجال الدولة من الحكام والقضاة السابقين وذوى الرتب الرفيعة. ولقد كانت لهذا المجلس سلطة فعالة وأثر كبير فى مجرى الأمور ومسيرة الحكم و قد ندرك مدى فاعلية مجلس النبلاء، هذا إذا ما ألقينا نظرة عابرة على أصل الألقاب السياسية فى ذلك العصر الجمهورى ومعناها. فإن لقب "قنصل" الذى ذكر بعاليه والذى يشير إلى رئاسة السلطة التنفيذية مشتق من الفعل اللاتينى "Consulere" بمعنى (Consult=) أى يستشير، لأنه كان يتحتم على القناصل استشارة مجلس النبلاء، والاستنارة بآرائه فى جميع الأمور الهامة.

أما السلطة التشريعية فقد كانت من اختصاص "مجلس الشعب" ونعنى بذلك "مجلس المواطنين الأحرار".

بمرور الزمن تدهور النظام الجمهورى تدهوراً رهيباً وسقطت الجمهورية فى أتون الحروب الأهلية التى استمرت منذ عام ١٣٣ ق.م. حتى سنة ٣١ ق.م. إن هذه الفترة التى اصطلح المؤرخون على تسميتها " قرن الثورة " انتهت بانتصار أوكتافيوس، ابن يوليوس قيصر بالتبنى (Octavius)، الذى منحه مجلس النبلاء، فيما بعد لقب "اغسطس" أى "المبجل أو المعظم" (فى عام ٢٧ ق.م.)، وذلك بانتصاره على صديقه وحليفه السابق انطونيوس حاكم الجزء الشرقى من الإمبراطورية ورفيقته كليوباترا فى معركة اكتيوم البحرية فى عام ٣١ ق.م. واستطاع اغسطس، بعد التغلب على غريمه الأخير، تجميع كل السلطة فى يده وتأسيس حكم انفرادى مطلق بدلاً من النظام الجمهورى القديم. لم يقم اغسطس بإلغاء النظام الجمهورى، على العكس من ذلك، فلقد اكد مرارا المحافظة على التقاليد السياسية المعمول بها من قبل، بل لقد قام بالتنازل عن السلطات الاستثنائية الضخمة التى منحه إياها مجلس النبلاء، اثناء الحرب الأهلية، إلا أنه فى واقع الأمر قد قام بتجميع كافة السلطات فى يده وذلك بانتخابه فى كافة المناصب الهامة. حرص اغسطس فى ذلك على المحافظة على التقليد والدستور الجمهورى شكلاً، إلا أنه استطاع تجميع كافة مناصب الجمهورية الهامة فى يده ووضع حجر الأساس فى تأسيس ملكية وراثية مطلقة، فلا عجب أن قام خلفاؤه بتأسيس أول أسرة ملكية حاكمة فى الإمبراطورية الرومانية (أسرة

يوليوس /كلاوديوس من عام ١٤م الى ٦٨م).[١]

كان عهد أغسطس بلا شك عصراً ذهبياً فى تاريخ روما. لم يقم أغسطس بإنهاء الحروب الأهلية التى دامت ١٠٢ من الأعوام فحسب، (قرن الثورة ١٣٣-٣١ ق.م). بل نجح بالفعل فى تشييد صرح الحكم المتناسق بين أهم اركان السلطة المتطاحنة من قبل، الا وهى مجلس النبلاء وقادة الجيش.

فها نحن نراه وقد اكتسب صداقة مجلس النبلاء، وتعاونه باحترامه الزائد لزعمائهم و معاملتهم معاملة الند،ومشاركتهم فى حكم بعض ولايات الإمبراطورية مثل ولاية "Cyranaica" (قورينة) وولاية "افريقيا" (قرطاجة سابقاً وتونس الحالية)، بينما أخضع الولايات الأخرى المسماة ولايات الإمبراطور لحكمه المباشر مثل مصر وغاليا (الرجاء الرجوع الى الخريطة).

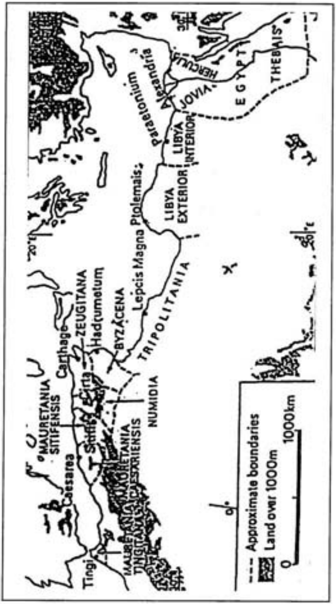
وها نحن نراه وقد قام بتخفيض عدد فيالق الجيش الرومانى إلى ٢٥ فيلق فقط وإلى نقل معظمها إلى حدود الإمبراطورية الشاسعة بعيداً عن مجال ممارسة اى نفوذ سياسى. فلا عجب ان يعد المؤرخ الرومانى المعاصر Livius عصر اغسطس بمثابه قمة التطور الحضارى فى تاريخ روما (٥٩ ق.م. حتى ١٧م.)

بعد انتصار أغسطس فى أكتيوم (٣١ق.م.)، وانتحار كليوباترا رفيقة أنطونيوس وآخر حكام البطالمة، نجح أغسطس فى غزو مصر، وتمكن الرومان من قمع انتفاضة إقليم Thebaid طيبة، وتثبيت الحدود الجنوبية للبلاد التى صارت تتمتع بمزيد من الأمن مما ادى الى تخفيض عدد الفيالق فى مصر إلى اثنين فقط .

فى العهد الجمهورى كانت الولايات المحتلة تحكم بواسطة القضاة المتقاعدين، وكان كل منهم يحمل لقب "بروقنصل = Proconsul" او (بروكريتور = Procurator). ولكن فى عام ٢٧ ق.م. اقتسم أغسطس ادارة الولايات مع مجلس الشيوخ، وظلت بعض الولايات الهامة تابعة لمجلس الشيوخ وتحكم كما كانت من قبل ، بينما أصبحت الولايات الخاضعة للإمبراطور تحكم مباشرة بواسطة نواب يخضعون مباشرة لسلطته ويحملون لقب (Legatus او Praefectus) بينما أسندت إدارة الأمور المالية إلى (Procurator). ضمت مصر كولاية إمبراطورية يحكمها مندوب إمبراطورى (Praelechus)، بينما اسندت إدارة قورينة Cyranaica إلى مجلس الشيوخ و أسندت حماية الإمبراطورية الى الفيالق العسكرية التى كان كل منها يتكون من ستة آلاف جندى تقريبا. وقد بلغ عدد هذه الفيالق تحت حكم أغسطس ٢٥ فيلقا، يتمركز منها اثنان فى مصر والثالث فى ولاية إفريقيا (= قرطاجة سابقاً ، تونس الحالية).

كان أغسطس وخلفاؤه يهدفون إلى تثبيت سيادتهم وتأمينها فى مصر واستغلال البلاد اقتصادياً إلى اقصى حد وبكافة الوسائل. ولقد كانت مصر تتمتع منذ البدء بمكانة بالغة الأهمية نظراً لاستراتيجية الموقع وعظم الموارد. وقد يتضح لنا ذلك إذا ما علمنا ان والى مصر كان يعينه

١ ـ تضمنت هذه الأسرة الحاكمة الأباطرة Tiberius (١٤م. ٣٧م.)، Caligula اى "بانتوفلى صغير" وقد حكم من ٣٧ الى ٤١م ، وقد لقب بذلك استهزاءً به ، ثم الإمبراطور Caludius (٤١ ـ ٥٤) ثم Nero (٥٤ ـ ٦٨) الذى يجمع المؤرخون على اعتباره المسؤول عن حرق روما عام ٦٤م والذى قام باضطهاد المسيحيين متهماً إياهم بذلك الجرم (وقد قام نيرون من قبل بقتل والدته Agrippina عام ٥٩ وزوجته Octavia سنة ٦٢ ثم زوجته Proppaea وآخرين.



Roman Provinces in Africa, early 4th Century

Courtesy: J.D. Fage

The Cambridge History of Africa, Vol.II

الإمبراطور بنفسه، بل إن أعضاء مجلس الشيوخ كانوا ممنوعين من زيارة مصر إلا بتصريح منه شخصياً.

عدا ذلك استمر جهاز الإدارة المحلى كما كان عليه، واستمر حكم المحافظات مسنداً إلى حكام إقليميين بلقب "Strategoi" وإضافة إلى الحاكم الإقليمى للصعيد "Eistrategos"، تم تعيين حكام مساعدين "Epistrategoi" لمصر الوسطى المعروفة باسم الولايات السبع "Arsinoite Nome" والدلتا، أما المدن الإغريقية الثلاث وهى الإسكندرية ونوكراتيس وبطلميس، فقد ترك لها إدارة شئونها ذاتيا، ثم أضيفت إليها مدينة رابعة فيما بعد، وهى التى شيدها الإمبراطور هدريان فى عام ١٣٠م باسم انطونيوبوليس. كان أثر الرومان ينحصر فى أضيق نطاق، فى مجال طبقة الحكام، بينما كان العدد الأكبر من الموظفين يتم تعيينه من اليونانيين ومن المتاغرقين المصريين، كما كانت اللغة اليونانية بمثابة اللغة الرسمية فى إدارة البلاد، بينما استمر التطور الحضارى [1] و استمرت الثقافة المصرية الوطنية تواصل مسيرتها ونتاجها . كان الرومان يهتمون أساساً بمصر نظراً لموقعها الاستراتيجى من ناحية وباعتبارها مصدراً هاماً للموارد المالية من ناحيه أخرى. لم يكتفوا باستمرارية نظام البطالمة الضرائبى، بل ضاعفوا ضريبة الزراعة وضريبة الرؤوس التى كانت تفرض على البالغين من المواطنين المصريين (حتى بعد حصولهم على صفة المواطنة الرومانية فى عام ٢١٢).[2] كما قاموا بتخفيض النفقات الإدارية بتحويل العمل الإدارى الى خدمة مدنية إجبارية، أما الموارد المجمعة فكانت تحول بانتظام إلى روما.

جدير بالذكر فى هذا الصدد أنه رغم ذلك القهر والاستنزاف المادى، فلقد تمخضت تجربة الحكم الرومانى عن بعض النتائج الإيجابية مثل إعادة بناء إدارة مركزية فعالة وتجديد قنوات الرى وإدخال السواقى التى تديرها الثيران من بلاد الرافدين (دجلة والفرات)، وإنعاش تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى وخلافه [3] ...

إلا أن هذه المزايا لا تتناسب قط مع الكوارث التى نجمت عن نظام الضرائب المدمر الذى اتبعه الرومان فى بلادنا. لأن المطالب المتزايدة أدت بطريقة حتمية إلى إفقار مستمر للشعب المصرى. فلا عجب بعد ذلك أن يتناقص عدد سكان المناطق الريفية فى القرن الأول بطريقة

---

١ ـ كان هدريان ثالث إمبراطور "أباطرة التبنى"، الذين حكموا الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثانى الميلادى (٩٦ ١٩٢م) والذين كانوا فى العادة يختارون لصفاتهم الحميدة وكفاءتهم بصرف النظر عن الانتماء الأسرى للحاكم ، وقد بلغت الامبراطورية فى ظل هذا النظام قمة اتساعها وتطورها الحضارى والأمنى ، فلا عجب أن يسمى عصر هؤلاء الأباطرة الستة "العصر الذهبى" فى تاريخ الإمبراطورية .

٢ ـ فى عام ٢١٢م قام الإمبراطور كاريكلا Caracalla بإصدار القانون المسمى Constitutio Antoniniana والذى منح بمقتضاه كافة سكان الامبراطورية صفة المواطنة. كانت صفه المواطنة فى العهد الجمهورى والقرنين الأول والثانى من العصر الإمبراطورى تأتى لحاملها بامتيازات بالغة قد تقلصت مع مرور الوقت وتلاشت فى بداية القرن الثالث .

٣ ـ فى القرن الثالث الميلادى ، وتحت حكم أسرة الإمبراطور Severus (١٩٣-٢٣٥م) الذى كان أصله من شمال إفريقيا والذى استطاع الاستيلاء على السلطة وإعادة وحدة الإمبراطورية بعد عدة حروب، قام خلفه الإمبراطور كاريكلا فى عام (٢١٢-٢١٧) بمنح صفة المواطنة لجميع سكان الإمبراطورية فى عام ٢١٢م (Constitutio Antoniniana) ، لكن هذا لم يعد على أبناء مصر بأى مزايا مادية على الإطلاق حيث أن الامتيازات الضخمة التى كان يتمتع بها المواطنون الرومان ويتميزون بها عن باقى سكان الولايات كانت قد تقلصت فى ظل النظام الإمبراطورى حتى تلاشت تماماً فى عام ٢١٢م نتيجه لقانون الإمبراطور كاراكيلا المذكور بعاليه . فجاء هذا القانون بمثابة عقوبة للرومان دون تحسن ملحوظ لمواطنى الولايات الذين اكتسبوا حقوق المواطنة الرومانية .

متواصلة، لأن الذين كانوا يعجزون عن تدبير الضرائب المستحقة عليهم، كانوا يهجرون حقولهم؛ مما جعل الرومان يفرضون ضريبة إجمالية على كل قرية، وبذلك أصبح سكان القرية جميعاً مسئولين بصورة جماعية عن زراعة الأرض ودفع الضرائب المستحقة. وقد أدى هذا التنظيم الى تفاقم الوضع بصورة بالغة.

وبالرغم مما اتصف به القرن الثانى، المسمى بالعصر الذهبى، عصر أباطرة التبنى (٩٦ - ١٩٢م) من أمن وطمأنينة، وعدالة فى كافة أنحاء الإمبراطورية الشاسعة، فقد أخفق حكام ذاك العصر فى إحداث أى قدر من الإرتياح لسكان الريف فى مصر والتخفيف من أعبائهم الجسام، فلا عجب أيضاً أن تفجر هذا الوضع اليائس فى انتفاضتين من أخطر انتفاضات ذاك العصر وذلك فى عامى ١٥٢-١٥٤م (عهد الإمبراطور أنطونيوس بيوس)، ثم ١٧٢م (عهد الإمبراطور مارك أوريل ١٦١-١٨٠م).

نتجت عن ذلك فوضى إزاء تدهور الحكم فى عهد الأباطرة العسكر (٢٣٥-٢٨٤) الذين بلغ عددهم ٣٦ امبراطوراً فى ظرف ٤٩ عاماً، ولم يمت منهم ميتة طبيعية سوى إمبراطور واحد فقط. أدى ذلك الاضطراب الدائم إلى تفاقم الكارثة المالية بالرغم من الإصلاحات التى قام بها الإمبراطور Septimius Severus من قبل فى غضون زيارته لمصر (١٩٩-٢٠١)، ومن بينها العفو عن المزارعيين الهاربين، وإصلاح التنظيم الإدارى بإنشاء واستحداث مجلس شيوخ فى كل عاصمة من عواصم المحافظات فى مصر. وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن منح الإمبراطور كاراكيلا صفة المواطنة (٢١٢) لكل من ولد حراً من سكان الإمبراطورية، كما ذكرنا من قبل، قد ضاعف فى واقع الأمر العبء الملقى على كاهل كل مواطن. فباكتساب صفة المواطنة، قد أصبح مفروضا عليه ان يدفع ٥٪ ضريبة للميراث بالإضافة إلى ضريبة الرؤوس المفروضة على المصريين. وحين انتهى العمل بهذه الضريبة. استبدلت ضريبة جديدة على الأرض وأخرى على زراعة القمح. عدا ذلك فقد وقعت مصر فى سنة ٢٤٩ فريسة للغارات التى كانت تشنها قبائل البليميز من الصحراء الشرقية، وكذلك لعمليات النهب والسلب التى شنتها قوات الملكة زنوبيا، ملكة بالميرا، التى نجحت فى احتلال مصر لفترة وجيزة بين ٢٦٩-٢٧٢. فلا عجب اذن تحت هذه الظروف البائسة أن تندلع فى مصر ثورات عدة قام بها المصريون اليائسون المستغلون ، مثل ثورة الإسكندرية عام ٢٧٤، وثورة قفط Coptos وبوزيريس Busiris سنة ٢٩١ ثم ثورة الإسكندرية الثانية ٢٩٦-٢٩٧.

بعد هذا التدهور الذريع حاول الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤-٣٠٥) أن ينقذ امبراطوريتة الشاسعة وأن ينهى الأوضاع التى يمكن الدفاع عنها. قام دقلديانوس بعدة اصلاحات وتنظيمات جذرية سياسياً وإداريًا واقتصادياً من بينها:

+ اقامة حكم استبدادى مطلق عماده دقلديانوس الذى صار يعد المصدر الوحيد للسلطة والذى كان يعد "السيد الأوحد" "Dominus" بينما كانت الرعية بمثابة عبيد له (Servi).

+ ادخال نظام الحكم الرباعى Tetrarchy. وعملاً بهذا النظام السياسى الجديد كان يشترك اربعة رجال فى حكم الأمبراطورية، وذلك لتيسير مهمة إدارة الأمبراطورية المترامية

الاطراف وتسهيل عملية الدفاع عنها . قسمت الإمبراطوريه إلى قسمين رئيسيين على راس كل منهما امبراطور بلقب Augustus (المعظم)، ويساعد كل منهما حاكم بلقب "Caesar" (قيصر). كانت عاصمة النصف الشرقى هى مدينة نيقوميديا Nicomedia (على بحر مرمرة) حيث كان يقيم الإمبراطور دقلديانوس وكان مساعده يقيم فى مدينة سيرميوم "Sirmium" (شمال غرب شبه جزيرة البلقان) على نهر الساف River Save، فى حين كانت عاصمة شريكه الإمبراطور مكسيميان Maximian، الحاكم الاعلى للنصف الغربى مدينة ميلانو ومساعده "القيصر" فى مدينة Trier.

+ إزالة التقسيم الإدارى السابق والتمييز بين ولايات مجلس الشيوخ والولايات الإمبريالية التى كانت تخضع للإمبراطور مباشرة .

+ الفصل بين السلطة الإدارية والسلطة العسكرية ثم تقسيم هذه الإدارات إلى وحدات فرعية صغيرة تحول دون قيام حكام الولايات والاقاليم بتجميع السلطة فى ايديهم والاستقلال بها، بينما ضمت الولايات المتجاورة معاً لتكوين اثنتى عشرة دوقية Diocese يحكم كلاً منها نائب بلقب Vicarius يتبع سلطة الإمبراطور مباشرة .

طبقا لهذا جرى تقسيم مصر إلى ثلاثة اقاليم جديدة وهى :

١ ـ اقليم طيبة "The Thebaid".

٢ ـ إقليم Aegyptus Jovia، الذى كان يضم غرب الدلتا بما فيها مدينة الإسكندرية، وكان على راسه حاكم بلقب "Praefectus of Egypt"، وكان بثابة رئيس لحاكمى الإقليمين الآخرين "Praesides".

٣ ـ إقليم "Aegyptus Herculia" وكان يتضمن شرق الدلتا.

علاوة على ذلك فقد ضمت أقاليم مصر وقورينة إلى الاقاليم السورية مكونة "دوقية الشرق".

من بين الإصلاحات العسكرية التى ادخلها دقلديانوس عملية ترشيد الدفاع عن حدود الإمبراطورية وتشييد العديد من التحصينات. نتيجة لذلك سحبت الحامية الرومانية من المناطق النائية فيما وراء الحدود الجنوبية لمصر وأعيدت إلى منطقه Syene عند الشلال الاول (أسوان الآن)، وذلك حتى يسهل عليها صد الغارات المتكررة من جانب قبائل البلميز Blemmyes ببلاد النوبة. بالإضافة إلى ذلك فإنه أنشأ قوات احتياطية متحركة تساوى ثلث الجيش الموجود آنذاك. وطبقا لهذا النظام تكونت فرقتان جديدتان فى مصر هما:

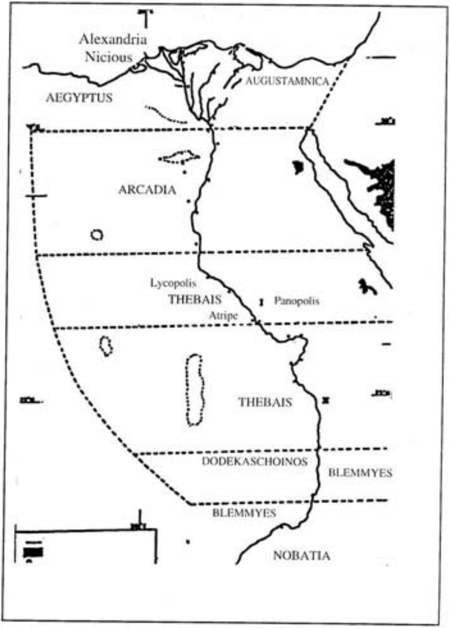
"Tertia Diocletiana Thebaecorum"

"Prima Maximiana Thebaorum"(١)

---

١ ـ للمزيد عن شعاركلتا الفرقتين يمكن الرجوع إلى :

Christian S. Theo Brend. "Wappenzeichen der Griechen und Römer . Bonn 1841.



Egypt Under Late Roman Rule
Courtesy : J .D . Fage
The Cambridge History . of Africa
Vol . II

عصور الاضطهاد

الاقباط من القديس مار مرقس الرسول حتى الإمبراطور قسطنطين العظيم (٣٠٦-٣٣٧)

قبل وصول المسيحية إلى مصر، كانت الإسكندرية قد بلغت شأناً عظيماً وصارت أهم مراكز الثقافة الإغريقية . بل صارت أشبه بالبؤرة التى يتركز فيها تيار الثقافة اليهودية الهلينية.

وفى ظل الحكم الرومانى (بعد فتح الاسكندرية سنة ٣٠ ق.م.) انقلب أصحاب الامتيازات من الإغريق واليهود بعضهم على بعض. فقد تواطأ اليهود بالإسكندرية مع الغزاة وكوفئوا بعديد من المزايا مما أثار غيرة الإغريق الذين أزيحوا إلى المواقع الخلفية فى المجتمع. وبدأت أولى الاضطرابات الخطيرة فى سنة ٣٨م، عندما قام اليونانيون بالهجوم على الحى اليهودى بالمدينة ونهب ممتلكات السكان. كذلك وقعت أحداث شغب أخرى فى سنة ٥٣ ، ٦٦. ومع ظهور معارضة قومية يهودية ضد الحكم الرومانى، تفاقم الموقف وتعقد كثيراً حتى بلغ مداه بقيام الثورة اليهودية الكبرى فى سنة ١١٥م. بدأت هذه الثورة فى Cyranaica وأمسك اليهود بالسلطة ثم اقاموا مذبحة للإغريق هناك، الذين تمكن عدد كبير منهم من الهرب إلى الإسكندرية، حيث قاموا بالتحريض على الثأر من يهود الإسكندرية .وعلى هذا جاء إخوتهم من برقة Cyranaica وحاصروا الأسكندرية فى حين قام يهود قبرص وبلاد الرافدين أيضا بالثورة ونتيجة لقمع هذه الثورة، بقسوة ووحشية تضاءلت مشكلة اليهود.

بالنسبة للمسيحيين، فإن الرومان كانوا ينظرون إليهم على اعتبار انهم متآمرون على عقيدتهم القائمة على تعدد الآلهة وعلى تأليه الإمبراطور. فلا عجب أن تطالب الفئات المتميزة فى هذا المجتمع بالقضاء على المسيحيين قضاءً نهائياً فى وقت كان فيه الحكام الرومان مضطرين إلى التجاوب مع هذه الرغبات الشعبية .

حدثت أول موجات الاضطهاد وأشدها فى عهد البطريرك الثانى عشر، ديمتريوس الأول (١٨٨-٢٣٠م)[1] وكان معاصراً للفيلسوف Origen أوروجينوس فى عام ٢٠٩م. اصدر الامبراطور Septimius Severus اوامره بمنع (١٩٣-٢١١) [2] عمليات التحول إلى المسيحية بكل الوسائل. فأغلقت مدرسة اللاهوت بالإسكندرية وأرغم المسيحيون على حرق البخور أمام معبد الإمبراطور. وكانت عقوبة الرفض هى الموت . وكان من بين اجراءات العقاب الشيطانية البشعة قطع رؤوسهم، أو إلقاؤهم للأسود أو حرقهم أحياء. وعلى الرغم من هذه الأهوال، فقد واصلت المسيحية مسيرتها الظافرة المنتصرة فى كل ربوع مصر، ووصل عدد الأساقفة إلى عشرين أسقفاً عند نهاية عهد البطريرك ديمتريوس .

وفى عام ٢٤٩، أى فى نهاية حكم الإمبراطور فيليب العربى The Arabian (٢٤٤-٢٤٩) تعرض المسيحيون بالإسكندرية لعملية هجوم عنيف وسلب ونهب من جانب الوثنيين فى المدينة.

١ - ايفيت Evetts ، تاريخ البطاركة . ج ١ ص ٥١-٦.
٢ - ايفيت Evetts ، نفس المرجع ، ص ٥٦ - ٧.

ثم جاءت موجة الاضطهاد العنيفة الثانية أثناء حكم الامبراطور ديسيوس Decius من أباطرة العسكر السالف ذكرهم (٢٤٩ ـ ٢٥١)[١]. فى عام ٢٥٠م أصدر هذا الإمبراطور مرسوماً يفرض على كل مواطن الحصول على شهادة من السلطات المحلية تؤكد احترامه لعبادة الآلهة الرومانية والأباطرة الرومان. ونتج عن هذا المرسوم وقوع الاف الشهداء ضحية لرفضهم الإذعان لهذا القرار. ويجدر بالذكر هنا أن نشير إلى الخطاب المرسل من البطريرك ديونيسوس الأول، الذى عاصر هذه الأحداث، (٢٤٦ ـ ٢٦٤م)[٢] يذكر فيه مثلاً من أمثلة هذا الاضطهاد لفابيوس أسقف قيصرية[٣].

استمرت هذه الإجراءات العنيفة كذلك تحت حكم الإمبراطور التالى، فاليريان Valerian (٢٥٢ـ٢٦٠). ثم خف الاضطهاد مؤقتاً فى ظل حكم الامبراطور جالينوس Gallienus (٢٥٣ ـ ٢٦٨م)، الذى أصدر أول مرسوم لإقرار سياسة التسامح الدينى، فتمكن المسيحيون من ممارسة عقيدتهم دون ان يتحرش بهم أحد. لكن هذا الهدوء لم يلبث أن أعقبته أسوأ موجات الاضطهاد الشيطانية البشعة التى تركت فى حوليات الاقباط جروحا دامية غائرة فى تاريخهم الطويل. حدث هذا تحت حكم الإمبراطور دقلديانوس[٤].

هناك ادعاء معروف بأن دقلديانوس ابتدأ قمعه للمسيحيين أولاً فى سنة ٣٠٢م ٣٠٣ (كتاب

---

١ ـ ميلن Milne مصر تحت الحكم الرومانى، (لندن ، ١٩٢٤) ص ٦٨ـ٧٢، ٢١٩، وبيل Bell مصر الرومانية من اغسطس إلى دقلديانوس، فى حوليات مصر، ١٣ (١٩٣٨)، ص ٨٦ـ٩٠ ، Scott-Moncrieff ، الوثنية والمسيحية فى مصر (كمبريدج ، ١٩١٣) ص٨٥ ـ ١٩٩.

٢ ـ لعب البطريرك ديونيسيوس العظيم دوراً رئيسياً فى إخماد البدع والهرطقات فى ذلك العصر . وقد انتصر بحق على بولس الشمشيطى Samesata Paul of فى مناقشة تعاليمه الهرطقية. وكان بولس الشمشيطى أسقف انطاكية ومؤيداً من زنوبيا ملكة تدمر ، وقدم ديونيسوس براهينه واثباتاته لبطلان بدعة بولس الشمشيطى فى أربعة كتب. انظر: عزيز سوريال عطية ، نفس المرجع ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ، فولتو Foltoe رسائل ديونيسوس السكندرى واثاره الأخرى . (١٩١٤)[sic].

٣ ـ استشهد بهذا الخطاب يوسابيوس القيصرى ، كما استشهد به ساويرس بن المقفع فى كتابه المشهور "تاريخ البطاركة" وجاء فى هذا الخطاب "سوف اذكر لكم حادثه بسيطة كمثل على اضطهادات ديسيوس Decius ان شاريمون Chaeremon العجوز، اسقف مدينة تسمى نيلوس Nilos قد هرب هو وزوجته إلى جبل العرب، ولم يعد ابداً، وبحث عنهما إخوته بحثا دقيقا فلم يعثروا لهما على اثر، لا حيا ولا ميتا".

٤ ـ فيما يخص مصر تحت الحكم الرومانى وعصور الاضطهاد انظر:

Attwater,D.The Dissident Eastern Christian Churches, Milwaukie, Wise. 1935

الكنائس الشرقيه المنشقة، ميلوكى ، ويسكونسن، الولايات المتحدة، ١٩٣٥.

Idem , The Christian Churches of the East, 2 vols, Milwaukie, 1947-9.

الكنائس المسيحية الشرقية، ميلوكى ، ١٩٤٧ ـ ٤٩.

عزيز سوريال عطية ، الكنيسة القبطية والروح القومى فى مصر فى العصر البيزنطى ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، ٣، ١٩٥٠ .

Bell, H.I., Roman Egypt from Augustus to Diocletian, in Chronique d'Egypt, XIII, 1938

بيل، ا.ه. مصر الرومانية من اغسطس حتى دقلديانوس ، فى حوليات مصر ، ١٣ ، ١٩٣٨.

بيل ه.ا. مصر من الإسكندر حتى الفتح العربى ، اكسفورد ١٩٤٨

Bell, H.I., Egypt from Alexander to the Arab Conquest,
Oxford 1948 Butsher, E.L., The Story of the Church of Egypt, 2 vols, London 1897

قصة الكنيسة المصرية، جزءان، لندن ١٨٩٧

Chauleur , S., Les Coptes, Alexandrie 1949.

شالي، س . الاقباط ، الإسكندرية ١٩٤٩.

Cramer Maria, Das christlich-koptische Aegypten, Wiesbaden 1959.

ماريا كرامر، مصر المسيحية القبطية ، فيس بادن ١٩٥٩.

Forster, E.M. Alexandria, A History and a Guide, N.Y. 1961.

فورستر ، م. الإسكندرية، تاريخ ومرشد ، نيويورك ١٩٦١.

Fortescue, A., The Lesser Eastern Churches, London 1913

الكنائس الشرقية الصغرى، لندن ١٩١٣.

Fowler , M., Christian Egypt, London 1901.

بروفــســر عطيــة)[1] عندمـا أصدر أوامره بطرد كل الجنود الذين يرفضـون الإذعان للتقـاليد الرومانية وتقديم الذبائح لآلهتهم. لكن هذا الزعم لا يطابق بعض الأحداث التاريخية التى تثبت أن دقلديانوس قد بدأ اضطهاده للمسيحين قبل ذلك، مثل استشهاد القديس مكسيميليان فى تابيسا Tebessa (الجزائر) فى ٢٩٥م والقديس مرسيليوس فى طنجة Tangier فى ٢٩٨م [٢].

ففى سنة ٣٠٣م أصدر مرسوماً يتضمن ابشع اجراءات القمع واكثرها وحشية. وطبقاً لهذه الاجراءات بدأ هدم الكنائس، وكذلك تسريح الجنود والموظفين المسيحيين ، ثم مصادرة أملاكهم وتحريم اجتماعاتهم. وكانت عقوبة انتهاك هذه القرارات هى الموت. ونتيجة لتمسك المسيحيين الصارم بعقيدتهم انتهى بهم الحال إلى أبشع واكبر موجات القهر البربرية التى لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

باقى هامش رقم (٤)

مصر المسيحية، لندن ١٩٠١ .

Healy, P.J., The Valerian Persecution, Boston 1905:

الاضطهاد فى عهد فاليريان، بوسطن ١٩٠٥.

Hardy , E.R., Christian Egypt, Church and People, N.Y. 1952.

مصر المسيحية: كنيسة وشعباً، نيويورك ١٩٥٢.

Heckel, A.Die Kirche von Aegypten, Strassburg 1918 .

كنيسة مصر، ستراسبورج ١٩١٨.

ملمى جرجس، الأقباط ، القاهرة ١٩٥٦.

١ . Iris Habib El-Masry, The Story of the Copts, 1968.

فرنسيس العتر ، الأمة القبطية والكنيسة الأرثوذكسية ، القاهرة ١٩٣٠ .

Janin , R., Les Eglises Orientales et les Rites Orienteaux. 3 ed. Paris 1935

الكنائس الشرقية والشعائر الشرقية، الطبعة الثالثة ، باريس ١٩٣٥.

Jouguet, P., La Domination Romaine en Egypte aux deux premiers siècles après Jésus Christ. Alexandrie 1947.

الحكم الرومانى فى مصر فى القرنين الأولين بعد يسوع المسيح ، الإسكندرية ١٩٤٧ .

القمص يوحنا منسى ، تاريخ الكنيسة القبطية ، القاهرة ١٩٨٣ .

Macairs, A. Histoire de l'église d'Alexandrie depuis Saint Marc jusqu'a nos jours , Le Caire 1894 .

مصر تحت الحكم الرومانى، الطبعة الثالثة لندن ١٩٢٤ .

نفس المؤلف ، سوء الإدارة الرومانية وخراب مصر ، لندن ١٩٢٧ .

Milne, J.G., The Ruin of Egypt by Roman Mismanagment, London 1927 . Bα

Murtagh, J. The Copts, Cairo 1949 .

Neale, J.M., A History of the Holy Eastern Church, London 1896.

تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة ، لندن ١٨٩٦ .

Noshy, I. The Coptic Church : Christianity in Egypt, Washington D.C. 1955.

ابراهيم نصحى ، الكنيسة القبطية : المسيحية فى مصر ، واشنطون د.سى. ١٩٥٥ .

Rostovtzeff, M., The Social ànd Ecunomical History of the Roman Empire, Oxford 1926.

التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للإمبراطورية الرومانية ، اكسفورد ١٩٢٦ .

Scott-Moncrieff, Paganism and Christianity in Egypt, Cambridge 1913 .

الوثنية والمسيحية فى مصر ، كمبردج ١٩١٣ .

Wallace, S. L., Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian, Princeton 1938.

الضرائب فى مصر من اغسطس حتى دقلديانوس ، برنستون ١٩٣٨ .

Westerman, W. L., Coptic Egypt, N. Y. 1944.

مصر القبطية ، نيويورك ١٩٤٤ .

Worrell, W.H., A Short Account of the Copts . Ann Arbor, Mich. 1945.

موجز عن تاريخ الأقباط ، ان اربر ، ميتشيجن ١٩٤٥ .

٢ . انظر على سبيل المثال : دائرة معارف اللاهوت والكنيسة ، جزء ١٠ ، ص ١٤ (١٩٦٥) .

تصف المصادر ضخامة هذه الموجة وهمجيتها فى صورة تفوق فى بشاعتها كل ما سبقها من موجات ، فجربوا فيها كل وسائل التعذيب البطىء مثل فقء العين ، وتشويه الوجوه والاجساد، ثم الحرق وقطع الرؤوس بالجملة [١]. أما فيما يختص بعدد الشهداء، فتختلف المصادر فى تحديده، وهو يتراوح بين ١٤٤٠٠٠ و ٨٠٠٠٠٠ شهيد[٢] ولهذا اطلق الاقباط على العام الذى تولى فيه دقلديانوس مقاليد الحكم، أى عام ٢٨٤م، اسم عام الشهداء Anno Martyrii واتخذ هذا العام بداية التقويم القبطى الكنسى، الذى يعتمد فى أساسه على التقويم المصرى القديم، وهو أول تقويم شمسى على الإطلاق، ابتكره أجدادهم فى سنة ٤٢٤٢ ق.م [٣]

ان قائمة شهداء ذلك العصر طويلة للغاية، وأعدادهم فى الموطن الأم لا تحصى ولا تعد[٤] ولذلك نود أن نذكر خاصة أعداد شهدائهم الضخمة خارج وطنهم وقارتهم ، تلك الأعداد والأسماء الكثيرة الأقل شهرة، رغم ثمار شهادتهم البالغة التى لازالت حية فى مختلف البلدان والقارات إلى يومنا هذا. أود أن أذكر فى هذا المقام شهداء ذاك العصر من أبناء الفرقة الطيبية، الذين بلغ عددهم ٦٦٠٠ شهيد والذين ساهموا بشهادتهم فى تبشير شمال إيطاليا وسويسرا وبلاد حوض نهر الراين حتى مدينة بون، العاصمة السابقة لألمانيا الغربية، وحتى مدينة كولونيا وإكسانتن. فصاروا من أحب وأشهر قديسى هذه المناطق والبلدان حتى اليوم، مثل القديس موريس بمحافظة فاليس بجنوب غرب سويسرا، والقديسين فيلكس وريجولا وإكسوبيرانتيوس شفيعى مدينة زيورخ بشرق سويسرا، والقديسة فيرينا شفيعة مدينة تسورتساخ بمحافظة أرجاو (وسط سويسرا) ومدينة شتيفا بمحافظة زيورخ، والقديس أورسوس وزملائه بمدينة سولوتورن بشمال سويسرا، والقديس فيكتور بجنيف، والقديس فلونتيوس وكاسيوس فى بون، والقديس جيريون فى كولونيا، والقديس بونيفاتيوس فى مدينة ترير، وملوسوس فى إكسانتن،

١. Mursurillo, H., The Acts of the Christian Martyrs, Oxford 1972, pp. 245-249; Girgis, S.F., The Theban Legion in Switzerland, in St. Pachom's Publications V, 1985, pp. 7, 16.
Eusebius, Ecclesiastical History, VI, 39; VII, ii; VIII, 7 & 12; Evetts, II, 119-136.

٢. ذكر الرقم الأول بواسطة فورستر :
Forster, E.M. Alexandria : A History and a Guide, pp. 86-7
ذكر الرقم الثانى على سبيل المثال بواسطة الدكتور وهيب عطا الله جرجس (الآن الأنبا إغريغوريوس ، أسقف البحث العلمى) ، وذلك فى كتاب :
Alfred Nawrath, The Land between Sand and Nile, Bern 1962, p. 132.

٣. التفاصيل فى : سمير فوزى جرجس ، المصريون والحضارة الغربية ، موجز هذه الدراسة ألقى كمحاضرة فى المعهد الفيدرالى العالى بمناسبة يوم مصر الحضارى بأوروبا، بناء على دعوة مكاتبنا الثقافية فى باريس وبرن ، مطبوعات القديس باخوميوس زيورخ وفيينا ١٩٨٧ .

٤. The Coptic "Synaxarium" and the "Lives of the Saints" include a huge number of the names of this era. According to the tradition the Synaxarium was compiled by Bishop Michael of 'Ithrib and Malig in the 15th the century .O.H.E.Burmester, On the Date and Authorship of the Arabic Synaxarium of the Coptic Church, in The Journal of Theological Studies , T.38 (p.240-253) is of the opinion that this compilation was effected in the 12 th century . The Synaxarium contains biographies of the saints and martyrs for all the days of the year. Details about Coptic Saints in :

Balestri, J. and Hyverant, H. Acts Martyrum, in Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium Scriptores Coptic, 2 vols (Paris, 1907-24); Till, W., Koptische Heiligen und Martyrer legenden, 2 vols, Orientralia Cristianna Analecta (Rome 1935-6); De Lacy O'Leary, The Saints of Egypt, (London, 1937); see Iaos W. Kamerer, M. Husselman & L.A. Shier, A Coptic Bibliography (Ann Arbor, Mich. 1950).

وعدا ذلك كثيرون من شهداء العصر بعيداً عن وطنهم وقارتهم.[١]

ومن أشهر شهداء ذلك العصر فى الوطن الأم، القديسة دميانة التى استشهدت مع أربعين راهبة فى شمال الدلتا. ومن أشهر شهداء عهد ماكسيميليان خليفة دقلديانوس القديسة كاترينا [٢] التى نالت إكليل الشهادة فى الثامنة عشرة من عمرها وسمى دير سيناء باسمها. وكذلك البطريرك السابع عشر بطرس الأول (٣٠٢-٣١١) المعروف بلقب "خاتم الشهداء".

جاءت فترة الهدوء النهائى فيما بعد عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين العظيم Flavius Valerius Constantinus (مولود عام ٢٨٥، امبراطور من ٣٠٦ حتى ٣٣٧) مرسوم ميلانو فى سنة ٣١٣م بعد انتصاره على الإمبراطور ماكسينتيوس Maxentius، زميله فى حكم النصف الغربى من الإمبراطورية وذلك فى معركة كوبرى ميلفيان Ponte Molle بالقرب من روما فى عام ٣١٢م. هذه الخطوة الحاسمة التى تم الاتفاق عليها بين قسطنطين العظيم وشريكه الإمبراطور ليسينيوس Licinius ، شريكه فى حكم الجزء الشرقى من الإمبراطورية الذى يتضمن شبه جزيرة البلقان ومنطقة نهر الدانوب، قررت وفرضت مبدأ التسامح الدينى. وطبقاً لهذا القرار الإمبراطورى أصبحت المسيحية مقبولة كإحدى الديانات الشرعية فى الإمبراطورية. هذا الاعتراف بالمسيحية كدين مسموح به ازداد فاعلية حين تمكن قسطنطين العظيم من هزيمة ليسنيوس Licinius، غريمه المتقلب فى النصف الشرقى وذلك فى عام ٣٢٤م.

هكذا صار قسطنطين، صديق المسيحيين، الحاكم الأعلى الوحيد للإمبراطورية، وابتدأ فى نفس العام بناء العاصمة الجديدة فى مكان مستعمرة بيزنطة Byzanz الإغريقية القديمة. هذه العاصمة الجديدة التى تم افتتاحها فى سنة ٣٣٠م ، والتى حملت اسم قسطنطين العظيم فيما بعد ، مدينة القسطنطينية التى صارت العاصمة المسيحية بدلاً من روما، بؤرة الوثنية التقليدية. وكان تعميد الإمبراطور قسطنطين فى نهاية حكمه ذروة هذا التطور الجديد. [٣]

كان حكم قسطنطين العظيم (٣٢٤-٣٣٧) بالتأكيد هو نقطة التحول التى تحدد بداية عصر جديد، هو عصر الإمبراطورية المسيحية. فقد اتبع ثيودوسيوس العظيم (٣٧٩ - ٣٩٥) منهج قسطنطين وسياسته وبلغ به الذروة حين أصدر مرسومه بتحريم الوثنية وأكد على أن المسيحية هى الدين الأوحد للدولة. وسرعان ما اختفت آخر بقايا العبادات الوثنية فى مصر، إذ قام الرعاع بالزحف على معبد سيرابيس فى كانوبوس Canopus (أبو قير) وعصفوا به، وتلا ذلك الزحف على المعبد الرئيسى بالإسكندرية وتحطيمه فى عام ٤١١م.

هذه الظاهرة المشرقة لعصر الاضطهاد الذى ذكرناه بإيجاز تام فى هذا الفصل، والذى تميز

١- S.F. Girgis ,Theban Legion in Switzerland, 1985, pp.9; see also the chapter on "Missionary Activities".

٢ - S.F. Girgis, Sainte Catherine d'Alexandrie, in Le Monde Copte, 20, (Limoges,1993) including a short bibliography

٣ - مجمع نيقية المسكونى لمحاربة البدعة الأريوسية كان فى عام ٣٢٥ ، فى ظل حكمه أيضاً .

كيف كان يمكن أن يبدو العالم المسيحى اليوم بدون أثناسيوس الرسولى؟

بروح البطولة والتضحية. تلك الروح التى اتخذت فى العهد التالى تعبيراً ناصعاً بالإصرار والتفانى ممّا منح الحضارة المسيحية أسمى مكوناتها ومقوماتها الحيوية بمحاربة الهرطقات وإنقاذ الإيمان السليم من بدع العصور التالية كالأريوسية والنسطورية والايطوخية، مما ادى إلى وضع التعاليم الأساسية التى صارت منذ ذاك الحين بمثابة العمود الفقرى للعالم المسيحى باكمله شرقاً وغربًا إلى يومنا هذا.روح الإصرار والتفانى الذى وهب للعالم نشأة الرهبانية والديرية فى أرض مصر على أيدى ابنائها القديسين انطونيوس وبولا وباخوميوس.

روح التفانى والإصرار والتضحية الذى ظهرت ثماره فى اتساع رقعة حركة التبشير التى قام بها أبناء هذه الكنيسة والتى تعدت بكثير حدود قطرهم بل وقارتهم أيضًا.

فى العصر التالى بعد قسطنطين العظيم وحتى وقوع الانشقاق المصيرى المدمر فى مجمع خلقيدونية (٤٥١)، وفرض العزلة على اقباط مصر، ظلت مصر فى واقع الأمر بمثابة بؤرة ومنبع الحضارة المسيحية لكافة أنحاء العالم المسيحى.

ما هو مصير العالم المسيحى دون اثناسيوس الرسولى و كيرلس العظيم عمود الإيمان، انطونيوس وباخوميوس، كم كان يبدو دون الرهبانية والديرية ودون مدرسة الإسكندرية، دون آباء مجامع محاربة هرطقات القرنين الثالث والرابع.

مدرسة الإسكندرية

أولى مدارس اللاهوت المسيحية [(١)]

كانت الإسكندرية أعظم مراكز الثقافة فى العالم منذ حكم البطالمة (٣٢٣ ق.م. إلى ٣١م). ونظراً لوجود المتحف (Museion) والمكتبة التى أنشأها بطليموس الأول (المتوفى عام ٢٨٠ ق.م.) والتى كانت تضم مائة باحث فى الإنسانيات والعلوم، أصبحت أهم وأخصب مراكز الثقافة الإغريقية على الإطلاق. كما كانت الإسكندرية بالمثل من أهم مراكز الثقافة اليهودية. هنا ترجم على سبيل المثال العهد القديم الى اللغة اليونانية (الترجمه السبعينية التى قام بإنجازها اكثر من ٧٠ عالما فى القرن الثانى قبل الميلاد).

واجه المسيحيون هذه الأرضية الثقافية فانتفعوا بهذا المدخل العقلى منذ البداية، ومن ثم صارت الإسكندرية بؤرة التعليم المسيحى. وطبقا للتقليد المأثور فإن تأسيس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية يرجع إلى عهد القديس مار مرقس الرسول [(٢)]، الذى أوكل إدارتها إلى باحث اسمه Justus ليتولى إدارتها. وجدير بالذكر أن مدرسة الإسكندرية لم تكتف قط بتدريس اللاهوت فحسب، بل تضمنت أقسامها أيضا العديد من العلوم والرياضيات والإنسانيات.

فى القرن الثانى الميلادى اختير الفيلسوف Pantaenus، بعد تحوله للإيمان المسيحى، ليرأس مدرسة اللاهوت المسيحى بالإسكندرية (توفى عام ١٩٠م)، وسرعان ما نمت واتسعت هذه المدرسة حتى صارت قلعة الفكر المسيحى بل وأول وأعظم مركز لتعليم المسيحية فى العالم أجمع، ومنها خرجت أول دراسة لاهوتية بمنهجية سليمة أنجزت أعمق البحوث فى تفسير الإنجيل المقدس.[(٣)]

لم يقتصر دور مدرسة الإسكندرية على إعداد وتخريج كبار رجال اللاهوت وآباء الكنيسة الذائعى الصيت من أبناء مصر فحسب، بل اجتذبت إليها عدداً كبيراً من كبار الدارسين الأجانب الذين سارعوا لاكتساب المزيد من منبع الإسكندرية الخصب، والذين أصبحت مساهماتهم الثمينة فى تأسيس العقائد المسيحية والفكر المسيحى جزءً لايتجزأ من التراث المسيحى القويم. وجدير بالذكر على سبيل المثال Pantaenus [(٤)] الذى أشرف على إدارة مدرسة الإسكندرية فى النصف الثانى من القرن الثانى والذى أوفده البطريرك ديمتريوس الأول (١٨٨ ـ ٢٣٠) للتبشير بكلمة الرب فى الهند، Clement of Alexandria [(٥)]

---

١ ـ الرجاء الرجوع إلى المدخل الخاص بمدرسة الإسكندرية فى هذه الدراسة.

٢ ـ البابا شنودة الثالث، Der Augenzeuge Gottes Abba Markus, 192، فصل ١٤، صفحة ١٠٤.

٣ ـ دراسة منهجية موجزة تتضمن قائمة بأهم المراجع فى هذا الموضوع فى:
Aziz S. Atiya, A History of Eastern Christianity, London 1968, pp. 33-39; See also A.S.Atiya, Coptic Church and Christian Civilization, Utah 1979. The Copts

٤ ـ J.Quasten, Patrology, 3 vols Westminster, Md. 1951-60, II., 4.5; A.von Harnack,Geschichte der altchristlichen Literatur bis Eusebius, 3 vols, Leipzig 1893-1904, I, 291-6; G. Bardy, Aux origines de l'école d'Alexandrie, in Recherches de science religieuse, XXVII, Paris 1937, 65-90.

٥ ـ J.E. L. Oulton / H. Chadwick, Alexandrian Christianity, Philadelphia 1956, pp. 56 ff; J. Quasten, II, 5-36; Scott-Moncrieff, pp. 53 ff., Bell, pp. 90-1; Hardy, pp. 12-16; See also G. Bardy, Clément d'Alexandrie, Paris 1926.; E. de Faye, Clément d'Alexandrie, 2nd ed., Paris 1906; F. R. M. Hitchcock, Clement of Alexandria, London 1899; J. Patrick, Clement of Alexandria, Edinburgh 1914; R.B. Tollinton, Clement of Alexandria, -A Study in Christian Liberalism, London 1914; idem, Alexandrine Teaching on the Universe, N.Y. 1932; J. Munck, Untersuchungen über Klemens von Alexandria, Stuttgart 1933; G.Catalfamo, S. Clemente Alessandrino, Brescia 1851.

الذى تولى عمادة المدرسة قبل عام ١٩٠ (توفى عام ١٩٢م) واضطر للهروب من الإسكندرية اثناء حملة الاضطهاد العنيفة التى شنها الإمبراطور Septimius Severus (٢١١.١٩٣) . أراد كليمنضس السكندرى ضمن جهوده الضخمة، اثبات عدم تعارض التعاليم المسيحية مع مبادىء الفلسفة اليونانية وكان يتفق مع سقراط فى الاعتقاد بأن الجهل أشر من الخطيئة فلا عجب أن نراه مكرسا عظيم الجهد فى تعليم الفلسفة إلى جوار اللاهوت، ولا عجب أن يعتبره البعض من اوائل ممثلى الليبرالية المسيحية.(١)

خلف كليمنضس السكندرى فى رئاسة مدرسة الإسكندرية انبغ تلاميذه وهو Origen (١٨٥-٢٥٤) وكان ذلك حوالى عام٢١٥. تميز Origen الذى يعد بحق أحد أكفأ وأشهر نوابغ العصر بايمان راسخ ونسك نادر . لم يكتف بالتبحر فى اللاهوت بل تعلم إلى جانب ذلك فلسفة الوثنيين على يد Ammonius Saccas (٢٤٢.١٧٤)، المؤسس الحقيقى للافلاطونية الجديدة Neoplatonism، كما اتسع مجال رحلاته ونشاطه وإشعاعه من فلسطين وسوريا إلى اليونان وروما، وشملت كتاباته معظم اقسام العهد القديم والعهد الجديد وصار بلا جدال من اشهر علماء، شرح وتفسير علم اللاهوت على الإطلاق (٢). فها هم أشهر المتخصصين يلقبونه "أعظم مسيحى فى القرن الثالث" (٣) بينما ينشرون ابحاثهم عنه ضمن سلسلة المحاضرات الدورية عن نوابغ البشرية (٤).

رغم عدم اتساع هذه الدراسة لأى عرض لأعمال ودراسات هذا النابغة، مهما كان ايجازها، إلا انه يتحتم علينا الإشارة إلى عناوين بعض هذا النتاج الفريد الذى كان ولايزال يلقى صدى

---

١ ـ من اهم كتابات كليمنضس السكندرى ما يلى:
"An Exhortation to the Greeks" , the "Pedagogus" on Chistian life and ethics, and his "Miscellaneous Studies" (Stromateis) a compilation of numerous treatises of various character.
هذا ويتبين لنا اهمية دراساتة الفريدة خاصة فى محاوراته العديدة التى حاول خلالها التوفيق بين المسيحية والحضارة اليونانية .

٢ ـ من بين المراجع والدراسات الهامة فى هذا الموضوع ما يلى
Oulton & Chadwick, pp. 171 ff; Quasten, II. 37-101; Bell, pp. 90-1; Hardy, pp. 13-4, 16-8, 91-2, 95-7.
See also R. Cadiou, Introduction au système d'Origène, Paris 1932; idem, La jeunesse d'Origène-Histoire de l'école D'Alexandrie au début du IIIe siécle, Paris 1935; J. Daniélou, Oeigène, Paris 1948;J. H. Denis, De la philosophie d'Origène, Pais 1884; E.de Faye,Origène . Sa vie, son œuvre, sa pensée, 3 vols. Paris 1923-8;

٣ ـ English translation F. Rothwell,Origen and his Work . London 1926; R. P. C . Hanson, Origen's Doctrine of Tradition , London 1954; A.von Harnack, History of Dogma, tr. From the 3rd German edition by N. Buchanan, 7 vols. Boston 1895-1900, idem, der Kirchengeschichtliche Ertrag der exegetischen Arbeiten des Origenes, Leipzig 1919; J. Tixeront, History of Dogmas, 3 vols., St. Louis, Mo. Translated from the 5th French edition by H. L. B. . I. 265 ff; A. Lieske, Die Theologie der Logos-Mystik bei Origenes, Münster 1938; H. de Lubac Histoire et Esprit - L'intelligence de l'écriture d'après Origène . Paris 1950; E.R. Redepenning, Origenes, Eine Darstellung seines Lebens und seiner Lehre, Born 1841; W.Volker, Das Vollkommenheitsbild des Origenes, Tübingen 1931; W.E. Barnes, The Third Century Greatest Christian- Origen, in The Expository Times, No. 44, Edinburgh 1932-33, pp. 295-300; W.R. Inge, Origen, British Academy Annual Lectures on a Master Mind, London 1946; J. Champonier, Naissance de l'humanisme chretien, in Bulletin de l'Association g. Budé , 1947, pp. 58-96, etc ... W.E. Barnes, The Third Century Greatest Christian-Origen, in The Expository Times, No.44 Edinburgh 1932-33,pp. 295-300.

٤ ـ 4 - W.R. Inge, Origen in The Academy Annual Lectures on a Master Mind, London 1946.

عالميا إلى يومنا هذا . بطبيعة الحال لا نستطيع فى إشارتنا الموجزة هذه التعرض لأسباب خلاف أوريجين مع البطريرك ديمتريوس الأول،[1] مما أدى إلى حرمان أوريجين وعزله من رئاسة مدرسة الإسكندرية ثم هروبه إلى قيصرية بفلسطين (٢٣٠) حيث نمت مدرسة جديدة بالتفاف بعض كبار مفكرى العالم المسيحى حول هذه الشخصية الفذه مثل Gregory Thaumaturgus، أسقف قيصرية الجديدة فى Pontus.

فى عام ٢٥٠ صار أوريجين [2] ضحية لموجة الاضطهادات العارمة التى شنها الإمبراطور Decius (٢٤٩–٢٥١) ، مما أدى إلى انهيار صحته . توفى أوريجين فى عام ٢٥٥ بالغاً من العمر ٦٩ عاماً .

إن ظهور هذه الشخصية الفذة ونتاجها الفريد أدى منذ البدء وفى العصور التالية إلى نمو جبهتى الصراع بين المؤيدين والمعارضين. وبينما نجد بين الدافعين عنه البطريرك

١ ـ فى هذه المناسبة يود الكاتب أن يعرب عن عظيم شكره واحترامه وتقديره لوالدنا وأستاذ الجيل الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية الذى ندين له جميعا بنشأة وإثراء الكتابة القبطية فى العصر الحديث بجهود ودراسات منهجية فريدة الكم والنوع . وجدير بالذكر أن هذا الفصل ، بل وهذا المدخل ، يستند فى متنه إلى معالجة بروفسر عطية له فى كتابه :

"A History of Eastern Christianity" ,London 1968.

من أهم دراسات أوريجين مايلى :

"Hexapla", the critical edition of the Old Testament which combined in six parallel columns all the available texts both in Greek and Hebrew scripts.

جدير بالذكر أن هذه الدراسة هى التى استعملها القديس جيروم فى قيصرية Caesarea

"Scholia", Monumental Exegetical Commentaries, which were partly translated into Latin by Rufinus.

للأسف لم يصلنا من كلتا الدراستين سوى النزر اليسير .

"De Principiis", Origen's most significant work in theology, in which he systematized all the Christian Doctrine in four books. These are :

On God and the clestial world, on man and matter, on free will and its impact, and on the Scriptures.

للأسف لم يصلنا أيضاً من هذا العمل الفريد سوى بعض المقتطفات التى نشرها القديس جيروم وروفينوس، وذلك باللغة اللاتينية .

"Contra Celsus"

التى دافع فيها أوريجين عن المسيحية ضد هجمات فيلسوف القرن الثانى الوثنى.

جدير بالذكر من ضمن كتاباته فى النسك ما يلى :

"The Exhortation to Martyrdom".

التى نشرت فى عام ٢٣٥، أى أثناء موجة الاضطهاد التى شنها الإمبراطور . Maximinus.

"On Prayer",

التى كان لها عظيم الأثر على تفكير المسيحيين فى العصور الأولى .

٢ ـ بعض الدراسات عن مؤلفات أوريجين المذكوره فى الصفحات السابقة :

"Hexapla", See: H.H. Howorth, the Hexapla and Tetrapla of Origen, in Proceedings of the Society of Biblical Archeology, No. 24, 1902 , pp. 147-72; H.M. Orlinsky, The Columnar Order of the Hexapla, in The Jewish Quarterly, XXVII, n.s. 1936, 137-49, W.E. Staples, The Second Column of Origen's Hexapla, in Journal of American Oriental Society, LIX, 1939, 71-80.

"Scholia", C. Diobouniotis & A. von Harnack, Der Scholienkommentar des Origenes zur Apokalypse Johannis, Bd.38, Heft 3, Leipzig 1911; C. H. Turner, The Newly Discovered Scholia of Origen on the Apocalypse, in Journal of Theological Studies, 1912, pp. 386-97; idem, Scholia in Apocalypsin, in Journal of Theological Studies 1924, pp. 1-16.

"De Principiis": G.w. Butterworth, Origen on First Principles, London 1936.

See further: W. Fairweather, Origen and Greek Patristic Theology, N.Y. 1901; F. Prat, Origène, le théologien et l'exégète, 3rd ed. Paris 1907.

L. b. Radford, Three Teachers of Alexandria, Theognostus, Pierius and Peter : A Study in the Early History of Origenism and Anti-Origenism, Cambridge 1908.

هيـــراكلاس، خليـــفة ديمتـــريوس الأول (٢٣٠ ـ ٢٤٦)، الأنبـــا أثناسيـــوس الرســـولـــى،
St. Basil the Great . St Gregory Nazianzen, Didymus the Blind, etc..

نقرا بين معارضيه :

St. Epiphaneus, Bishop of Salamis on Cyprus, St. Jerome, Patriarch Theophilus of Alexandria.
هذا كما اشتعلت ثورة الانقسام مع أوريجين أوضدّه فى الأجيال والقرون التالية حتى اليوم. وجدير بالذكر إدانته فى مجمعى القسطنطينية اللذين عقدا فى عامى ٥٤٢ و ٥٥٣ فى عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥).

تلا أوريجين فى رئاسة مدرسة الإسكندرية تلميذه ومساعده السابق Heraclas الذى خلف البطريرك ديمتريوس الأول على عرش القديس مارمرقس من عام ٢٣٠ حتى سنة ٢٤٦، فلا عجب أن نجده يسارع بإلغاء قرار حرمان أستاذه أوريجين، الذى أصدره البطريرك ديمتريوس الأول، كما حاول البطريرك هيراكلاس جاهدا إعادة أستاذه السابق أوريجين إلى مدينته الإسكندرية، ولكن دون جدوى.

خلف هيراكلاس فى عمـــادة مدرســـة الإسكندريـــة أحد أشهـــر تلاميـــذ أوريجـــين وهـــو Dionysius السكندرى الذى عرف بعد تجليسه على عرش القديس مارمرقس فى عام ٢٤٦ باسم البطريرك ديونيسيوس العظيم (حتى ٢٦٤). [1]

شاهد عصره عواصف عارمة منها موجة الاضطهاد العنيفة التى شنها الإمبراطور Decius (٢٤٩ ـ ٢٥١) ضد المسيحيين مما اضطر البطريرك ديونيسيوس إلى الهروب ثم الاعتكاف بمكان سرى لفترة وجيزة، وبعد بضعة أعوام شن الإمبراطور Valerian حملة اضطهاد عنيفة ضد المسيحيين من جديد. شهد هذا العصر أيضاً انقلاب حاكم الإسكندرية Ammulianus الذى أعلن نفسه إمبراطوراً مما أدى إلى اندلاع نيران الحرب الأهلية التى انتهت بهزيمة Ammulianus والقبض عليه وترحيله إلى روما أسيراً. [2] وقد أدت هذه الحرب الأهلية إلى خراب البلاد التى صارت فريسة للمجاعات والأوبئة وانعدام الأمن.

وعهد الأنبا أثناسيوس الرسولى بعمادة مدرسة الإسكندرية إلى Didymus الكفيف [3]، الذى فقد بصره وهو فى الرابعة من عمره. استمرت رئاسته للمدرسة من ٣١٥ إلى ٣٩٨، وقد شاهد هذا العصر الصاخب هرطقة أريوس وأول المجامع المسكونية فى نيقية (٣٢٥). وجدير

1- Evetts, I, 80-93; C.L. Foltoe, The Letters and Other Remains of Dionysius of Alexandria, Cambridge 1904; idem, St Dionysius of Alexandria : Letters and Treatises, English translation, London 1918; F.C. Conybeare, Newly Discovred Letters of Dionysius of Alexandria to the Popes Stephen and Xytus, in English Historical Review, XXV, 1910, 111-14; J. Burel, Denys d'Alexandrie - Sa vie, son temps, ses œuvres, Paris 1910; P.S.Miller, Studies in Dionysius the Great of Alexandria,Diss . Erlangen 1933; F.Dittrich, Dionysius der Grosse von Alexandrien, Frèiburg 1876; P. Morize, Denys d'Alexandrie, Paris 1881; T. Panaitescu, Das leben und literarische Tätigkeit des hl. Dionysius von Alexandrien, Bucarest 1905 .

2 - Milne, Egypt Under Roman Rule, pp. 73-4.

3 - G. Bardy, Didyme l'Aveugle, Paris 1910; Editions of Works by J.A.Mingarelli, Bologna 1769, reproduced in Migne, Parologia Graeca T. 39, col. 131-1818.

بالذكر أن من بين مشاهير تلاميذ ديديموس نجد :

St. Gregory Nazianzen, St. Jerome and Rufinus.(المؤرخ)

وجدير بالذكر أيضا أنه الى جانب كتاباته اللاهوتية ومن بينها محاربته ضد هرطقة Paul of Samosata اسقف انطاكية عميل الملكة زنوبيا، ملكة (تدمر)... إلى جانب ذلك قام ديديموس باختراع أول كتابة للمكفوفين باستخدام الحروف البارزة، قبل اختراع Louis Braille (1809-1852) المماثل بخمسة عشر قرنا.

اضمحل بعد ذلك إشعاع مدرسة الإسكندرية بعد أن أدت دورها الحيوى البالغ الأهمية فى إعداد تعاليم اللاهوت المسيحى ومناهج تفسيره وصياغتها[١]، مما كان له عظيم الأثر فى محاربة هرطقات القرنين الرابع والخامس وما تلاهما.

نشأة الرهبانية وتطورها

إن نشأة الرهبانية وتطورهافى مصر[٢] يعد بلا شك منحة عظيمة قدمها الأقباط إلى المسيحية فى كافة أرجاء العالم شرقاً وغرباً. لقد كان لهذا التطور الفريد وثماره عظيم الأثر عبر القرون والقارات حتى يومنا هذا. وقد ندرك أهمية الرهبانية والديرية البالغة فى حياة البشرية، إذا ما تساءلنا عن تصور الحياة فى العالم المسيحى دون الرهبنة والأديرة ؟؟؟؟؟

تنسب نشأة هذا النوع من حياة الزهد والنسك والتقوى إلى القديس أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) وينسب تطورها إلى التنظيم الديرى إلى القديس باخوميوس (٢٨٨ - ٤٠٥). ودون الإقلال من أهمية الدور الذى لعبه هذان القديسان ، فإن جذور حياة النسك هذه كانت موجودة من قبل فى التربة المصرية. ففى عهد الإمبراطور أنطونيوس بيوس Antonius Pius (١٣٨ - ١٦١) قرر شخص يدعى Frontonius بصحبة سبعين رجلاً من رفاقه نبذ هذا العالم وكل شهواته والاقتران بحياة العزوبية والتبتل فى وادى النطرون بالصحراء الغربية (الصحراء الليبية)، وجدير بالذكر أيضاً لقاء القديس الأنبا أنطونيوس صدفة أثناء عزلته فى الصحراء الشرقية بالقديس بولس المتوحد الذى كان يبلغ من العمر ١١٣ عاما وكان يعيش فى هذه المنطقة القفراء النائية حياة الزهد والتقشف منذ صباه.

---

١ - من أسماء رئيسي المدرسة الأقل شهرة في نهايةالقرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلادي:
Theognostus (265-282), his follower Peirius, then Peter about 300 and Hesychius in the fourth century, see: Quasten, II, 109-18 and III, 85-100 .

٢ - الرجاء الرجوع إلى المراجع التالية :
Kammerer's Coptic Bibliography , nos. 2476-2569, also nos. 1202-1340, 1620, 2674-75, & 3108. Important Arabic source ed. and tr. By B.T.A. Evetts.
The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighbouring Countries, attributed to Abu Saleh the Armenian, Oxford 1895; A.M. J. Festugière, Historia Monachorum in Aegypto Subsidia hagiographica No.34, Brpssels 1961; R.Draguet, Les pères du désert, Parios 1949; Helen Waddell, The Desert Fathers, London 1936; W.H. Mackean, Christian Monasticism in Egypt to the Close of the Fourth Century, London 1920; G.M.L. Besse, Les Moines d'Orient antèrieurs au Concile de Chalcédoine, Paris 1900; Jules Leroy, Moines et monastères du Proche-Orient, Paris 1958, pp. 32-62; K. Heussi, Der Ursprung des Mönchtums, Tübingen 1936; J. Brèmond, Les pères du désert, 2vols, Paris 1927; Quasten, Patrology, Vol. III, pp. 146-189; Otto F.A. Meinardus, Monks and Monasteries of the Egyptian Deserts, Cairo 1961; Abbot Matta El-Maskeen, Al-Rahbanah Al-Qibtiah fi 'Asr Al-Qidis Anba Maqar, Arabic, Monastery of Saint Macarius, Nitrean Valley, 1st ed. 1972:

على الرغم من هذا، ورغم وجود هذه الأمثلة لحياة العزلة والزهد والنسك، فإن نشأة طريقة محددة المعالم لحياة الرهبنة تنسب بالتأكيد للقديس أنطونيوس من بلدة Coma التابعة لمركز بوش بمحافظة بني سويف الحالية.[١]

إذعاناً لتعاليم السيد المسيح "إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني" (متى ٢١:١٩) الذي سمعه القديس أنطونيوس في الكنيسة ذات مرة وهو في العشرين من عمره، قام القديس بتنفيذ هذه الوصية حرفيا وباع ضيعته، أعطى حصيلتها للفقراء، ولم يحتفظ إلا بما كان ضرورياً لإعاشة أخته التي أودعها في مجتمع للعذارى، نظرا لوفاة والديها من قبل ، ثم عبر النيل الى الصحراء الشرقية ليعيش حياة العزلة الكاملة مع الله.

عاش الأنبا أنطونيوس حياة متناهية في القداسة والتقوى والتقشف لمدة ٨٥ عاما. وسرعان ما وصلت سمعته باعتباره "مدافع عن السيد المسيح" (Athlete of Christ) إلى خارج حدود القطر فاقتفى أثره الكثيرون وعاشوا حول كهفه منتفعين بحكمته ومستنيرين بإرشاداته. ومع مرور الزمن بدأ ظهور تجمعات المتوحدين الذين تعودوا الإقامة على مقربة من الآباء المشهورين بالتقوى والنسك والزهد، فكان هذا بمثابة الخطوة الثانية في تطور الرهبنة التي يمكن تسميتها "حياة تجمعات المتوحدين" (Collective eremitism).

وسرعان ما ظهرت مستوطنات أخرى مماثلة إلى جانب المستوطنات الأولى التي نمت حول كهف القديس أنطونيوس في منطقة Pispir في الصحراء الشرقية المعروفة باسم "صحراء العرب" تجاه البحر الأحمر، حيث لايزال دير الأنبا أنطونيوس قائماً حتى الآن. ثم نشـأت مستوطنات أخرى بجوار صومعة القديس Palaemon في Chenoboskion بمنطقة Thebaid بصعيد مصر، كما ظهرت ثلاث مستوطنات أخرى في وادي النطرون Nitrea، Cellia & Scetis في الصحراء الغربية.

أسس تجمع النطرون [٢] القديس أمون الذي اعتنق الرهبانية بعد زواجه واعتاد على مقابلة زوجته كل ليلة للصلاة والعبادة ثم لجأ بعد ذلك الى وادي النطرون حيث وهب حياته لله والتعبد لمدة ٢٢ عاما. وسرعان ما تضاعف عدد المتوحدين بجوار كهفه مما ادى الى تبلور تجمع المتوحدين بوادي النطرون سريعاً. أما Cellia، إلى الشمال من وادي النطرون، فقد نشأت حول

---

١ - المزيد من المراجع في الهوامش التالية.

٢ - Athanasius the Apostolic. Vita Sancti Antonii (Migne. P.G.XXVI, 835, 976):

عن الترجمات المختلفه الى لغات عدة، الرجاء الرجوع إلى

H. Weingarten, Der Ursprung des Mönchtums in nachconstantinischen Zeitalter, in Zeitschrift für Kirchengeschichte, Gotha 1877, Vol. I, pp. 1-35 & 545-74; A. Eichhorn, Athanasii de Vita Ascetica Testimonia Collecta, Halle 1886; R. Meyer, St. Athanasius - The Life of Saint Anthony, Westminster 1950; G. Garitte, Un témoin important du texte de la Vie de Saint Antoine par Saint Athanase, Brussels and Rome 1939; Meinardus, pp. An Arabic translation of the Vita with introductory remarks and epilogue made by Fr. Markus Daoud, Cairo 1950.

مراجع هامة عن هذه المنطقة

H.C.Rvelyn-White, The Monasteries of Wadi'Natrun, 2 vols, N.Y. 1926-33; C. Martin, Les Monastères du Ouadi Natroun, in Nouvelle Revue Théologique, LXVIII, 1935, 113-34, & 328-52

صومعة القديس مكاريوس السكندرى الذى عاش أعواماً طويلة فى منطقة مستنقعات مريوط الموبوءة وتوفى فى سنة ٣٩٣ بعد أن بلغ من العمر مئة عام. اما Scetis إلى جنوب شرق وادى النطرون فقد أنشأها هناك القديس مكاريوس الكبير (الأنبا مقار الكبير) ديره القائم حتى الآن. وجدير بالذكر أن حياة هذا القديس العظيم تتضمن الكثير من الأعمال الإعجازية الباهرة التى يستطيع القارىء اللقاء بها فى كتاب "The Paradise" لمؤلفه Paladius.

سرعان ما تكاثرت مثل هذه التجمعات من المتوحدين فى أماكن متعدده من البلاد مثل حصن بابليون وممفيس، Heracleopolis & Oxyrychus وغيرهما.

أما التطور الثالث والخطوة الأخيرة فى بنيان نظام الديرية الذى يجمع بين التوحد والزهد من ناحية والحياة المشتركة من ناحية أخرى، بين العبادة والعمل، بين النسك والمعرفة، فقد حققه القديس باخوميوس (٢٨٨ ـ ٤٠٥) فى Tabennesis ، فأسس بهذا الموقع أهم تنظيم ديرى يجمع بين حياة التقوى والقداسة وبين الإخلاص فى أداء الواجب بالعمل والمعرفة.

ولد باخوميوس [1] فى أسرة وثنية وقام بأداء الخدمة العسكرية فى جيش الإمبراطور Constantine ثم جيش الإمبراطور Licinius حيث ازدادت معرفته بالمسيحيين وسلوكهم الإنسانى، إذ تعود الكثيرون منهم احضار الغذاء للعسكر وتضميد جراحهم مما أثار تعجبه وإعجابه حتى لقد قرر اعتناق دينهم والاقتداء بهم. وبالفعل قام باخوميوس فور إنهاء الخدمة العسكرية بالتحول إلى المسيحية وتعلم على يد الناسك الشهير Palaemo . ولكن الأنبا باخوميوس سرعان ما أدرك أن الوحدة والزهد لا يمثلان الوسائل الوحيدة التى تفتح أبواب السماء، فقرر استحداث نظام ديرى جديد وتطويره يجمع بين التقوى والنسك والتوحد من ناحية، وبين الحياة الجماعية والعمل والمعرفة من ناحية أخرى ، مما قد يساعد على اجتذاب أعداد كبيرة إلى حياة التقوى . وبالفعل قام الأنبا باخوميوس بتحقيق هذا الطور الثالث فى نشأة الرهبانية وتحولها الى الديرية المعروفة.

انعكست حياة القديس باخوميوس بكافة أطوارها على هذا التنظيم الجديد، طور العسكرى الذى شعاره الالتزام، طور المعلم الذى يدرك حيوية المزيد من المعرفة، الإدارى الذى يقدس التنظيم والنظام، وفى نفس الوقت المسيحى الفاضل الذى يحيا حياة التقوى وفقاً لتعاليم الخلاص. وانعكست مقومات هذا التنظيم فى حياة الراهب طوال الليل والنهار، فى ملبسه ومأكله، فى ساعات النوم وطريقته، فى أوقات الراحة والعمل، فى تناسق متميز دون إرهاق للروح بالمبالغة

١ ـ عن حياة القديس باخوميوس :

L.Th. Lefort, les vies coptes de Saint Pachôme et de ses premiers successeurs, Louvon 1943; idem, Œuvres de S. Pachôme et de ses disciples, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, Vol. 100; Scriptores Coptici, T. 24, Louvin 1956; Pachomiana: Commèmoration de XVIème Centenaire de St.Pahôme l'Egyptien (348-1948); F. Halkin, S. Pachomii Vitae Graecae, Brussels 1932; E.Amélineau, Histoire de St Pakhôme et de ses communautès, Documents coptes et arabes inédits, Annales du Musée Guimet, 17, Paris 1889; P. Ladeuze, Etudes sur le Cénobitisme pakhômien pendant le quatrième siècle et la première moitié du cinquième , Louvin 1898; G. Grutzmacher, Pachomius und das älteste Klosterleben, EinBeitrag zu Mönchsgeschichte, Freiburg und Leipzig 1896; A.Boon , Pachomiana Latina, Règle et épitres de St Pachôme, épitre de St Théodore et Liber de St Oriesius, Louvin 1932; J.Doresse, Monastères coptes thébains, in Revue des Conférences Francaise en Orient, Novembre 1949, pp.3-16.

التى لا حدود لها . بطبيعة الحال صار يتحتم على الراهب التحكم فى جسده ولكن دون تحطيمه، وكان يتحتم عليه فى الأعوام الاعدادية الثلاثة إتقان القراءة والكتابة، وحفظ عدد معين من المزامير ورسائل العهد الجديد، هذا إلى جانب تمارين التزهد والنمو فى الحياة الروحية.

ولا عجب أن نجد عند انتقاله إلى أورشليم السمائية عدداً كبيراً من الأديرة المماثلة التى انتشرت سريعاً لتعم كافة الأقاليم. وبينما بلغ عدد رهبان النظام الباخومى ٧٠٠٠ راهب فى منطقة Tabennesis، كان عدد الرهبان فى وادى النطرون ٥٠٠٠ وفى الفيوم Arsinoe ‏١٠٠٠٠ راهب. وجدير بالذكر أنه وفقا لأحد المصادر التى ترجع الى عام ٣٩٤، فإن عدد الرهبان بالصحراء كان يساوى عدد سكان وادى النيل.

كان التنظيم الباخومى يهدف إلى إدارة محكمة للغاية حتى يمكن تحقيق الأهداف التى يصبو إليها والتى ذكرت من قبل. كان التنظيم يضم كل ثلاثة أديرة متقاربة أو أربع إلى عصبة واحدة تحت قيادة رئيس منتخب من بين رؤساء هذه الأديرة المعنية، كما كانت بعض هذه الوحدات تتحد تحت قيادة شاملة برئاسة قائد عام، كان يراس بدوره أكبر أديرة هذه الوحدات وإلى جانب الاجتماعات الدورية التى كانت تعقد لكافة الرهبان لدراسة مشاكلهم ومواجهة الأسئلة التى تجول بخاطرهم ، كانت تعقد جمعية عمومية مرتين كل عام، وذلك يوم عشرين من شهر مسرى القبطى (الموافق١٢ اغسطس)، أى فى فصل الصيف وذلك لتنظيم الشئون الإدارية بعد موسم الحصاد، بينما كان الاجتماع الثانى يعقد فى عيد القيامة المجيد لدراسة التقارير السنوية واختيار الرؤساء الجدد وأخيراً للمشاركة فى صلاة الغفران العامة.

بطبيعة الحال لم تضم هذه الأديرة الرهبان من أبناء مصر فحسب، بل اتسعت لجميع أبناء العالم المسيحى الذين سارعوا للمشاركة فى حياة النسك والتقوى. وضمت الأديرة القبطية الكثيرين من اليونانيين والرومان والليبيين والسريان والنوبيين والأحباش والكابادوكيين، وكثيرين غيرهم من مختلف البلدان والأجناس.(١)

---

١. Waddell, pp. 7-8; Hardy, p. 92

بناء على ما ذكره Palladius نورد الأرقام التالية :

٧٥٠٠ راهب فى منطقة الاسكندرية ووادى النطرون ، ومثل هذا الرقم فى منطقة طيبة Thebaid والأماكن الأخرى التى زارها . وجدير بالذكر أن هاردى يشك فى صحة الأرقام التى ذكرت عن Rufinus والتى تبناها Butcher (Story of the Church of) Egypt, جزء أول ، ص ١٩٥ . هذه الأرقام هى ١٠٠٠٠ راهب و٢٠٠٠٠ راهبة فى Oxyrynchus . هذا مع أن هاردى يذكر أن عدد الرهبان كان يتراوح فى ذروته ما بين ١٠٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ بينما لم يزد عدد السكان الإجمالى فى ذلك الوقت ٧،٥٠٠،٠٠٠ نسمه. أما ماينارديوس فيقدر أعلى الأرقام بما يزيد عن نصف مليون راهب منهم ١٠٠٠٠ فى الفيوم فقط وفقاً لما ذكره روفينوس (Meinardus, Monks and Monasteries, p. 380).

ومن بين الأرقام التى ذكرت أيضاً ما يلى :

٥٠٠٠ فى وادى النطرون وفق Palladius (ص٢٨٧) ، ٢٠٠٠ فى Thebaid ، ٥٠٠٠ فى باويط . وتبعاً John of Petra كان العدد فى Scetis ‏٣٥٠٠ (ص ٥٥٠) بينما ذكر Cassian ‏٥٠٠٠ ، أما الرقم الذى ذكره St. Jerome وهو ٥٠٠٠ فقد يكون مبالغاً فيه وهذا ما يراه بروفسر عزيز سوريال عطيه أيضا (A History of Eastern Christianity, 1968, p. 63) .

أما المؤرخ الإسلامى المقريزى (١٤٤٢) فيذكر ضمن أحداث الفتح العربى لمصر فى القرن السابع الميلادى ، أن عدد الأديرة كان مئة فى وادى النطرون وحده ، وأن ٧٠٠٠٠ راهب من هذا الوادى قد قاموا بالترحيب بعمرو بن العاص عند عودته من الإسكندرية طالبين تأمين سلامتهم ، وجدير بالذكر فى هذا المجال أن عدد الأديرة فى عصر المقريزى نفسه ، أى فى القرن الخامس عشر ، كان قد تقلص حتى وصل الى ٨٦ ديراً فقط فى كافة أنحاء مصر .

انظر كتاب الخطط ، جزءان ، بولاق ١٢٧٠ هجرى ، الجزء الأول ص ١٨٦ .

عدد الرهبان والراهبات والأديره الحالى سيذكر فى المدخل التفصيلى المختص بالرهبنة القبطية .

انظر أيضا :

Macrizi, Geschichte der Kopten, ed. & tr. by F. Wüstenfeld, Göttingen 1846, see tr., pp. 85-117 on monasteries.

تكاثرت اديرة القديس باخوميوس سريعاً وتجاوزت حدود مصر وإفريقيا . فلقد اجتذبت إليها عدداً كبيراً من أبناء الدول الأوربية والآسيوية والإفريقية الذين صاروا خير وسيط لنقل نظام الرهبنة القبطية وادخاله فى كل أنحاء العالم المسيحى. نذكر من بين هؤلاء الأعلام على سبيل المثال Palladius (حوالى ٣٦٥ ـ ٤٢٥)، أسقف Helenopolis فى بيثينيا بآسيا الصغرى، الذى زار اديرة وادى النطرون فى عام ٣٨٧ وصار راهباً ثم قضى ثلاث سنوات بين إخوته الرهبان وقام بتسجيل حياة القديسين المصريين فى كتابه المشهور "Lausiac History" المعروف باسم "بستان الآباء" (بستان الرهبان) [١].

والقديس Jerome (٣٤٢ـ ٤٢٠)، [٢] والمؤرخ الكنسى Rufinus (٣٤٥ ـ ٤١٠) [٣]، اللذان حضرا من ايطاليا وقضيا فترة من الوقت فى بؤرة الزهد والتقوى وساهما فى نقل نموذج الرهبنة الى بلادهم من خلال الدراسات التى كتباها مثل Historia Monachorum in Ægypti الذى كتبه روفينوس. وجدير بالذكر أيضا فى هذا المجال القديس John Cassian (٣٦٠ ـ ٤٣٥)، احد مواطنى جنوب غاليا (فرنسا).

ذهب كاسيان فى صحبة احد اصدقائه يدعى Germanius لزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين حيث ترهبنا ، ثم ذهبا بعد ذلك إلى مصر مهد الرهبانية وهنا امضيا سبع سنوات فى زيارة آباء الصحراء فى Scetis و Thebaid بصعيد مصر. فى هذه الأثناء قام القديس كاسيان بجمع المادة اللازمة لكتابيه المشهورين عن خبراته مع آباء الرهبنة بمصر، وهما D'Institutis[٤] و Collationes Patum. [*]

تضمن هذان الكتابان وصفاً لحياة رهبان مصر وعاداتهم ، كما تضمنا ايضاً تنظيماتهم وحكمتهم . ولقد تمتع هذان المؤلفان بشهرة واسعة طوال العصور الوسطى حتى ان القديس Benediet of Nursia استعان بهما عند قيامه بتقنين نظامه الديرى فى القرن السادس.

هذا وقد قام القديس كاسيان بعد عودته إلى أوربا بتأسيس ديرين فى مرسيليا طبقا للنمط القبطى الذى عاشه من قبل، الأول للرجال والثانى للبنات، وذلك فوق مكان استشهاد القديس فيكتور، أحد شهداء موجة الاضطهاد العارمة التى شنها الإمبراطور مكسيميان (٢٨٦ ـ ٣٠٥).

---

١. C. Butler, The Lausiac History of Palladius, 2 vols, Cambridge 1898-1904; Kammerer's Bibliography, nos. 1179-81, 2350, 2557, 2565.
See also : E.A.T. Wallis Budge, tr. The Book of Paradise ..., 2 vols, London 1904; idem, The Paradise of the Fathers ..., 2 vols, London 1907; rev . edn. Oxford 1934; idem, The Wit and Wisdom of the Christian Fathers of Egypt, Oxford 1934.

٢. See : Nicene and Post-Nicene Fathers, 2nd., ser. Vol. III; L.T. Lefort, Un texte original de la règle de saint Pachôme, Paris 1919.

٣. Rufinus Tyrannius Aquileiensis, Historia Monachorum, seu, Liber de vitis patrum, in Migne, P.L., XXI, 389-462; cf. Nicene and Post-Nicene, 2nd. ser., Vol.III.

٤. De institutis coenobiorum et de octo principulium vitiorum remediis libri XII.
Collationes patum, XXIV

* قام بترجمة كلتا الدراستين إلى اللغة الانجليزية ، E . C. S . Gibson, وقد نشر فى Nicene and Post Nicene Fathers, Ser. 2, Vol. XI, 1894, 161-641.
هذا ولقد كتب القديس كاسيان مؤلفاً ثالثاً اقل شهرة وذلك ضد نستور بعنوان . De Incarnacione Domini

إلى جانب ذلك هناك شواهد أثرية عديدة فى هذا المكان تشير بجلاء تام إلى الأثر القبطى فى فن البناء هنا فى ذاك الوقت. بل ومازال رهبان دير جزيرة القديس Honorat المقابلة لساحل Cannes يؤكدون ممارستهم للتنظيم الباخومى فى حياتهم اليومية حتى الآن.(١)

من بين الشخصيات الهامة التى زارت آباء الرهبنة بالصحراء المصرية وأعجبت بتلك الممارسات الروحية الفريدة، القديس باسيليوس العظيم (St. Basil the Great) الكابادوكى (حوالى ٣٣٠ ـ ٣٧٩)، أحد أعلام الكنيسة وكاتب القداس الإلهى المسمى باسمه حتى اليوم، وهو الذى أسس الرهبانية فى بيزنطة متبعاً فى ذلك قواعد التنظيم الباخومى.(٢) وجدير بالذكر أيضاً فى هذا المقام القديس Johannes Chrysostom (حوالى ٣٤٧ ـ ٤٠٧)، أسقف القسطنطينية الذى أمضى من عام ٣٧٣ حتى عام ٤٠٧ بين إخوته رهبان ال Thebaid. لم يقتصر اجتذاب هذه الحياة الروحية، حياة العفة والزهد، على أبناء العالم دون بناته، فكثيراً ما تشبهت بنات تلك العصور الأولى بآبائهن وإخوتهن، كما لجأت كثيرات من الراهبات الأجنبيات إلى مصر ليستقين من هذا النبع الفريد، ونذكر على سبيل المثال الأم Etherea رئيسة أحد أديرة النساء الإسبانية والأم Melania (حوالى ٣٤٥ ـ ٤١٠)، الأرملة الرومانية التى كانت تنتمى إلى الطبقة الأرستقراطية فى بلادها.(٣)

من ناحية أخرى فإن الرهبان القبط قد أخذوا زمام المبادرة وقاموا بنشر بشارة الخلاص وتنظيماتها وممارساتها الروحية فى العديد من البلاد النائية مظهرين بالقول والفعل مثل ديانتهم و إعجازها. فالقديس Augin of Clsma (السويس الحالية) قام على سبيل المثال بتأسيس عدة أديرة فى وادى الرافدين وفى الإمبراطورية الفارسية، والرهبان الأقباط السبعة الذين عاشوا ودفنوا فى إقليم Disert Uldith بأيرلندا والذين مازال كتاب لينستر Book of Leinster يستعين بشفاعتهم لنوال الخلاص من الرب يسوع.(٤) وجدير بالتذكرة ما كان للمسيحية فى أيرلندا من آثار بالغة فى بشارة دول شمال أوربا. لذلك يتحتم القيام بإنجاز عدة دراسات تفصيلية بمنهجية علمية سليمة لبحث وتأصيل مدى تغلغل الأثر القبطى فى تاريخ المسيحية ونشأتها بأيرلندا

---

١. H. I. Marrou, Jean Cassien à Marseille, in Revue du Moyen Âge Latin, 1, 1945,5-26; O. Chadwick, John Cassian, A Study in Primitive Monasticism, Cambridge 1950; L. Cristini, Jean Cassien, ou le spiritualité du désert, 2 vols, Paris 1946; A. Hoch, Die Lehre des Johannes Cassianus von Natur und Gnade, Freiburg 1896.

٢. See Nicene and Post -Nicene Fathers, 2nd ser., Vol. VII; cf. W. K. L. Clarke, St. Basil the Great: A Study in Monasticism, Cambridge 1919; E. F. Morrison, Basil and His Rule : A Study in Early Monasticism, London 1912.

٣. The Oxford Dictionary of the Church, ed. F. L. Cross, Oxford 1957.

٤. Stanely Lane-Poole, Cairo : Sketches of its History, Mqnuments and Social Life, London 1898, pp. 203-4; see also the "Book of Leinster" in the Royal Academy in Dublin.
هناك أيضاً مخطوطات ثلاث بمضمون مشابه بينما تمثل مخطوطة رابعة مرشداً جغرافياً لمنطقة Scetis للزوار الأيرلنديين. هذا عدا الشواهد المتعددة لمؤثرات الفن القبطى بأيرلندا.
See also F.S. Henry : Irish Art in the Christian Period, London 1939; Kenneth Mildenberger, Unity of Cynewulf's Christ in the Light of Iconography, in Speculum, XXIII, no. 3, July 1948, 426-32.

التي قامت بدورها فيما بعد بنشر هذه الديانة الجديدة بشمال اوربا .

ولإدراك أهمية هذا الدور الذى لم ينل بعد العناية الكافية، نود على الأقل أن نقتبس بعض كلمات المؤرخ الانجليزى الشهير Stanely Lane-Poole فى هذا الموضوع:

"إننا لم نُقَدِّرْ بعد مدى ما تدين به الجزر البريطانية لهؤلاء المتوحدين القدماء . إنه اكثر من مجرد احتمال أننا ندين لهم بحركة التبشير الأولى بالإنجيل فى إنجلترا، حيث كانت الرهبنة القبطية تحتل المكان الأول حتى وصول القديس Augustine . وأكثر من ذلك أهمية الاعتقاد بأن المسيحية بأيرلندا، التى لعبت دوراً حيوياً فى تحضير الشعوب الشمالية فى بداية العصور الوسطى، هى وليدة الكنيسة المصرية."[1]

اثبتت مصر بجلاء، تام خصوبة تربتها النادرة لحياة النسك الجديدة التى وجد فيها أبناؤها ذوو الميول الدينية منذ فجر التاريخ،[2] تحقيقاً لأعز أشواقهم وأهدافهم الروحية، فلا عجب أن تستوعب مثل هذه الأعداد الضخمة من الرهبان والراهبات فى كافة أنحاء البلاد وبسرعة متناهية.[3] وعلى سبيل المثال بينما تذكر المراجع الأولى خمسين ديراً فى وادى النطرون وحده نجد أن الأمير عمر طوسون قد تمكن وحده من إظهار معالم ٢٥ ديراً منها فى وديان هذه المنطقة.[4] ورغم العواصف العارمة فى القرون التالية فإن المقريزى يذكر أن عدد الأديرة فى مصر فى عصره، أى فى القرن الخامس عشر، كان ٦٨ ديراً. وبطبيعة الحال وكما يتضح لنا بجلاء من الأرقام المذكورة فى هذا الفصل، فإن عدد الأديرة فى العصور الأولى كان اكبر من ذلك بكثير، ويقدره بعض المتخصصين فى هذا الميدان ب ٣٦٥ ديراً للرهبان والراهبات.[5] أى أن عدد الأديرة قد ساوى عدد أيام السنة.

بطبيعة الحال لا يتسع هذا المجال الضيق الخاص إلاّ بالاشارة إلى نشأة الرهبنة فقط فى طورها الأول، ولذكر أعلامها الذين خصصت لسيرهم ونتاجهم مكتبات حاشدة ، كما لا يدخل أيضا فى هذه اللمحة العابرة عرض جهود الأحقاب الأخيرة الشامخة، التى بذلت جهوداً كبيرة لإحياء الرهبنة القبطية من جديد خاصة منذ عهد القديس الأنبا كيرلس السادس (١٩٥٧ - ١٩٧١) وتحت رعاية غبطة البابا شنودة الثالث خليفة مار مرقس ١١٦، ولقد فاقت نتائج تلك الجهود أكثر التوقعات السابقة تفاؤلاً وذلك فى كافه ميادين هذه النهضة من حفريات ودراسات وتعمير للأديرة المهجورة وما إلى ذلك.[6]

---

١ - Stanely Lane Poole; see also E . A. Thompson, Christianity and the Northern Barbarians, in The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century, pp. 56-78.

٢ - الرجا الرجوع الى
Samir Fawzy Girgis, Aegypten, Olten & Freiburg i. Breisgau 1 st ed. 1984, 3 rd ed . 1987, pp.141 ff; idem, El-Masry, Arabic, Zürich, 1996.

٣ - الرجا الرجوع الى الهامش رقم ١ من صفحة ٥ من هذا الفصل .

٤ - الأمير عمر طوسون وادى النطرون ، ابتداء من ص ٤٨ .

٥ - ذكى تواضروس وأبيب حبشى ص ٢٨ .

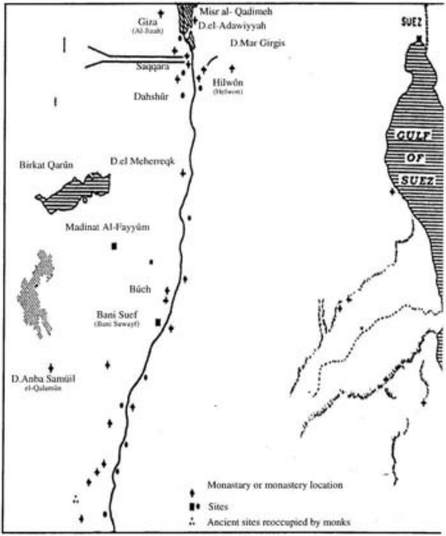
٦ - انظر الراهب صموئيل السريانى ، تاريخ الكنائس والأديره فى القرن الثانى عشر لأبى المكارم، جزءان ، مطبعة دير العذراء (السريان) ١٩٨٤، الجزء الثانى مع الأستاذ نبيه كامل داؤد: الراهب صموئيل السريانى مع قسم العمارة بمعهد الدراسات القبطيه، عمارة الكنائس والاديره الاثريه فى مصر جزءان : الراهب صموئيل السريانى والمهندس بديع حبيب ، الدليل للكنائس والأديرة القديمة ، عربى وانجليزى ، مطبعة الانبا رويس : القبطية القديمه فى مصر، تأليف الفريد ج. بتلر ، ترجمة ابراهيم سلامه ابراهيم ، مراجعة وتقديم نيافة الانبا اغريغوريوس ، ١٩٩٣، الخ ...



5 - Monasteries of the Delta. Of the many monasteries in the Delta, some have vanished; some can still be identified by ruins, such as the innumerable sites excavated in the Kellia by the French and Swiss expeditions; and some have survived the Islamization of Egypt and the urbanization of the area. (See Dayr ANBA MAQÂR; DAYR AL-BARAMŪS; DAYR AL-SURYĀN; KELLIA; and articles on the Beheirah, Daqahliyyah, Minufiyyah, Qalyûbiyyah, and Sharqiyyah provinces under MONASTERIES.)



6 - Monasteries of the Fayyûm. See article, pp. 1650-51)



7- Monasteries of Lower Egypt. (See article, pp. 1652- 53.)



11- Oases. Christian ruins are still to be found in the oases located in the Western Desert. (See Araj, Al; Ayn Amûr; Bagawät. Al; Dayr Al- Ghanäyim; Dayr Mustafa Käshif.)

الأنشطة التبشيرية للأقباط

ضمن إنجازات الأقباط العالمية الضخمة فى ذاك العصر والتى مازال أثرها دائماً وفعالاً إلى يومنا هذا نلاحظ نشاطهم التبشيرى الواسع الذى امتد من ايرلندا وحوض نهر الراين فى الشمال والغرب الى السودان والحبشة واليمن جنوباً ثم إلى ما بين الرافدين والهند شرقاً. وتوضح الخريطة المرفقة مدى اتساع هذه الأنشطة التبشيرية التى مازالت ثمارها حية نابضة حتى الآن فى تلك البلاد النائية، بعيداً عن حدود بلادهم بل وقارتهم.

عرضنا بإيجاز منذ البدء، منذ تأسيس كنيسة الإسكندرية بواسطة القديس مارمرقس الرسول، الصلات المتأصلة بين كنيستنا وبين كنيسة برقة Cyrenaica والمدن الخمس الغربية Pentapolis ، مسقط راس مؤسس الكنيسة [1] ، وحيث كانت الإسكندرية تعد بلا جدال مهد دراسات لاهوت الديانة الجديدة ، فلا عجب أن نجد ان اسقف Ptolemais المدعوSynesius (٣٧٠م تقريباً الى ٤١٤م) قد كان احد تلاميذ مدرسة الاسكندرية والمؤسسات العلمية والفلسفية لعاصمة العصر الحضارية [2].



خريطه التبشير من ايرلندا إلى الهند

١ ـ الرجاء الرجوع إلى الفصل الأول من هذا المدخل الخاص بالترتيب الجغرافى والزمنى لسيرة القديس مار مرقس الرسول .

٢ ـ كانت رسامة Synesius اسقفاً بواسطة بطريرك الإسكندرية الانبا ثاوفيلس (٣٨٥ ـ ٤١٢م فى عام ٤١٠م) .

المزيد عن الأسقف Synesius فى :

A.S. Atyia, A History of Eastern Christiannity, p. 49, footnote

H.I. Marrou, Synesius of Cyrene and Alexandrian Neoplatonism, in the Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century, ed. A. Momiglino, Oxford 1963, pp. 126-150; Synesius of Cyrene, Letters, English translation by Fitzgerald A., Oxford 1926; idem, Essays and Hymns, 2 vols. London 1930.

For biographies of Synesius, see C. Lacombrade, Paris 1951; G. Gutzmacher, Leipzig 1913; W.S. Crawford, London 1901; J.C. Pando, Washington 1940.

إلى جانب هذا كانت منذ المجمع المسكونى الأول فى نيقيه عام ٣٢٥ تعد ضمن الأبروشيات التابعة لكنيسة الإسكندرية، وجدير بالذكر فى هذا الصدد أيضاً أن اللقب البابوى لبطريرك الكرازة المرقسية حتى اليوم يتضمن ال Pentapolis كجزء تابع كنسياً للإسكندرية.

اما المجال الرئيسى لحركة التبشير القبطى فى إفريقيا فكان بلا شك ولايزال عبر الحدود الجنوبية لأرض مصر (Syene) (=اسوان الحالية) وقد ساعد علسى ذلك نشأة الرهبانية والديرية وانتشار أبائها لتبشير المناطق النائية منذ القرن الرابع الميلادى.[1]

هذا وتثبت العلاقات القوية المتبادلة بين التنظيم الديرى للقديس شنودة المتوحد وقبائل النوبة والبجا Baga فى القرن التالى مدى تعمق جذور المسيحية المبكر فى هذه المناطق ومدى تغلغل الاثر القبطى فى هذه الأنحاء، وها نحن نلتقى فى القرن السادس بأسقفنا فى إقليم فيلة الا وهو تيودور Theodore of Philae.

ضاعفت من سرعة انتشار المسيحية فى كافة المناطق المحيطة بحدود الإمبراطورية البيزنطية الأوامر التى أصدرها الإمبراطور جستنيان العظيم (٥٢٧ ـ ٥٦٥) والتى كانت تقضى بحتمية اعتناق سكان هذه الأقاليم الديانة المسيحية . وبذلك كان على أبناء كنيسة الإسكندرية إلى جانب محاربة الوثنية وتحويل سكان هذه المناطق الى المسيحية ، كان عليهم فى نفس الوقت الكفاح الدائب والصراع الهائل من أجل المحافظة على عقيدتهم السليمة ضد الإملاء الخلقدونى.

ويتضح لنا مدى نجاحهم فى عام ٥٥٩ حين تمت رسامة الأسقف القبطى Longinus لأبروشية نباتا عاصمة مملكة النوبة.[2] وقد أعقب ذلك بطبيعة الحال تأسيس أديرة عديدة فى منطقة النوبة، ولعل اهم الأمثلة هو دير القديس سيمون Simeon بالقرب من اسوان، الذى مازالت آثاره المعمارية الرائعة تشير إلى بقايا ذاك العصر المجيد، وذلك رغم ما تعرض له هذا الدير من نهب وتحطيم بواسطة جيوش صلاح الدين فى عام ١١٧٢. كان ذلك بمثابة بداية نشاط كنيسة الإسكندرية المكثف فى تحويل سكان النوبة وشمال ووسط السودان إلى المسيحية .

ولا جدال فى أن الحبشة، مملكة إثيوبيا تحتل مكان الصدارة فى مجال الحديث عن الأنشطة التبشيرية لكنيسة الإسكندرية وأبائها.

ترجع قصة تحول الحبشة إلى الديانة المسيحية إلى رحلة الأخوين Frumentius

---

١ ـ عن الحفريات الحديثة الخاصة بتأصيل وصول المسيحية إلى منطقة السودان السفلى منذ القرن الرابع الميلادى، اى منذ عصر نشأة وتبلور الرهبانية والديرية، نفس المرجع ، بروفسر عطية ص ١٠.
انظر ايضاً:
D. Dunham, Romano-Coptic Egypt and the Culture of Meroe, in Coptic Egypt, Brooklyn, N.Y. 1944, pp. 31-33; C. P. Groves, The Planting of Christianity in Africa, 4 vols., London 1948-58, I, 46-9; S. Clarke, Christian Antiquities in the Nile Valley, Oxford 1912 .

٢ ـ فى واقع الامر يعد الاسقف Longinus بمثابة رسول المسيحية فى بلاد النوبة وذلك رغم ذكر اسم أسقف سابق اخر يدعى Julian ، الذى نسب إليه تحول ملك وبلاط قبيلة ال Nobadae إلى المسيحية .

للمزيد الرجاء الرجوع إلى :
A. S. Atyia, Ibid, p. 50, footnote No. 2; C.P. Groves, Ibid, I, pp. 49-50; Zaher Riad, Kanisat Al. Iskandriah fi Afrikiah, (The Church of Alexandria in Africa), Cairo 1962, pp. 159-65.

و Aedesius، وهما اثنان من ابناء الإسكندرية المقيمان فى مدينة صور Tyre، فى طريقهما إلى الهند. تحطمت سفينتهما بالقرب من السواحل الإثيوبية وتم إنقاذهما، على اغلب الظن بواسطة رجـال الملك،[1] وصـــار Frumentius سكرتيراً له والمشرف على تعليم ولى العهد Aeizanas (Ezana) . وعندما تربع هذا على عرش المملكة قام مع بقية رجال الحاشية باعتناق المسيحية كما تم إعلان الدين الجديد بمثابة ديانة رسمية للدولة.

ســمـح (Aeizanas (=Ezana بعـد ذلـك ل Aedesius بـالعـودة إلـى صـور Tyre بيـنـمـا سـافـر Frumentius إلى الإسكندرية لمقابلة غبطة البابا اثناسيوس الرسولى (٢٩٦ تقريبا حتى ٣٧٣م) برجاء رسامة أسقف لرعاية أبناء الكنيسة فى إثيوبيا. كان هذا اللقاء وفقاً لبعض المراجع فيما بين عاميى ٣٤١ و٣٤٦.[2]

وتحقيقاً لهذه الرغبة قام غبطة البابا برسامة فرومينتيوس اسقفاً على إثيوبيا باسم الأنبا سـلامــه Anba Salama، الذى تـولى زمـام منصـبـه فـى عـام ٣٥٦ أو مـا قـبـل ذلك بـقـلـيـــل[3]. ولقد صاحبه العديد من الرعاة لمساعدته فى نشر المسيحية فى انحاء المملكة الإثيوبية. ووفقاً للتقليد الإثيوبى بلغ عدد مصاحبيه ٩ آباء.[4]

وفى اثناء صـراع القبط فى الأحـقـاب التالية للمـحـافظة على إيمانهم السليم ضد الإمـلاء الخلقدونى، طلب الإمبراطور Constantius الأريوسى من الملك Aeizanas إبعاد الأنبا سلامة ممثل كنيسـة الإسكندرية من بلاده، ولكن دون جـدوى. كـان ذلك فى سنة ٣٥٦م. ولقـد اثبـتـت الكنيسة الإثيوبية على مر القرون والأجيال إخلاصـها التام وتمسكها المثالى بتعاليم كنيسـة الإسكندرية السليمة منذ مجمع خلقيدونية ٤٥١ إلى يومنا هذا.[*]

كان لدى القبط فى القرون الأولى عوامل جذرية ثلاثة لعبت دوراً حـاسـمـاً فى نشـر تعاليم الدين الجديد ومقوماته وتثبيتها خارج بلادهم وقارتهم. هذه العوامل الأساسية الثلاثة كانت:

أولاً: مدرسـة الإسكندرية بأعلامـهـا ، بنتاجهم وشهرتهم ، ثانيـاً: نشـأة الرهبـانيـة والديرية وتطورهـا فـى أرض مصـر وعلى يد أبناء كنيسـة الإسكندرية، ثالثـاً: الدور الفريد الذى لعبـتـه كنيسة الإسكندرية فى قمع بدع وهرطقات القرنين الرابع والخامس.

فلا عجب أن نرى مدى اتسـاع نشـاط القبط التبشيرى الذى لم يقف عند حـدود بلادهم أو قـارتهم، بل امتد ليشمل أنحـاء العالم القديم من أيرلندا إلى الهند كما أشرنا فى مقدمة هذا الفصل وكما سيأتى ببعض الأمثلة تفصيلا فيما بعد.

فها نحن نرى قبل نهاية القرن الثانى عميد مدرسة الإسكندرية الشهير Pantaenus وقــد

---

١ ـ حكم الملك Ezana من ٣٢٠م إلى ٣٢٥م . وبينما كانت العملة فى السنوات الأولى من حكمه تحمل شعارات وثنية ، فقد استبدل بها الصليب فى السنوات الأخيرة .

٢ ـ Atyia, A. S., p. 51, footnote 6; Doresse, p.5; Jones and Monroe, pp26 -31

٣ ـ Atyia, A. S., Ibid, p. 52.

٤ ـ Groves, I, 53; Doresse, p. 81; Atyia, A. S. p. 52.

* ـ جدير بالذكر فى هذا الشأن تذكرة القارئ، الكريم بالرجوع إلى المدخل الخاص بعلاقة الكنيسة القبطية بابنتها كنيسة إثيوبيا وكنيسة إريتريا الأرثوذكسية فى القسم الخاص بالعلاقات الخارجية لكنيسة الاسكندرية مع بقية الكنائس الأخرى .

اختير بواسطة البطريرك ديمتريوس الأول (١٨٨-٢٣٠) للتبشير بالإنجيل المقدس فى الهند [١] وبعد إنجاز مهمته هذه قام بانتينوس بزيارة اليمن Arabia Felix حيث استمر فى جهوده التبشيرية. وجدير بالذكر على سبيل المثال أيضاً القديس Mar Augin of C lysma (السويس الحالية) الذى أدخل الرهبانية فى بلاد ما بين النهرين وفى الإمبراطورية الفارسية، كما كان له عظيم الأثر فى دعم أسس الديانة الجديدة فى سوريا وآشور.[٢] وجدير بالتذكرة أيضا فى هذا الصدد أن معلوماتنا فى هذا الميدان محدودة للغاية.

وها نحن نجد اسكندرياً آخر فى هذه المناطق النائية بالشرق الأقصى فى القرن السادس الميلادى، Cosmas Indicopleustes الذى صار راهباً فيما بعد وترك لنا وصفاً لرحلاته جاء فيه ذكر مجتمعات مسيحية تحت رئاسة أساقفة على الخليج الفارسى وأخرى على جزيرة سومطرة وضخامة أعداد أتباع كنيسة القديس توماس بالهند. هذا ويعد قزمان أيضاً ضمن أوائل الرحالة الذين وصلوا إلى جزيرة سيلان (سريلانكا).[٣]

أما دور أنشطة التبشير القبطية فى أوربا، فلقد تعود الباحث فى القرون الماضية وحتى الماضى القريب إهمال أو عدم إدراك أهميتها نظراً لعزلة الكنيسة القبطية عن المجتمعات المسيحية فى أوربا منذ خلقدونية والفتح العربى. ولكن بالاضمحلال النسبى للكراهية والأحكام السابقة تجاه كنيسة الإسكندرية فى الغرب، وبدء الجهود المسكونية البناءة والتبادل الثقافى من ناحية أخرى، تيقظ العالم شرقاً وغرباً لإدراك مدى فاعلية أنشطة التبشير القبطية ونتائجها فى أوربا التى كانت ومازالت حية نابضة إلى يومنا هذا. وجدير بالإشارة أيضاً التذكرة بما جاء فى الفصل السابق الخاص بصدى تأثير انتشار الرهبنة القبطية فى تحويل ايرلندا وبالتالى شمال أوربا الى المسيحية. ونود التذكير برأى المؤرخ الكبير Stanley Lane Poole فى هذا الشأن.[٤]

اليس جديراً بالذكر أيضاً فى هذا المجال إشعاع القديس أثناسيوس الرسولى (٢٩٦ تقريباً حتى ٣٧٣) بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية منذ ٣٢٨ ، قاهر الأريوسية، وذلك أثناء نفيه الأول الذى بدأ فى مدينة القسطنطينية وانتهى بمدينة Trier (٣٣٦ ـ ٣٣٧)، والنفى الثانى إلى البلاط البابوى بروما كضيف على البابا Julius الأول (٣٣٩ ـ ٣٤٦)، مما كان له بعيد الأثر

١ ـ كان موقع الهند الجغرافى فى تلك الأوقات غير محدد بوضوح تام وكثيرا ما اختلط بإثيوبيا وجنوب الجزيرة العربية :

See : E.O. Winstedt, Critical Edition of his Christian Topography, Cambridge 1909 .

يذكرنا Eusebius فى تاريخ الكنيسة Hist. Ecclas., V, 10-11 انه فى اثناء عودته قد احضر النسخة الأصلية من إنجيل متى التى كان الرسول بارثولوميو قد اخذها إلى الشرق من قبل .

A. S. Atyia, Ibid., p. 52/ footnote4,5.

٢ ـ انظر الفصول الخاصة بالرهبنة لدى اليعاقبة والكنيسة النسطورية :

A. S. Atyia, Ibid., p. 52, 167 ff7 239 ff.

٣ ـ انظر الهامش رقم ١ على الصفحة السابقة الخاص بتحديد الأماكن الجغرافية فى هذه القرون الأولى .

٤ ـ " إننا لم نقدر بعد مدى ما ندين به الجزر البريطانية لهؤلاء المتوحدين القدماء (الرهبان القبط فى ايرلندا). إنه اكثر من مجرد احتمال اننا ندين لهم بحركة التبشير الأولى بالإنجيل فى إنجلترا، حيث كانت الرهبنة القبطية تحتل المكان الأول حتى وصول القديس اوجوستين. واكثر من ذلك اهمية الاعتقاد أن المسيحية بايرلندا، التى لعبت دوراً حيوياً فى تحضير الشعوب الشمالية فى بداية العصور الوسطى، هى وليدة الكنيسة المصرية"

فى نشر الحضارة القبطية والتعريف بمقوماتها العريقة كالرهبانية والديرية وخلافها ... [١]

يجب الا نتناسى فى هذا المجال أيضاً دور الحجاج الأوربيين الذين تعودوا فى تلك القرون الأولى زيارة آباء مدرسة الإسكندرية والرهبنة القبطية فى متوحدها. إن هؤلاء الحجاج صاروا بحق رسلاً للتعريف بالحضارة والثقافة القبطية عند عودتهم إلى بلادهم. ولعلنا نذكر على سبيل المثال ب John Cassian (٣٦٠ ـ ٤٣٥) الذى قام بعد قضاء سبعة أعوام مع إخوته رهبان مصر فى منطقة Scetis ومنطقة طيبة Thebaid بصعيد مصر، بتأسيس ديرين على النمط القبطى فى مرسيليا فوق ضريح القديس بقطر (فيكتور)، أحد شهداء عصر الإمبراطور مكسيميان (٢٨٦ ـ ٣٠٥) زميل دقلديانوس فى النصف الشرقى للإمبراطورية (٢٨٤ ـ ٣٠٥)، وقد كان أحدهما للبنات والآخر للرجال.

لعل خير امثلة على تلك الجهود التبشيرية الضخمة للاقباط باوربا وحيوية نتاجها حتى الآن هو تحول سكان معظم أنحاء سويسرا ومنطقة نهر الراين بألمانيا وشمال إيطاليا أيضاً إلى المسيحية كنتيجة مباشرة لشهادة واستشهاد أعضاء الفرقة الطيبية القبطية الإعجازى فى هذه الأنحاء.

الفرقة الطيبية

حسب أقدم المخطوطات والمصادر التاريخية [٢] كانت هذه الفرقة الحربية تتكون من ٦٦٠٠ جندى وضابط مسيحى من أبناء مصر العليا والوسطى.

وكما ذكرنا فى الفصل السابق الخاص بتاريخ مصر تحت الحكم الرومانى، فلقد تبين لنا بجلاء مدى تدهور هذا الحكم فى القرن الثالث الميلادى ابتداءً من عهد أباطرة أسرة ال Severus (١٩٢ ـ ٢٣٥) حتى بلغ قمة الفوضى تحت حكم الأباطرة العسكر (٢٣٥ ـ ٢٨٤).و يتضح لنا مدى

---

١ ـ Stanley Lane -Poole, Cairo - Sketches of its History and Social Life, London 1898, pp. 203-4 .

. لمحة عابره للمراجع والمصادر التى لا حصر لها والخاصة بالقديس الانبا اثناسيوس الرسولى فى:
Atyia, A.S. Ibid, pp. 339 ff and their footnotes.

انظر الهامشين رقم ١ و٢ الخاصين بمؤلفى جون كاسيان وذلك فى الفصل الخاص بالرهبنة القبطية
De institutis coenobiorum et de octo principulium vitiorum remediis libri XII & Collationes Patum XXIV .

قام بترجمة كلتا الدراستين إلى اللغة الإنجليزية E.C.S. Gibson وقد نشرتا فى Nicene and Post Nicene Fathers, Ser. 2, Vol. XI, 1894, 161-641.

٢ ـ تتضمن اقدم الشواهد والمصادر الاوربية لتاريخ الفرقة الطيبية مخطوطات اصلية ثلاثاً هى :

المخطوطة الاولى ، مخطوطة الأسقف أويخريوس الذى تمت رسامته أسقفاً لمدينة ليون فى عام ٤٢٤ والذى تنيح فى سنة ٤٤٩م ، هذه المخطوطة محفوظة بمكتبة باريس الوطنية تحت رقم ٩٥٥٠ ، وعنوانها هو "Passio Agaunensium Martyrum" Bibliothèque nationale de Paris, No. 9550, ed. By B. Krusch in M. G. H . Scriptores Rerum Merovingicarum, III, 1896, pp. 20-41.

ترجمة الثانية مع تعليق قصير بواسطة Joseph Bütler فى كتابه "Die thebäische Legion" نشر بمدينة لوسرن فى عام ١٩٥١ و ص ١٣ ـ ٢٢ ثم ٥٢ ـ ٥٥ .

ترجم إلى الفرنسية بواسطة L. Dupraz فى كتابه المعنون : . "Le Passion de Saint-Maurice d' Agaune" ، نشر بمدينة فرايبورج بسويسرا فى عام ١٩٦١ .

باقى الهامش فى الصفحة التالية

هذا الانحلال والتدهور إذا علمنا أنه فى هذه المدة القصيرة، أى فى ٤٩ عاماً فقط، بلغ عدد الأباطرة ٣٦ إمبراطوراً، كان مصيرهم جميعاً، عدا إمبراطوراً واحداً فقط، هو الاغتيال بواسطة رجال الجيش وخاصة أعضاء الحرس الإمبراطورى.

بعد هذا التدهور الذريع حاول الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥) أن ينقذ إمبراطوريته الشاسعة وأن يهيىء الأوضاع التى تمكن الدفاع عنها. فقام دقلديانوس بعدة إصلاحات وتنظيمات جذرية سياسياً وإدارياً واقتصادياً من بينها: [١]

+ إقامة حكم استبدادى مطلق عماده دقلديانوس الذى صار يعد المصدر الوحيد للسلطة والذى كان يعد "السيد الأوحد" "Dominus" بينما كانت الرعية بمثابة عبيد له (Servi).

+ إدخال نظام الحكم الرباعى Tetrarchy. وعملا بهذا النظام السياسى الجديد كان أربعة رجال يشتركون فى حكم الإمبراطورية. وذلك لتيسير مهمة حكم الإمبراطورية المترامية الأطراف وتسهيل عملية الدفاع عنها. وقسمت الإمبراطورية إلى قسمين رئيسيين على رأس كل منهما إمبراطـــور بلقب Augustus (المعظم)، ويساعد كلاً منهما حاكم بلقب "Caesar" (قيصر). وكانت عاصمة النصف الشرقى هى مدينة نيقوميديا Nicomedia (على بحر مرمره) حيث كان يقيم الإمبراطور دقلديانوس، وكان مساعده يقيم فى مدينة سيرميوم "Sirmium" (شمال غرب

تابع هامش ٢

ترجم إلى الإنجليزية بواسطة سمير فوزى جرجس، تحت الإعداد للنشر بعنوان:
The Earliest Medieval Manuscripts on the History of the Theban Legion, St. Pachom's Publications XV, 2000.

المخطوطة الثانية:
The Anonymous Account, the so-called "Passio sancti Mauritii et sociorum ejus, qui passi sunt Acauno X
Kl octobris", Codex of the Library of Einsiedeln No. 256, fol. 367-380, also called "VERSION X2

كتبت هذه المخطوطة فيما بين ٤٧٥ وعام ٥٠٠م بواسطة أحد آباء الكنيسة التى شيدها الأسقف تيودور، أسقف مدينة أكتودوروم الرومانية (مدينة مارتينى الحالية من ٣٧٠ حتى ٣٩٢) فوق مكان استشهاد أعضاء الكتيبة الرئيسية للفرقة الطيبية.

ترجمت هذه المخطوطة إلى الألمانية، كما تضمنت هذه الترجمة تعليقات تفصيلية ثمينة، بواسطة الراهب Paul Müller من دير القديس موريس بمدينة سان موريس بمحافظة فاليس بجنوب غرب سويسرا. نشرت هذه الترجمة فى:
Studien Zur Katholischen Bistums-und Klostergeschichte, Bd. XI., Leipzig.

جدير بالذكر أن هذه التعليقات قد تضاعفت فيما بعد دون أن تنشر، وقد تفضل الراهب دكتور باول ميلر بإرسال نسخة من هذه التعليقات التاريخية الثمينة إلى كاتب هذا المدخل كما تم الاستعانة بها فى مسائل عدة.

ترجم هذا المخطوط إلى الفرنسية بواسطة L. Dupraz, Ibid.

ترجم إلى الإنجليزية بواسطة سمير فوزى جرجس فى نفس الدراسة المذكورة بعاليه.

المخطوط الثالث:
وهو مخطوط أكثر حداثة للمخطوط الثانى ويتضمن بعض التعديلات:
Bibliothèque nationale de Paris, Codex Nr. 5301, fol. 204v, 207 r.

بالإضافة إلى هذه المخطوطات الثلاث توجد أيضاً مصادر أصلية كثيرة ترجع إلى أوائل العصر الوسيط. تتضمن هذه المراجع سير وأعمال بعض قديسى الفرقة الطيبية الذين استشهدوا فى مراكز معسكرات الكتائب الطيبية المختلفة طوال الطريق الدفاعى الممتد من ليجوريا فى شمال غرب إيطاليا إلى حوض الراين فى وسط شمال غرب ألمانيا.
عدا ذلك تتضمن كتب سير الشهداء المتعددة ومؤلفات عديدة أخرة مصادر هامة لتاريخ هذه الفرقة الطيبية سيأتى ذكرها فيما بعد ضمن هذا الفصل رغم إيجازه التام.

[١] للمزيد عن تنظيمات وإصلاحات دقلديانوس، الرجاء الرجوع إلى الفصل "السابق الخاص بتاريخ مصر تحت الحكم الرومانى.

شبه جزيرة البلقان) على نهـــر الساف River Save، فى حين كانت عاصـمة شريكه الإمبراطور مكسيميان Maximian، الحاكم الأعلى للنصف الغربى مدينة ميلانو ومساعده "القيصر" فى مدينة Trier.(١)

ومن الإصـلاحـات العسكرية التى أدخلهـا دقلديانوس عـملية ترشـيد الدفـاع عن حـدود الإمبراطورية وتشييد العديد من التحصينات. ونتيجة لذلك سحبت الحامية الرومانية من المناطق النائية فيما وراء الحدود الجنوبية لمصر وعادت إلى منطقة Syene عند الشلال الأول (أسوان الآن)، وذلك حتى يسهل عليهـا صد الغارات المتكررة من جانب قبائل البليميز Blemmyes ببلاد النوبية.

بالاضافة الى ذلك أمر دقلديانوس بإعادة تنظيم الفرقة المصرية القديمة المسماة II-Triana التى كانت تحمل اسم الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧م)، ثانى اباطرة التبنى، اباطرة القرن الثانى الميلادى، كما أمر بتكوين فرقتين جديدتين فى مصر هما:

" Tertia Diocletiana Thebacorum"

"Prima Maximiana Thebacorum" (2)

تكونت هـاتان الفرقتـان مـن أبناء مصر العليا والوسطى لتعزيز دفاع الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف.

أمر دقلديانوس بعد ذلك بنقل أحد هذين الفيلقين إلى غرب أوربا لمساعدة إمبراطور النصف الغربى الذى كان تحت حكم زميله الإمبراطور مكسيميان فى إحباط ثورة شعب الباجود فى جنوب شرق بلاد الغال (فرنسا) والمشاركة فى الدفاع عن الحدود الشمالية عبر جبال الألب وطوال نهر الآر بوسط سويسرا ثم طوال نهر الراين إلى شمال غرب ألمانيا.

---

١ ـ خريطة الحكم الرباعى وعواصمه الاربع على الصفحة التالية :

N=Nicomedia, Residence of the "Augustus", the highest authority in the eastern part .

S=Sermium, Residence of his assistant, the "Caesar" of the east .

M=Milano, Residence of the "Augustus" the highest quthority of the western part .

T= Trier, Residence of his assistant, the "Caesar" of the west.

٢ـ للمزيد عن شعار كلتا الفرقتين يمكن الرجوع إلى :

Christian S. Theo Brend, "Wappenzeichen der Griechen und Römer, Bonn 1841 .

سويسرا تحت الحكم الرومانى



أهم المدن الخاصة بموضوع البحث:

الأسماء فى العهد الرومانى	الأسماء الحالية
Geneva	Genève
Lausanna	Lausanne
Viviscus	Vevey
Acaunum	Saint-Maurice
Octodurus (m)	Martigny
Sedunum	Sion (Sitten)
Aventicum	Avanches

المركز الثقافى فى العصر الرومانى

Salodurum	Solothurn
Vindonissa	Windisch

القياده العسكرية

Aquae	Baden
Tenedo	Zurzach
Turicum	zurich

قادة الفرقة:

كان أهم قادة الفرقة، قادة الكتيبة الرئيسية المعسكرة فى مدينة أجاونوم الرومانية، التى تحمل الآن اسم القديس ماوريتيوس أو موريس بمحافظة فاليس بجنوب غرب سويسرا هم:

١ ـ القائد العام ماوريتيوس ولقبه العسكرى وفقاً للتقليد الرومانى Primicerius [1]

٢ ـ Exuperius، رئيس التعليمات والأوامر [2]

٣ ـ Candidus، القنصل الحربى [3]

ذكر الأسقف أويخريوس فى تقريره علاوة على ذلك اسم الضابطين فيكتور أى بقطر، ثم أورسوس. كما أضاف المصدر الثانى المذكور سابقاً اسمين آخرين هما Innocentius, Vitalis.

غنى عن التعريف أن هذه الأسماء، هى أسماء الضباط العظام للكتيبة الرئيسية التى كانت، وفقا للتقليد الرومانى، تتكون من نحو ٥٢٠ ضابطاً وجندياً.

مواقع كتائب الفرقة:

وزعت كتائب الفرقة فور وصولها إلى غرب أوربا على القواعد الدفاعية المشيدة طوال خط الدفاع الاستراتيجى الممتد من شمال إيطاليا عبر جبال الألب الغربية The Lepontine Alps إلى مدينة أجاونوم (الآن مدينة القديس موريس)، ومنها طوال نهر الآر بوسط سويسرا إلى مدينة سالودوروم الرومانية (=مدينة سولوتورن الحالية)، ثم طوال نهر الراين إلى مدينة فيرونيا الرومانية (=بون الحالية عاصمة المانيا الغربية سابقا) ومنها الى مدينة كولونيا أجريبينا (كولونيا الحالية بألمانيا).

استشهاد كتائب الفرقة :

كان الإمبراطور مكسيميان يقيم حينئذ فى مدينة أوكتردوروم الرومانية (مدينة مارتينى الحالية) للإعداد لمحاربة الباجود والقضاء على ثورتهم فى المنطقة المجاورة بشرق فرنسا (٢٨٥ ـ ٢٨٦) وكانت الكتيبة الأولى للفرقة الطيبية تحت رئاسة القائد موريس تقيم فى قاعدة أجاونوم المجاورة.

أمر الإمبراطور مكسيميان وفقاً للتقاليد الرومانية أداء الشعائر الدينية وتقديم الذبائح لآلهة روما الوثنية قبل القيام بشن غارته على شعب الباجود. عندئذ رفضت الكتيبة الطيبية إطاعة الأوامر الإمبراطورية لتنافيها مع عقيدتها المسيحية مما أثار الإمبراطور الذى أمر

---

١. اسم ماوريتيوس Mauritius اللاتينى يطابق اسم Moritz او Moriz بالالمانية و Maurice بالفرنسية .

٢ ـ وفقاً للمصدر الثانى Version 2 كان اكسيوبيريوس يحمل لقب Signifer اى حامل العلم .

٣ ـ كان كانديدوس وفقاً للمصدر الاول ،مخطوط ايوخيريوس ، يحمل لقب Senator Militum بينما كان يحمل لقب Princeps vel Campidoctor وفقاً للمصدر الثانى Version 2

لفوره بإعدام عشر الفرقة لإرغام بقيتها على الخضوع لأوامره. ويذكر الأسقف اويخريوس فى كتابه أن الأمر بإعدام الكتيبة يرجع إلى رفض أعضاء الفرقة الطيبية المشاركة فى تعقب المسيحيين فى هذه المنطقة واضطهادهم وسفك دمائهم.

لم يؤد إعدام عشر الفرقة إلى النتيجه المتوقعة، بل على العكس تعاظمت مجاهرة بقية الكتيبة بديانتها المسيحية والتمسك بها مما ضاعف من غضب الإمبراطور مكسيميان الذى أمر بتكرار إعدام عشر المتبقين حتى يذعنوا لأوامره.

وقام قادة الفرقة ماوريتيوس واكسوبيريوس وكانديدوس بتشجيع بقية أعضاء الفرقة.

للتمسك بإيمانهم المسيحى السليم معلنين ولاءهم للإمبراطور على الأ يتنافى ذلك مع تعاليم عقيدتهم المسيحية وتمسكهم بالرب يسوع خالقهم، مما جعل مكسيميان يأمر بإعدام بقية أعضاء الكتيبة والقيام بتعقب بقية كتائب الفرقة وافرادها. جدير بالذكر فى هذا الشأن تمسك جميع أفراد الفرقة الكامل بتعاليمهم المسيحية حتى اللحظة الأخيرة وذلك برفضهم مقابلة العنف بالعنف أو القيام بأدنى درجات المقاومة. حدث فى أثناء هذا الاضطهاد العنيف وسفك الدماء البريئة العديد من المعجزات الخارقة (الرجاء الرجوع لدراساتى الست السابقة) مما أدى إلى تحول المشاهدين وسكان هذه المناطق إلى هذا الدين الجديد القادر على إحداث هذه المعجزات الفريدة المبهرة .

تواريخ استشهاد كتائب الفرقة:

قام بعض المؤرخين برفض عام ٢٨٦ كتاريخ استشهاد الفرقة الطيبية، أى اثناء ثورة الباجود بجنوب شرق بلاد الغال (فرنسا) تحت زعامة Amandus وAelianus [١] وذلك بدعوى عدم اضطهاد المسيحيين فى عهد الامبراطور دقلديانوس قبل صدور الأوامر الإمبراطورية فى ذلك الشأن فى سنة ٣٠٢، وبناء عليه فإنهم يحددون عام ٣٠٣ كتاريخ استشهاد الفرقة.

لكن جدير بالذكر فى هذا الشأن أن اضطهاد المسيحيين واستشهادهم فى عهد دقلديانوس قبل هذا التاريخ حقيقة تاريخية ثابتة ذات أدلة قاطعة لا جدال فيها مثل استشهاد القديس مكسيميان فى بلدة تيبيسا بالجزائر فى عام ٢٩٥م واستشهاد قائد المئة القديس مارسيليوس فى مدينة طنجة فى عام ٢٩٨م.[٢]

ما هو عدد أعضاء الكتيبة التى استشهدت فى مدينة أجاونوم (=سان موريس الحالية) ؟

اثبتت أبحاث المؤرخ الكبير Johannes Mösch [٣] فى دراسته المقارنة للتسلسل الزمنى والجغرافى لاستشهاد كتائب الفرقة الطيبية المتعددة فى معسكراتها المختلفة الواقعة طوال الخط الدفاعى المذكور سابقاً والممتد من ليجوريا بشمال غرب إيطاليا عبر الألب وسويسرا حتى مدن

١ . Aeneus Salvius Amandus كان احد ضباط دقلديانوس وفى عام ٢٨٥ انتحل لقب قيصر وامر بسك العملة باسمه شعارا لاستقلاله ، وقام مع زميله Aelianus بزعامة ثورة الباجود ضد الرومان ، وقد هزما وقتلا فى نفس العام ٢٨٥م .

٢ . Mursurillo, H. The Acts of the Christian Martyrs, Oxford 1972, pp. 245-9 & pp. 250 - 59.

٣ - Mösch, Joh. Um den historischen Kern der Legende vom Martyrium der thebäischen Legion, in Zeitschrift für Schweiz. Kirchengeschichte 1949 .

بون وكولونيا وإكسانكتن بألمانيا الغربية وهولندا، فعدد الكتيبة التى استشهدت فى أجاونوم (سان موريس) لا يزيد عن عدد أعضاء كتيبة رومانية واحدة، أى ٥٢٠ فرداً.

اثبت ذلك المؤرخ الشهير L. Dupraz[١] والراهب المؤرخ دكتور باول ميلر [٢] من خلال دراساتهما الدقيقة لألقاب كبار ضباط الفرقة والكتائب ورتبهم العسكرية مما أكد نتائج دراسات Mösch السالفة الذكر، أى أن عدد شهداء الكتيبة الطيبية فى أجاونوم لم يتعد كتيبة واحدة أى ٥٢٠ شخصاً ، بينما تعاقب استشهاد بقية كتائب الفرقة البعيدة التالية فى تواريخ متتالية فى سويسرا وإيطاليا وغرب ألمانيا.

تأكدت هذه النتائج أيضاً من خلال ما ذكر فى مخطوط القديس أويخريوس من ناحية، وفى مراجع أخرى تحكى قصة استشهاد بعض أبناء الفرقة الطيبية فى أماكن أخرى عدا أجاونوم من ناحية أخرى، مثل قصة استشهاد القديسين بقطر أى فيكتور وأورسوس مع ٦٦ من أعضاء الفرقة الطيبية فى مدينة سالودوروم الرومانية أى سولوتورن الحالية.[٣]

بعض أشهر قديسى الفرقة الطيبية فى سويسرا وألمانيا وشمال إيطاليا:

حدثت أثناء تعذيب أبناء الفرقة الطيبية واستشهادهم معجزات خارقة كثيرة مما أدى إلى تحول سكان هذه المناطق إلى هذه الديانة الاعجازية الجديدة. وأود أن أذكر على سبيل المثال إحدى هذه المعجزات التى حدثت فى مدينة زيورخ (المسماة توريكوم Turicum فى العهد الرومانى) عندما أمر الحاكم الرومانى بعد حلقات متعددة من التعذيب بقطع رؤوس أبناء الفرقة الثلاثة الذين وصلوا إلى هذه الأنحاء، وقاموا بالتبشير فيها وهم القديس Felix وشقيقته Regula [٤] وزميله Exuperantius.

قام أبناء الفرقة الثلاثة بعد قطع رؤوسهم بالوقوف، وحمل كل منهم رأسه على كفه، ثم سار الثلاثة مسافة ٤٠ إيل (أى ٣٦ متراً) إلى أعلى الهضبة المجاورة حيث ركعوا وصلوا قبل رقادهم فى المكان الذى شيد عليه سكان المدينة كنيسة Grossmünster فيما بعد، والتى تعد حتى اليوم أهم كنائس مدينة ومحافظة زيورخ الرسمية.

احتفظ برفات القديسين فى هذا المكان حتى عصر النهضة الدينية فى أوائل القرن السادس عشر. وفى يوم ٢٥ يونية عام ١٥٢٦ صدر الأمر من رئاسة المدينة التى كانت قد تحولت إلى البروتستنتية بتحطيم الأيقونات تحت زعامة القس Zwingli وما شابه ذلك من تغيرات تجاه مزارات القديسين وخلافه. عندئذ قام أحد أبناء الكنيسة الكاثوليكية من مواطنى بلدة Ursern بمحافظة Uri بداخل سويسرا يدعى Hänsli Benet بنقل رفات القديسين خفية إلى كنيسة

١- Dupraz , L. Les Passions de Saint-Maurice d'Agaune, pp. 242-264.

٢- Fr. Paul Müller , Passio sancti Mauritii et sociorum ejus .... p.184.

٣- Surius Laurentius, De Probatis Sanctorum Vitis, Coloniae Agrippinae (30th September). See also Bibliography of St. Ursus and St. Victor.

٤- فيما يتعلق بالتقليد الرومانى الذى يسمح للضباط العظام باصطحاب احدى أقرب افراد الأسرة أثناء الحملات الحربية الطويلة ، الرجاء الرجوع إلى الفصل الخاص بذلك فى الدراسة الآتية :
S. F. Girgis, The Theban Legion in Switzerland, St. Pachom's Publications, V, 1987.

القديس Kolumban ببلدته. وفى عام ١٦٠١ نقلت رفات القديسين إلى كنيسة القديسين بطرس وبولس بمدينة Andermatt.

وفى سنة ١٦٤٨ نقلت بعض أجزاء رفات القديسين إلى الكنيسة المسماة Jagdmattkapelle بجوار مدينة Erstfeld . نقلت هذه الأجزاء إلى كنيسة القديس Ambrosius بمدينة Erstfeld فى يوم ٢ يوليـة من نفس العام ثم أعيـدت إلى ال Jagdmattkapelle من جديد يوم الاحتفال بعيد القديسة Anna فى نفس العام أى ١٦٤٨م.

فى سنة ١٦٨٢ فتحت صناديق الرفات الأصلية الموجودة بكنيسة القديسين بطرس وبولس بمدينة Andermatt رسميا لفحص محتوياتـهـا وقد أثبت فى البروتوكـول وجود راسـى القديسـين Felix و Regula داخل هذه الصناديق. منذ ذلك الحين يوجد راسا القديسين فى كنيسة القديسين بطرس وبولس فى Andermatt بينما نقلت أجزاء من الرفات فى العصور التالية إلى كنائس متعددة فى مختلف أنحاء سويسرا مثل دير القديس مايتراد Meinrad فـى مدينة أينسيدلن أو كنيسة القديسين فيلكس وأخته ريجولا بمدينة زيورخ وخلافهما ...[١]

كذلك شيد أهل المدينة فيما بعد كنيسة Wasserkirche على مكان استشهاد القديسين الثلاثة.

هذا وقد خلد أهل المدينة معجزة قيامهم وحمل رؤسهم على أكفهم بتصويرها على ختم برلمان محافظة زيورخ الرسمى، ختم السلطة التشريعية للمحافظة، حتى اليوم [٢].

بطبيعة الحال كانت هذه المعجزات الكثيرة الخارقة بمثابة نقطة تحول سكان هذه الأنحاء إلى ديانة أبناء الفرقة الإعجازية ، مما أدى إلى انتشار المسيحية فى جميع هذه الأنحاء فى هذا الوقت المبكر، أى حوالى ٣٠٠م، أى قبل وصول المبشرين الأيرلنديين St. Gallus, St. Col-lumban, St. Fridolin إلخ الذين قاموا بالتبشير فى شرق سويسرا (محافظة سانت جالن St. Gallen ومحافظة Glarus) وغرب النمسا بقرون ثلاثة.[٣]

فلا عجب أن نجد عدداً كبيراً من شهداء الفرقة الطيبية بين أهم قديسى وسط أوربا وأشهرهم، وخاصة سويسرا وألمانيا وفرنسا وشمال إيطاليا طوال هذه القرون والعصور وحتى الآن نذكر على سبيل المثال :

فى سويسرا :

I- St-Maurice, St. Exuperius, St. Candidus, St. Innocentius and St. Vitalis.

شهداء الكتيبة الأولى فى مدينة أجاونوم التى تحمل الآن اسم القديس موريس بمحافظة

---

١ Surius Laurentius, De Probatis Sanctorum Vitis, Coloniae Agrippinae (30th September). See also Bibliography of St. Ursus and St. Victor.

٢ - فيما يتعلق بالتقليد الروماني الذى يسمح للضباط العظام باصطحاب احدى اقرب افراد الأسرة أثناء الحملات الحربية الطويلة ، الرجاء الرجوع الى الفصل الخاص بذلك فى الدراسة الآتية :
S. F. Girgis, The Theban Legion in Switzerland, St. Pachom's Publications, V, 1987.

٣ - See also - : Bütler Joseph, Die thebäische Legion, p. 36; Friedrich, J. Kirchengeschichte Deutschlands, Bd. II., p. 604; Gelpke, E. F. Glaubenboten der Schweiz vor St. Gallus, p. 197, Wyss, G.V. Geschichte der Abtei Zürich, p. 10-11.

فاليس بجنوب غرب سويسرا. ومازال يوجد حتى اليوم دير القديس موريس أشهر قديسي الفرقة على الإطلاق وهو يعد حتى اليوم شفيع المدينـــة التى تحمل اسمـــه أى Saint-Maurice، وشفيــــع ابروشيـــة Sitten بمحافظة فاليـــس كما كان ولم يزال شفيـع محـــافظة ابينتســـل إينـر رودن Appenzell i. Rh. ومدن ومؤسسات عدة سيأتى ذكر بعضها فى الفصل الخاص بتكريم أبناء الفرقة فيما بعد. هذا ويحتفل بذكرى استشهاد القديس موريس يوم ٢٢ سبتمبر من كل عام.

II - St. Felix , St. Regula & St . Exuperantius

شهداء مدينة زيورخ، عيد استشهادهم يحتفل به فى يوم ١١ سبتمبر وهو فى نفس الوقت عيد راس السنة القبطية فى السنوات العادية (غير الكبيسة)، تقويم الشهداء.

III - St. Ursus & St. Victor

القديسان بقطر (فيكتور) وزميله القديس أورسوس اللذان استشهدا مع ٦٦ من أبناء الفرقة الطيبية فى مدينة سالودوروم الرومانية، أى سولوتورن الحالية. يعد القديس أورسوس شفيع أبروشية بازل بينما يكرم القديس بقطر كشفيع لمدينة جنيف نظراً لنقل رفاته إلى هذه المدينة فيما بعد بناء على أمر الملكة Theydesinde، ملكة البورجوند، فى عهد الملك Go-degisal (+٥٠١م). عيد استشهادهم هو يوم ٣٠ سبتمبر.

IV. Saint Verena

شفيعة مدينة تسورتساخ Zurzach بمحافظة ارجاو Aargau بوسط سويسرا، شفيعة هذه المدينة وشفيعة مدينة شتيفا Stäfa بمحافظة زيورخ ومدن أخرى عديدة. يحتفل بذكراها العطرة مرتين كل عام وهما الأول من سبتمبر ويوم الثلاثاء التالى لعيد القيامة المجيد.

فى ألمانيا:

I - St. Tyrsus (Thirsus), St. Palmatius, St. Bonifatius and their comrades in Trier

القديسون تيرسوس، بالماتيوس، بنيفاتيوس وزملاؤهم من شهداء الكتيبة فى مدينة ترير: يحتفل بذكراهم يومى ٤ و ٥ اكتوبر . جدير بالتذكرة أن هذه المدينة هى التى قد نفى اليها البابا اثناسيوس الرسولى، قاهر الأريوسية، وذلك فى عام ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

II - St. Cassius, St. Florentius

القديسان كاسيوس وفلورينتيوس مع باقى أفراد كتيبتهم الذين استشهدوا فى مدينة بون، العاصمة السابقه لألمانيا الغربية (فيرونا الرومانية). يحتفل بعيدهم يوم ١٠ أكتوبر.

III - St. Gereon

القديس جيريون و٣١٨ فرداً من أبناء كتيبته الذين استشهدوا فى مدينة كولونيا، يحتفل بذكرى شهادتهم فى يوم ١٠ اكتوبر أيضاً.

IV - St. Victor, St. Mallosus (Mallosius)

القديسان بقطر ومالوسوس اللذان استشهدا مع ٣٣٠ من اعضاء كتيبتهما فى مدينة اكسنتن Xanten. عيدهما يوم ١٠ اكتوبر ايضاً.

فى شمال إيطاليا:

I - St. Maurilius, St, Georgius & St. Tiberius in Pinerolo

II - Maximius, St. Cassius, St . Secundus, St. Severinus & St. Licinius in Milano

III - St. Octavius, St. Solutor & St. Adventor in Turin .

IV - St. Constantius, St. Alverius, St. Sebastianus & St. Magius in the Cottian Alps

V - St. Alexander in Bergamo .

VI - St Antonius in Piacenza.

VII - St Secundus in Ventigmilia

And many others.

هذا إلى جانب الكثيرين من شهداء هذه الفرقة المجيدة فى شمال إيطاليا. يتحتم علينا القيام بدراسات منهجية عدة للتعريف بهؤلاء الرسل الأمجاد.

تكريم ذكرى شهداء الفرقة الطيبية فى وسط أوروبا وغيرها :

بطبيعة الحال لا نستطيع فى إطار هذا المدخل المقتضب تقديم ولو عرض موجز لهذا الموضوع. لذلك سنكتفى الآن بتقديم أحد الأمثلة، الا هو تكريم القديس موريس قائد الفرقة.

القديس موريس هو بلاشك اكثر أبناء الفرقة شهرة وشعبية. وقد ندرك ذلك إذا ما علمنا أن هناك ما يزيد عن ٦٥٠ كنيسة وهيكلاً ومؤسسة دينية قد شيدت تكريماً لعمله المجيد وتخليداً له فى بلدان غرب أوربا وخاصة سويسرا والمانيا. إن عدد الكنائس التى مازالت مكرسة باسم القديس موريس فى المانيا فقط هو ١١٤ كنيسة [1].

مازال القديس موريس حتى اليوم شفيع ابروشية Sitten (Sion) وشفيع مدينة اجاونوم التى تحمل اسمه اليوم Saint - Maurice بجنوب غرب سويسرا، وأيضاً شفيع مدينة St. Moritz (سان موريس St. Moritz السياحية المشهورة فى منطقة الإنجادين Engadin بجنوب شرق سويسرا، بل إن عيد القديس موريس ومازال يعد عطلة رسمية فى محافظة ابينسل إنر رودن (Appenzell i. Rh.).

كان القديس موريس شفيع ممالك ودول وأسر حاكمة متعددة فى العصور الوسطى منها على سبيل المثال:

+ مملكة اللانجوبارد Langobards فى إيطاليا ٦٧٢ ـ ٧٧٤

+ مملكة الميروفينجر فى فرنسا Merovengians ٤٩٦ ـ ٧٥١

+ مملكة شارلمان الكبير ، أسرة Carolingians، ٧٥١ ـ ٩١١ فى الجزء الشرقى و ٧٥١ ـ ٩٨٧ فى الجزء الغربى .

+ مملكة البورجوند Burgundy (٩٠٠ تقريباً حتى ١٤٧٧ م).

+ أسرة سافوى التى قامت بتحرير إيطاليا وتوحيدها وظلت حاكمة لإيطاليا حتى هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية.

+ اباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأسرة الهابسبورج Habsburgs التى اعتاد الكثيرون من أباطرتها أن يتوجوا فى هيكل القديس موريس فى كاتدرائية القديس بطرس بالفاتيكان .

وقد ندرك اهمية تكريم القديس موريس إذا علمنا أن الإمبراطور هنرى الأول (٨٧٦ ـ ٩٣٦) ، مؤسس اسرة الساكسون الحاكمة فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد أهدى مقاطعة ارجاو

---

1 - See :
Christian Köhler, Mauritiuskirchen in deutschen Landen . Hannover 1986.
تنازل الملك فيكتور عمانوئيل الثالث عن العرش لابنه امبرتو الثانى سنه ١٩٤٦ وتوفى فى بورسعيد سنة ١٩٤٧، ثم هاجر امبرتو الثانى إلى البرتغال بعد إعلان الجمهورية بإيطاليا.
جدير بالذكر ان الراهب المؤرخ دكتور باول ميلر قد ذكر ٤٤ كنيسة مكرسة باسم القديس موريس فى جمهورية المانيا الديموقراطية السابقة . الرجاء الرجوع إلى دراسته السالف ذكرها فى قائمة المراجع . انظر ايضاً:

2 - S.F. Girgis, Saint - Maurice, St.Pachom's Publ. XIII., 1993, pp. 31-36.

بوسط سويسرا فى مقابل حصوله على حرية القديس موريس، كما كان سيف القديس موريس الذى يحتفظ به حتى اليوم فى متحف فينا، يعد من أهم شعارات الحكم فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة [1]. وقد استعمل هذا السيف لآخر مرة فى تتويج الإمبراطور النمساوى شارل ملكاً على المجر عام ١٩١٦.

وجدير بالذكر أيضاً فى هذا المقام بعض المنظمات الشهيرة التى أسست تخليداً لذكراه مثل منظمة القديس موريس التى أسسها الملك أماديوس الثامن ملك سافوى فى عام ١٤٣٤، ومنظمة الفرو الذهبى The Golden Fleece التى أسسها الأمير فيليب حاكم بورجوندى فى سنة ١٣٢٩ وخلافه ...

بطبيعة الحال يستحيل علينا فى اطار هذه الدراسة الموجزة الإشارة إلى كل أو غالبية الكنائس المكرسة باسم القديس موريس فى كافة بلدان غرب أوربا، وسأذكر على سبيل المثال بعض الكنائس الهامة التى شيدت تخليدا لذكراه، لشهادته واستشهاده مثل:

فى محافظة أرجاو:

فى البلدان التالية :Berikon , Beinwil- Freiamt, Oberrohr, Wöflinswil

وكذلك الكنائس الكاثوليكية سابقاً فى: Suhr, Umikon & Zofingen

فى محافظة لوتسرن:

فى البلدان التالية: Emmen, Pfeffikon, Schötz, Ohmstal

القديس موريس شفيعاً لكاتدرائية لوتسرن مع القديس ليوديجار Leodegar.

فى محافظة سولوتورن:

فى المدن والقرى التالية : Dornach, Kleimnlützel, Kriegstetten .

فى محافظة أبينسل إينر رودن Appenzell i. Rh.:

شفيع الكنيسة المسماة "Stosskirche".

فى محافظة جراوبيندن Graubünden:

كنيسة القديس فى المدينة المسماة باسمه St. Moritz.

فى محافظة شفيتز Schwyz:

شفيع دير أينسيدلن الشهير (بنديكت) مع القديس ماينراد Meinrad الذى استشهد فى هذه البقعة.

فى محافظة فاليس بجنوب غرب سويسرا Wallis:

كنيسة دير القديس موريس، مكان استشهاده مع أعضاء الكتيبة الأولى (٥٢٠ فرداً)، ولقد

1 - S.F. Girgis, Saint - Maurice, St.Pachom's Publ. XIII., 1993, pp. 31-36 .

تأسست هذه الكنيسة الأولى بواسطة الأسقف (Theodore (Theodul، أسقف مدينة مارتيني، أى مدينة أوكتودوروم الرومانية (٣٥٠م).[١]

وفقاً لنتائج الحفريات الأخيرة يرجع تشييد الكنيسة الأولى إلى القرن الرابع الميلادى، وقد ذكرت هذه الكنيسة القديمة فى أولى المخطوطات الخاصة بالفرقة الطيبية، أى فى مخطوطة القديس أويخريوس. جاءت نتائج الحفريات الأخيرة تأكيداً لما ذكر بالمخطوطات والوثائق التاريخية الأولى [٢].

نظراً لعزلة الكنيسة القبطية عن أوربا منذ مجمع خلقدونية (٤٥١) ثم الفتح العربى فيما بعد (٦٤٠) ظل قديسو الفرقة الطيبية، رغم شهرتهم الواسعة فى وسط أوربا وغربها، غير معروفين فى وطنهم الأصلى ومنبع نشأتهم الدينية المتفانية، لذا لم يتضمن السنكسار القبطى (حياة القديسين) أى إشارة إليهم وسط الحشد الهائل من القديسين والشهداء، واستمر هذا الحال حتى الأحقاب القليلة الماضية التى تميزت بجهود مسكونية فريدة ومكثفة من كافة الجوانب وما انجبته تلك الجهود من ثمار متبادله كان لها عظيم الأثر فى التعريف بشهداء وقديسى الفرقة الطيبية فى وطنهم ومسقط رؤوسهم، حيث قام المجمع المقدس لكنيسة الإسكندرية تحت رئاسة حضرة صاحب الغبطة الأنبا شنودة الثالث بضم اسم القديس موريس والقديسة فيرينا إلى السنكسار القبطى ، كما قامت رئاسة الكنيسة الكاثوليكية من جانبها بارسال جزء من رفات كلا القديسين إلى بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة لتعزيز تكريم شهداء الفرقة الطيبية فى وطنهم. وإننا لنرجو ضم بقية شهداء الفرقة إلى إخوتهم فى مجمع القديسين خاصة وأن هناك دراسات منهجية متعددة تدعم هذه الرغبة الصادقة.

١. انظر :
S.F. Girgis. Saint-Maurice, The Commander of the Theban Legion. St. Pachom's Publications, XIII. 1993, pp. 31-36; Bock, F.. Die Kleinodien des Heiligen Römischen Rriches Deutscher Nation. 1864 Fillitz. H., Die Insignien und Kleinodien des Heiligen Römischen Reiches Deutscher Nation, 1954.

٢. عن الحفريات انظر : Blondel, L. , Les anciennes basiliques d'Agaune, 1948.



(St. Maurice)

.القديس موريس قائد عام الفرقة الطيبية. ايقونة فى هيكل
كنيسة ديره التى شيدت فوق مكان استشهاد الكتيبة
الأولى بمدينة أجاونوم الرومانية التى تحمل الآن اسم
القديس موريس بمحافظة فاليس بجنوب غرب سويسرا .

الأصل القبطى للفرقة الطيبية

أولا: إجماع المصادر الأوربية القديمة والوسيطة على أصل الفرقة المصرى.

ثانيا: تطابق أقدم المصادر الأوربية مع المراجع الشرقية القديمة.

ثالثا: الأصل القبطى والفرعونى للعديد من أسماء أعضاء الفرقة.

رابعا: الشواهد العينية : الصليب القبطى والمشط المزدوج (القلاية) .

إلخ ...



ABBAYE
DE ST. MAURICE

الصليب القبطى
شعار دير القديس موريس الذى شيد
على مكان استشهاد الفيلق الرئيسى،
مدينة سان موريس

الأصل المصرى للفرقة الطيبية

إن الأصل المصرى للفرقة الطيبيـــة حقيقة تاريخية ثابتة وفقاً لأدلة عديدة قاطعة لا جدال فيها ، تم نشرها فى دراسات منهجية متخصصة مثل:[1]

I - S.F. Girgis,
"The Theban Legion in Light of the Oriental Sources as well as the Coptic and Ancient Egyptian Etymologies", in St. Pachom`s Publications, II, Zurich & Vienna 1984": 2nd edition in St. Mark`s English Quarterly, Press of the Monastery of St. Macarius, Egypt, 1987 : Idem in German , St. Pachomius Publikationen , I., 1984.

II - S. F. Girgis ,
"The Significant Contribution of the Early Evangelization of Switzerland", St. Pachom`s Publications IV, Zurich & Vienna 1984 : Idem in German, St. Pachomius Publikationen III., 1984 .

III - S. F.
Girgis"The Theban Legion in Switzerland", St . Pachom`s Publications V,1987.

IV. S. F . Girgis,
"The Coptic Origin of the Theban Legion", Jubilee Paper dedicated to the 1700th Martyrdom of Saint Maurice and the Theban Legion and the 700 Anniversary of the Swiss Confederation, St. Pachom`s Publications IX, published by Peter Nusch, St. Gallen 1990 : Idem in German , St. Pachomius Publikationen VIII., 1990, Peter Nusch 1990.

V - S. F. Girgis,
Eight entries about the most renowned Saints of the the Theban Legion in Switzerland, The Coptic Encyclopedia, Utah, USA, 1991.

---

1 - See: Zentralbibliothek Zürich, Codex Rh. 81, pp. 329-335; Stiftsbibliothek Einsiedeln, Codex 257, pp. 407-414; Stiftbibliothek St. Gallen, Codex 577, pp. 559-562.
ترجمة ممتازة من اللاتينية إلى الألمانية لهذا المخطوط Vita Prior ولتاريخ حياة القديسة فيرينا الأكثر حداثة ، المخطوط Vita Posteri
Or مع هوامش منهجية متميزة بواسطة Prof.Dr.Adolf Reinle
فيرينا ، انظر :
Die Heilige Verena von Zurzach, Basel, 1948,246 Seiten ohne Abbildungen.
ترجمة ثانية من اللاتينية إلى الألمانية فى :
Joseph Bütler, Die thebäische Legion , Lucerne 1951, pp. 37-51 & 56-7.

VI . S. F. Girgis,
"Saint Maurice : The Commander of the Theban Legion", St Pachom's Publications XIII, Zurich & Vienna, 1993 .

أود فى هذه اللمحة العابرة والنبذة الموجزة أن أذكر ببعض هذه الأدلة القاطعة مثل:

+ إجماع المخطوطات والمراجع الأصلية فى أوربا على أصل الفرقه المصرى.

+ إثبات صحة ما ورد بأقدم المراجع الأوربية من معلومات خاصة بأصل ونشأة بعض أعضاء الفرقه الطيبية والظروف والأحداث المحيطة بهم فى الوطن الأم، عند مقارنتها بما ورد بالمراجع الشرقية والقبطية المعاصرة. ويجب فى هذاالصدد الإشارة إلى أهمية تطابق المراجع الأوربية الأولى مع مثيلاتهاالشرقية والقبطية وذلك لعدم وجود اى علاقات متبادلة بين هذين المصدرين طوال القرون العديدة، مما حال دون نقل مثل هذه الخصائص والمعلومات الدقيقة من أحد المصدرين إلى الآخر. ونود أن نذكر فى هذا المجال بالمثل الآتى:

نقرا فى اقدم مصدر أصلى عن حياة القديسة فيرينا، Vita Prior [1] ما يلى:

"ذكر أن القديسة العذراء فيرينا من أسرة يرجع أصلها إلى منطقة Thebaid [2]. ولدت فيرينا من أسرة عريقة وعهد بعمادها إلى أسقف قديس كبير السن اسمه شيرامون قام أيضاً بالإشراف على تعليمها الدينى. وبعد استشهاد هذا الأسقف رحلت العذراء (=فيرينا) مع بعض المسيحيين إلى مصر السفلى. فى ذاك الوقت كان قد تم هناك تجميع عدد كبير من المؤمنين فى معسكر الإمبراطورين دقلديانوس ومكسيميان . فى ذاك الوقت كان قد تم أيضاً إنشاء الفرقة الطيبية تحت قيادة "موريس" [3].

كما جاء بعاليه يتضح لنا من أقدم المصادر ما يلى:

اولاً: ان القديسة فيرينا ولدت فى منطقة Thebaid، التى كانت تتضمن وتمتد من مصر الوسطى إلى مصر العليا كما هو موضح بالخريطة على الصفحة التالية.

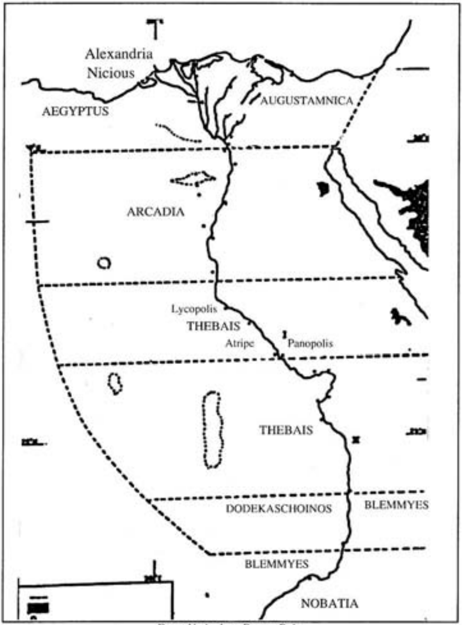
ثانياً: ان الذى قام بعمادها أسقف هرم السن اسمه شيرامون .

ثالثاً: أن هذا الأسقف قد استشهد.

يجب على الباحث أن يتساءل هنا:

الرجاء الرجوع إلى خريطة تقسيم مصر الادارى فى الفترة الثانية من الحكم الرومانى. انظر :
J. D. Fage, The Cambridge History of Africa, Vol. II.
توجد هذه الخريطة فى الفصل الخاص بمصر تحت الحكم الرومانى . وفقاً لهذا التقسيم الإدارى كانت منطقة Thebaid الاولى تتضمن وتمتد من مصر الوسطى حتى إقليم Thebais الثانى الذى كان يتضمن مصر العليا حتى Philae.

1 - Reinle, Adolf, Die heilige Verena von Zurzach, pp. 26-7
Virgo ista beatissima, ut ferunt, **Thebaea** genere extitit, "honestissimis parentibus primum orta cuidam sancto episcopo ad baptizandum et in fide informandum traditur. Quo posmodum per **martyrium** coronato - erat enim senex **Cheremon nomine** - ipsa virgo cum aliquibus christianis as inferiorem Aegyptum pervenit, ubi tune maxima multitudo fidelium in castris Diocletiani er Maximiani imperatorum militatura describebatur . Tune temporis ibi illa beatissima legio Thebaea Mauricii iam praeelecta tenebatur".



Egypt Under Late Roman Rule
Courtesy : J .D . Fage
The Cambridge History of Africa
Vol . II

أولاً:

هل كان هناك بالفعل أسقف بهذا الاسم فى هذه المنطقة، Thebaid ؟؟؟

ثانياً:

هل كان هنالك أسقف بهذا الاسم فى هذه المنطقة وفى ذلك الوقت، أى النصف الثانى من القرن الثالث، حيث أن الفرقة الطيبية كان ـ كما جاء فى المصدر ـ قد تم إعدادها فى معسكرات الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) ؟؟؟؟

ثالثاً:

هل مات هذا الأسقف شهيداً ؟؟؟؟

كيف نستطيع التحقق من تاريخية هذه الوقائع ؟؟؟ اقول "التحقق" ولم اقل كيف نستطيع "إثبات" هذه الوقائع.

إن الفرض الثانى "البحث لإثبات الوقائع" قد "يتضمن تلقائياً انحيازاً وحكماً سابقاً" أما الوسيلة الأولى، أى محاولة "التحقق من تاريخية الوقائع" فهى السبيل المنهجى السليم لتقصى حقيقة الأمور دون انحراف وأهداف سابقة تبحث عن وسائل تعليلها.

بطبيعة الحال انما نحن نبحث عن حقيقة الأمور دون أحكام أو أهداف سابقة ودون مبالغة أو تعليل.

بالرجوع إلى اقدم المراجع الشرقية المعاصرة لتلك الأحداث نعثر على خطاب حرره غبطة البابا Dionysius العظيم، بابا الإسكندرية منذ عام ٢٤٦ الى ٢٦٤م [١]خليفة مار مرقس الرابع عشر، إلى الأسقف فابيوس، أسقف مدينة أنطاكية، يشرح فيه الأنبا ديونيسيوس بعض أحداث الاضطهاد فى عصر الإمبراطور Decius (٢٤٩ ـ ٢٥١). اقتبس ما جاء بهذا الخطاب بواسطة الأسقف Eusebius of Caesarea (٣١٣ ـ ٣٣٩) فى تاريخه الكنسى الشهير[٢]، جاء فيه ما يلى:

"... سأذكر لك حدثاً واحداً كأحد أمثلة (موجة الاضطهاد التى شنها الإمبراطور Decius) .

---

١ ـ البابا ديونيسيوس العظيم ، خليفة مارمرقس الرابع عشر، تربع على عرش الكرازة المرقسية من ٢٤٦ الى ٢٥٤م لعب ديونيسيوس العظيم دوراً حاسماً فى القضاء على هرطقة Paul of Somosata ، اسقف انطاكية وعميل الملكة زنوبيا ، ملكة (باليرا) تدمر .
للمزيد عن مؤلفاته اللاهوتية الأربعة ، انظر :
A. S. Atyia, A History of Eastern Christianity, pp. 29-30 M Feltoe, C. L. The Letters and Other Remains of Dionysius of Alexandria, 1904.

٢ ـ See: R. K. Poetzel in New Catholic Encyclopedia, Vol. IV, p. 633; Heinrich Kraft, Eusebius von Caesarea, Kirchengeschichte, München 1981, p. 74.
إن النسخة السريانية موجودة فى مخطوطين وترجع إلى عام ٤٦٢، إلى جانب ترجمة Rufinus اللاتينية. للمزيد انظر :
W. Wright & N. Mc Lean, The Ecclesiastical History of Eusebius in Syriac, Cambridge 1898, German trans. By E. Nestle in Texte und Untersuchungen zur Geschichte der altchristlichen Literatur 21, 2, Leipzig 1903-9 .

إن **شيرامون** الهرم السن ، أسقف مدينة **نيلوس،** [١] هرب مع زوجته إلى جبال العرب ولم يعد من هناك قط. وعلى الرغم من البحث المكثف الذى قام به الإخوة، فإننا لم نعثر عليهما حيّين أو ميتيّن".[٢]

بمقارنة اقدم المصادر الأوربية الخاصة بحياة القديسة فيرينا، مخطوطات Vita Priorو Vita Posterior الموجودة فى مكتبات زيورخ وأينسيدلن و سانت جالين، بأقدم المراجع الشرقية المعاصرة لتلك الأحداث، يتحقق لنا التطابق التام بين ما ورد فى كلا المصدرين بالرغم من العزلة التامة بينهما مما يحول دون تأثر أى من هذه المصادر بالآخر . بمقارنة ما جاء بالمخطوطات الأوربية بالمراجع الشرقية يتحقق لنا ما يلى مما اجمع عليه المصدران:

اولاً: وجود أسقف بهذا الاسم ، باسم شيرامون فى منطقة Thebaid.

ثانياً: إن هذا الأسقف الهرم قد كان ضحية موجة الاضطهاد التى شنها الإمبراطور ديسيوس (٢٤٩ - ٢٥١)، اى أن هذا الأسقف كان يعيش فى مكان وزمان مولد وعماد القديسة فيرينا (منتصف القرن الثانى الميلادى).

ثالثاً: أن هذا الأسقف كان ضحية موجة الاضطهاد المذكوره تحت حكم ديسيوس، وهو ما جاء بكلا المصدرين، أقدم مخطوطات تاريخ الفرقة الطيبية.(أنظر البداية ص)

رابعاً: تطابق بناء ووجود الفرقة الطيبية تحت قيادة القديس موريس فى ذاك الوقت بالذات.

خامساً: كما سيتبين لنا فيما بعد أن اسم هذا الأسقف ليس قبطى المصدر فحسب، بل هو اسم مصرى قديم يرجع إلى عهد الفراعنة، ومعناه "ابن امون".

هذا وهناك العديد من الأمثلة المشابهة التى تثبت صحة ما ورد بأقدم المراجع الأوربية من معلومات خاصة بأصل ونشأة بعض أعضاء الفرقة الطيبية والظروف والأحداث المحيطة بهم فى الوطن الأم، وذلك بمطابقتها بالمراجع الشرقية المعاصرة ، رغم عدم وجود أى علاقات متبادلة بين هذين المصدرين طوال القرون العديدة، مما حال دون نقل هذه المعلومات من أحد المصدرين إلى الآخر [٣].

---

١ - مدينة نيلوس فى العهد الرومانى هى تليج فى العصر القبطى ودلاص الحالية بمركز بوش بمحافظة بنى سويف .
Heinrich Kraft, Ibid., p. 311; Albertus Schwegler, Eusebius pamphili : Historia ecclesiasticae Libri X-Tubingae 1852, pp. 240-4.

٢ - " Χαιρήμων ἦν ὑπέργηρως τῆς Νείλου καλουμένης πόλεως ἐπίσκοπος. οὗτος εἰς τὸ Ἀράβιον ὄρος ἅμα τῇ συμβίῳ ἑαυτοῦ φυγών, οὐκ ἐπανελήλυθεν, οὐδὲ ἐδυνήθησαν ἰδεῖν οὐκέτι, καίτοι πολλὰ διερευνησάμενοι, οἱ ἀδελφοὶ οὔτε αὐτοὺς οὔτε τὰ σώματα."

٣ - امثلة اخرى فى الدراسات الست لكاتب هذا المدخل .
See: Preisigke, Fr., Namenbuch, p.219; Sammelbuch griechischer Urkunden aus Aegypten, No. 5856; Further examples for the addition of the Greek suffix -ie or - ioc to the Coptic ancient Egyptian names in, S.F. Girgis, Saint Maurice, p. 38; Heuser, G. Die Personennamen der Kopten, pp. 45,60; Spiegelberg, W., Koptisches Handwörterbuch, p.37; Parthey, G., Aegyptische Personennamen bei den Klassikern in Papyrusrollen und auf Inschriften, Berlin 1864, p.58.

إثبات الأصل القبطى والفرعونى لأسماء الكثيرين من أعضاء الفرقة الطيبية:

+ إن أصل أسماء الكثيرين من أعضاء الفرقة ليس قبطياً فحسب بل هو مصرى قديم يرجع إلى العهد الفرعونى . لقد ثبت ذلك تكراراً بأدلة قاطعة مثل ذكر هذه الأسماء فى كافة أنواع العقود والمعاملات اليومية، أو على أحجار المقابر، وجدير بالذكر فى هذا الشأن أن معانى الكثير من هذه الأسماء ذات الجذور المصرية الغائرة، هى معانٍ قبطية مصرية (فرعونية) بحتة، مثل:

+ اسم القديس موريس: (١)

اسم قائد الفرقة "موريس" الذى ما انفك يستعمل كاسم للأفراد منذ مصر القديمة حتى يومنا هذا ومعناه "قائد الجنوب أو القائد الصعيدى" (الإثباتات التاريخية لذكر الاسم فى العقود وعلى المقابر طوال العصر القبطى ص ٣٧ من الدراسة الأخيرة المذكورة بعاليه). إن ذلك الاسم كان يستعمل أيضاً جغرافياً مثل تسمية بحيرة قارون بمنطقة الفيوم، كما جاء فى وصف سترابو الذى زار مصر فى عام ٢٤ قبل الميلاد.

اسم القديسة فيرينا :

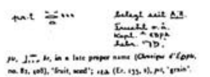
اسم القديسة **فيرينا**، أشهر قديسات الفرقة وإحدى أشهر قديسات أوربا الغربية على الإطلاق. (جدير بالذكر فى هذا الشأن أنه وفقاً للتقاليد الرومانية اعتاد قادة الفرق وكبار ضباطها اصطحاب زوجاتهم أو أمهاتهم أو بعض أقرب أعضاء أسرهم أثناء حروبهم نظراً لبعد المسافات وطول مدة الحرب التى كانت تستغرق أشهراً وأعواماً) فلا عجب أن نجد فى حفريات العديد من مقابر الفرق الرومانية بقايا من بعض النساء.

أن اسم **"فيرينا"** يتكون من شطرين ، هما فى واقع الأمر كلمتان قبطيتان من أصل مصرى قديم يرجعان إلى العهد الفرعونى . هاتان الكلمتان هما "VRE" وتعنى "ثمر" أو "حبة" كلمة "NE" ومعناها "مدينة". كان هذا الاسم يستعمل للإشارة إلى **"المدينة"**، أى مدينة طيبة، العاصمة، إذا لم يضف إليها أى كناية أخرى أو المزيد من التعريف . وعلى سبيل المثال فإن استعمال كلمة **"المدينة"** فى اللغة العربية للاشارة إلى "المدينة" بالمملكة العربية السعودية، أى للإشارة إلى أهم المدن التى لا تحتاج إلى المزيد من التعريف، هو استعمال مماثل لكلمة "NE" فى المصرية القديمة. (٢)

---

١. See: Herodot, II, 149; Grenfell, B.P.., Hunt, A. S. & Smyly, Y. G., The Tebtunis Papyri, Papyrus No. 322 (189 A. D.), Vol. II, pp. 129, 131; Badawi, A & Kees, H., Handwörterbuch der ägyptischen Sprache, p. 101; Grapow, H, & Erman, A., Wörterbuch der ägyptischen Sprache, Bd. H, p. 97 & Bd. IV, p. 397.

٢. Cerny, J. Coptic Etymological, p. 32;
Crum, W. E., Coptic Dictionary, pp. 53, 624; Grapow, G. & Erman, A., Wörterbuch der ägyptischen Sprache, Bd. I, p. 530.


in a late proper name "fruit, seed"; "grain".

اسم الأسقف شيرامون:

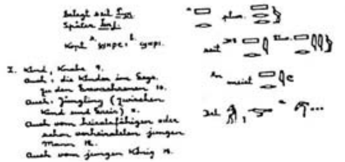
كان اسم الأسقف الذى قام بعماد القديسة فيرينا كطفلة، وفقاً لأقدم المخطوطات الأوربية "Vita Prior" هو "شيرامون". إن هذا الاسم يتكون أيضاً من الكلمتين القبطيتين التاليتين: وتعنى "ابن" والكلمة الثانية "امون"، اسم إله مدينة طيبة الشهير.

كلا الشطرين يرجعان إلى الأصل المصرى القديم وبنفس المعنى، أى "ابن آمون" و ، وجدير بالذكر فى هذا الشأن أيضاً أن هذا الاسم كان ولا يزال ـ مثل العديد من الأسماء الفرعونية الأخرى كسرابيون وخلافه ـ يستعمل خاصة بين أسماء الرهبان منذ العصور الأولى وحتى اليوم [1].

اسم القديس بقطر (فيكتور) : Viktor = Biktor

وعلى سبيل المثال أيضاً فإن اسم أحد قادة الكتيبة الذى استشهد مع ٦٦ من زملائه فى مدينة "سالودوروم"، "سولوتورن" الحالية، والذى نقلت رفاته الى جنيف فيما بعد، بناءً على أمر ملكة البورجوند Theydesinde فى عهد الملك (+501 A.D.) Godegisal والذى صار شفيعاً لهذه المدينة حتى عصر النهضة الدينية فى القرن الخامس عشر، حينما أطاحت هذه الحركة الثورية بتكريم القديسين، هو "فيكتور"، وهو بذاته اسم **"بقطر" القبطى المعروف** الذى كان ولايزال يستعمل لدى أقباط مصر حتى اليوم . فمن المعروف أن حرف "B" ينطق فى

1 - Preisigke, Fr., Sammelbuch griechischer Urkunden aus Aegypten, Strassburg 1913, II., p. 87, Papyrus No. 1010 (249 A. D.) ; Abt Matta El-Meskeen, Al-Rahbanah Al-Qibtiah fi Asr Al-Qidis Anba Maqar (History of Coptic Monasticim at the Age of Saint Macarius), Arabic, Cairo 1972, pp. 45, 174, 177, 189, 257, 266, 301 & 403 etc..; Heuser, G. Die Personennamen der Kopten, Leipzig 1929, pp. 13, 59, 60, 62 & 67; Cerny, J., Coptic Etymological Dictionary, Cambridge 1976, p. 251.; Crum, W. E. Coptic Dictionary, Oxford 1973, p. 548; Grapow Herman & Erman Adolf, Wörterbuch der ägyptischen Sprache,Leipzig 1925- 53, I., p. 84 & IV., p. 526; Badawi Ahmed & Herman Kees, Handwörterbuch der ägyptischen Sprache, Kairo 1958, pp. 19 & 49; Faulkner, R. O., A Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford 1962, p. 270; Gardiner, A., Egyptian Grammar, Oxford 1979, pp. 253 & 608 ; Spiegelberg, W., Aegyptische und griechische Eigennamen aus Mumienetiketten der römischen Kaiserzeit, Leipzig 1901, p. 33; S. F. Girgis, The Coptic Origin of the Theban Legion, St. Pachom's Publ. IX, 1990, pp. 9ff; Idem, Saint Maurice : The Commander of the Theban Legion, St. Pachom's XIII, 1993, pp. 47 ff.



تنطيه "V" إذا تبعه احد الحروف المتحركه ⲁ ، ⲉ ، ⲏ ، ⲓ ، ⲩ ، ⲟ ، ⲱ .(١)

اسم القديس أورس (أورسوس):

إسم القديس أورس (أورسوس) الذى استشهد مع ٦٦ من أبناء كتيبته فى بلدة سولودوروم رومانية (سولوتورن الحالية) والذى مازال حتى اليوم يعد شفيع هذه المدينة بشمال غرب سويسرا، هو ايضا من أصل مصرى صميم. إن هذا الاسم يتكون من مقاطع ثلاثة يعنى "حورس، ابن إيزيس": Ḥr-sꜣ-ꜣst  .(٢)

بعض امثلة الشواهد العينية ذات الأصل القبطى والمصرى القديم كالصليب القبطى أو المشط المزدوج (الفلاية) إلخ ...

أود أن أذكر هنا على سبيل المثال "**الصليب القبطى**" الذى كان ولايزال حتى اليوم يعد شعار دير القديس موريس الذى شيد على مكان استشهاده، فى المدينة التى تحمل اسمه بمحافظة فاليه بجنوب غرب سويسرا. إن هذا الصليب القبطى الذى تمثل كل ناحية منه وحدة الثالوث المقدس، والذى تمثل اطرافه الأربعة عدد رسل السيد المسيح الإثنى عشر، ومركز التلاقى يمثل شمس

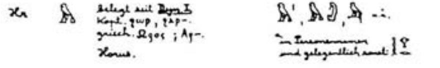
---

١ - فيما يتعلق بتحديد شخصية القديس فيكتور ، احد شهداء الفرقة الطيبية فى سولوتورن واصل الاسم القبطى انظر :
S.F. Girgis, Saint Mauriceé The Commander of the Theban Legion, pp. 55 ff; Idem, The Theban Legion in Light of the Early Coptic Sources as well as the Coptic and Ancient Egyptian Etymologies. St. Pachom`s li, 1984, pp. 14 ff; St. Eucherius, Passio Agaunensium Martyrum ; Der anonyme Bericht, Passio sancti Mauritii et sociorum ejus, wui passi sunt Acauno X Kl octobris; Crum , W. E. Coptic Ostraca, London 1902, No. 30, 47, 49, 90, 140, 195, 215, etc ..; Crum, W. E. Varia Coptica, Aberdeen 1939, pp. 8, 11, 16, 35; Crum & Steindorff , G., Koptische Rechsurkunden des 8. Jhs. Aus Djeme, Leipzig 1971, NoSr. 21.109; 31.6' 35. 8.'81; 36. 17; 37. 123' 38.8; 42. 12. 27, etc..; Grenfell. B.P. & Hunt, A.S., New Classical Fragments and other Greek and Latin Papyri, Oxford 1897, No. 1. 80. 9, 81 a. 4; 82. 7; II. 82. 1. 30; III. 82.2. 30; IV. 86. 9; V. 87. 41; VI 95. 30.
Heuser, G. Die Personennamen der Kopten, pp. 100-101; Preisigke, Fr. Sammelbuch griechischer Urkunden aus Aegypten, Nr. 3528. 6, 4659. 27 , 4684.2, 4728.5, 4802.5,
4894.1, 4817.3, etc..; Preisigke, Fr. Namenbuch, Heidelberg 1922, p. 76; Till, W. C., Datierung und prosopographie der Koptischen Urkunden aus Theben, 1962, pp. 226-9, 962.
Martyrologien :
Hayverant, II. & Balestri, I., Acta Martyrum in Corpus Scriptorm Christianorum Orientalium , Scriptorus Coptici, II, Turnhout 1973, pp. 67, 98, 136; Nau, F. & Graffin., R., Un martyrologe et douze ménologes Syriques, in Patrologia Orientalis, t.x, facs. 1, Nr. 47, p. 214, Turnhout 1973; Tisserant, E. Le Calendrier d'Abou-l-Barakat in Martyrologes et ménologes Orientaux, Patrologia Orientalis, t. X, facs. 3. 3, Nr.48, pp. 268-9 & 278, Turnhout 1973 .

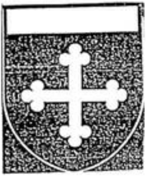
* "اسحق القمص ويقطر واناثيس وإيرانا" .

"يقطر ومن معه" .

٢ - Grapow, II. & Erman, A., Wörterbuch der ägyptischen Sprache, III, p. 122.

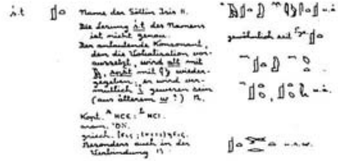


البر الرب يسوع هو ايضاً علـــم مدينـــــة "ســـان موريـــس" "Saint Maurice" حـــتى الآن.



بقية هامش الصفحة السابقة رقم
عن "إيزيس" انظر :

Grapow, H., & Erman, A. Ibid, Bd. IV, p. 8.



See: Brugsch, H., Sammlung demotisch-griechischer Eigennamen ägyptischer Privatleute, Berlin 1851, p. 16; Cerny, J., Coptic Etymological Dictionary, Cambridge 1976, pp. 145, 291; Crum, W.E., Coptic Dictionary, Oxford 1937, II, p. 697; Grenfell, B.P. Hunt, A.S. & Goodspeed, E. J., The Tebtunis Papyri, California 1907, II, No. 356.3, 380. 36, 401. 6,14, 20, 558, 577, 580, etc ... see also index, p. 442; Grenfell, B.P. & Hunt, A. S. New Classical Fragments and other Greek and Latin Papyri, Oxford 1897, Inden; Heuder, G. Namenbuch, p.87; Lüddeckens Erich, Demotisches Namenbuch, Wiesbaden 1980, p. 121; Parthey, G., Aegyptische Personennamen bei den Klassikern in Papyrusrollen und auf Inschriften, Berlin 1864, p. 42; Preisigke, Fr., Sammelbuch griechischer Urkunden aus Aegypten, Strassburg 1913,II., pp. 269 & 318, Nr. 391, 396, 1519, 4284, 4512, 4638, 5124, etc...; Preisigke, Fr., Namenbuch, Index, pp. 242-4, 497; Spiegelberg, W., Aegyptische und griechische Eigennamen aus Mumienetiketten der römischen Kaiserzeit, Leipzig 1901, p. 56.

للمزيد من الهوامش واستة مراجع التاصيل الكاملة فى :

S.F. Girgis, The Coptic Origin of the Theban Legion, St. Pachom's Publications IX, 1990; German translation in St. Pachom's VIII, 1990; See also S.F. Girgis, Saint Maurice : The Commander of theTheban Legion St. Pachom's XIII, 1993.

+ مثل آخر من الشواهد التى تشير إلى الأصل القبطى والمصرى القديم للفرقة الطيبية هو وجود المشط المزدوج "الفلاية" فى يد القديسة فيرينا وفقاً لأقدم الرسومات والتماثيل الموجودة لها. إن تلك "الفلاية" المزدوجة لا يوجد مثيل لها فى ذاك التاريخ المبكر سوى فى مصر القبطية والفرعونية (المشط المزدوج الذى يرجع إلى القرن السابع، المعرض القبطى، مصر القديمة ، القاهرة)، وواقع الأمر أن استعمال مثل هذا المشط المزدوج إنما يرجع إلى العصر الفرعونى، وعلى سبيل التحديد يرجع ذلك إلى الأسرة الثالثة بالدولة القديمة (٢٧٧٨ ق.م. - ٢٧٢٣ ق. م.). ويمكن مشاهدة مثيلات هذه "الفلاية المزدوجة" بالمتحف المصرى ، القاهرة ، القطع رقم ٤٤٣٣٢ و ٤٤٣٣٣).



شعار مدينة Stäfa بمحافظة زيورخ ممثلاً للقديسة المصرية فيرينا، شفيعة المدينة وشفيعة بلدة تسورتساخ Zurzach بمحافظة أرجاو بوسط سويسرا.

جدير بالذكر ان القديسة فيرينا تمثل دائماً حاملة إبريق الماء والمشط المزدوج (الفلاية) فى يدها اليمنى . يرجع ذلك إلى إجماع المراجع على أن القديسة فيرينا قد كرست حياتها لرعاية المرضى، وتعليم الشابات والبنات مبادىء العفة والطهارة الروحية من ناحية وضرورة الاعتناء بالنظافة الجسدية (مثل غسل وتنسيق الشعر) من ناحية أخرى.

إن هذا المشط المزدوج الفريد الشكل يرجع أصلاً إلى مصر الفرعونية ، إلى عهد الأسرة الثالثة من دولة مصر القديمة اى إلى عهد بناة أول هرم بسقارة (أسرة الملك زوسر من عام ٢٦٤١ - حتى ٢٥٢١ قبل الميلاد). (القطع رقم ٤٤٣٣٢ و ٤٤٣٣٣ المتحف المصرى، القاهرة).





المشط المزدوج الذى عثر عليه فى بقايا دير القديس أبو حنس، مصنوع من العاج ، يرجع الى القرن السابع الميلادى، ٩سم عرضاً / ١١سم طولاً، يوجد فى المتحف القبطى بالقاهرة.





المشط المزدوج الذى يرجع إلى عهد الأسرة الثالثة بالدولة القديمة (٢٦٤١ قبل الميلاد إلى ٢٥٢١ قبل الميلاد) ، يوجد بالمتحف المصرى بالقاهرة ، القطع رقم ٤٤٣٣٢ ، ٤٤٣٣٣ .

محاربة بدع وهرطقات القرنين الرابع والخامس

بصرف النظر عن الهرطقات والبدع السابقة التى كانت أقل انتشاراً وخطراً مثل بدعة ال(Docetism) [1] التى ترجع إلى القرنين الأول والثانى الميلادى، وهرطقة الغنوسية فى القرن الثانى. تدعى هاتان البدعتان أن السيد المسيح الذى يمثل الكائن أو الخالق الأعلى (Supreme Being) الذى نزل إلى البشر بنور الاستنارة والمعرفة إلى النخبة الروحية المصطفاة، لم تكن له كينونة بشرية أى مادية فى واقع الأمر، ولم يتحد بأى نطاق مادى، كما تدعيان أن صلب السيد المسيح إنما هو تخيل لأحد الاحتمالين التاليين: أن السيد المسيح قد أنقذ من عذاب الصلب بإعجاز خارق أو أنه قد شبه به وأن بديلاً صلب نيابة عنه وهو يهوذا الإسخريوطى أو سيمون من Cyrene.

بغض النظر عن هاتين الهرطقتين، فلقد تعرضت وحدة الكنيسة إلى خطر داهم بظهور البدعة الأريوسية فى أوائل القرن الرابع الميلادى، تلك الهرطقة البالغة الخطورة التى شملت كافة الأوساط الكنسية والعلمانية حكومةً وشعباً. تعرضت هذه البدعة لطبيعة السيد المسيح، علاقة لاهوته بناسوته، علاقة الآب بالابن، ودور الروح القدس. وهكذا تعرض هذا الانحراف لجوهر التثليث والتوحيد. وانقسم المؤمنون بين مدرستين:

مدرسة بابا الإسكندرية الكسندر (+٣٢٨)، أو بالأحرى مبدأ وتفسير أثناسيوس المطابق لتعاليم الإنجيل، الخاص بوحدة الآب والابن فى الجوهر (= HOMOIOUSIOS). أى تساوى الآب والابن فى الجوهر على الدوام، منذ البدء وإلى أبد الآبدين.

وتفسير أريوس الخاطىء (O´Homoiousios)، القائل بأن الابن، وإن كانت له طبيعته الإلهية، فانه ينتمى إلى جوهر مماثل للآب، مشابه للآب فى الجوهر، مولود من الآب كأداة لخلق

---

١ ـ ترجع التسمية إلى الأصل اللغوى اليونانى من كلمة "dokein" بمعنى "الظهر" (=المظهر الخارجى أو السطحى). يعتقد أتباع هذه البدعة أن المادة شئ، شرير ولذلك فهى لا تستطيع الاتحاد مع الألوهية فى شخص السيد المسيح. وبالرغم من ظهور خطأ هذه الهرطقة وفقا لإنجيل القديس يوحنا، فلقد استمرت هذه البدعة فى تعاليم بعض مذاهب وطوائف ال Manichaism حتى العصور الوسطى (Bogomilen،و Paulizianer).

See: Large bibliography in A. S. Atiya, Ibid, pp. 40 ff; Kamerer's Coptic Bibliography, nos. 1956-1664, pp. 91=5; R.M. Grant, Gnosticism and Early Christianity, N.Y. 1959; Jean Doresse, The Secret Books of the Egytian Gnostics: An Introduction to the Gnostic Coptic manuscripts discovered at Chenoboskion, with an English translation and critical evaluation of the Gospel according to Thomas, N.Y. 1960, origsee also E.C.Amélineau, Pistis-Sophia, Ouvragegnostique de Valentin, traduit du Copte en francaise aven une introduction, Paris 1895; G.W. Horner, Pistis Sophia, with intro. by F. Legge, London 1924; G.R.S. Mead, Pistis Sophia, A Gnostic Gospel ... London, 1896; M.G. Schwartze, Pistis Sophia, Opus gnosticum Valentino ... Berlin 1851; C. Schmidt, Pistis Sophia, neu herausgegeben mit Einleitung nebst griechischem und koptischem Wort-und Namenregister, Huniae 1925; idem, German tr. Leipzig 1925.

About Docetism, see : Oulton & Chadwick, pp. 23,32-3.88,163;

H. Bettenson, The Early Christian Fathers, Oxford 1956, pp. 5,60,241; R.M. Jones, The Church's Debt to Heretics, N.Y. 1924, pp. 41,53-8.

About Marcion, the famous advocate of Docetism, see : A. von Harnack, Das Evangelium von fremden Gott, Leipzig 1924; Neue Studien Zu Marcion, Leipzig 1924; idem, History of Dogma, I, 222ff; Tixeront, History of Dogmas, I, 183 ff; R.S. Wilson, Marcion , London 1933; E.C. Blackman, Marcion and His Influence, N.Y. 1950; J. Knox, Marcion and the New Testament, Chicago 1942; Doresse, pp. 24-6; F.C. Conybeare, The Origins of Christianity, N.Y. 1958, pp. 329-46.

الكون، ولذلك فهو غير مساو للآب فى الأبدية.

بدأ هذا الصراع فى عهد بطريرك الإسكندرية الكسندر، وتمثل قطبا هذا التطاحن فى شخص أريوس (حوالى ٢٥٠ الى ٣٣٦)، الأسقف الإسكندرى ورئيس كهنة كنيسة Baucalis التاريخية، وشخص السكرتير البابوى فى ذاك الحين، الشماس أثناسيوس، الذى خلف البطريرك الكسندر فى عام ٣٢٨ وصار البابا العشرين على كرسى الإسكندرية والكرازة المرقسية، والذى أجمع الباحثون والعلماء، طوال القرون والأجيال على أنه قاهر الأريوسية وحامى الإيمان القويم ومقوماته، ومازال يعد بحق ملتقى كافة الكنائس المسيحية حتى اليوم .

فلا عجب أنه لقب فيما بعد بلقب "أثناسيوس الرسولى" نظراً لكتاباته ودراساته اللاهوتية الفريدة وأثرها الدائم فى تاريخ المسيحية فى جميع أنحاء العالم حتى اليوم. فمن المعلوم أن صلب قانون الإيمان، الذى قام الأنبا أثناسيوس الرسولى فى مجتمع نيقية (٣٢٥)، أثناء سكرتاريته للبطريرك الكسندر، بأداء الدور الأساسى فى صياغته ، كان ولا يزال بمثابة حجر الزاوية والمتن الأساسى الذى شيدت عليه دعامة وحدة العالم المسيحى بكافة ملله الرئيسية حتى الآن. [١]

لايتسع هذا المدخل الموجز لعرض مثل هذا الموضوع بدراساته اللاهوتية الفريدة وجولاته الشاملة المتعددة الأوجه. ولكنه بطبيعة الحال سيعالج بدقة متناهية فى الجزء الخاص بالعبادة والعقيدة. بالرغم من ذلك يتحتم علينا الإشارة إلى العناوين المهمة فى لمحة عابرة.

يرجح بعض الباحثين أن أريوس كان ليبى المولد، تتلمذ فى مدرسة أنطاكية تحت

---

١ . عن المصادر الأصلية انظر:

See : Patrologias, Nicene and Post-Nicene Fathers Library, Mansi & Hefele.
Athanasius, Epiphaneus, Rufinus, Socrates, Sozomen, Philosrtorgius, Theodoret, Eusebius of Caesarea, Eusebius of Nicomedia, Gregory of Nazianzus, Gregory of Nyssa, St. Basil of Cappadocia, etc...

بعض المراجع الثانوية العامة:

G. Hermant, La vie de saint Athanase, patriache d'Alexandrie, 2 vols, Paris 1671-79; L. Maimbourg, Histoire de l'Arianisme, Paris 1675, English trans. 1728-29; G. Bull, Defensio Fidei Nicaenaem Oxford 1703, English trans. 1851; J. A. Möhler, Athanasius der Grosse, Mainz 1844; H. Voigt, Die Lehre des Athanasius, Bremen 1861; F. Böhringer, Athanasius und Arius, Leipzig 1874; W. Kölling, Geschichte der arianischen Häresie bis zur Entscheidung in Nicäa, 2 vols, Gütersloh, 1874-83; J.H.Newman, The Arians of the Fourth Century, London 1876; A. P. Stanely, The Council and Creed of Constantinople in Christian Intitutions, London 1881; H.M. Gwatkin, Studies of Arianism, Cambridge 1900; E. Fialon , St. Athanase, Étude littéraire, Paris, 1877; E. Atzberger, Die Logoslehre des Athanasius, ihre Gegner und Verläufer, Munich 1880; W. Bright, Lessonsfrom the Lives of Three Great Fathers N.Y. 1891; P. Lauchertm Die Lehre des heiligen Athanasius, Leipzig 1895; K. Hos, Studien über Schrifttum und Theologie des Athanasius, Freiburg, 1899; Quasten, Patrology, III, 7-13 (Arius), 13-19 (Alexandros), 20-79 (Athanasius); L.L. Paine, Critical History of the Evolution of Trinitarianism, Boston 1900; W. F. Frazer, Against Arianism, St. Athnasius, London 1900; L. H. Hough, Athanasius the Hero, Cincinnati 1906; P. Snellman, Der Anfang des arianischen Streites, Helsingfors 1904 ; A.Rogala, Die Anfänge des arianischen Streites, Paderborn 1907; F. Haase, Altchristliche Kirchengeschichte nach orientalischen Quellen, Leipzig 1925; G. Bardy, Saint Athanase, Paris 1914; K.F. Hagel, Kirche und Kaisertum in Lehre des Athanasius, Leipzig 1933; A. E. Burn, The Athanasian Creed, Oxford 1992; F.L. Cross, The Study of St-Athanasius, lecture, Oxford, 1949; R. M. Jones, The Church's Debt to Heretics, pp. 85-103.

من الناحيه القبطية انظر إلى قائمة المراجع فى Kammerer, nos. 1112-30, 1280-81, 2435-37.

انظر أيضاً هوامش الصفحات التالية الخاصة بالمراجع القبطية عن قانون الإيمان.

رئاسة Lucian (حوالى عام ٣١٢). أما أثناسيوس فكان سكندرياً وتلميذ مدرسة اللاهوت الشهيرة السالفة الذكر. وبينما اتسم تفكير أريوس بالجدل الفلسفى والمادى، اتصف أثناسيوس وتفكيره بالتصوف الروحى والذهنى. وبينما اعتمد أريوس على تعضيد العناصر الهللينية وشبه الهللينية، تمتع أثناسيوس بتأييد آباء النسك والرهبنة تأييدا تاما . وبينما حظيت الأريوسية بصفاتها ومحدوديتها المادية بانتشار سريع فى البداية، اتسم كفاح الأنبا أثناسيوس الرسولى بثبات لا يعرف حدوداً أو مهادنة فى صراعه مع العالم أجمع الذى كاد أن ينحرف نهائياً عن الإيمان القويم. فلا عجب أن نسمع دائماً القول المأثور "أثناسيوس ضد العالم، والعالم ضد أثناسيوس".

Athanasius contra Mundum, et mundum contra Athanasius

اندلعت نيران الحلقة الأولى من هذا الصراع عندما صار أريوس رئيس كهنة كنيسة Baucalis التاريخية، حيث قام بنشر تعاليم مدرسة أنطاكية تحت رئاسة Lucian فيما يتعلق بطبيعة السيد المسيح. تلك التعاليم التى يطلق عليها تسمية "Subordinationism"، وهى بدعة خاطئة تضع السيد المسيح والروح القدس فى مكانة أقل من مكانة الآب.

قام البطريرك الكسندر، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية بعقد مجمع محلى بمدينة الإسكندرية ضم حوالى مئة أسقف (ca 320) أجمعوا على إدانة أريوس الذى تم عزله وإصدار حرم كنسى ضده.

بالرغم من ذلك لم يكف أريوس وأتباعه عن نشر هذه التعاليم الخاطئة وقد ساعده على ذلك عاملان:

الأول: صياغة ونشر هذه التعاليم فى العديد من المدائح والألحان الشعبية المحبوبة التى تسمى Thalia (=Banquet) [1]

الثانى: صلات أريوس القوية مع البلاط الامبراطورى فى مدينة القسطنطينية، خاصة عن طريق Eusebius الذى صار أسقف نيقوميديا Nicomedia وصديقاً للإمبراطور قسطنطين العظيم الذى عمده أويزيبيوس فيما بعد.

إزاء خشية الانقسام وحفاظاً على وحدة الإمبراطورية أمر الإمبراطور كلا الطرفين بالكف عن هذه الخلافات وانتدب أسقف قرطبة Hosius (٢٥٧-٣٥٧) للتدخل لحسم الخلاف وعمل التقرير اللازم. تفاقم الأمر رغم ذلك مما جعل الإمبراطور يقبل توصيات بطريرك الإسكندرية وأسقف قرطبة لدعوة أول مجمع مسكونى فى مدينة نيقية (مدينة Isnik الحالية بتركيا) فى Bithynia. وبلغ عدد المشتركين فى هذا المجمع ٣١٨ عضواً.

إزاء تفوق أثناسيوس فى تقديم الإثبات المقنع والتبرير القاطع لأفكاره، عهد إليه المجمع هو وبطريرك الإسكندرية والأسقف ليونتيوس، أسقف قيصرية، بأعظم مهمة، ألا وهى صياغة قانون الإيمان الذى تمت الموافقه عليه فى ١٩ يونية ٣٢٥.

---

١. انظر: G. Brady, La Thalie d'Arius, in Revue de Philologie, LIII, 1927, 211-33.

وقرر المجمع حرمان ونفي أريوس وأربعة أساقفة آخرين لرفضهم التوقيع على قانون الإيمان الذى يعد حتى اليوم حجر الزاوية وعماد الوحدة المسيحية رغم تعدد المذاهب. ورغم ما شهدته العصور التالية من عواصف صاخبة، فقد اثبت قانون الإيمان هذا أنه روح الإيمان الصحيح والعصب الرئيسى للكيان المسيحى فى كافة انحاء العالم حتى اليوم.

كما ذكرنا من قبل، خلف الشماس اثناسيوس البطريرك إسكندر بعد وفاته عام ٣٢٨. واستمرت رئاسة الأنبا اثناسيوس الرسولى لكنيسة الإسكندرية حتى سنة ٣٧٣، لم يتردد خلالها عن التضحية بأى شيء فى سبيل هدفه الوحيد، الا وهو الدفاع عن الإيمان الصحيح وعن قانون الايمان.[١] ورغم تزايد خصومه وتنوع وسائل القمع والاضطهاد، بل والنفى مرات خمساً.[٢] لم يحد هذا البطل المحارب من اجل المسيح "Athlete of Christ"، "بطل الأرثوذكسية" قط عن تمسكه الكامل بالإيمان السليم.

فلا عجب أن يقول القديس Hieronymus عن هذا العصر العاصف "لقد تحير العالم واصابه الذهول عندما أدرك أنه قد اتجه إلى الأريوسية". ولا عجب أن يصف القديس باسيليوس العظيم القديس أثناسيوس الرسولى بهذه الكلمات: "كان أثناسيوس منارة للمؤمنين كما كان فنار الإسكندرية هادياً للسفن، فحين ادلهمت الظلمات وهاجت العواصف، اتجهت إليه الانظار تلقائياً". فلا عجب إذاً أن يلقب الأنبا أثناسيوس "الرسولى" و"المدافع عن الإيمان الصحيح، وأن تكتب عنه المؤرخة الالمانية المعاصرة الواسعة الشهرة Emma Brunner Traut "لولا أثناسيوس لتحولت الكنيسة إلى ملة منحرفة ولانحرفت الكنيسة عن الإيمان السليم".

كان ذلك كله مجرد حلقة أولى فى النضال الطويل المتفانى المشرف الذى قادته كنيسة الإسكندرية لحماية الإيمان الصحيح. وفى الجولتين الثانية والثالثة اللتين بلغتا القمة فى مجمع القسطنطينية المسكونى (٣٨١) ثم مجمع أفسس (٤٣١)، استطاع أبناء كنيسة الإسكندرية أن

---

١ ـ عن مجمع نيقية انظر:

P. Batiffol, Les sources de l'histoire du Concile de Nicée, in Echos d'Orient, XXVIII, 1925,pp. 385-402, / XXX, 1927, pp. 5-17; Kammerer, Coptic Bibliography, nos. 1256-73; A.D. Mansi, Sacrorum Consiliorum Nova et Amplissima Collectio, 59 vols, Florence etc... 1729-1927, Vol. II, PP. 635 ff; C. J-Hefele on Councils, French trans. By Leclercq, II., Histoire des conciles, 8 vols, Paris 1907-21, T.I, pt I, pp. 442 ff & T. I, pt 2, pp. 633 ff., 1139 ff; J. Chrystal, Authoritative Christianity : Decisions of the Six Sole Ecumenical Councils, 6 vols, Jersey City 1891, Vol.I,pt.1 (Nicaea). E. Revillout, Le Concile de Nicée, d'après les textes Coptes, 2 vols. , Paris 1873-89; F. Haase, Die Koptischen Quellen Zum Concil von Nicäa, Paderborn 1920; A.F. Burn, The Council of Nicaea : A Memorial for its 16 th Centenary, London 1925; A. d'Alès, Le dogme de Nicée, Paris 1926; A. von Harnack, History of Dogma, IV, 1 ff. ; T. Tixeront, History of Dogmas, III, 2ff., 34-75.

عن الأنبا أثناسيوس الرسولى ، انظر الهامش الخاص فى الفصل السابق .

٢ ـ عن بعض مؤلفاته إنظر أيضاً بقية هذا الهامش فى أسفل الصفحة التالية:

Saint Athanasius the Apostolic : on the Incarnation of the Divine Word ; A Discourse Against the Greeks; A History of the Ariana; Against Apollinarius; Commentary on the Psalms; Life of Saint Anthony, as well as a large number of dogmatic works and ascetic compositions.

See: Prof. A.S. Atyia, A History of Eastern Christianity, p. 45. H.G. Opitz, Berlin & Leipzig 1934; idem, Select Works and Letters, ed. A. Robertson, Nicene and Post-Nicene Fathers, IV, London 1892.

يؤكدوا تفوقهم لاهوتياً فى الصراع بحماس وولاء للقضية ذاتها.

وبعد أن أعلن الإمبراطور تيودوسيوس العظيم (٣٧٩-٣٩٥)أن المسيحية هى دين الدولة الوحيد، اتبع سياسة سلفه الإمبراطور قسطنطين العظيم (٣١٣ - ٣٣٧) التى تهدف إلى تصفية المنازعات الدينية والمحافظة على وحدة الإمبراطورية، وبالتالى استدعى المجمع المسكونى الثانى فى مدينة القسطنطينية فى عام ٣٨١، وكرس المجتمعون، ١٥٠ مندوباً عن معظم الكنائس،[١] كل الجهد لمواجهة الهرطقة الجديدة لأتباع مقدونيوس أسقف القسطنطينية Bishop Macedonius ، أعداء الروح القدس Pneumatologists نسبة لكلمة Pneuma اليونانية، التى تعنى الروح، وذلك نظراً لنكرانهم لألوهية الروح القدس.[٢]

أجمع مجمع القسطنطينية المسكونى على إدانة هذه البدعة الجديدة وإضافة الفقرات التالية إلى قانون إيمان نيقية:

+ الفقرة الخاصة بالروح القدس

+ تأكيد الإيمان بالكنيسة الجامعة

+ المعمودية الواحدة لمغفرة الخطايا

+ انتظار قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى.

وقد صار قانون إيمان نيقية بعد هذه الإضافات متن قانون الإيمان لدى جميع الكنائس الأرثوذكسية حتى يومنا هذا. ونقرأ هذه الإضافة على النحو التالى:

"نعم نؤمن بالروح القدس، الرب المحيى المنبثق من الآب.

نسجد له ونمجده مع الآب والابن الناطق بالأنبياء،

وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية،

ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا،

وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى آمين".

جدير بالذكر أن كلمة "Folioque" التى تعنى أن الروح القدس ينبثق من الآب "والابن"، التى أضيفت فيما بعد إلى قانون الإيمان فى الكنيسة الكاثوليكية والتى أدت مع مزيد الأسف إلى

---

١ ـ فى المرة الأولى نفى الأنبا أثناسيوس الرسولى الى مدينة Trier واستمر نفيه من عام ٣٣٦ الى ٣٣٧ ولم يسمح له بالعودة إلا بعد وفاة الإمبراطور . فى المرة الثانية نفى الأنبا أثناسيوس إلى البلاط البابوى فى روما وكان ذلك فى عهد البابا Julius الأول (٣٣٩-٣٤٦). استمر هذا النفى من ٣٣٩ الى ٣٤٦. النفى الثالث ٣٥٦-٣٦١ والرابع ٣٦٢ إلى ٣٦٣ كان فى الأديرة المصرية، أما النفى الأخير فقد كان من ٣٦٥ الى ٣٦٦ عندما أمر الإمبراطور Valens بالسماح بعودته لتهدئة مشاعر أبناء كنيسة الإسكندرية.

٢ ـ لم يشترك فى هذا المجمع داماسوس Damasus أسقف روما أو ممثلوه .

٣ ـ كان الكثيرون من شيعة الأريوسيين يدعون أن الروح القدس إنما هى مخلوقة من "الابن". وقد أثبت القديس أثناسيوس الرسولى خطأ هذه التعاليم وذلك فى مجمعين محليين بمدينة الإسكندرية فى عام ٣٦٢ وعام ٣٦٣.

مجادلات عديدة بين الكنائس الغربية، قد أضيفت فى إسبانيا فى وقت متأخر.[٢]

من المؤسف حقاً أن نجد أن روح الغيرة والتنافس السياسى قد تغلبت على جو هذا المجمع الثانى. فها نحن نقرأ فى القرار الثالث للمجمع رفع مكانة أسقف عاصمة الإمبراطورية، أى القسطنطينية، والتى صارت تدعى "روما الجديدة"، إلى مكانة أعلى من جميع أساقفة الكنائس الشرقية، رغم تفوق وسيادة كنيسة الإسكندرية، معقل مدرسة اللاهوت ومنبع الرهبانية الفعلى لاهوتياً وروحياً.[١]

بالرغم من ذلك فقد دأبت كنيسة الإسكندرية على تغليب النضال المتفانى من أجل الدفاع عن الإيمان الحق ، وقد ظهر هذا بجلاء، ووضوح تام فى صراع المجمع المسكونى الثالث الذى عقد فى أفسس فى سنة ٤٣١م Ephesus

ومن المفارقات الغريبة، أن تأتى الهرطقة التى خُصص مجمع أفسس لمعالجتها من جانب نسطور أسقف القسطنطينية الذى كان يرمى إلى تقويض الإسكندرية وتدمير سمعتها العالمية كعاصمة للعلم والتفسير. وللمرة الثانية تتصدى كنيسة الإسكندرية برئاسة البطريرك كيرلس الكبير، البابا الرابع والعشرين على كرسى القديس مرقس، وتنجح فى قيادة النضال ضد هذه البدعة الجديدة وتفضح هرطقتها وتثبت زيفها.

ويبدو المسيح طبقاً لمفهوم نسطور وكأنه كائن من شخصين منفصلين، شخص إلهى يسمو على كل ضعف بشرى، وشخص انسانى "معرض لضعف الجسد البشرى". فالمسيح الإله لا يتألم على الصليب ولا يموت، ومن ثم فان الذى تألم على الصليب هو المسيح الانسان وحده وليس المسيح الإله. وتبعاً لهذا التفسير الخاطئ، أطلق صاحبه على العذراء القديسة مريم لقب "أم المسيح" "Christotokos" بدلاً من (أم الله Theotokos) لأنها ولدت المسيح الانسان الذى يسكنه الله. يرجع قهر النسطورية بلا شك الى جهود البابا كيرلس بطل المجمع المسكونى الثالث الذى عقد فى أفسس سنة ٤٣١م. ولقد اثبت الأنبا كيرلس هرطقة هذه البدعة وانحرافها عن الإيمان السليم قبل عقد هذا المجمع بعامين، وذلك فى رسالته التى وجهها الى الأساقفة فى مصر وإلى جميع أصدقائه فى كل مكان، وذلك بمناسبة عيد الفصح عام ٤٢٩م. ولقد شرح فى رسالته هذه عدم إمكانية فصل الطبيعة الالهية عن الطبيعة البشرية فى السيد المسيح، وذلك طبقاً لنصوص الانجيل المقدس وقانون الايمان الذى اجمعت كافة الكنائس على صحته فى مجمعى نيقية والقسطنطينية، مؤكداً أن الاتحاد بين الطبيعتين فى السيد المسيح لا ينفصم ولا يتجزأ.

ولكى يصور هذه الظاهرة، فإنه شبهها بقطعة من الحديد تم صهرها فى درجة حرارة مرتفعة جداً، فى هذه الحالة، تتحد المادتان فى وحدة دون امتزاج أو اختلاط أو تغيير، وتصبح

---

١ - انشأ الإمبراطور قسطنطين العظيم هذه العاصمة الجديدة فى نفس الموقع الذى كانت توجد عليه مستعمرة "بيزنطة" اليونانية، التى أسستها قبيلة الدوريان Dorians من سكان شبه جزيرة البليبونيز بجنوب اليونان حوالى عام ٦٥٨ قبل الميلاد. وقد صارت هذه المدينة بمثابة العاصمة المسيحية بدلا من روما رمز الوثنية ابتداء من عام ٣٣٠م.

٢ - يود المؤلف أن يعرب عن شكره السيدة إيريس حبيب المصرى التى اتاحت له فرصة التزود بهذه المادة القيمة بكتابها قصة الاقباط الارثوذكس .

غير قابلة للانقسام أيضا.

وفى نفس الوقت كتب البابا كيرلس مراراً وتكراراً إلى نسطور، بطريرك القسطنطينية محاولاً إقناعه بمدى انحرافه عن الإيمان السليم، وضمن ذلك العديد من البراهين والإيضاحات اللازمة دون جدوى.

إزاء ذلك دعا البابا كيرلس إلى مجمع محلى لكنيسته لفحص النزاع، فأكد المجتمعون بالإجماع صحة قانون إيمان مجمعى نيقية والقسطنطينية، كما وافق المجتمعون أيضاً بالإجماع على إدخال الإضافة التى اقترحها البابا كيرلس لقانون الإيمان هذا المتفق عليه. هذا التمهيد الذى مازال يحفظه أبناء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية حتى اليوم، يعد بمثابة مقدمة لقانون الإيمان ويقرأ على النحو الآتى:

"نعظمك يا أم النور الحقيقى، ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله، لأنك ولدت لنا مخلص العالم، أتى وخلص نفوسنا، المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح، فخر الرسل، إكليل الشهداء، تهليل الصديقين، ثبات الكنائس، غفران الخطايا.."

وعلاوة على ذلك كتب إلى رؤساء الكنائس الأخرى عارضاً عليهم الأمر كله. واستجاب له اكاكيوس Acacius اسقف حلب، استجابة سريعة مدعماً موقف كيرلس وممتدحاً جهوده. كذلك أجاب البابا كلستين Celestine (٤٢٢-٤٣٢) منضماً إلى كيرلس وموافقاً على مفهومه وبراهينه فى مجمع روما سنة ٤٣٠. [١]

كتب كيرلس أيضاً إلى الإمبراطور وزوجته وإلى شقيقاته الثلاث ملتمساً منه أن يحاول إقناع نسطور بخطئه ثم عقد مجمعاً ثانياً فى الإسكندرية [٢] وقرر أعضائه بالإجماع أن يكتبوا إلى نسطور رسالة ثانية تتضمن:

ا - عرضاً لقانون الإيمان الذى صدر فى نيقية.

ب - تأكيداً للإيمان المستقيم.

ج - تحديد اثنى عشر تحريما (Anathema كلمة يونانية معناها أخطاء شريرة) ينبغى على نسطور أن يرتد عنها.

"تأكيدا لإيمان الآباء، نعلن أن كلمة الله (Logos) قد أخذ جسداً من العذراء، وصار هذا جسده الخاص به، وأخضع ذاته للولادة البشرية، خرج من جسد العذراء طفلاً دون أن يتوقف عن ماهيته (عن ما هو)، وباقياً فى الجسد كما هو بالطبيعة إله. ولم يتغير الجسد إلى الطبيعة الإلهية، كما أن اللوجوس الإلهى (كلمه الله) لم يتغير إلى الطبيعة البشرية لأنه لم يخضع لأى تغيير. وإذ هو لا يزال طفلا، وحتى بينما كان فى رحم أمه، فقد كان اللوجوس ملء العالم كله، يحكمه مع الآب والروح القدس. لأن الألوهية لا تعرف حدوداً. لقد اتحد اللوجوس مع الجسد فى أقنوم، لذلك نؤمن بابن وحيد وهو فى ذاته السيد، يسوع المسيح ، دون أن نفصل الناسوت

1 - Hubert, J. Ibid. p. 24.

٢ - إيريس حبيب المصرى ، نفس المرجع ، ص ١٩٤.

عن اللاهوت، إذ نقل أيضاً كما قال القديس بولس (كو٢:٩) "فإنه فيه (أى فى السيد المسيح) يحل كل ملء اللاهوت جسديا"، ونحن نقدر أن الله لايحل فيه كما يحل فى قديسيه، لكننا نقرر أن اللاهوت والناسوت قد اتحدا فى السيد المسيح بنفس الطريقة التى تتحد فيها الروح والجسد."(١)

وفيما يختص بتسمية القديسة العذراء مريم باسم "أم النور"، وهى التسمية التى اعترض عليها بطريرك القسطنطينية نسطور كتب البابا كيرلس له قائلاً:

"إننى مندهش لأن البعض يتردد (فى أن يدعو العذراء المباركة" "أم الله (Theotokos)". فإذا كان يسوع المسيح هو الله، فإن الأم التى حملته هى أمه إلى الأبد، وهذا ما تعلمناه من الرسل ومن عقيدة آبائنا . إن طبيعة الكلمة لم تنشأ مع مريم، لكن لأن داخلها تكون الجسد المقدس الذى اتحدت به الكلمة اقنومياً، لذلك نقول مع يوحنا البشير "والكلمة صار جسدا"، تماماً شأنها شأن الام البشرية، فليس لها دور فى خلق روح طفلها، لكنها تعتبر ام الشخص كله وليست فقط أم طبيعته البشرية، هكذا يكون الأمر بالنسبة لمريم أم المسيح فى تمامه ومن ثم فهى فى الواقع ام الله".

كان كيرلس السكندرى هو الشخصية المهيمنة على مجمع افسس الذى انتخب رئيساً له.(٢) وفى الجلسة الافتتاحية التى بدأت بتلاوة قانون الإيمان والخطابين المتبادلين بين كيرلس ونسطور،(٣) حكم بحرمان الأخير وعزله . ووقع على هذا الحكم ١٩٨ عضواً من الحاضرين.

واجه كيرلس السكندرى مؤامرات نسطور وأصدقائه الاقوياء الذين منعوا خطابات كيرلس وقرار المجمع من الوصول إلى الإمبراطور، وأخذوا يمدونه بمعلومات خاطئة ويحرضونه على عزل كيرلس وسجنه ونجح فى أن ينقل للإمبراطور، وللأساقفة والكهنة المجتمعين فى عاصمة الإمبراطورية وكذلك إلى شعب القسطنطينية المعلومات الصحيحة عن طريق خطابات ثلاثة هربت إليهم إذ وضعت داخل عصا مفرغة من الداخل حملها رسول شجاع تخفى فى زى شحاذ.

بعد ذلك طلب الإمبراطور إحضار ثمانية ممثلين لكل فريق لكى يجتمع بهم. وفى نهاية هذا الاجتماع، صدق الإمبراطور على الحكم الذى صدر فى جلسة افتتاح المجمع بإدانة نسطور وتعاليمه الهرطوقية، وأمر بنفيه وإطلاق سراح معارضيه ومنهم كيرلس السكندرى وممنون أسقف أفسس ثم دعا جميع الأساقفة للمجىء إلى القسطنطينية والمشاركة فى تكريس أسقف جديد لعاصمة الإمبراطورية يحل محل نسطور المعزول والمنفى. وبادر كيرلس السكندرى بالعودة إلى مقر كرسيه فى الإسكندرية التى دخلها منتصراً فى الثلاثين من اكتوبر ٤٣١ .

نستطيع الآن أن نؤكد حكم المؤرخ المشهور استروجورسكى Ostegorsky فى هذا الشأن حيث يقرر أن البطريرك كيرلس قد حقق فعلاً انتصاراً هائلا سواء فى اللاهوت أو فى السياسة

1 - Iris Habib El-Masry, Ibid., pp. 196-7.

2 - Hubert, J. Ibid. p. 25.

٣ - تضمنت هذه الخطابات التحريمات الإثنى عشر السالفة الذكر.

كنسية.[1]

لا عجب ان يتفق اللاهوتيون والمؤرخون فى الشرق والغرب على تسميته "المدافع الجسور عن العقيدة الأرثوذكسية [2] و "عمود الإيمان". [3]

راينا من خلال هذه اللمحة العابرة أن الله أعان كنيسة الإسكندرية بأبنائها المستنيرين، ذوى العزيمة الثابتة، وفى مقدمتهم القديس أثناسيوس الرسولى والقديس كيرلس الكبير عمود الإيمان، على دحض البدع وسحق الهرطقات التى كانت تهدد حياة الكنيسة الجامعة الرسولية. فالإيمان العميق الجذور، والاخلاص والتفانى للقضية، والاصرار الذى لا يتأرجح ولا يعرف حدوداً، والسلوك القويم الذى لا يتردد فى تحمل أى المتاعب وتقديم أى التضحيات، كانت هذه بعض السمات الواضحه لنضالهم الشريف المتفانى للحفاظ على إيمانهم الصحيح ومقوماته التى كانت ومازالت بمثابة العمود الفقرى للوحدة المسيحية حتى اليوم.

---

1 - G.Ostrogorsky, Geschichte der byzaninischen Staates,2 Aufl . 1952; See also Hubert, J. Ibid., p. 26.

2 - Archimandrite V. Guétée, "Histoire de l' Eglise" Vol. II; p. 236-237.

3 - This is the well-known title bestowed upon Patriach Cyril the Great in the Coptic Church. Details about Patriarch Cyril the Great & the Councils in Iris Habib El-Masri, Ibid. p. 192-207; Manoir de Juaye, "Dogme et spiritualité des Saints Çyrille d'Alexandrie Paris 1944; KYRILLIANA, "Études variées à l'occasion du XV[e] centenaire de Saint Cyrille d'Alexandrie 444-1944" Le Caire 1947; see futher footnote No. 20 of the ecumenical councils : Johannes Dominikus Mansi, "Amplissima Collectio" in 31 vols., Florence 1759-1798, new edition within Petit & Martin compilation, 60 vols, Lyon 1855-1890; French translation newly edited by Leclercq, "Histoire des Conciles" 1907-21 Original text of the canons in H. Denzinger-J.B. Umberg, "Enchiridion symbolorum", 29 th ed. 1954; Eduard Schwartz, "Acta Coniliorum Oecumenicorum", 25 vols . 1914-40; Funk, F.X. Kirchengeschichtliche Abandlungen und Untersuchungen I, 1897; Kneller, C.A. "Papst und Konzil im ersten Jahrtausend" Zeitschrift für Katholishe Theologie 27 (1903) 1-36, 391-428 mit Fortsetzungen in den folgenden Jahrgängen; neuestens darüber auch F.Dvornik, "Emperors, Popes and General Councils: Dumbarton Oaks Papers 6 (1951) 1-23; Brief survey of the disputes on the Christology by K. Bihlmeyer - H. Tüchle, "Kirchengeschichte I , 12 Aufl. (1951); On the canons in Lauchert, F. :Die Kanons der altkirchlichen Konzilien", 1986; Quotations of the Fathers in Kösel, "Bibliothek der Kirchenväter" .

Abbé P. Barbiern "Vie de St. Athanase" . Paris 1888; Jean A. Mochler, "Athanasius der Gross", Nainz 1844; Father Matta -El_Meskeen, "Al-Qidis Ithnasios al-Rasouli", Press of the Monastery of St . Macarius Wadi el-Natroun, Egypt, 1981; Ibn el-Moqaffa, (Serverus Ben el-Moqaffa), History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria", Arabic text with English translation begun by Evetts, B.T. in Patrologia Orientalis, 2 vols in 4 fasc . Paris 1907-15, and continued by Yassa Abd el-Messih, Burmester, O.E.H., and Atiya, A.S. in Publications of the Society of Coptic Archeology, 3, parts, Cairo 1943-1959; see also the preceding footnotes on Saint Athanasius the Apostolic (No.20), on Saint Cyril the Great as well as the following footnotes on the Second Council of Ephesus (449) and the Council of Chalcedon (451)

الايطوخية ومجمع أفسس الثانى

استمرت الكنيسة الأرثوذكسية منذ ذلك الحين على إيمانها الثابت بقانون إيمان نيقية، والتزمت بمبادىء المجامع المسكونية الثلاثة (نيقية ٣٢٥، والقسطنطينية ٣٨١، وافسس ٤٣١) حتى الوقت الحاضر وذلك بالرغم مما حدث فى العهود التالية من انشقاقات مدمرة واتهامات دخيلة غير حقيقية بسبب سوء تفسير لقانون الإيمان القبطى وما نتج عنه من اضطهادات للأقباط.

ودارت الجولة التالية حول درجة اتحاد الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية فى شخص السيد المسيح . كان Eutychus أوطاخى (٣٧٨-٤٥٤)، وهو أرشمندريت دير يونانى فى القسطنطينية، يدافع عن وحدة الطبيعتين فى طبيعة إلهية واحدة منذ التجسد.[١] وأن الطبيعة الإلهية قد احتوت الطبيعة البشرية ، وتلاشى الناسوت تماماً [٢] هكذا ظهر مذهب الطبيعة الواحدة Monophysitism، اى التعليم القائم على أساس الطبيعة الواحدة الإلهية للسيد المسيح منذ التجسد، وهى هرطقة **رفضتها الكنيسة القبطية منذ البداية.**

حكم بحرمان اوطاخى وعزله بواسطة مجمع محلى برئاسة اسقف فلافيان Flavian، أسقف القسطنطينية فى عام ٤٤٨، إلا أن أوطاخى تمكن بطريق غير مباشر أن يقنع الامبراطور ثيوديسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠)[٣] بعقد مجمع مسكونى لاعادة النظر فى قضيته . وتمت دعوة الأنبا ديوسقوروس ، بطريرك الإسكندرية ، البابا الخامس والعشرين على كرسى القديس مارمرقس (تولى منصبه منذ٤٤٣) لرئاسة هذا المجمع المسكونى الذى عقد فى افسس عام ٤٤٩.

وبعد أن أعلن أويطاخى تراجعه عن هذه البدعة واشهار التزامه بقانون إيمان نيقية وما أضيف إليه فى المجامع المسكونية الأولى الثلاثة والاعتراف بقبول صيغة الأنبا كيرلس الكبير الخاصة بطبيعة السيد المسيح، رد المجمع لأوطاخى اعتباره وأعاده إلى منصبه السابق. ثم عزل خصومه وهم، فلافيان أسقف القسطنطينية وأعوانه[٤]. وقد غضب البابا ليو الأول، أسقف روما (٤٤٠-٤٦١) لعدم قراءة خطابه الخاص بشرح العقيدة فى المجلس، فهاجم هذا المجمع المسكونى الرابع هجوماً عنيفاً واعتبره لصوصية Latrocinium وذلك فى خطاب ارسله إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، وطالب ايضاً بالدعوة لعقد مجمع جديد فى إيطاليا.[٥] لكن

---

١. A.S. Atyia, A History of Eastern Christianity, p. 56.

٢. Rev. Tadros Malaty, Christologie gemäss dem Verständnis der nicht-chalcedonischen orthodoxen Kirchen, Kröffelbach 1988, p. 5.

القمص تادرس ملطى ، العقيدة المسيحية عند الكنائس الأرثوذكسية غير الخلقدونية ، الإسكندرية ١٩٨٦ ، ص ٥ .

٣. كان لاويتيخوس نفوذ كبير فى البلاط الإمبراطورى عن طريق أحد الخصيان واسمه Chrysaphius. انظر عزيز سوريال عطية، نفس المرجع ، ص ٥٦.

٤. See: Neale, History of the Holy Eastern Church, Vol. I, p. 290; See details in Mansi, VI, 503ff; Hefele, H, pt. I, 555 ff; Iris Habib El-Masry, pp. 218 ff.

٥. تفاصيل هذا الوضوع عند إيريس حبيب المصرى ص ٢٣١ وتد ر ــــ "الكنيسة الشرقية"، ص ٥٦

"مجمع خلقادونية" ترجم إلى العربية من المصادر الأصلية المحفوظة فى مكتبة الفاتيكان بواسطة الراهب Francis Maria

الإمبراطور رفض ذلك الطلب بسبب تطابق مجمع أفسس الثانى مع الإيمان الأرثوذكسى وفشلت التماسات البابا ليو المتكررة فى تحقيق أى نتيجة حتى مات ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠).

ولم يكن للإمبراطور المتوفى أبناء. وعند موته، تخلت أخته الكبرى عن تعهدها بأن تدخل الرهبنة، ثم تزوجت الجنرال مركيان وأجلسته على عرش الامبراطورية (٤٥٠-٤٥٧). وكان توليه العرش إيذاناً بتحول جذرى فى سياسة الدولة الكنسية .

مجمع خلقدونية وكارثة الانقسام ٤٥١

وتحقيقاً لرغبة البابا ليو الأول فى عقد مجمع جديد والتى أعرب عنها مراراً واقترحها فى خطاب التهنئة الذى بعث به بمناسبة الزواج الإمبراطورى، فقد تم عقد مجمع خلقيدونية فى سنة [١] ٤٥١ .

وقبل أن يجتمع المجمع، عبر الإمبراطور مركيان بوضوح عن انحيازه للأساقفة الذين تمت إدانتهم فى مؤتمر أفسس الثانى. كما أظهر حقده وعداءه للبابا ديسقوروس رئيس المجمع المذكور. وقد انكشف هذا الأمر واضحاً فى خطاب الإمبراطورة بولخاريا إلى البابا ليو الأول.[٢] فأعيدت رفات الأسقف فلافيان إلى القسطنطينية ودفنت باحترام كبير فى كنيسة الرسل، ثم سمح للأساقفة المنفيين والذين كانوا يؤيدونه بالعودة. تم كل هذا قبل انعقاد مجمع خلقيدونية.

فى واقع الأمر ان مجمع خلقيدونية لم يجتمع لمناقشة طبيعة السيد المسيح، وهذا نراه بوضوح فى الخطاب الثانى لبابا روما ليو الأول Leo I إلى الإمبراطور.[٣] لقد دعى المجمع لمعاقبة بابا الإسكندرية ديوسقوروس من أجل مجمع أفسس الثانى، وذلك رغم أن إجراءات ذاك المجمع كانت صحيحة وقانونية من ناحية ، وبالرغم من التزام كنيسة الإسكندرية والبابا ديوسقوروس بإيمان نيقية وقرارات المجامع الأولى الثلاثة وصياغة البابا كيرلس الكبير الخاصة بوحدة الطبيعتين الإلهية والناسوتية فى شخص السيد المسيح من ناحية أخرى.[٤]

لم تكد الجلسة الأولى تنعقد حتى طلب مندوبو بابا روما خروج البابا ديوسقوروس بسبب ما وجه اليه من اتهامات، وأن يجلس بجانب القضاة المدنيين فى وسط الكنيسة، وهو إجراء مخز لا مبرر له، ولكن البابا ديوسقوروس قبله حرصاً على السلام وبالفعل انتقل إلى وسط الكنيسة . وعندما قُرئت محاضر جلسات مجمع أفسس الثانى والذى بسببه عقد هذا المجمع، تنصل العديد من الأساقفة من توقيعاتهم مدعين انهم قد اضطروا إلى التوقيع على أوراق بيضاء تحت التهديد.[٥]

1 - Hubert Jedin, Kleine Konziliengeschichte .p. 27 .
2 - Iris H. El-Masri,Ibid. p. 222; The Council of Chalcedon, pp. 63-67; Mar Sawiris Ya 'Koub, "Tarikh..", II, p. 150.
3 - Hubert Jedin, Ibid .p. 28.
4 - Details in Iris H. El-Masri, , Ibid. p. 224; Atiya, A. S. , Ibid. p.57.
5 - Details on the Council of Chalcedon in : Schwartze, II (Concilium universale Chalcedonense) ; Mansi . IV. 528 ff; Hefele, II, pt. 2, 649 ff ; Sellers, R.V. "The Council of Chalcedon" , London 1953; Grillmeier, A. & H. Bacht, "Das Konzil von Chalcedon, 3 vols, Würzburg 1951-4; Tixeront, III, p. 76-123; Guéttée, "Histoire de l'Eglise, Vol. IV.

"وكان بابا الإسكندرية يلاحظ كل هذا وهو راسخ فى العقيدة التى تسلمها من سلفه البابا كيرلس الكبير والتى لم تذكر شيئاً عن أن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد. وكان جوابه الذى يكرره دائماً: إننا نقبل القول بأن الاقنوم الثانى، **طبيعةواحدة من طبيعتين**. لكن أن نقول بطبيعتين بعد الاتحاد. فهذا غير مقبول. وانتهت الجلسة الأولى بالمطالبة بعزل ديوسقوروس وحلفائه وكل من وقع قرارات مجمع أفسس الثانى.[1]

فى الجلسة الثانية قام القديس ديسقوروس بشرح مسببات حرمان فلافيانوس وأن ذلك يرجع إلى اعتقاده بالطبيعتين بعد التجسد، مما يتعارض مع قانون الإيمان وقرارات المجامع المسكونية الأولى الثلاثة. وإزاء عدم وجود أى خلافات موضوعية فى أقواله، انحرف الجانب الآخر إلى مناقشة نواح تنظيمية وخلافه مما أوضح نية الشر الموجهة إلى البابا ديوسقوروس شخصياً وإلى كنيسة الإسكندرية.

وفقاً للمؤرخين البيزنطيين، فقد امتنع البابا ديسقوروس بعد ذلك عن حضور الجلسات التالية، بينما تقص المراجع القبطية أن البابا ديسقوروس قد مُنِعَ عن حضور الجلسات، وذلك بتحديد اقامته فى منزله المحدد له، ولم يكن فى استطاعته مغادرة المكان بسبب الحراس الذين وضعتهم بولخاريا.

بناءً على هذا الادعاء، اى امتناع البابا ديسقوروس عن الحضور رغم دعوته ثلاث مرات، استؤنفت الجلسات والهجمات الرخيصة ضد بطريرك الإسكندرية باتهامات شخصية، بانه مستبد فى استغلال السلطة وخلافه ...

يتضح لنا بجلاء تام أنه لم تكن هناك أى أخطاء لاهوتية فى سلوك وأقوال الأنبا ديسقوروس على الإطلاق. وبالرغم من ذلك فقد تقرر فى الجلسة الثالثة عزل الأنبا ديسقوروس ونطق مندوب بابا روما، الذى كان يترأس هذه الجلسة نظرا لتغيب المفوضين الملكيين عنها، "بقرار العزل قائلاً: باسم بطرس صخرة الكنيسة وأساس العقيدة الأرثوذكسية نعلن حرمانك من السلطان الكهنوتى. والذين حضروا الجلسة كانوا ١٨٥ اسقفاً فقط". [2]

هكذا عزل القديس الأنبا ديوسقوروس دون أدنى حق، وفى عام ٤٥٤ نفى إلى جزيرة Gangra فى Paphalognia. وفى هذا الصدد يجدر بنا الاستشهاد والتذكرة بكتابة الكاردينال الكاثوليكى الشهير Hefele فى هذا الموضوع: "إن المرسوم الصادر ضد ديوسقوروس، من المجمع، لا يوجد به أى ذكر لهرطقة ما، وإن الحكم الذى صدر ضده بلسان ممثلى البابا (ليو) لا يتضمن اى شىء (سبب) اخر.[3]

١- Iris H. El-Masri, Ibid. p. 226-7; The Council of Chalcedon, 72 - 75

"مجمع خلقدونية" ، فى فصول من تاريخ الكنيسة فى مجلة "مرقس"، دير القديس الانبا مقار ، سبتمبر ١٩٩٦ ، ص ٢٩
٢ - "مجلة مرقس" نفس المرجع ص ٣٠

Hefele, Histoire des Conciles, III. p. 69; See also Iris Habib El-Masry, Ibid., p. 233; Methodios Faoyas, Archbishop of Theateria & Great Britain: Theo . & Historical Studies, Athens 1985, Vol.1, pp.14-5; Mansi, VII,p. 104; Rev. Tadros Malaty, Christology, Alexandria

بعد ذلك عقد المجمع عدة جلسات (العدد الكلى خمسة عشر)، تناول فى أثنائها دراسة العديد من الشئون الإدارية والتنظيمية، واصدر فى النهاية ٢٨ قراراً أفشت بوضوح تام الدوافع الهدامة التى أدت إلى مثل هذا التطور. نص القرار رقم ٢٨ على مساواة كرسى العاصمة، عاصمة الإمبراطورية الشرقية أى القسطنطينية ، مع كرسى روما، وذلك نظراً لكون القسطنطينية العاصمة السياسية للإمبراطورية ومقر الأسرة الحاكمة ومجلس الشيوخ، بينما تتميز روما بكرامة الكرسى والأولوية التاريخية.[١] وبذلك صار للقسطنطينية رئاسة أسقفيات الشرق مثلما كانت تتمتع روما برئاسة الأسقفيات الغربية. ومن ثم نحيت الإسكندرية عن عرشها الذى اقتناه باستحقاق خلال نتاج القرون الماضية، آباء مدرسة اللاهوت، وآباء النسك والرهبانية والديرية أعمدة الإيمان فى دحض البدع والهرطقة، رسل التبشير من أيرلندا وألمانيا إلى إثيوبيا، ما بين الرافدين والهند، إلخ ...

بذلك تم أيضاً إلغاء القرار السادس من قرارات المجمع الأول (نيقية ٣٢٥) الذى كان ينص على الحفاظ على حقوق وامتيازات أساقفة الإسكندرية وأنطاكية والأقاليم الأخرى.[٢] وذلك لصالح القسطنطينية.

كانت قرارات مجمع خلقدونية بمثابة كارثة فى تاريخ الكنيسة لم تضمد جراحها الأحقاب القليلة الماضية . جاءت هذه القرارات بمثابة بذور الشقاق بين الكنائس الشقيقة، ولطخت الكنيسة الجامعة بدماء أكثر من ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف شهيد من الأقباط الذين كانوا ضحية للاضطهاد الوحشى لقوات الإمبراطورية، كما اتهموا كنيسة الاسكندرية، حامية الإيمان الصحيح على مر العصور، بوصمة بدعة ال Monophysitism ظلماً وعدواناً. هذه التهمة الباطلة التى حاربتها كنيسة الإسكندرية، والتى تتناقض تناقضاً صريحاً مع قانون الإيمان بكنيسة الإسكندرية.

وبعد عزل البطريرك ديسقوروس عين الإمبراطور رجلا يسمى بروتيريوس فى مكانه (٤٥٢،٤٥٧) وأرسله إلى الإسكندرية فى صحبة القوات الإمبراطورية ورغم ذلك أصدر الأساقفة المصريون بالإجماع مرسوماً يؤكدون فيه ولاءهم غير المشروط للبطريرك ديسقوروس الذى عبر باخلاص عن الايمان الأرثوذكسى الراسخ ، إيمان آبائهم أثناسيوس الرسولى، وكيرلس العظيم. ونتيجة لذلك حازوا على تأييد الغالبية العظمى من شعبهم ومساندتها لهم رغم ما تعرضوا له من قمع وانتقام بوسائل لا تحصى ولا تعد فى أيام الحكم البيزنطى. وسرعان ما حاق سوء الطالع بخلفاء الأقباط من اليعاقبة السوريين (على اسم يعقوب برديوس) والأرمن وحلت بهم

---

١. See : Atyia, A.S.A History of Eastern Christianity, p. 57; Landon, E.H., A Manual of Councils of the Holy Catholic Church, 2 vols, Edinburgh 1909, Vol. I, p.197:
"This was presumably rejected by the Catholic delegates, and the Pope later did not sanction so great an advancement for Constantinople."
See also: A. Fortescue, Lesser Eastern Churches, pp. 180 - 1.

٢. London, E. H. Ibid., p. 408. See also : Guéttée, Histoire de l'Eglise, Paris 1886, Vol. IV, pp. 582-, idem, La Papaute Schismatique, p. 100.
p. 100.

محنة مشابهة.

وعند تنصـيب Proterius (٤٥٢م) حسب أوامر الإمبراطور رئيساً لكنيسة الإسكندرية الرسمية، التي تسمى بالكنيسة الملكانية (Melkite or Royalist) وهي التي كانت تتمسك بقرارات مجمع الانقسام (خلقدونية)، رد المصريون لفورهم بانتخاب المواطن تيموثاوس ايليروس Timothy Aelurus بطريركــاً[1] خلفاً شرعياً للبابا ديسقوروس على كرسي القديس مارمرقس الرسول لرئاسة كنيسة الإسكندرية التي تعتنق بالإجماع قانون إيمان نيقية وقرارات المجامع الثلاثة الأول وصياغة القديس كيرلس الكبير فيما يتعلق بطبيعة السيد المسيح.

نتيجة لذلك انقسم كرسي الإسكندرية انقساماً مؤقتاً، الكنيسة اليونانية الملكانية الخلقدونية، وكنيسه القديس مارمرقس التقليدية، كنيسة الكرازة المرقسية ومقرها مكان استشهاد مؤسسها منذ عام ٦٨م، هذه الكنيسة التي اتهمت ظلما بوصمة ال Monophysitism، ذلك الاتهـام الظالم الذي يتنافى وأبسط قواعد البحث والتمحيص المنهجي السليم، هذا الاتهام الجارح الذي أجمع عليه الكثيرون من الكتاب والمؤرخين بل ورجال اللاهوت ظلماً وعدواناً.

---

١ ـ منذ خلقدونية صار الاساقفة الرئيسيون يلقبون "بطاركة"
See : Guéttée, Histoire de l'Eglise, Paris 1886, Vol. IV, pp. 582-3; idem, La Papaute Schismatique, p. 100.

مقدمة قانون الايمان

"نعظمك يا أم النور الحقيقى، ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله، لأنك ولدت لنا مخلص العالم، أتى وخلص نفوسنا، المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح، فخر الرسل، اكليل الشهداء، تهليل الصديقين، ثبات الكنائس، غفران الخطايا.. نبشر بالثالوث المقدس لاهوت واحد نسجد له ونمجده يارب ارحم يا رب ارحم يا رب بارك آمين "

قانـــــون الايمـــــان

"بالحقيقة نؤمن بإله واحد ، الله الآب، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض، ما يرى وما لا يرى.

نؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، اله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب فى الجوهر، الذى به كان كل شىء. هذا الذى من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس، وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى. تألم وقبر وقام من الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب، وصعد إلى السموات، وجلس عن يمين أبيه، وأيضاً يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات، الذى ليس لملكه انقضاء.

نعم نؤمن بالروح القدس، الرب المحيى المنبثق من الآب. نسجد له ونمجده مع الآب والابن الناطق فى الأنبياء.

وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية. ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى. آمين"

أما فيما يتعلق بطبيعة الاقنوم الثانى، طبيعة السيد المسيح، طبيعة من طبيعتين، فقد تمسكت كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية منذ البدء، ودون أدنى تردد بصياغة القديس كيرلس الكبير عمود الايمان، تلك الصيغة التى قبلت بالإجماع من جميع أعضاء الكنيسة الجامعة الرسولية، وقد حافظوا عليها دون أدنى إضافة أو تغيير فى هذه الصيغة تقرأ كما يلى:

μια φυαις του λσγου του σεσαρκομενου
"One nature of God the Logos Incarnate"

"طبيعة واحدة للوجوس المتجسد"

هذه الصيغة تعبر عن الاتحاد الأقنومى لكلتا الطبيعتين، الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية فى طبيعة واحدة دون امتزاج أو اختلاط أو تغيير.[1] هذا لا يعنى إنكار وجود الطبيعة البشرية فى السيد المسيح، كما قالت بدعة الأبطوخية، التى رفضتها الكنيسة القبطية رفضاً مطلقاً منذ البداية.

وطبقا للمفهوم القبطى فإن الله الابن قد "أخذ لنفسه صورة الانسان الحقيقية"، "حمل خطايانا فى جسده وحقاً مات من أجلنا". اتحد اللاهوت بالناسوت بحيث تبقى كل من الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية دون نقص أو اختلاط أو امتزاج. ونحن (اتباع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، كنيسة الإسكندرية). لا نفسر عبارة الأنبا كيرلس الكبير وهى "طبيعة واحدة للإله الكلمة المتجسد" لكى تعنى امتصاص الناسوت أو الصفات البشرية كما علّمت هرطقة أوبتيخوس.[2]

"الطبيعة الواحدة لله لا تعنى طبيعة إلهية فقط أو بشرية فقط للسيد المسيح، ولكن طبيعة واحدة توحد الطبيعتين الأصليتين "كما قال القديس أثناسيوس الرسولى فى حواره الثالث ضد الأريوسيين". الله ذاته فى الجسد، والجسد ذاته فى الكلمة، لذلك فالطبيعة الواحدة للسيد المسيح خلال التجسد لها كل الصفات البشرية والإلهية معاً . كل شىء قاله السيد المسيح أو فعله أو أراده، قد فعله بصفته الإله المتجسد ، وليس بأى جزء فيه إلهى خالص، أو بشرى خالص ، ولكن إلهى بشرى [3] "اللوجوس المتجسد هو شخص واحد، وله إرادة واحدة"،[4] فيه الطبيعتان الإلهية

---

١ . أنظر : القداس الإلهى تبع القديس باسيليوس العظيم ، ترجم إلى الإنجليزية بواسطة القمص تادرس ملطى والأستاذ نبيه فانوس . إلى جانب ذلك هناك ترجمات حديثة متعددة إلى لغات عدة كالفرنسية والهولندية والألمانية والإيطالية إلخ ...

٢ . دراسات هامة فى هذا الموضوع :

His Holiness Pope Shenuda III, Die Natur Christi, in Saint Markus Zeitschrift, Kröffelbach, 1989, pp. 1-13; H.H. Pope Shenuda III, Die Natur Christi : Christologische Einsichten ...., aus dem englischen übersetzt von Marianna Hermann, Kröffelbach, 1990; Waheeb Atalla Girgis (Bishop Gregorius), The Christological Teaching of the Non-Chalcedonian Churches, Anba Rueis, Cairo; Idem, Scharh Mobasat li-Qanoon al-Iman, Bishopric of Higher Theological Studies, No. 28, Arabic, 1982; Rev. Tadros Malaty, Christology according to the Non-Chalcedonian Orthodox Churches, Alexandria 1986, also in German, Kröffelbach 1988; Idem, Die Gottesmutter bei den Vätern, Pustet, Regensburg 1989; Clerical College in Balyana , Haqa`iq al-Iman al- Masihi, El-Daher, Cairo, 1978, pp. 50-103.

٣. الأب متى المسكين ، الرهبنة القبطية ودير القديس مقاريوس ، مطبعة الدير ١٩٤٩، ص ١٢.

انظر ايضاً الأب متى المسكين ، القديس اثناسيوس الرسولى ، (بالعربية) ، ١٩٨١ .

٤ . القمص تادرس ملطى

Rev. Tadros Malaty, Christologie, p.8.

والبشرية، باقيتان ومتحدتان دون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير.

إحدى الصور التى رسمها القديس كيرلس لهذه الوحدة تروى كالآتى: "لنأخذ اتحاد النار بالحديد، مع أن طبيعتهما مختلفتان، من خلال اتحادهما يصيران طبيعة واحدة، ليس لأن طبيعة النار تغيرت إلى حديد، وليس لأن طبيعة الحديد قد تغيرت إلى نار ولكن نار متحد بالحديد. هى النار وهى الحديد فإذا ضربنا الحديد فنحن نضرب النار أيضاً. فالحديد يعانى، لكن النار لا تعانى أبداً"

هذه النظرة العامة الموجزة تثبت بوضوح الخطأ الذى ارتكب فى حق كنيسة الاسكندرية القبطية الأرثوذكسية نتيجة لسوء تفسير عقيدتها وتسميتها باسم "Monophysitism" اى أصحاب الطبيعة الواحدة، وهى وصمة تدنس جوهر قانون الإيمان الذى يرتكز كلية على صيغة القديس كيرلس التى قبلها كل اعضاء الكنيسة الجامعة بالإجماع ولسوء الحظ فقد تفاقم هذا الاتهام بفعل الدوافع السياسية والغيرة بين العواصم.

يوضح لنا هذا العرض الموجز بجلاء تام أن اتهام كنيسة الإسكندرية بوصمة ال Monophysitism يتنافى تماماً مع عقيدة الكنيسة القبطية التى ترجع تماماً إلى قرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى وصياغة القديس كيرلس الكبير عمود الإيمان الخاصة بطبيعة السيد المسيح، التى قبلها كل ممثلى الكنائس الأولى بالإجماع. اتضح للجميع فى الأحقاب القليلة الماضية أن الخطأ الشائع كان نتيجة لسوء فهم وسوء تفسير هذه المصطلحات الكنسية لدى الكثيرين. وقد أكدت الاتفاقات والبيانات العديدة المشتركة بين الكنيسة القبطية والكنيسة الكاثوليكية، وبينها وبين الكنائس الأرثوذكسية الخلقيدونية، وبينها وبين الكنيسة الإنجيلية، ثم بينها وبين الكنيسة البروتستنتية فى ألمانيا خطأ هذا الاتهام السابق الذى عانت بسببه كنيسة الإسكندرية وابناؤها أسوا أنواع الاضطهاد والظلم.(١)

ولعله من المناسب الآن، وقد وصلنا إلى نهاية هذا الفصل أن نقتبس كلمات القديس ديوسقوروس نفسه فى هذا الشأن، لندرك أنه هو وكنيسته، الكنيسة القبطية الأرثوذكسية،

---

١ . انظر : البيان المشترك للبابا بولس السادس والبابا شنودة الثالث فى العيد ال ١٦٠٠ للقديس اثناسيوس الرسولى، روما ١٠ مايو ١٩٧٣، الملحق رقم ١.
البيان المشترك للبابا جون باول الثانى وبطريرك السريان الأرثوذكس اغناسيس زكا الأول ، ٢٦ يونيه ١٩٨٤ ، ملحق رقم ٢.
البيان المشترك بين الكنيسة القبطية الأرثوذكسية والكنيسة الإنجيلية ، لندن ١٩٨٨ ، ملحق رقم ٣.
البيانات المشتركة بين الكنيسة القبطية الأرثوذكسية والكنائس الأرثوذكسيه الخلقيدونية :
+ كوريتت ٢٣ الى ٢٦ سبتمبر ١٩٨٧ ، ملحق رقم ٤.
+ وادى النطرون ٢٠ الى ٢٤ يونيه ١٩٨٩ ، ملحق رقم ٥.
+ جنيف ٢٣ الى ٢٨ سبتمبر ١٩٩٠ ، ملحق رقم ٦.
البيانات المشتركة بين الكنيسة القبطية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية فيما يختص بطبيعة السيد المسيح :
+ دير الأنبا بشوى ، وادى النطرون ، ١٢ فبراير ١٩٨٨ ، ملحق رقم ٧.
+ دير الانبا بيشوى ، وادى النطرون ، ٢٣ الى ٢٧ ابريل ١٩٩٠ ، نشر فى :
Information Service, The Pontifical Council for Promoting Christian Unity, No. 72 & 73, 1990; See also l'Observatore Romano, 27 th November 1989 :
+ بروتوكول الاجتماع الثانى بين ممثلى الكنائس البروتستنتية وممثلى الكنائس الشرقية (اللاخلقيدونية) ، دير القديس الأنبا انطونيوس فى Kröffelbach ، المانيا ، ٤ الى ٨ مارس ١٩٨٨.
+ البيان المشترك بين الكنيسة الكاثوليكية وكنيسة مالنكارا للسريان الأرثوذكس ، ٢٢ الى ٢٥ اكتوبر ١٩٨٩ ، نشر فى Information Service of the Potifical Council for Promoting Christian Unity No. 27, 1990 , p. 2, Appendix IX. وفى L'Observatore Romano ، ٢٧ نوفمبر ١٩٨٩.

كنيسة الإسكندرية، قد ظلما ظلماً شديداً على مدى ١٥٥٠ عام تقريباً دون وجه حق.[1]

"إننى أعرف تماماً، إذ نشأت فى الإيمان، أن الرب المولود من الآب بكونه الله، هو بنفسه مولود من مريم كإنسان .

انظره يسير على الأرض كإنسان، وخالق الطغمات السمائية كإله،

تراه نائماً فى السفينة كإنسان وسائراً على البحار بكونه الله،

تراه جائعا كإنسان ويهب الطعام كإله،

تراه عطشانا كإنسان ويروى الظمأى بكونه الله،

تجده مجرباً كإنسان ويخرج الشياطين بكونه الله،

وهكذا فى أمور كثيرة متشابهة".

١ - القديس ديسقوروس، انظر القمص تادرس ملطى - طبيعة المسيح - الإسكندرية - ١٩٨٦ - ص ١٢.

الباب الثانى

مواجهة الكنيسة للهرطقات المختصة بطبيعة السيد المسيح

الأنبا بيشوى مطران دمياط

وكفر الشيخ وبرارى القديسة دميانة

مواجهة الكنيسة للهرطقات
المختصة بطبيعة السيد المسيح
والخلافات والحوارات التى قامت نتيجة لذلك

بقلم الأنبا بيشوى

مطران دمياط وكفر الشيخ وبرارى القديسة دميانة

لقد واجهت الكنيسة على مر العصور الهرطقات المختصة بطبيعة السيد المسيح. فقد دارت خلافات عقائدية حول الوهية السيد المسيح فى القرن الرابع الميلادى، وانتهت بانتصار الأرثوذكسية فى المجمع المسكونى الثانى بالقسطنطينية فى سنة ٣٨١م. حيث تم تأكيد قانون الإيمان النيقاوى الذى صاغه القديس أثناسيوس الرسولى، مع إضافة الجزء الخاص بتأكيد الوهية الروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب . وبذلك تمت صياغة عقيدة الثالوث القدوس، وهى الاعتقاد بثلاثة اقانيم متساوية فى المجد والصفات ولها نفس الجوهر الإلهى الواحد. هكذا أيضاً دارت خلافات عقائدية حول شخص السيد المسيح وطبيعته.

إن السيد المسيح هو ابن الله وابن الإنسان فى نفس الوقت. أى أنه هو هو نفسه وبنفس شخصه الكلمة الإله الحق الكلمة المولود من الآب بغير انفصال قبل كل الدهور ، والإنسان التام الذى بلا خطيئة وحده، المولود من القديسة العذراء مريم فى ملء الزمان . مساو للآب فى الجوهر من حيث لاهوته، ومساو لنا فى الجوهر من حيث ناسوته.

بعض الهراطقة لم يفهموا سر التجسد الإلهى: بمعنى كيف أن الله ظهر فى الجسد، أو كيف صار اقنوم الكلمة إنساناً بالتجسد، أو كيف تتحد الطبيعة الإلهية السامية جداً بالطبيعة البشرية المتواضعة جداً، أو كيف يتحد اللاهوت بالمادة، أو كيف توجد فى المسيح (اللوغوس) روح إنسانية عاقلة وهو من حيث جوهره الإلهى هو روح وهو عاقل، وهو من حيث لقب أقنوميته كإله، العقل الإلهى منطوق به بالولادة من الآب الذى هو من حيث لقب أقنوميته ، ينبوع العقل أو العاقل. أو كيف تتحد الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية اتحاداً تاماً وطبيعياً دون أن تذوب الطبيعة البشرية المحدودة فى لانهائية اللاهوت غير المحدود.. وهكذا تعددت الهرطقات حول هذه العقيدة العظيمة أى سر التجسد الإلهى لخلاص البشرية. وسوف نعرض فى بحثنا هذا لهذه البدع والهرطقات، وما نشأ عنها من خلافات ومواجهة الكنيسة لها.

ولكن شكراً للرب فقد أمكن التوفيق بين الكنائس الخلقيدونية والكنائس اللاخلقيدونية فى هذا الجيل، بفضل الحوارات اللاهوتية التى أزالت سوء الفهم بين الطرفين . وكشفت رفض الطرفين معاً للهرطقات التى علَّم بها كل من أبوليناريوس وثيئودور ونسطور وأوطاخى. إلى جوار رفضهم المعروف للهرطقات التى علَّم بها كل من أريوس وبولس الساموساطى.

هرطقة أبوليناريوس Apollinarius أسقف اللاذقية Laodicea (٣٩٠م):

لقد حوّل أبوليناريوس تعليم ثلاثية تكوين الإنسان trichotomy من تعليم افلاطون عن النفس، إلى تعليم عن شخص السيد المسيح . حول سيكولوجية افلاطون إلى كريستولوج. فقال: "كما أن الإنسان العادى مكون من جسد ونفس وروح، هكذا يسوع المسيح مكوّن من جسد ونفس والكلمة (اللوغوس)". وفى رأيه أن الكلمة قد حلّ محل الروح (πνευμα) واتحد بالجسد والنفس لتكوين الاتحاد.(١)

لم يتصوّر أبوليناريوس إمكانية وجود روح إنسانية عاقلة فى المسيح فى وجود الله الكلمة الذي هو روح والذى هو العقل الإلهى منطوق به.

ربما يتصور أبوليناريوس أن الروح الإنسانية العاقلة تعنى بالضرورة شخصاً بشرياً متمايزاً عن شخص الله الكلمة - بمعنى انه خلط بين مفهوم الشخص ومفهوم العقل، أو بين مفهوم الشخص ومفهوم الطبيعة العاقلة، بحيث صار الروح العاقل فى نظره هو شخص متمايز بالضرورة اى أنه قد اعتبر ان الشخص هو العقل. وأراد بإلغاء الروح الإنسانية العاقلة ان يؤكّد ان شخص كلمة الله هو الذي تجسد وهو هو نفسه يسوع المسيح. بمعنى تأكيد الوحدة فى شخص يسوع المسيح وأن كلمة الله لم يتخذ شخصاً من البشر بل اتخذ جسداً ذا نفس بلا روح عاقلة. وبهذا يتحقق - فى نظره - وحدة الطبيعة فى المسيح الكلمة المتجسد وعصمته من الخطيئة.

وقد تصوّر البعض أن القديس أثناسيوس الرسولى فى القرن الرابع قد تأثر بفكر وتعليم أبوليناريوس فى تعاليمه الكريستولوجية.

ولكن القديس أثناسيوس قد شرح هذا الأمر باستقامته المعروفة فى التعليم فى رسالته إلى أبيكتيتوس. وقال إن عبارة القديس يوحنا الإنجيلى ان "الكلمة صار جسداً" (يو١: ١٤) تعنى أن "الكلمة صار إنساناً" وأن السيد المسيح قد اتخذ طبيعة بشرية كاملة من جسد وروح عاقلة. فقال القديس أثناسيوس: [لأن القول "الكلمة صار جسداً" هو مساو ايضاً للقول "الكلمة صار إنساناً" حسب ما قيل فى يوئيل النبى: "إنى اسكب روحى على كل البشر" (يوئيل ٢: ٢٨) لأن الوعد لم يكن ممتداً إلى الحيوانات غير الناطقة، بل هو للبشر الذين من أجلهم قد صار الرب إنساناً]. (٢)

وقال ايضاً فى نفس الرسالة: [الا إن خلاصنا، فى واقع الأمر، لا يعتبر خيالاً، فليس الجسد وحده هو الذى حصل على الخلاص، بل الإنسان كله من نفس وجسد حقاً، قد صار له الخلاص فى الكلمة ذاته].(٣)

وكذلك يتضح من شرح القديس أثناسيوس لقول السيد المسيح عن اليوم الأخير " وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء، ولا الابن إلا الآب"

1 - C.J. Hefele, A History of the Councils of the Church, Vol III, AMS Press 1972, p. 2 reprinted from the edition of 1883 Edinburgh.
2 - St. Athanasius, Letter to Epictetus, par. 8, N. & P.N. Fathers, Oct. 1987, Eerdmans, second series, vol. IV, p. 573.
3 - Ibid, par. 7, p. 572,573

(مر١٣: ٣٢) . إن السيد المسيح باعتباره كلمة الله وقد أخلى نفسه ووُجد فى الهيئة كإنسان وأخذ صورة عبد . فهو لم يقبل من حيث إنسانيته وذهنه البشرى أن يقتنى معرفة اليوم الأخير، متنازلاً عن هذه المعرفة بحسب التدبير إلى أن يصعد إلى السماوات، ويرُفع فى المجد.

وبهذا المعنى قد ورد فى الفقرة (٤٥) من الرسالة الثالثة ضد الأريوسيين للقديس أثناسيوس ما نصه [المحبون للمسيح والذين يحملون المسيح، يعرفون أن الكلمة قال لا أعرف، لا لأنه لا يعرف، إذ هو باعتباره الكلمة يعرف (كل شىء)، ولكن لكى يظهر الناحية الإنسانية،إذ أن الجهل خاص بالبشر.] (١)

كما جاء أيضاً فى الفقرة (٤٦) من نفس الرسالة : [عندما سأله تلاميذه عن النهاية، حسناً قال حينئذ "ولا الابن" .. لكى يُظهر أنه كإنسان لا يعرف. لأن الجهل هو من خصائص البشر، ولكن إذ هو الكلمة، وهو الذى سوف يأتى، وهو الديان، وهو العريس، فهو يعرف متى وفى أية ساعة سيأتى، ومتى سيقال "استيقظ أيها النائم، وقم من الأموات، فيضىء لك المسيح" (أف ٥: ١٤). إنه إذ صار إنساناً فهو كان يجوع ويعطش ويتألم مع الناس . هكذا مع الناس كإنسان لا يعرف، رغم أنه كإله إذ هو كلمة الآب وحكمته فهو يعرف، ولا يوجد شىء لا يعرفه.](٢)

يتضح من ذلك أن القديس أثناسيوس ينسب المعرفة إلى السيد المسيح بحسب لاهوته وعدم المعرفة بحسب ناسوته . أى أنه قد شرح وعلّم بوجود ذهن إلهى وذهن بشرى للمسيح فى آن واحد ولم يتجاهل العقل البشرى الذى لروحه الإنسانية، والذى لم يتلاشَ بسبب الاتحاد التام والطبيعى بين ما هو إلهى وما هو إنسانى فى المسيح بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغير، وبغير انفصال ولا تقسيم.

هل الروح العاقلة التى فى الطبيعة البشرية للسيد المسيح هى شخص ؟

حدث خلط عند الأبوليناريين ومن بعدهم النساطرة بين مفهوم الشخص ومفهوم الطبيعة وخصوصاً من جهة خاصية العقل .

العقل هو خاصية من خصائص الطبيعة وليس هو الشخص فى حد ذاته. فالشخص العاقل يمتلك ويحمل طبيعة عاقلة. أى أن الشخص هو حامل الطبيعة. فإذا كانت طبيعته إلهية فهو يعقل كإله، وإذا كانت طبيعته بشرية فهو يعقل كإنسان، وإذا كانت طبيعته ملائكية فهو يعقل كملاك، وهكذا.

وقد ملك السيد المسيح الطبيعة الإلهية العاقلة.. أى أنه كان يملك الجوهر الإلهى العاقل منذ الأزل، وظل يملكه بغير تغيير. ولما صار إنساناً، صار يملك أيضاً ذهنية البشر أو العقل البشرى الخاص به لنفس شخصه المبارك. فأصبح له بالإضافة إلى ذهنه الإلهى، فِكر الإنسان وأسلوبه فى التفكير وذاكرته أو ذهنية الإنسان بالطبيعة، فى وحدة غير ممتزجة بين الطبيعتين بلا تغيير، ولا تلغى الواحدة منهما الأخرى أو تلغى خصائصها بسبب الاتحاد.

---

1 - St. Athanasius, Four Discourses Against the Arians (Discourse III) Part 45, N. & P. N.. Fathers, Second Series, Vol. IV, p. 418, September 1978 .

2 - Ibid p. 419 .

إدانة هرطقة أبوليناريوس

أدانت تعاليم أبوليناريوس عدة مجامع مكانية فى روما (٣٧٧)، والإسكندرية (٣٧٨م)، وأنطاكية (٣٧٩م) ثم أدين فى المجمع المسكونى الثانى الذى انعقد فى القسطنطينية (٣٨١م).

كان رأى آباء مجمع القسطنطينية أن السيد المسيح كانت له روح إنسانية (بشرية) عاقلة لأنه جاء لخلاص البشر وليس لخلاص الحيوانات. وأنه كان ينبغى أن تكون للمسيح إنسانية كاملة لكى يتم افتداء الطبيعة الإنسانية. وأن الروح البشرية مثلها مثل الجسد فى حاجة إلى الفداء، فهى مسئولة عن سقوط الإنسان . فبدون الروح البشرية العاقلة كيف يكون الإنسان مسئولاً مسئولية أدبية عن خطيئته؟ فالروح البشرية أخطأت مع الجسد وتحتاج إلى الخلاص، ولهذا يجب أن يتخذها كلمة الله مع الجسد لأن ما لم يُتخذ لا يمكن أن يخلص.

وفى هذا المعنى قال القديس غريغوريوس النازيانزى عبارته المشهورة ضد أبوليناريوس فى رسالة إلى الكاهن كليدونيوس " لأن ما لم يتخذه (الله الكلمة) فإنه لم يعالجه، ولكن ما تم توحيده بلاهوته فهذا يخلص.[١]

إن أهم ما شغل الآباء ضد الأبولينارية هو "أن النفس الإنسانية العاقلة، بقدرتها على الاختيار، كانت هى مقر الخطيئة؛ ولو لم يوحِّد الكلمة هذه النفس بنفسه، فإن خلاص الجنس البشرى لم يكن ممكناً". [٢]

ردود الفعل ضد الأبولينارية :

ظهرت ردود الفعل ضد الأبولينارية فى نفس منطقة أبوليناريوس (سوريا) فى شخص ديودور أسقف طرسوس (٣٩٤م) Diodore of Tarsus وثيودور الموبسويستى فى قليقيلية (٤٢٨م) Theodore of Mopsuestia in Cilicia.

ديودور الطرسوسى:

ادَّعى ديودور أن اللاهوت سوف ينتقص إذا كوَّن الكلمة والجسد اتحاداً جوهرياً substantial (أو اقنومياً) مشابهاً لذلك الذى ينتج عن اتحاد الجسد والنفس (العاقلة) فى الإنسان. وفى رد فعله على ذلك قادته نظريته الخاصة إلى حفظهما (أى اللاهوت والناسوت) متباعدين. وهذا أوصله إلى التمييز [٣] بين ابن الله وابن داود. وقال [٤]: "إن الكتب المقدسة تضع حدا فاصلاً بين أنشطة الابنين ... فلماذا يحصل من يجدفون على ابن الانسان على الغفران، بينما من يجدفون على الروح (الروح القدس) لا يحصلون على الغفران؟".[٥]

1- St. Gregory of Nazianza, Ep. to Cledonius the Priest Against Apollinarius, N. & P. N. Fathers, Vol. VII, series 2, Epistle 101, p. 440, Eerdmans Michigan, Sept. 1978.
2 - J.N.D Kelly, Early Christian Doctrines, Chapter XI-Fourth Century Christology - Fifth Edition - A. and C. Black - London 1977, p. 296.
3 - Collected by R. Abramowski, Z.N.T.W. 42 (1949), E.g. frg. 42
4 - Collected by R. Abramowski, Z.N.T.W. 42 (1949), E.g. frg. 19: cf. frg. 42
5 - J.N.D. Kelly, Early Christian Doctrines, Chapter XI-Fourth Century Christology - Fifth Edition - A. and C. Black - London 1977, p. 303.

ثيئودور الموبسويستى:

اراد ثيئودور الموبسويستى أن يؤكد الإنسانية (البشرية) الكاملة للمسيح واعتبر أن الإنسانية الكاملة لا تتحقق إلا إذا كان المسيح شخصاً بشرياً لأنه اعتقد انه لا وجوداً كاملاً بلا شخصية. وبهذا لم يكتفِ بتأكيد وجود طبيعة بشرية كاملة للسيد المسيح، ولكنه تمادى إلى تاكيد اتخاذ الله الكلمة لإنسان تام يستخدمه كأداة لخلاص البشرية واعتبر أن الله الكلمة قد سكن فى هذا الإنسان بالإرادة الصالحة، وأنه قد اتّحد به اتحاداً خارجياً فقط. واستخدم عبارة اتصال (συνάφεια conjoining) بدلاً من كلمة اتحاد union (ἕνωσις). وبهذا فقد جعل فى المسيح شخصين: أحدهما إلهى والآخر إنسانى (بشرى) وقد كوَّنا معاً شخصاً واحداً هو شخص الاتحاد (اتحاد خارجى) مشبهاً إياه باتحاد الرجل بالمرأة.

قال المؤرخ هيفلى [1] C.J. Hefele "يستطيع ثيئودور أن يُبقى على الطبيعتين فى كمالهما ويعترض أساساً على امتزاجهما". وهو يشرح أيضاً أن هذا هو غرضه حينما قال: "إن الاختلاط لا يلائم الطبيعتين، فهناك فرق بين الشكل الإلهى وشكل العبد، بين الهيكل المُتخَذ وبين ذاك الذى سكن فيه، بين ذاك الذى انحل بالموت وذاك الذى أقامه، بين ذاك الذى صار كاملاً من خلال الامه وذاك الذى صيَّره كاملاً، إلى آخره. يجب أن يحفظ هذا الفرق : فكل طبيعة تبقى غير ذائبة فى ذاتها من جهة جوهرها [2]. لكن ثيئودور فى خطئه الجوهرى.. لم يؤكد فقط وجود طبيعتين فى المسيح، إنما شخصين أيضاً، وهو نفسه قال ليس هناك كيان subsistence يمكن أن يظن أنه كامل بدون شخصية. كما انه لم يتجاهل حقيقة أن ضمير الكنيسة قد رفض هذا الازدواج فى شخصية المسيح ، إلا أنه سعى إلى التخلص من الصعوبة وكرر القول صريحاً: "إن الطبيعتين اللتين اتحدتا معاً كونتا شخصاً واحداً فقط ، كما أن الرجل والمرأة هما جسد واحد... فإذا أمعنا الفكر فى الطبيعتين، فى تمايزهما، يجب علينا أن نعرف طبيعة الكلمة على انه كامل وتام، وكذلك شخصه. وأيضاً طبيعة وشخص الإنسان على انها كاملة وتامة. وإذا نظرنا من ناحية أخرى - إلى الاتصال συνάφεια نقول إنه شخص واحد."[3] إن نفس صورة الوحدة بين الرجل وزوجته تبيِّن أن ثيئودور لم يفترض اتحاداً حقيقياً لطبيعتين فى المسيح، ولكن تصوره كان لصلة خارجية بين الاثنين. علاوة على ذلك فإن التعبير "اتصال" συνάφεια - conjoining الذى يختاره هنا بدلاً من كلمة "اتحاد" union - ἕνωσις التى يستعملها فى مواضع أخرى مشتقة من συνάπτω (الراقصين المسكين بأيدى بعضهم البعض - أى يصل بالبعض الآخر) فهى تعبر فقط عن ارتباط خارجى، وتوطد المتصلين معاً . لذلك فهو مرفوض بوضوح بواسطة علماء الكنيسة. وكذلك قد عين ثيئودور مجرد صلة خارجية فى العبارة التى اقتبسناها الآن حتى "إن الكلمة سكن فى الإنسان المتخذ كما فى هيكل". وكما أن الهيكل والتمثال القائم بداخله هما واحد فى المظهر الخارجى هكذا فإن اللاهوت والناسوت فى المسيح يظهران من الخارج فقط فى

---

1 - C.J. Hefele, A History of the Councils of the Church , Vol III, AMS Press 1972, reprinted from the edition of 1883 Edinburgh p. 6, 7.

2 - Dorner, l.c S. 52 and & 19 in Hardouin and Mansi , II. cc.

3 - Hardouin and Mansi , II. cc. & 29 ' Dorner , I. c. p. 52

حقيقتهما كشخص واحد، ولكنهما فى جوهرهما يستمران شخصين.]

نسطور [1]

من مدرسة ثيئودور جاء نسطور، الذى ارتبطت باسمه الحقبة الأولى للنزاع الكرستولوجيى الكبير. ولد نسطور فى جرمانيكيا وهى مدينة بسوريا، ثم اتى إلى انطاكية فى سن مبكرة، أساساً بغرض نيل قسط اكبر من التعليم العالى. وسرعان ما تميز بالطلاقة العظمى فى التحدث الارتجالى مع صوت قوى وشجى، وبعد ذلك بقليل التحق بدير يوبريبيوس فى أنطاكية، ومن هناك عُيِّن شماساً ثم قسيساً فى كاتدرائية انطاكية. ككاهن، وعظ كثيراً وبقبول ملحوظ، مع تمتعه أيضاً بسمعة كونه ناسكاً صارماً وكثيراً ما اظهر حماساً عظيماً. ورغبة فى مدح الجموع له وبخاصة فى عظاته.[2] نتيجةً للشهرة التى نالها، بعد موت الأسقف سيسينوس أسقف القسطنطينية فى ٢٤ ديسمبر عام ٤٢٧م، فقد رُفع إلى هذا الكرسى المشهور، وترجّى شعبه أن يجدوا فيه ذهبى فم ثانياً للقسطنطينية. منذ وقت سيامته فى ١٠ إبريل من عام ٤٢٨م اظهر إعجاباً عظيماً بعمل الوعظ وحماساً ضد الهراطقة. ففى عظته الأولى خاطب الإمبراطور ثيئودوسيوس الصغير بالكلمات التالية: "أعطنى أيها الإمبراطور الأرض نقيةً من الهراطقة وأنا سوف أعطيك السماء، ساعدنى لأشن حرباً ضد الهراطقة وأنا سوف أساعدك فى حربك ضد الفرس".[3]بعد ذلك بأيام قليلة صمَّم على حرمان الأريوسيين من الكنيسة الصغيرة التى كانوا لا يزالون يمتلكونها فى القسطنطينية، حتى انهم اقتيدوا إلى إشعال النار فيها بأنفسهم، والتى بسببها أطلق على نسطور من الهراطقة ومن كثير من الارثوذكس لقب "حارق متعمد". بالإضافة إلى ذلك فقد هاجم النوفاتيين والأربعتعشرية والمكدونيين، ونال من الإمبراطور عديداً من الأحكام المشددة ضد الهراطقة. وفى رسالة ليوحنا أسقف انطاكية، يؤكد نسطور أنه فى وقت وصوله إلى القسطنطينية وجد خصوماً (متضادين) موجودين فعلاً. لقَّب أحد أطرافهم القديسة العذراء بلقب "والدة الإله" وآخر بأنها مجرد "والدة إنسان". وحتى يتم التوسط بينهما قال إنه اقترح عبارة "والدة المسيح" معتقداً أن كلا الطرفين سوف يرضى بها[4] ... من ناحية أخرى فإن المؤرخ سقراط يذكر أن "الكاهن أنسطاسيوس صديق نسطور، الذى أحضره معه إلى القسطنطينية قد حذَّر سامعيه يوماً ما، فى عظة أنه لا يصح لأحد أن يدعو مريم والدة الإله θεοτοκος لأن مريم كانت إنسانة والله لا يمكن أن يولد من إنسان".[5] هذا الهجوم على المصطلح الكنسى المقبول حتى ذلك الوقت، والإيمان القديم قد سبَّب هياجاً عظيماً واضطراباً وسط الإكليريكيين والعلمانيين. وتقدّم نسطور نفسه ودافع عن خطاب صديقه فى عدة عظات. واتفق معه أحد الأطراف (المتضادة)، وعارضه الطرف الآخر.

---

1 - C.J. Hefele, A History of the Councils of the Church, Vol III.p. 9 - 17, AMS Press 1972, re-printed from the edition of 1883 Edinburgh.

2 - Socrat. Hist. Eccl. Lib. vii. C. 29 ' Theodoret. Haeret. Fabul. lib. iv. c. 12 ; Evargrius. Hist. Eccl. i. 7 ' Gennad. De Scrip. eccl. c. 53 Vincent. Lirin . c. 16 .

3 - Socrat . Hist. Eccl . vii . 29

4 - Mansi. t. v. p. 573; Hardouin. t. i. p. 1331 .

5 - According to Cyril of Alexandria (Ep. vi. p. 30, Ep. ix. P.37, Opp. t. v. ed. Aubert : and in Mansi, t. iv. P. 1014).

وفقاً لهذا التقييم للامر، فإن نسطور لم يجد النزاع قائماً بالفعل في القسطنطينية، ولكنه مع صديقه انسطاسيوس كانا أول من اثاره. ومع ذلك فإن العظات الموجودة لدينا كما ذكرنا، والتي القاهافي هذا الموضوع ما زالت محفوظة لنا جزئياً، وهي كافية بالتمام لدحض تاكيدات الكثيرين غير الدقيقة بأن نسطور لم يعلّم في الواقع شيئاً ذا سمة هرطوقية. ففي خطبته الأولى هتف بعاطفة [إنهم يسألون إن كان من الممكن ان تُدعى مريم والدة الإله. لكن هل لله ام إذن ؟ في هذه الحالة يجب أن تعذر الوثنية التي تكلمت عن امهات للآلهة، لكن بولس لم يكن كاذباً حينما قال عن لاهوت المسيح إنه بلا أب، بلا أم، بلا نسب(عب ٧:٣). [لا يا أصدقائي لم تحمل مريم الله .. المخلوق لم يحمل الخالق إنما حمَلت «الإنسان» الذي هو أداة اللاهوت. لم يضع الروح القدس الكلمة، لكنه أمد له من العذراء المطوية، بهيكل حتى يمكنه سكناه... انا اكرِّم هذه الحلة التي استفاد منها من اجل ذاك الذي احتجب في داخلها ولم ينفصل عنها... انا افرّق الطبائع وأوحّد التوقير. تبصّر في معنى هذا الكلام. فإن ذاك الذي تشكّل في رحم مريم لم يكن الله نفسه لكن الله اتخذه،، وبسبب ذاك الذي اتُّخذ فإن المُتَّخِذ ايضاً يُدعى الله].[1]

أما خطبته الثانية فتبدأ بتعبير لاذع ضد اسلافه، كما لو انه لم يكن لديهم الوقت لقيادة الناس نحو معرفة اعمق بالله. ومن هنا يتحول ثانيةً إلى موضوعه الرئيسي ان المسيح ذو طبيعة مزدوجة وكرامة موحَّدة. فيقول [حينما تتكلم الأسفار المقدسة عن ميلاد المسيح او موته فهي لا تدعوه الله اباً بل المسيح او يسوع او الرب ... مريم إذاً يمكن أن تُدعى خريستوتوكوس χριστοτοκος، وحملت ابن الله بقدر ما حملت الإنسان ، الذي بسبب اتحاده[2] بابن الله (بالمعنى الخاص) يمكن أن يُدعى ابن الله (بالمعنى الأوسع) . وبنفس الطريقة يمكن أن يقال إن ابن الله مات وليس أن الله مات .. إذن فلنحفظ اتصال الطبيعتين φυσεων τηρωμεν συναφειαν غير المختلط ولنعترف بالله في الإنسان وبسبب هذا الاتصال الإلهي نوقِّر ونكرِّم الإنسان المعبود مع الله الكلي القدرة].[3]

وفي خطابه الثالث يقول : [إن الأريوسيين يضعون اللوغوس فقط تحت الآب لكن هؤلاء الناس (الذين يعلّمون بالثيئوتوكوس θεοτοκος ويتكلمون عن ميلاد الله) يضعونه تحت مريم ايضاً، مؤكّدين انه أحدث منها، ومعطين اللاهوت خالق الكل، أمّاً زمنية كأصل له. إذاً لم يكن ذاك الذي حملته إنساناً إنما الله الكلمة، إذاً لم تكن هي ام ذاك الذي وُلد، لانه كيف تكون هي ام ذاك الذي له طبيعة مختلفة عنها ؟ لكن إن كانت تُدعى أمه، إذاً فإن ذاك الذي وُلد ليس ذا طبيعة إلهية، لكنه إنسان حيث أن كل ام تحمل من له نفس جوهرها (مادتها). لم يولد الله الكلمة إذاً من مريم، لكنه سكن في ذاك الذي وُلد من مريم.]

من السهل أن نرى أن نسطور قد تبنّى وجهة نظر معلمه ثيئودور الموبسويستي... وقد أنذره كثير من كهنته بالانسحاب من شركته ووعظوا ضده. وصرخ الشعب "لدينا إمبراطور، لكن ليس لدينا أسقف" والبعض ومنهم علمانيون تكلّموا ضده علناً حينما كان يعظ، وبالأخص شخص

1- Marius Mercat. ed. Garnier - Migne, p. 157 sqq.

٢ ـ يقصد اتحاد في الكرامة وليس في الطبيعة كما سبق ان ذكر في خطابه الأول .

3- Loofs, Nestoriana, p. 249 .

ـسم يوسابيوس وهو بلا شك نفس الذى صار فيما بعد أسقف دوريليم والذى على الرغم من كونه علمانياً فى ذلك الوقت، إلا أنه كان أول من كانت له نظرة ثاقبة وعارض الهرطقة الجديدة. لهذا السبب استعمل نسطور له ولآخرين لقب "الرجال البؤساء" (١) واستدعى الشرطة ضدهم، وتم جلدهم وسجنهم، وهؤلاء الآخرون هم بالتحديد بعض الرهبان، الذين وصل إلينا فى أيامنا هذه اتهامهم الموجّه للإمبراطور ضد نسطور. (٢)

هناك مقتطفات لعظة أخرى موجهة كلياً ضد تبادل الخواص communicatio idiomatum وبالتحديد ضد عبارة "تألم الكلمة" ولكن تبقى خطبته الرابعة ضد بروكلوس (٣) هى الاكثر أهمية وتحوى الكلمات التالية: [إنهم يدعون اللاهوت معطى الحياة قابلاً للموت، ويتجاسرون على إنزال اللوغوس إلى مستوى خرافات المسرح، كما لو كان (كطفل) ملفوفاً بخرق ثم بعد ذلك يموت .. لم يقتل بيلاطس اللاهوت ـ إنما حلّة اللاهوت . ولم يكن اللوغوس هو الذى لُفَّ بثوب كتّانى بواسطة يوسف الرامى ... لم يمت واهب الحياة لأنه من الذى سوف يقيمه إذاً إذا مات ... ولكى يصنع مرضاة البشر اتخذ المسيح شخص الطبيعة الخاطئة (البشرية) .. أنا أعبد هذا الإنسان (الرجل) مع اللاهوت ومثل الات صلاح الرب .. والثوب الأرجوانى الحى الذى للملك ... ذاك الذى تشكّل فى رحم مريم ليس اللّه نفسه .. لكن لأن اللّه سكن فى ذاك الذى اتخذه، إذاً فإن هذا الذى اتُّخذ أيضاً يُدعى اللّه بسبب ذاك الذى اتخذه. ليس اللّه هو الذى تألم لكن اللّه اتصل مع الجسد المصلوب ... لذلك سوف ندعو العذراء القديسة ثيئوذوخوس (والدة الإله) ، لأن اللّه الآب وحده هو θεοτοκος (وعاء اللّه) وليس ثيئوتوكوس θεοδοχος الثيئوتوكوس ، ولكننا سوف نوقّر هذه الطبيعة التى هى حلّة اللّه مع ذاك الذى استخدم هذه الحلّة، سوف نُفرّق الطبائع ونوحّد الكرامة، سوف نعترف بشخص مزدوج ونعبده كواحد].(٤)

من كل ما تقدم نرى أن نسطور ... بدلاً من أن يوحّد الطبيعة البشرية بالشخص الإلهى، فإنه يفترض دائماً وحدة الشخص الإنسانى مع اللاهوت ... لم يستطع أن يسمو إلى الفكرة المجردة، أو يفكر فى الطبيعة البشرية بدون شخصية، ولا اكتسب فكرة الوحدة التى للطبيعة البشرية مع الشخص الإلهى. لذلك فإنه يقول حتماً إن المسيح اتخذ شخص البشرية الخاطئة، ويستطيع أن يوحّد اللاهوت بالناسوت فى المسيح خارجياً فقط، لأنه يعتبر الناسوت شخصاً كما هو مبيَّن فى كل الصور والتشبيهات التى يستخدمها. إن اللاهوت يسكن فقط فى الناسوت كما يقول، والناسوت هو مجرد هيكل وحلّة للاهوت، فاللاهوت لم يولد من مريم فى نفس الوقت مع الناسوت ولكنه مرّ فقط خلال مريم. لم يتألم مع البشرية، ولكنه بقى غير متأثر فى الإنسان المتألم، الأمر الذى لا يكون مستطاعاً بوضوح إلا إذا كان للطبيعة البشرية مركز وشخصية يخصّانها .. أما إذا كان الشخصى فى المسيح هو اللاهوت، واللاهوت فقط (بمعنى أن شخص المسيح هو نفسه شخص كلمة اللّه)، إذاً، إذا تألم المسيح يجب أن يكون اللاهوت أيضاً قد دخل

1 - Marius Merc. l.c. p. 770 ; Cyrill. Opp. t. iv. P. 20; Tillemont, t. xiv. P. 318.

2 - In Hardouin. t.i.v. P. 1102.

٣ ـ أسقف سيزيكوس

4 - In Marius Merc. l.c. pp. 789 - 801

فى الامه، والطبيعة البشرية لا يمكن أن تتألم وحدها، لأنه لا يكون لها كيان شخصى خاص. هكذا أيضاً (إذا كان الشخصى فى المسيح هو اللاهوت، واللاهوت فقط) فإنَّ شخصاً واحداً فقط هو الذى يمكن أن يولد من مريم، ولأن الشخصى فى المسيح هو اللاهوت فقط (فى هذه الحالة)، يجب أن يكون هذا قد اشترك فى الميلاد رغم أنه فى ذاته هو غير قابل للميلاد والألم.

كتابات نسطور المتأخرة:

نسب البعض كتاب "بازار هيراقليدس" Bazar of Heracleides إلى نسطور باعتبار انه كتبه فى منفاه باسم مستعار. وقد حاول فى هذا الكتاب - كما يبدو - تبرئة نفسه. ولكنه - على العكس - أكَّد هرطقته المعروفة فى اعتقاده بأن شخص يسوع المسيح ليس هو نفسه شخص ابن اللّه الكلمة. اى الاعتقاد باتحاد شخصين اتحاداً خارجياً فى الصورة فقط. وهذا يهدم كل عقيدة الفداء، لأن اللّه الكلمة لا يكون هو هو نفسه الفادى المصلوب مخلِّص العالم، ولا يصير لكلمات يوحنا الإنجيلى الخالدة أى معنى "لأنه هكذا احب اللّه العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يو٣:١٦). بل كيف يتحقق قول الرب بفم نبيه إشعياء "أنا أنا الرب وليس غيرى مُخلِّص" (إش ٤٣ك١١).

وفيما يلى النصوص التى نسبت إلى نسطور فى الكتاب المذكور Bazar of Heracleides:

١ - هما شخصان Two prosopa : شخص ذاك الذى أُلبِس وشخص (الآخر) الذى لَبِس.[1]

٢ - لذلك فإن صورة اللّه هى التعبير التام عن اللّه الإنسان . فصورة اللّه المفهومة من هذا المنطق يمكن أن نظن أنها الشخص الإلهى . اللّه سكن فى المسيح وكشف ذاته للبشر من خلاله . مع أنَّ الشخصين Two prosopa هما فى الحقيقة صورة واحدة للّه.[2]

٣- يجب الا ننسى أن الطبيعتين تستلزمان اقنومين وشخصين Two persons (prosopons) متحدين فيه بقرض بسيط وتبادل. [3]

بداية الصراع بين كيرلس ونسطور [4]

"لم يمض زمن طويل على انتشار اراء نسطور من القسطنطينية إلى ولايات اخرى، ومنذ بداية سنة ٤٢٩م عندماوجد كيرلس، رئيس أساقفة الإسكندرية، انه من الضرورى أن يقدم شرحاً واضحاً وبسيطاً للعقيدة الأرثوذكسية فى عظة عيد القيامة لكن بدون ذكر نسطور والأحداث التى حدثت فى القسطنطينية معلناً بأن ليس اللاهوت (بذاته)، ولكن اللوغوس الذى اتحد مع الطبيعة البشرية، هو الذى وُلِد من مريم.[5]

---

1 - LH 193 (Bazar of Heracleides).

2 - Rowan Greer, "The Image of God and the Prosopic Union in Nestorius", Bazar of Heracleides in Lux in Lumine , Essays to honor W. Norman Pittenger, edited by R.A. Morris Jr., New York 1966, p. 50

3 - F. Nau. L. e. Livre d'Hercalide de Damas (=L. H.), Paris 1910; p. xxviii

4 - C. J. Hefele, A History of the Councils of the Church, Vol III, p. 17 - 25. AMS Press 1972, reprinted from the edition of 1883 Edinburgh

5 - Cyrill. Alex. Opp. t.v. p. ii. P. 222

وقدجرت محاولة خاصة لنشر النسطورية بين رهبان مصر الكثيرين، فتم إرسال مبعوثين لهذا الغرض، نشطاء فى هذا المجهود . ولذلك اعتبر كيرلس أنه من واجبه أن يجعلهم متيقظين للتو، وبخاصةً وأن كثيرين منهم لم تكن لديهم ثقافة لاهوتية، وإذا أُمسكوا فى الخطأ مرة سيكونون بالضرورة فى غاية الخطورة، بسبب أعدادهم الكبيرة وتأثيرهم العظيم على الناس. وفى خطاب عقائدى متكامل إلى الرهبان،[1] يظهر كيرلس كيف أنه حتى أثناسيوس هذا العظيم قد استخدم التعبير "والدة الإله" وأنّ كلاً من الكتب المقدسة ومجمع نيقية قد علّما بالاتحاد التام بين الطبيعتين فى السيد المسيح ...؛ و يجب ألاّ ندعو السيد المسيح حامل الإله (θεοφορος) وقد أخذ الناسوت كأداة، ولكن ينبغى أن يُدعى "اللّه بالحقيقة صار إنساناً".

إن جسد السيد المسيح ليس جسد أى شخص آخر، ولكنه جسد الكلمة؛ أى أن طبيعة المسيح البشرية لا تنتمى لأى شخص بشرى، ولكن الشخصية التى تنتمى إليها هى اللوغوس. (بهذه الطريقة قد تلقت النسطورية ضربة على الرأس). وأكمل قائلاً: «إذا كانت طبيعة المسيح البشرية مجرد أداة للاهوت ، إذاً المسيح لن يختلف أساساً عن موسى، لانه هو أيضاً كان أداة للّه». وفى الختام فقد قارن أيضاً بين موت السيد المسيح وموتنا . فيقول إنه بخصوصنا نحن، فإن الجسد فقطْ هو الذى يموت، ولكننا على الرغم من ذلك نقول إن الإنسان قد مات .. وهكذا الحال مع المسيح. فاللاهوت بذاته لم يمت، ولكن ينبغى أن نفهم فى الاعتبار الأول أن الكلمة قد صار له ما يخص الطبيعة البشرية، وهكذا يمكننا القول إنه قاسى الموت. كإنسان قاسى من الموت ولكن كإله فقد أبطل الموت مرة أخرى، ولم يكن يستطيع أن يكمّل خلاصنا بطبيعته الإلهية إذا لم يحتمل الموت من أجلنا فى طبيعته البشرية.

بلغت رسالة كيرلس هذه إلى القسطنطينية أيضاً، وأثارت نسطور ليستخدم تعبيرات عنيفة بشأن زميله السكندرى. وقام كيرلس بتوجيه خطاب قصير إلى نسطور قال فيه: لم يكن هو (كيرلس) ورسائله، ولكن نسطور أو صديقه هما السبب فى الفوضى الكنسية السائدة حالياً [2] .. أجاب نسطور على ذلك فى سطور قليلة احتوت بصعوبة على لا شىء غير مديح فى نفسه. [3]

فى خطاب جديد إلى نسطور، وصف كيرلس العقيدة الأرثوذكسية.. بأن الكلمة لم يصر جسداً بطريقة تجعل طبيعة اللّه تتغير أو تتحول... على النقيض من ذلك فإن اللوغوس قد وحّد أقنومياً مع نفسه (الجسد) σαρξ المتحرك (المحيًا) بالنفس العاقلة ψυχη λογικη وهكذا صار إنساناً بطريقة يتعذر تفسيرها.. إن الطبيعتين المتميزتين قد اتحدتا اتحاداً حقيقيا، لا كما لو كان الاختلاف فى الطبائع قد اختفى بالاتحاد ، ولكن على العكس ، بأنهما قد شكّلا الرب يسوع المسيح الواحد، الابن بالاتحاد غير المنطوق به بين اللاهوت والناسوت... فاللوغوس وحّد نفسه مع الطبيعة البشرية فى رحم مريم؛ وهكذا وُلد بعد أن اتخذ جسداً. وهكذا أيضاً تألم إلخ .. وحيث أن اللوغوس فى نفسه غير قابل للألم، فقد احتمل هذا فى الجسد الذى اتخذه.[4]

---

1 - Opp. I. c. Epist. i. pp. 1 - 19; in Mansi. t. iv. pp. 587 - 618.

2 - In Mansi, t. iv. p. 883 sq.: and in the Works of Cyril, I. c. Epist. ii. p. 19 sq.

3 - Cyrill. Opp. I. c. Ep. iii. p. 21; Mansi, I. c. p. 886

4 - Cyrill. Opp. I. c. Ep. iii. p. 22; in Mansi, I. c. p. 887 sqq., t. iv. p. 659 ; Hardouin, t. i. p. 1273, and t. ii. p. 115; in German by Fuchs, I. c.S. 479 ff.

أجاب نسطور ... ينبغي ألا نقول إن الله وُلد وتألم أو إن مريم كانت والدة الإله، لأن ذلك يعتبر ضرباً من الوثنية والأبوليناريه والأريوسية.

وقام كيرلس بإيفاد الشماس بوسيدونيوس Possidonius إلى روما، وأعطاه فى نفس الوقت ترجمات لجميع الرسائل الأخرى التى كتبها حتى ذلك الوقت عن موضوع نسطور، وأيضاً مذكرة خاصة بيَّن فيها باختصار الخطأ النسطورى والعقيدة الأرثوذكسية المعارضة لها.

مجمع روما (٤٣٠م):

بناءً على ما سبق، عقد البابا كليستين مجمعاً فى روما (٤٣٠م) تقرر فيه تأكيد لقب العذراء "والدة الإله" وأعلن فيه أن نسطور هرطوقى.[1] وأرسل البابا كليستين إلى البابا كيرلس السكندرى تفويضاً فى إصدار حكم علنى ضد نسطور إذا استمر على ما هو عليه. وجاء فى هذا الخطاب:

[دعه يعرف أنه لا يستطيع أن يشترك فى شركتنا إن ظل فى هذا الطريق المنحرف بمعارضته للتعليم الرسولى. وبناءً على ذلك، حيث أن التعليم الأصيل لكرسينا هو فى اتفاق معكم، فتمم هذا القرار بحسم دقيق مستخدماً خلافتنا. وفى خلال عشرة أيام ابتداءً من يوم التذكير هذا، ينبغى عليه إما أن ينقض عظاته الرديئة باعتراف مكتوب ويؤكد بقوة أنه هو نفسه يعتنق الإيمان بخصوص ميلاد المسيح إلهنا، الذى تعتنقه كنيسة روما وكنيسة قداستكم كما يعتنقه الأتقياء فى كل العالم، وإذا لم يفعل هذا، فقداستكم، بسبب عنايتكم بتلك الكنيسة، تعلم فى الحال أنه يجب أن يُبعد من جسمنا بكل طريقة ... وكتبنا هذا نفسه إلى إخوتنا القديسين وزملائنا الأساقفة، يوحنا (أنطاكية)، وروفس (تسالونيكى)، ويوفيناليوس (أورشليم)، وفلافيانوس (فيلبى)، لكى يكون حكمنا بخصوصه - أو بالحرى حكم المسيح الإلهى ظاهراً.] [2]

مجمع الإسكندرية (٤٣٠م):

عقد البابا كيرلس مجمعاً فى الإسكندرية (٤٣٠م) واعتمد المجمع نص رسالة البابا كيرلس الثالثة إلى نسطور وهى التى تتضمن الحرومات الإثنى عشر ومطالبة نسطور بالاعتراف بها.

كذلك أرسل المجمع رسالتين أخريين واحدة إلى إكليروس القسطنطينية وشعبها والأخرى إلى رهبان القسطنطينية.

وقام وفد من أربعة من الأساقفة والكهنة المصريين بتسليم الرسالة فى يوم الأحد بالكاتدرائية القسطنطينية إلى نسطور ومعها الوثائق المرسلة من روما.

قام نسطور بعدها بتقديم شكوى ضد البابا كيرلس إلى الإمبراطور ثيئودوسيوس كما قام بنشر إثنى عشر حرماً مضادة لحرومات البابا كيرلس متهماً البابا كيرلس بالهرطقة.[3]

---

1 - C. J. Hefele, A History of the Councils of the Church, Vol III, p. 25, AMS Press 1972, reprinted from the edition of 1883 Edinburgh.

2 - Pope St. Clestine Letter to St. Cyril of Alex., The Fathers of the Church, vol. 76, C.U.A. Press, Washington D.C 1978, p. 69, 70.

3 - C. J. Hefele, A History of the Councils of the Church, Vol III, p. 28 - 34, AMS Press 1972, reprinted from the edition of 1883 Edinburgh.

فى الحرم السابع أنكر نسطور تماماً أن المولود من العذراء مريم هو هو نفسه الابن الوحيد الجنس المولود من الآب قبل كل الدهور ونصه كما يلى :

[إذا قال أحد إن الإنسان الذى تشكّل (تكوّن) من العذراء هو ابن الله الوحيد، الذى وُلد من حضن الآب قبل كوكب الصبح، ولا يعترف بالأولى أنه حصل على مكانة ابن الله الوحيد لارتباطه مع ذاك الذى بالطبيعة هو ابن الله الوحيد المولود من الآب، بالإضافة إلى ذلك، إذا دعاه أحد شيئاً آخر غير المسيح عمانوئيل، فليكن محروماً].(١)

بداية صراع مجمع أفسس ونصرته :

كما رأينا فيما سبق، تم اقتراح عقد مجمع مسكونى بعد مدة طويلة من خلاف controversy النسطورية لتسويته. وقد طلب ذلك بوضوح كل من الأرثوذكس ونسطور.(٢) وقد تكلم نسطور عن ذلك فى خطابه الثالث إلى البابا كليستين وبنفس الطريقة خطاب رهبان القسطنطينية إلى الإمبراطور الذى اشتكوا فيه من سوء معاملة نسطور لهم، واحتوى أيضاً على رغبة عبروا عنها بصوت قوى لطلب هذا العلاج الكنسى.(٣) الواقع أن الإمبراطور ثيئودوسيوس الثانى وصل إلى القسطنطينية فى يوم ١٩ نوفمبر عام ٤٣٠م ، قبل بضعة أيام من حرومات كيرلس، وأصدر منشوراً به ألقاب زميله الغربى - فالنتينيان الثالث - موجهاً إلى جميع المطارنة دعاهم فيه إلى اجتماع مسكونى فى أفسس فى عيد الخمسين فى السنة التالية (٤) وأضاف بأن على كل منهم أن يحضر معه من ولايته بعض الأساقفة المساعدين، وأن كُلٌ من يصل متأخراً سيكون مسئولاً مسئولية جسيمة أمام الله والإمبراطور.(٥)

وطبقاً للأوامر الإمبراطورية كان ينبغى أن يبدأ المجمع فى عيد الخمسين (٧يونيو) فى عام ٤٣١م(٦) وكان نسطور مع أساقفته الستة عشر من بين الأوائل الذين وصلوا إلى أفسس.(٧)

وقد انتظر الآباء وصول البطريرك يوحنا الأنطاكى لمدة ستة عشر يوماً بعد الموعد المحدد. ثم بدأ المجمع برئاسة البابا كيرلس الإسكندرى فى يوم ٢٢ (يونيو) فى كاتدرائية والدة الإله بأفسس . وبعد استدعاء نسطور ثلاث مرات رفض الحضور إلى المجمع وقُرئ خطاب القديس كيرلس الثانى إلى نسطور ورد نسطور عليه .

"بعد ذلك تمت قراءة وثيقتين أخريين وهما تحديداً خطاب كليستين والمجمع الرومانى، وخطاب كيرلس السكندرى إلى نسطور،(٨) وتم سؤال الأربعة من الإكليروس الذين أوفدهم

---

1 - Ibid, p. 36

2 - Evagrius, Hist. Eccl, i. 7

3 - In Mansi, t. iv. p. 1102, Hardouin, t. i. p. 1335. German in Fuchs, Bibl. Der Kirchenvers Bd iii S. 592

4 - 7 th of June 431 A. D.

5 - In Mansi, t. iv. p. 1111; Hardouin, t. i. p. 1343 . German in Fuchs, l. c. Bd. ii. S. 603.

6 - Hardouin, t. i. p. 1435; Mansi t. iv. p. 1230.

7 - C. J. Hefele, A History of the Councils of the Church , Vol III, p. 40 - 44, AMS Press 1972 , reprinted from the edition of 1883 Edinburgh .

٨ - مقصود الرسالة الثالثة إلى نسطور التى اعتمدها المجمع السكندرى وفيها الحروم الإثنى عشر .

كيرلس ليسلموا هذه الوثيقة إلى نسطور عن نتيجة مهمتهم. وقد أجابوا بأن نسطور لم يعطهم رداً على الإطلاق. ومع ذلك، فمن أجل التأكد من انه مازال مصمماً على خطئه، تم سؤال أسقفين: ثيئودوتس أسقف أنقيرا Ancyra وأكاكيوس أسقف ميليتين Melitene إذ كـانت تربطهما بنسطور صداقة شخصية، وكانا خلال الأيام الثلاثة الماضية قد أجريا مناقشات اعتيادية معه، محاولين أن يحوّلاه عن خطئه ... لكنهما أعلنا للأسف بأن جميع مجهوداتهما معه كانت سدًى [1]". [2]

كانت إجابة نسطور لهؤلاء الأساقفة [لن ادعو ابداً طفلاً عمره شهران او ثلاثة "الله".] [3]

ومع ذلك ، بناءً على اقتراح مقدم من فلافيان أسقف فيلبي ومن أجل تقديم النقطة العقائدية موضوع النقاش لدراسة شاملة، وفي ضوء أدلة الآباء، تمت قراءة عدد من كتابات آباء الكنيسة، التي عُبِّر فيها عن الإيمان القديم بخصوص اتحاد اللاهوت والناسوت في المسيح. كانت تلك بيانات لآراء بطرس أسقف الإسكندرية، وأثناسيوس، والبابا يوليوس، والبابا فيليكس الأول، وثيئوفيلوس ورئيس أساقفة الإسكندرية، وكبريان، وامبروسيوس Ambros، وغـريغـوريوس النازيانزي، وباسيليوس الكبير، وإغريغوريوس النيصي، واتيكوس Atticus من القسطنطينية، وامفيلوكيوس Ambphilochius مـن إيكونيوم Iconium. جميع هؤلاء المراجع (الرؤساء الأوائل) لم يعلمـوا اي شئ عن فـصل اللاهوت عن الناسـوت الذي علّم به نسطور، ولكن على العكس من ذلك تم التعليم بتجسد اللوغوس.

وبعكس هذه الفقرات الآبائية، قد تمت بعد ذلك قراءة عشرين فقرة من كتابات نسطور، بعضها طويل وبعضها قصير، عبّرت عن آرائه الأساسية، والتي قدّمناها بعاليه، في قطع متفرقة تفتقر إلى التجانس inconcreto. [4]

صرخ جميع الأسـاقفة معاً: "إذالم يحرم اي شخص نسطور فليكن هو نفسه محروماً، إن الإيمان الصحيح يحرمه والمجمع المقدس يحرمه. وإذا كان لأي شخص شركة مع نسطور فليكن محروماً. نحن جميعاً نُحرم نسطور الهرطوقي واتباعه وعقيدته المضادة للتقوى impious . نحن جميعاً نحرم نسطور غير التقي impious (ασεβη) إلخ .." [5]

قرر ... المجمع المقدس أن يكون نسطور مفصولاً من كرامة الأسقفية ومن كل شركة كهنوتية ... هذا الحكم كان في المكانة الأولى قد وقّعه ١٩٨ أسقفاً الذين كانوا حاضرين . بعد ذلك اتخذ آخرون نفس هذا الجانب حتى أن جميع من وقع بلغ عددهم ٢٠٠ (مائتين) .

بعد انقضاء بضعة أيام، وفي يوم ٢٦ يونيو، وصل يوحنا الأنطاكي اخيراً إلى افسس،

1 - Cf. Mansi, t.. iv. p. 1182; Hardouin, t. i. p. 1398; I. c. S. 59

2 - C. J . Hefele, A History of the Councils of the Church , Vol III, p. 48, AMS Press 1972 , reprinted from the edition of 1883 Edinburgh .

3 - Socrates, I.c; Schrockh in his Kirchengesh (Bd. 18, S. 235).

4 - In Mansi, t. iv. pp. 1198 - 1207 ; Hardouin, t. i. pp . 1410 - 1419 . German in Fuchs, I. c. S. 69 ff.

5 - Mansi, t. iv. pp. 1170 - 1178 ; Hardouin, t. i. pp. 1387 - 1395 .

فأرسل المجمع وفداً مفوضاً لمقابلته على الفور. كان الوفد مكوّناً من عدة أساقفة وإكليريكيين، وذلك تعبيراً عن الاحترام له، وفي نفس الوقت لإبلاغه بعزل نسطور ... وبعد وصوله مباشرةً عقد في منزله مجمعاً مع أتباعه .. كان عددهم ثلاثة وأربعين عضواً بما فيهم شخصه. وأُعلن الحكم بعزل البابا كيرلس الإسكندري وممنون أسقف أفسس من جميع الوظائف الكهنوتية وبالقطع من الشركة، وجميع من وافقوا على الحكم ضد نسطور حتى يعترفوا بخطئهم ويُحرِّموا تعاليم البابا كيرلس". (١)

"وتقدم الطرفان إلى الإمبراطور، وكلاهما يطلب تعضيده ومساندته ، وتأزم الأمر جداً حتى أن المجمع ظل منعقداً حتى ١١ سبتمبر من نفس العام، وأصدر الإمبراطور قراراً بخلع كيرلس وممنون ونسطور،ولكن بعد فترة قصيرة أُعيد كيرلس وممنون كل إلى كرسيه،وأُرسل نسطور إلى دير Euprepius. وفي عام ٤٣٥م نُفي إلى البتراء Petra في البلاد العربية Arabia وبعد ذلك إلى صحراء مصر حيث مات حوالي عام ٤٤٩م". (٢)

إعادة الوحدة عام ٤٣٣م :

لم يُنهِ رحيل نسطور الخلاف، فقد تحطمت أواصر الشركة بين الطرفين وسعى الإمبراطور نفسه مستخدماً سلطانه وتأثيره ليعيد السلام، وبالفعل حققت مساعيه النتائج المرجوة. وفي عام ٤٣٣م أوفد يوحنا الأنطاكي بولس (أسقف حمص) إلى الإسكندرية ومعه اعتراف بالإيمان (أي وثيقة تعلن عن إيمان يوحنا) وقبله كيرلس وأرسل إلى يوحنا رسالته المشهورة التي تضمنت جزءاً من اعتراف يوحنا يؤكد على وحدة شخص السيد المسيح وعلى الاستمرارية غير المختلطة وغير الممتزجة للاهوت والناسوت فيه. (٣)

وورد في هذا النص ما يلي: [فيما يخص العذراء والدة الإله كما نعتقد ونقول، وفيما يخص كيفية تأنس ابن الله الوحيد... من الضروري أن نتكلم بكلمات قليلة - بدون إضافة شيء - بل في ملء اليقين، كما قد استلمنا الإيمان منذ البداية من الكتب المقدسة ومن تسليم (تقليد) الآباء القديسين، ودون أن نضيف شيئاً بالمرة إلى إيمان الآباء القديسين الموضوع في نيقية. وكما سبق و قلنا فإن الإيمان الموضوع في نيقية هو كافٍ لكل معرفة التقوى والكرازة العلنية ضد كل تعليم هرطوقي رديء السمعة. وسوف نتكلم دون أن نقتحم بجسارة الأمور التي لا يمكن البلوغ إليها. ولكننا، ونحن نعترف بضعفنا، فإننا نستبعد أولئك الذين يرغبون في أن يقحموا أنفسهم في الأمور التي يعلو الفحص فيها على الإنسان. لذلك نعترف أنَّ ربنا يسوع المسيح، ابن اللّه، الوحيد، هو إله كامل وإنسان كامل ذو نفس عاقلة وجسم، وهو مولود من الآب قبل كل الدهور بحسب لاهوته، وأنه هو نفسه في الأيام الأخيرة، من أجلنا ومن أجل خلاصنا وُلِد من مريم العذراء بحسب ناسوته، وهو نفسه، له الجوهر نفسه مع الآب، حسب لاهوته، وله نفس الجوهر

1 - C. J. Hefele, A History of the Councils of the Church, Vol III, p. 47-58 AMS Press 1972, re-printed from the edition of 1883 Edinburgh.

2 - V. C. Samuel, The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977, p. 8.

3 - Ibid.

الذى لنا بحسب ناسوته. لأنه قد حدث اتحاد بين الطبيعتين. لأجل هذا نعترف بمسيح واحد، ابن واحد، رب واحد. وبحسب هذا الفهم للاتحاد بدون اختلاط نعترف بأن العذراء القديسة هى "والدة الإله"، لأنّ اللّه الكلمة قد تجسد وتأنس، ومنذ ذات الحمل به وحّدَ الهيكل الذى أخذه منها، مع ذاته. ونحن نعرف أن اللاهوتيين ينسبون بعض أقوال البشيرين والرسل عن الرب باعتبارها تشير بصفة عامة إلى شخص واحد، ويقسمون أقوالاً أخرى بأنها تشير إلى طبيعتين، فتلك التى تليق باللّه ينسبونها إلى لاهوت المسيح، أما تلك الأقوال المتواضعة فينسبونها إلى ناسوته.] [١]

تأزُم الموقف: [٢]

لم تنجح إعادة الوحدة فى عام ٤٣٣م فى تحقيق الاستقرار والوحدة الكاملة بين الجانبين. فالسكندريون (أى الجماعة المؤيّدة للقديس كيرلس) شعروا بأن كيرلس قدَّم تنازلات كثيرة للأنطاكيين، أما الأنطاكيون فشعر بعضهم بالاستياء، وعدم الرضى فى شأن استبعاد نسطور وإدانته.

غير أن كيرلس كان قوياً ونافذ القول بما يكفى لاحتواء أتباعه، وارسل كثيراً من الرسائل إلى أصدقائه مثل أكاكيوس أسقف ميليتين وفاليريان أسقف إيقونية شارحاً كيف أن المصالحة مع يوحنا الأنطاكى لا تتعارض مع شرحه السابق للعقيدة فى رسائله إلى نسطور، ولا مع عقيدة مجمع أفسس.

وبالنسبة للأنطاكيين، فلم يكونوا كلهم موافقين على إعادة العلاقات أو على الوحدة. وبالرغم من وجود رجال مثل يوحنا الأنطاكى وأكاكيوس أسقف حلب ممن قبلوا إعادة الوحدة وظلّوا مخلصين لمصطلحات الاتفاق الذى تم التوصل إليه فى سنة ٤٣٣م، إلاّ أنه كان هناك آخرون فى الجانب الأنطاكى غير راغبين فى الإذعان والخضوع للبطريرك الأنطاكى. وهؤلاء كانوا يمثلون اتجاهين:

من ناحية: كان هناك السيليسيانيون المعارضون لكيرلس ولإعادة الوحدة.

ومن الناحية الأخرى: كان هناك رجال مثل ثيئودوريت أسقف كورش Theodorete of Cyrus الذى لم يقبل إدانة نسطور.

وتدخل الإمبراطور وخضع كثيرون من أولئك الأساقفة، إلاّ أنّ خمسة عشر منهم عاندوا فكان مصيرهم الخلع. وفى عام ٤٣٥م قبل ثيئودوريت إعادة الوحدة ولكن بدون إدانة نسطور، وهكذا لعب ثيئودوريت أسقف قورش المجادل المقتدر دوراً مؤثراً فى الجدال الذى تلا إعادة الوحدة.

إعادة الوحدة تفسر بطرق مختلفة: [٣]

تفاقم التوتر بين الجانبين لأن إعادة الوحدة لم تُفهم بمعنى واحد عند كلا الطرفين. فالسكندريون من جهتهم، نظروا إليها كأمر جعل الأنطاكيين يقبلون مجمع سنة ٤٣١م بدون أى

1 - V. C. Samuel, The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977, p. 8.
2 - Ibid.
3 - Ibid. p. 12

شروط أو تحفظات، وكيرلس نفسه فهم الأمر بهذا المعنى وأوضح ذلك لمؤيديه عندما سألوه، وهذه النظرة الكيرلسية ـ كما سنرى فيما بعد ـ اكّد عليها ساويروس الانطاكى باقتدار فى القرن السادس.[1] وكان للسكندريين تبريرهم الكافى لهذا الموقف، الم يعيدوا العلاقات مع كيرلس السكندرى بدون أن يجعلوه يتراجع أولاً عن حروماته (الإثنى عشر) ؟

وبالرغم من أن شرعية هذا الدفاع السكندرى لا يمكن أن تُدحض، إلا أن ثيئودوريت أسقف كورش ومعضديه كانوا غير راغبين فى التسليم والإقرار به. ومضى ثيئودوريت، من جهته، قُدُماً فى الاعتقاد بأن إعادة الوحدة فى سنة ٤٣٣م الغت كل قرارات المجمع المتعلقه بذلك فى سنة ٤٣١م، والتى لم يقروّا بها إقراراً تاماً (إيجابياً)، وبالتالى بذلوا قُصارى جهدهم ليؤسسوا ويقيموا فكراً لاهوتياً انطاكياً قوياً (أى متطرفاً) على أساس صيغة إعادة الوحدة (بحسب مفهومهم الخاص)، وسعوا كذلك لوضع رجالهم المؤيدين لهم فى الأماكن والمناصب الرئيسية والأساسية لينشروا هذا الفكر اللاهوتى، وظنوا أنهم يستطيعون تحقيق ذلك عن طريق الاعتراف برسالة كيرلس الثانية إلى نسطور كوثيقة إيمان بالإضافة إلى صيغة إعادة الوحدة نفسها. ولعل الانطاكيين فى اعترافهم بالرسالة الثانية قد فسّروا عبارة "اتحاد اقنومى"(hypostatic union) الموجودة فى الرسالة كمرادف لعبارة "اتحاد بروسوبونى" أى "اتحاد أشخاص(prosopic union) مع أن كيرلس رفض هذه العبارة فى رسالته. وفى سعيهم لتطوير فكرهم اللاهوتى كان من المستشعر أنهم لابد وأن يعترفوا ويعلنوا ان ديودور أسقف طرسوس، Tarsus وثيئودور أسقف موبسويستيا Mopsuestia هما أستاذاهما اللاهوتيان . ونُشرت أعمالهما. بل وكتَبَ ثيئودوريت نفسه دفاعاً عنهما، وما أن تم هذا حتى فنّده البابا كيرلس ودحضه. وأجلس الأنطاكيون (المتطرفون) أيضاً رجالاً من مؤيديهم فى كراس أسقفية هامة، وكان هيباس أحد هؤلاء، وقد جُلّس على كرسى إديسا Edesse (الرها) فى سنة ٤٣٥م، وقدّم الجانب الأنطاكى أيضاً تبريرات لأعماله هذه، فقد قالوا على سبيل المثال، إنهم لم يستطيعوا فهم الجمل السكندرية التالية: اتحاد أقنومى، أقنوم واحد، طبيعة واحدة متجسدة لله الكلمة، بل رأوا فيها معنًى أبوليناريا، وقالوا إنهم لم يقبلوا حرومات كيرلس.[2]

معنى الاتحاد الاقنومى Hypostatic union - ενωσις καθ υποστασιν

كلمة اقنوم υποστασις عند القديس كيرلس تعنى الشخص προσωπον والطبيعة φυσις التى يحملها. وعبارة الاتحاد الاقنومى ενωσις καθ υποστασιν عنده لا تعنى إطلاقاً اتحاد أشخاص بل اتحاد طبائع فى شخص واحد بسيط، اتحاداً طبيعياً أو بحسب الطبيعة ενωσις κατα φυσιν أى أن عبارة الاتحاد الاقنومى بمنتهى الوضوح تعنى عند القديس كيرلس اتحاد طبيعتين اتحاداً طبيعياً فى شخص واحد بسيط.

وقد استخدم القديس كيرلس تشبيه الإنسان لإبراز معنى الاتحاد الطبيعى والاقنومى. فقال:

1- Ibid. p. 194

2 - V. C. Samuel, The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977, p. 11-13

"إن الإنسان مكون من طبيعتين مختلفتين متحدتين اتحاداً طبيعياً فى شخص واحد بسيط لتكوين اقنوم الإنسان المركب الواحد. والجسد الإنسانى يخص النفس العاقلة البشرية ويتّحد بها اتحاداً طبيعياً بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير". كما قال: "إن الكلمة المتجسد مكوَّن من طبيعتين مختلفتين: الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، وقد اتحدتا اتحاداً طبيعياً لتكوين الاقنوم الواحد المركب فى شخص الله الكلمة البسيط (غير المركب)". [شرح القديس كيرلس هذا المفهوم فى رسالته إلى سكسيتسوس فى الفقرة السابعة (١) وكذلك فى رسالته الثالثة إلى نسطور، الفقرة التاسعة] (٢)

وفى الحقيقة أن "الاتحاد الطبيعى" هو ضرورة لتكوين الشخص الواحد من طبيعتين. لأن من يملك خاتماً من الذهب ويلبسه فى إصبعه لا يكون هذا الخاتم من طبيعته الخاصة ولا من صميم كيانه ولا يكوِّن معه شخصاً واحداً حقيقياً. فالشخص الواحد يملك طبيعته أو طبائعه التى تكوِّن منها بحيث تكون هى طبيعته الخاصة جداً التى يتصف بها.

فإذا سكن الكلمة فى إنسان مجرد سكنى، أو إذا التحف بالإنسان كرداء مجرد فليس هذا الالتحاف هو من صميم كيان الشخص الملتحف بالرداء.

إن روح الإنسان لا تسكن فقط فى جسدها الخاص بها، ولكنها تتحد به اتحاداً طبيعياً واقنومياً لتكوين الطبيعة البشرية الكاملة، والشخص البشرى يملك جسده كمكوِّن لطبيعته الخاصة.

لهذا قال القديس كيرلس: "إن الكلمة قد [أخذ جسداً طاهراً من العذراء القديسة، جسداً مُحيياً بنفس عاقلة animated rationally". وهكذا أعلن أن الجسد هو جسده من اتحاد لا يُدرك.

1 - St. Cyril of Alex. Letter to Succensus. The Fathers of The Church. C.U.A. Press. Washington D.C., Vol. 76, 1978, par. 7. p.201

2 - Ibid. Third Letter to Nestorius, par. 9 p.84

موقف القديس كيرلس:

فى هذه الفترة شعر القديس البابا كيرلس بمحاولة الأساقفة المعجبين او المتمسكين بنسطور وتعاليمه فى إعادة النسطورية إلى الشرق فى المناطق المحيطة بالكرسى الأنطاكى فكتب إلى يوحنا الأنطاكى والمجمع الأنطاكى وإلى اكاكيوس أسقف ميليتين وإلى الإكليروس ولمبونوس الكاهن وإلى الإمبراطور ثيئودسيوس محذراً من التيار النسطورى الذى يحاول أن يتخفى خلف تعاليم ثيئودور الموبسويستى وديودور الطرسوسى معلمى نسطور. ثم عاد وكتب إلى بروكلس أسقف القسطنطينية حول تداعيات هذا الموضوع. ثم كتب إلى رابولا أسقف الرُها رداً على الرسالة التى بعث بها إليه، مادحاً إياه على وقوفه ضد تعاليم ثيئودور الموبسويستى والتيار النسطورى فى الشرق.

ونقتبس من رسالة القديس كيرلس إلى الإمبراطور ثيئودوروس: الأخير أسقف طرسوس والأول أسقف موبسويستيا، هذان كانا أبوى تجديف نسطوريوس. ففى الكتب التى ألفاها، تكلما بجنون شديد ضد المسيح مخلصنا جميعاً، لأنهما لم يفهما سره، وأراد نسطور أن يُدخل تعاليمهما فى وسطناولذلك عزله الله.

ومع ذلك فبينما حرم بعض أساقفة الشرق تعاليمه، فإنهم بطريقة أخرى يدخلون الآن هذه التعاليم نفسها ايضاً حينما يبدون إعجابهم بتعاليم ثيئودوروس ويقولون إنه كان يفكر تفكيراً صحيحاً يتفق مع اباءنا، أعنى أثناسيوس وغريغوريوس وباسيليوس. ولكنهم يكذبون ضد الرجال القديسين. فكل ما كتبه هؤلاء (القديسون) هو على عكس اراء ثيئودوروس ونسطوريوس الشرير.

ومن هناعرفت أنهم (بعض أساقفة الشرق) ربما يأتون بأمور كفرية معينة مختصة بهؤلاء الرجال (اى ثيئودوروس وديودوروس).[(١)]

وفى رسالته إلى الإكليروس ولمبونوس الكاهن - قبل ذلك - قال القديس كيرلس: [حينما كنت مقيماً فى إيليثون،[(٢)] احضر إلىّ احد الرجال الرسميين الذى يخدم جندياً فى القصر رسالة كبيرة ذات سطور كثيرة مختومة، استلمها من الأرثوذكس فى انطاكية. وهى تحمل توقيعات كثيرين من الإكليروس والرهبان والشعب، هؤلاء يتهمون أساقفة الشرق بأنهم بالرغم من صمتهم عن ذكر اسم نسطور، وتظاهرهم بأنهم يرفضونه، فإنهم كانوا يقفزون إلى كتب ثيئودوروس بخصوص التجسد (التأنس) التى يوجد فيها تجديفات اكثر خطورة من تجديفات نسطور. فقد كان هو أبا التعليم الشرير الذى لنسطور، ولأنه أعلن تعاليم نسطور، فإن هذا الرجل العديم التقوى كان بين هؤلاء الذين هو الآن معهم. وأنا كتبت إلى التقى جداً أسقف أنطاكية (يوحنا) أنه يجب الأ يعلّم أحد فى الكنيسة بتعليم ثيئودوروس الكُفرية.

وحينما وصل التقى جداً الشماس الأرشمندريت مكسيموس إلى الإسكندرية صاح كثيراً ضدهم قائلاً إن الأرثوذكس ليس لهم مكان هناك ولا حرية أن يتكلموا بتعاليم الإيمان الصحيح].[(٣)]

1 - Ibid. Vol. 77-Letter to Emperor Theodosius, p. 70-7

٢ - الاسم الرومانى لمدينة اورشليم.

3 - St. Cyril of Alexandria, Letter to the Clerics and to Lampon, the Priest, The Fathers of the Church, Volume 77, C. U. A. Press, 1987, p.68

تغيُّر القيادة:

عندما كان البابا كيرلس السكندرى والبطريرك يوحنا الأنطاكى على قيد الحياة كان هناك سلام بين الطرفين. ولكن البطريرك يوحنا تنيح فى عام ٤٤٢م وأعقبه البابا كيرلس فى عام ٤٤٤م.

وبــدأ ثيئودوريت أســقف قورش يحـاول أن ينشـر الفكر النسطورى فــى الشرق وكتب كتابه المعنون Eranistes فى عام ٤٤٧م الذى عنى به تشويه تعليم آباء الإسكندرية وبخاصة القديس كيرلس الكبير والسخرية منه. فأثارت هذه ضده الكثير من المعارضة حتى صدر مرسوم إمبراطورى فى ١٨ ابريل عام ٤٤٨م يحرم نسطور وكتاباته واتباعه. وأمر ثيئودوريت بالبقاء فى كرسيه فى قورش، وكذلك اثار هيباس أسقف إديسا رد فعل عظيماً بسبب رسالته إلى ماريس الفارسى ضد تعاليم القديس كيرلس الكبير.

هرطقة أوطيخا:

كرد فعل للنشاط النسطورى فى الشرق ظهر تعليم متطرف فى الدفاع عن عقيدة الطبيعة الواحدة المتجسدة لكلمة الله التى علّم بها القديس كيرلس الكبير وذلك فى شخص أوطيخا رئيس دير أيوب بالقسطنطينية.

ادّعى أوطيخا، الذى كان صديقاً للبابا كيرلس، أنه تلقى من اللاهوتى السكندرى العظيم نسخةً من قرارات مجمع افسس ٤٣١م، واحتفظ بها منذ ذلك الحين، وكان مؤيداً قوياً لا يكل للجانب السكندرى فى العاصمة. ولأنه كان رئيس دير أيوب فى الربع السابع من المدينة، لذا فقد كان معقوداً له الإشراف على ٣٠٠ راهب لمدة تزيد عن الثلاثين عاماً، ومــن خلال ابنه بالمعمــودية (الذى هو ابن أخيه) كريسـافيــوس Chrysaphius كبير موظفى البلاط الملكى استطاع أوطيخا الوصول إلى البلاط. وبينما كان المناخ الكنسى ملبداً بغيوم الخلاف بين الجانب السكندرى ونظيره الأنطاكى، واجه أوطيخا مقاومة ومعارضة من الأنطاكيين لأنه كان متعصباً جداً للسكندريين، مّما زاد من حدة التوتر.[1]

بدأ أوطيخا يدافع عن عقيدة الطبيعة الواحدة، فسقط فى الهرطقة المعروفة باسمه. والتى تعنى أن الناسوت قد ذاب فى اللاهوت مثلما تذوب نقطة الخل فى المحيط. أى أن الطبيعتين قد امتزجتا معاً فى طبيعة واحدة. ومــن هنا جاءت تسميته مونوفيزيتس μονοφυσιτης لأن عبارة "مونــى فيزيس" μονη φυσις تعنى "طبيعة وحيدة" وليس "طبيعة واحدة" أى "ميا فيزيس" μια φυσις .

مجمع القسطنطينية المكانى ٤٤٨م:

فى هذا المجمع (٨ ـ ٢٢ نوفمبر ٤٤٨م) الذى رأسه فلافيان بطريرك القسطنطينية وحضره ٣٢ أسقفاً، أُدين أوطيخا وعُزل وحُرم بناءً على شكوى من يوسابيوس أسقف دوريليم، ووقع

1- V. C. Samuel, The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977, p. 14 -15.

على الحرم ٣٠ أسقفاً و٢٣ ارشيمندريت. ولأول مرة تم إقرار صيغة "طبيعتين بعد الاتحاد" للسيد المسيح. وحدثت قلاقل كثيرة فى القسطنطينية، وقدّم أوطيخا شكوى، ضد المجمع المكانى، إلى الإمبراطور الذى دعا البابا ديسقوروس ليراس مجمعاً مسكونياً فى أول اغسطس سنة ٤٤٩م فى افسس. وطلب من "جوفينال" أسقف أورشليم، و"تالاسيوس" أسقف قيصرية الكبادوك أن يكونا رئيسين مساعدين معه، وأرسل مرسوماً إمبراطورياً إلى ديسقوروس يطلب منه السماح لبارسوماس (وهو ارشمندريت سورى مؤيد للجانب السكندرى) بالمشاركة فى المجمع.

موقف كنيسة الإسكندرية:

شعر البابا ديسقوروس بخطورة انتشار افكار ثيئودوريت أسقف قورش، وإيباس أسقف إديسا (الرُها) فى الشرق، تلك التى تهاجم عقيدة البابا كيرلس السكندرى. وكذلك انتشار تعاليم ثيئودور الموبسويستى ونسطور فى كثير من المناطق فى الشرق. وعلِم بشكوى أوطيخا بأن إقراره المكتوب بالإيمان لم يقبله مجمع القسطنطينية المكانى ٤٤٨م.[1] وخشى أن يكون أوطيخا قد أدين لتمسكه بتعليم القديس كيرلس الكبير بطبيعة واحدة متجسدة للّه الكلمة. وكان مجمع القسطنطينية المكانى ٤٤٨م قد طلب من أوطيخا أن يحرم كل من لا ينادى بطبيعتين من بعد الاتحاد، فرفض وقال: "أنا لو فعلت ذلك أكون قد حرمت آبائى القديسين (أمثال القديس كيرلس الكبير)".[2] وأمام الاعتراف المكتوب لأوطيخا (المخادع) بأن السيد المسيح مساو لوالدته العذراء مريم فى الجوهر من حيث ناسوته، شعر البابا ديسقوروس أن فلافيان بطريرك القسطنطينية ويوسابيوس أسقف دوريليم قد انضما إلى التيار النسطورى الموجود فى الشرق حينما طُلب من أوطيخا فى مجمع القسطنطينية المكانى ٤٤٨م حرم كل من لا ينادى بطبيعتين من بعد الاتحاد. ولكن الحقيقة كانت أن البابا ديسقوروس يسعى لمحاربة النسطورية برفض تعبير "الطبيعتين بعد الاتحاد" وكان الأسقف يوسابيوس يدفع البطريرك فلافيان لمحاربة الأوطاخية بتأكيد تعبير "طبيعتين من بعد الاتحاد"، ومن هنا جاء سوء الفهم بين الطرفين الذى تطور إلى الشقاق الخلقيدونى فيما بعد. ولكن البحث الدقيق يبرهن على أن البابا ديسقوروس لم يكن اوطاخياً، ولهذا لم يحكم عليه مجمع خلقيدونية لأسباب عقائدية كما ذكر اناتوليوس بطريرك القسطنطينية ورئيس المجمع فى جلسة ٢٢ اكتوبر عام ٤٥١م.[3] كما أن البطريرك فلافيان والأسقف يوسابيوس لم يكونا من النساطرة.

مجمع افسس الثانى:

عقد المجمع الجلسة الأولى فى ٨ أغسطس عام ٤٤٩م، وحضره ١٥٠ أسقفاً برئاسة البابا ديسقوروس وبحضور الأسقف يوليوس ممثل بابا روما، وجوفينال الأورشليمى، ودمنوس الأنطاكى وفلافيان بطريرك القسطنطينية.

وبعد استعراض وقائع مجمع أفسس الأول ٤٣١م، ومجمع القسطنطينية المكانى ٤٤٨م، وقراءة اعتراف مكتوب لأوطيخا بالإيمان الارثوذكسى قدّمه إلى المجمع (وهو مخادع). وبعد

1 - Ibid. p. 19. 20. 24
2 - Ibid. p. 22
3 - Ibid. p. 69

الاستماع إلى آراء الحاضرين: حكم المجمع بإدانة فلافيان بطريرك القسطنطينية ويوسابيوس أسقف دوروليم وعزلهما وبتبرئة أوطيخا وإعادته إلى رتبته الكهنوتية.

كماحكم المجمع بحرم كل من هيباس أسقف إديسا Edesse (الرها) وثيئودوريت أسقف قورش وآخرين وعزلهم.[١]

وحدد المجمع أن ديودور الطرسوسي هو نسطوري،[٢] ولم تُقرأ رسالة البابا ليو الأول إلى المجمع وهى المعروفة بطومس ليو.

مجمع خلقيدونية:

لم يقبل البابا ليو الأول نتائج مجمع أفسس الثانى ٤٤٩م ومنح الحل الكنسى لثيئودوريت أسقف قورش[٣]. وحدث أن الإمبراطور ثيئودوسيوس قد سقط من على ظهر جواده، مما أدى إلى وفاته فى ٢٨ يوليو عام ٤٥٠م وتولت أخته بولكاريا السلطة وتزوجت من القائد مركيان، وأعلنت مركيان إمبراطوراً فى ٢٨ أغسطس من نفس العام.

وفى ١٥ مايو عام ٤٥١م صدرت الأوامر الإمبراطورية بعقد مجمع عام فى نيقية. وبحلول أول سبتمبر وصل الأساقفة إلى نيقية ولكنهم أُمروا بأن يتجهوا إلى خلقيدونية القريبة من القسطنطينية. فاجتمع حوالى ٥٠٠ أسقف فى كنيسة القديسة أوفيمية، وعقدت الجلسة الأولى للمجمع فى ٨ أكتوبر عام ٤٥١م.

فى الجلسة الأولى لهذا المجمع نُوقش البابا ديسقوروس بشأن عقيدة أوطيخا الذى ابرأه مجمع أفسس الثانى فى عام ٤٤٩م: فقال "إذا كان أوطيخا يتمسك بمفاهيم ترفضها عقائد الكنيسة، فهو يستحق لا العقاب فحسب بل حتى النار (أى جهنم). ولكن اهتمامى هو بالإيمان الجامع الرسولى وليس بأى إنسان أياً كان". [٤]

وقال أيضاً فى نفس الجلسة من المجمع الخلقيدونى: "أنا أقبل عبارة "من طبيعتين بعد الاتحاد"[٥] وهو فى تأكيده على الطبيعة الواحدة المتجسدة لله الكلمة أراد أن يثبت عدم التقسيم بين الطبيعتين من بعد الاتحاد، وفى قبوله لعبارة "من طبيعتين بعد الاتحاد" أراد أن يؤكِّد ما أكَّده القديس كيرلس الكبير عن استمرار وجود الطبيعتين فى الاتحاد وعدم امتزاجهما.

أقر المجمع الخلقيدونى رسائل القديس كيرلس الإسكندرى المجمعية وطومس ليو بعد مراجعته على حروم القديس كيرلس الإثنى عشر.[٦]

1 - V. C. Samuel, The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977, p. 29 - 35.
2 - J. N. D. Kelly, Early Christian Doctrines, Chapter XI Fourth Century Christology, A & C Black-london 1977, 5th Revised Edition, p. 302
3 - V. C. Samuel, The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977, p. 14 -15.
4 - Ibid, p. 51
5 - Ibid, p. 55
6 - C. J. Hefele, A History of the Councils of the Church, Vol III, p. 345 AMS Press 1972, re-printed from the edition of 1883 Edinburgh.

وقد حكم المجمع الخلقيدونى بحرم أوطيخا وإدانتة وعزله وبإلغاء أغلب قرارات مجمع أفسس الثانى ٤٤٩م. وبعزل البابا ديسقوروس الإسكندرى، لأسباب إدارية وقانونية، وبإعادة ثيئودوريت أسقف قورش وإيباس أسقف إديسا إلى رتبة الأسقفية بعد أن وافقا على حرم نسطور وتعاليمه. ولكن المجمع لم يحكم على كتابات ثيئودوريت وإيباس ضد تعليم القديس كيرلس الكبير كما لم يحكم على ثيئودور الموبسويستى معلم نسطور ولا على تعاليمه.

وبالرغم من أن رسالة إيباس أسقف إديسا إلى ماريس الفارسى، والتى هاجم فيها مجمع أفسس المسكونى ٤٣١م تعاليم القديس كيرلس الكبير وحرومه الإثنى عشر قد قُرئت فى المجمع إلا أن المجمع لم يحكم بإدانتها[1] مما جعل الفريق الذى رفض قرارات مجمع خلقيدونية يشعر بأن هناك تعاطفاً فى المجمع مع الجانب النسطورى.

وقد أوضح الجانب الخلقيدونى موقفه تجاه هذا الأمر فى المجمع التالى للخلقيدونيين الملقب بالمجمع الخامس والمنعقد فى القسطنطينية فى عام ٥٥٣م؛ حيث حكم هذا المجمع بحرم شخص ثيئودور الموبسويستى معلِّم نسطور وكتاباته، وبحرم كتابات ثيئودوريت أسقف كورش وكذلك إيباس أسقف أديسا ضد تعاليم القديس كيرلس الكبير.

وضع مجمع خلقيدونية تعريفاً للإيمان. وكان أعضاء المجمع فى البداية يرفضون هذا الأمر ولكنهم تحت إلحاح مندوبى الإمبراطور أذعنوا فى النهاية. وكانت المسودة الأولى تنص على أن المسيح هو "من طبيعتين". ولكن مندوبى الإمبراطور ألحوا أن يتضمن النص "فى طبيعتين". وبعد مقاومة كبيرة على أساس أن هذه العبارة متضمنة فى "طومس ليو" الذى قبله المجمع ولا داعى لوضعها فى تعريف المجمع، أخيراً قبلها المجمع تحت إلحاح من مندوبى بابا روما وممثلى الإمبراطور.

لم يكن التعريف الذى قبله المجمع نسطورياً، بل إن المجمع فى قراراته قد أكَّد على حرم كل من النسطورية والأوطاخية. ولكن التعريف لم يتضمن عبارة "الاتحاد الأقنومى" ولا عبارة أنه "لا يمكن التمييز بين الطبيعتين إلا فى الفكر فقط" وهى العبارات الهامة فى تعليم القديس كيرلس الكبير. كما أنه وردت عبارة تحرم "كل من يعتقد بطبيعتين قبل الاتحاد وبطبيعة واحدة من بعد الاتحاد". والمقصود بهذه العبارة هو أوطيخا وعقيدة الامتزاج بين الطبيعتين. ومن المعلوم أن الجانب اللاخلقيدونى يحرم من يقول "بطبيعتين قبل الاتحاد" لأن هذا التعبير يفترض وجود الناسوت قبل اتحاده باللاهوت، وهذا الفريق يقبل "من طبيعتين فى الاتحاد" و"من طبيعتين بعد الاتحاد". أما حرم من يقول "بطبيعة واحدة بعد الاتحاد". فكان يحتاج إلى توضيح أن سبب ذلك هو رفض عقيدة الامتزاج، لأن هذا الحرم من الممكن أن يُفسّر بأنه ضد تعليم القديس كيرلس الكبير "طبيعة واحدة متجسدة لكلمة الله" وهو التعليم الذى ما زال يتمسك به الجانب اللاخلقدونى حتى الآن، مع رفضهم التام لفكرة الامتزاج وتأكيدهم على استمرار وجود الطبيعتين فى الاتحاد.

1 - V. C. Samuel, The Council of Chalcedon Re-Examined, Senate of Serampore College, Madras, India, 1977, p. 84

هذه الأمور هى التى ادت إلى رفض البابا ديسقوروس لمجمع خلقيدونية، ورفض مجموعات عديدة فى الشرق ـ بما فى ذلك الشعب المصرى ـ لهذا المجمع. وقد حاول مجمع القسطنطينية ٥٥٣ أن يعالجها، باستخدام عبارات القديس كيرلس الكبير "الاتحاد الاقنومى" ولا يمكن تمييز الطبيعتين إلا بالفكر فقط" ويشرح معنى رفض من يعتقدون بطبيعة واحدة على أساس الامتزاج. ولكن ظل الخلاف بين الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين حول عبارة "فى طبيعتين" و"من طبيعتين".

فى مجمع خلقيدونية وافق الأساقفة المصريون الأربعة عشر الحاضرون على حرم اوطيخا ولكنهم لم يقبلوا التوقيع على قرارات المجمع ولا على طومس ليو.

وحدثت اضطرابات كبيرة فى الشرق لسبب قرارات مجمع خلقيدونية. ومع تغيير الأباطرة كانت الظروف تتغير.

و فى ١٦ مارس ٤٥٧م انتخب البابا تيموثاوس الثانى (أوريللوس) فى الإسكندرية خليفاً للبابا ديسقوروس بعد وفاته وتمكن فى عهد الإمبراطور "باسيليسكوس" من عقد مجمع عام آخر فى أفسس فى سنة ٤٧٥م (يلقبه البعض بمجمع افسس الثالث) حضره ٥٠٠ أسقف. وفى هذا المجمع تمّ حرم تعاليم أوطيخا وتعاليم نسطور ورفض مجمع خلقيدونية. وقد وقّع على قرار هذا المجمع ٧٠٠ أسقف شرقى.

وفى عهد الإمبراطور زينون حدثت محاولة للوحدة على أساس وثيقة الهينوتيكون Henotikon التى صدرت فى ٢٨ يوليو عام ٤٨٢م، ووقع عليها على التوالى اكاكيوس بطريرك القسطنطينية وبطرس منغوس بطريرك الإسكندرية وبطرس القصار بطريرك أنطاكية فى عام ٤٨٤م ومارتيريوس بطريرك أورشليم. ولم تشترك روما فى هذه الوحدة بل عقد بابا روما فيلكس الثالث مجمعاً قاطعه اكاكيوس بطريرك القسطنطينية. وفى مصر حدثت مقاومة شديدة وتكونت جماعه "الذيـن بلا رئيس" Acephlists ولم يتمكن مرسوم الاتحاد Henotikon من إبقاء الوحدة التى بدأت بقبوله والتوقيع عليه من قبل بطاركة الكراسى الشرقية الأربعة. [1]

نص مرسوم الاتحاد الهينوتيكون:[2]

من الإمبراطور القيصر زينون التقى الظافر والغالب العظيم السيفستوس (الجليل) الأغسطس المحترم إلى أهل الإسكندرية وليبيا والخمس مدن. الأساقفة والشعب.

إننا نعلم أن رئاسة مملكتنا وثباتها (دوام بقائها) وقوتها وأسلحتها التى لا يمكن مقاومتها كائنة بواسطة الإيمان الأرثوذكسى الحقيقى وحده الذى قرره الآباء القديسون الثلاثمائة والثمانية عشر الذين اجتمعوا فى مدينة نيقية بقوة الروح القدس، وثبتها (وأيدها) الآباء القديسون المائة والخمسون الذين اجتمعوا فى القسطنطينية.

---

1 - Ibid. p. 22

٢ ـ د. رشدى واصف بهمان دوس: تاريخ الكنيسة القبطية فيما بعد خلقيدونية . ام إلى الفتح العربى لمصر ٦٤٢م صفحة ٢٢ ، ٢٤.

ونحن نأمر بالتمسك بهذا الإيمان بثبات (بيقين) فى الليل والنهار فى كل صلاة وكل اجتهاد وكل قانون، فى كل مكان فى الكنيسة الجامعة الرسولية، لتنمو فى الإيمان الأرثوذكسى غير الفاسد وغير المائت الذى لملكتنا، لتكون الشعوب التقية فى سلام ووحدة ويقدمون صلوات مقبولة لله من أجل مملكتنا.

لأن سيدنا المسيح إلهنا الذى تجسد من القديسة العذراء مريم والدة الإله يقبل إليه خدمتكم وتمجيدكم له وهو يفتخر بهذا. أما الفئات المقاومة والمحاربة فسوف يسحقها الله، وسيمنح الله للبشر السلامة والصالحات والعافية والثمار الصالحة وكل ما هو نافع.

والآن قد قَدِم لنا محبو الإله أرشمندريتيون (رؤساء المتوحدين) وشيوخ البرية وأناس آخرون أتقياء يسألوننا (يتوسلون إلينا) بدموع أن نصنع صلحاً (اتحاداً) للكنائس المقدسة وأن نجمع الأعضاء (المشتتة) إلى شركة العضوية تلك التى مزقها عدو الخير منذ زمن بعيد. لأجل هذا أسرعنا أن نسمع (ذلك) ونُكمّل هذا العمل الصالح نفسه.

والآن نخبركم أن أى بحث آخر أو تحديد إيمان آخر خارج الإيمان الذى قرره الآباء الثلاثمائة والثمانية عشر لا نقبله أبداً، ولكن إذا كان أحد أخذ إيماناً خارجاً عن الذى سبق وأخبرنا عنه هذا (نجعله) غريباً عنا لأن إيمان الآباء الثلاثمائة والثمانية عشر كما سبق أن قلنا نحن نعرفه وقد ثبّته الآباء القديسون المائة والخمسون فى القسطنطينية وتبعه آباؤنا القديسون الذين اجتمعوا فى أفسس مع القديس كيرلس وحرموا المنافق نسطور، وقبلوا الإثنى عشر فصلاً التى للطوباوى كيرلس.

ونحن أيضاً نحرم نسطور وأوطاخى الخيالى وكل أحد يرتئى (يفكر) إيماناً آخر مخالفاً للإيمان الذى سبق وأخبرنا عنه الذى للآباء القديسين الثلاثمائة وثمانية عشر.

ونعترف بأن ابن الله الوحيد الجنس إلهنا وربنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى تأنس بالحقيقة المساوى لله حسب اللاهوت هو مساوٍ لنا أيضاً حسب الناسوت. ذاك الذى تنازل (نزل) وتجسد من الروح القدس ومن القديسة العذراء مريم.

نعترف به ابناً واحداً وليس اثنين، والآلام والمعجزات نعتقد أنها تخص واحداً أعنى بالواحد ابن الله.

أما أولئك الذين يجعلونه منقسماً إلى اثنين أو يظنونه خيالاً فلا نقبلهم على الإطلاق لأن الميلاد من العذراء لم يضف ابناً آخر، لأنه ظل الثالوث ثالوثاً بعدما صار كلمة الله الواحد من الثالوث جسداً. ونحن نخبركم أيضاً أيها الأحباء أنه لا نحن ولا الكنائس كلها ولا أساقفة الكنائس الأرثوذكسيون نقبل إيماناً آخر ولا تحديداً آخر (قانوناً آخر) ولا بحثاً آخر خارجاً عن إيمان الآباء القديسين الثلاثمائة والثمانية عشر لأن هذا هو الإيمان فقط الذى به وحده تتم المعمودية.

فلنتحد أيضاً بعضنا مع بعض غير خائفين من أحد ولا منقسمين.

وكل من آمن أو فكر (ارتأى) حالاً آخر (ينبوعاً آخر) سواء اليوم او قبل هذا فى المجمع الخلقيدونى أو فى اجتماع آخر خارجاً عن الإيمان الذى سبق وقلنا عنه الذى للآباء الثلاثمائة والثمانية عشر هذا نحرمه ونجعله غريباً عن الكنيسة الجامعة ولا سيَّما نسطور الذى اعترف بطبيعتين والذين يعتقدون مثله وأوطاخى الخيالى. نحن نحرمهم.

فاصطلحوا إذن مع الأم الروحية الكنيسة الجامعة كأبناء متطلعين إلى الأمام. وهى تروم أن تحتضنكم ببركة عظيمة. لكى يفرح الله بنا جميعاً ويفرح بكم كافة الملائكة.

الرؤية المعاصرة للموقف :

كان الجانب اللاخلقدونى يرغب فى نبذ النسطورية بتأكيد عقيدة الطبيعة الواحدة المتجسدة لله الكلمة من طبيعتين بغير امتزاج ولا اختلاط ولا تغيير لأن تعبير الطبيعة الواحدة هو أصدق تعبير عن "الاتحاد الطبيعى" الذى علَّم به القديس كيرلس فى رسالته الثالثة إلى نسطور والتى قبلها كلٌ من مجمع أفسس ومجمع خلقيدونية.

كما كان الجانب الخلقيدونى يرغب فى نبذ الأوطاخية بتأكيد عقيدة الطبيعتين غير المنفصلتين أو المتجزئتين لتأكيد استمرار وجود الطبيعتين وعدم تلاشيهما فى الاتحاد.

ربما يكون كل جانب مكمِّلاً للجانب الآخر فى تعبيرهما عن الحقيقة الواحدة، فالذين قالوا بالطبيعة الواحدة المتجسدة من طبيعتين أضافوا بغير امتزاج ولا تغيير لنفى الأوطاخية. والذين قالوا بالطبيعتين أضافوا بغير انفصال ولا تقسيم لنفى النسطورية. وقد تكلم الجانبان عن حقيقة واحدة هى أن السيد المسيح كائن واحد إلهى ـ إنسانى أى تكلموا عن كينونة واحدة من جوهرين قد اتحدا فى المسيح الواحد.

فالذين عبّروا بالطبيعة الواحدة المتجسدة قصدوا التعبير عن حالة الكينونة أنها واحدة. والذين عبّروا بالطبيعتين قصدوا التعبير عن حقيقة استمرار الكينونة للطبيعتين.

وبتعبير آخر البعض تكلموا عن حالة الوجود والبعض الآخر تكلموا عن حقيقة الوجود، ولأنهم استخدموا نفس التعبير وهو "الطبيعة" فقد اختلفوا معاً.

فالذين قصدوا "حالة الوجود" قالوا "طبيعة واحدة" والذين قصدوا "حقيقة الوجود" قالوا "طبيعتين" والدليل على ذلك أن الطرفين قد قبلا معاً أن الطبيعتين لا يمكن التمييز بينهما إلا فى الفكر فقط. وهذا معناه أنه لا يمكن التمييز بينهما فى الواقع بل فى الخيال والتأمل. ولا يعنى ذلك إلغاء حقيقة وجودهما، بل إلغاء حالة وجودهما فى غير اتحاد ... والوحدة هى أصدق تعبير عن "الاتحاد الطبيعى" ενωσις φυσικη

على هذا الأساس تم الاتفاق بين الجانب الخلقيدونى والجانب اللاخلقيدونى فى الحوار الأرثوذكسى فى دير الأنبا بيشوى بمصر (يونية ١٩٨٩). فقد اتفق الجانبان على أن كلمة الله هو هو نفسه قد صار إنساناً كاملاً بالتجسد مساوياً للآب فى الجوهر من حيث لاهوته، ومساوياً لنا فى الجوهر من حيث ناسوته ـ بلا خطية. وأن الاتحاد بين الطبائع فى المسيح هو

اتحاد طبيعى اقنومى حقيقى تام بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ولا انفصال. وانه لا يمكن التمييز بين الطبائع إلا فى الفكر فقط. وان العذراء هى "والدة الإله" θεοτοκος مع حـرم كل من تعاليم نسطور وأوطاخى وكذلك النسطورية الخفية التى لثيئودوريت أسقف قورش. لعل هذا الاتفاق يكون هو أساساً للوحدة بين الفريقين.

الباب الثالث

الأقباط من مجمع خلقيدونية حتى الفتح العربى (٤٥١ - ٦٤٢م)

دياكون د. رشدى واصف بهمان دوس

الاقباط من مجمع خلقيدونية إلى الفتح العربى

دياكون د. رشدى واصف بهمان

من أخطر الفترات التى مرت بها الكنيسة القبطية فترة ما بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م حتى دخول العرب مصر سنة ٦٤٢م. ففى هذه الفترة تفجر الصراع داخل الكنيسة الجامعة وكانت النتيجة المباشرة لقرارات مجمع خلقيدونية هى الانقسام الأول لكنيسة المسيح، فقد وصفت الكنائس الغربية الكنائس الشرقية بأنها مونوفيزيتية Monophysite (تؤمن بطبيعة واحدة فى المسيح) بينما وصفت الكنائس الشرقية الكنائس الغربية بأنها ديوفيزيتى Diophysite (تؤمن بطبيعتين فى المسيح). وهكذا بعد الانشقاق الذى حدث فى سنة ٤٥١م حيث رفضنا نحن الاقباط مجمع خلقيدونية وتحدياته اللاهوتية عُرفنا بأصحاب الطبيعة الواحدة. وتشترك معنا فى هذا الإيمان الكنائس الإثيوبية والسريانية والأرمنية والهندية وهى الكنائس الأرثوذكسية غير الخلقيدونية.[١]

على انه يجب أن ننظر لهذا الامر - بالإضافة إلى كونه موضوعاً إيمانياً - على أنه تعبير خارجى عن نموّ الاتجاهات القومية فى مصر ضد الإمبريالية البيزنطية المتزايدة التى بلغت اقصى مدى فى حكم جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م). لقد حاولت السلطة الحاكمة فى القسطنطينية فرض تعليم مجمع خلقيدونية بالقوة على الكنائس الشرقية، ولكن هذه الكنائس وفى مقدمتها كنيسة الإسكندرية التى لم تلن لها قناة فضلّت أن يتجدد عصر الاستشهاد على أن تفرط فى الأمانة أو تعّوجها[٢].. وتمسكت بالتعبير الذى استخدمه القديس كيرلس الأول (عمود الدين) والقديس اثناسيوس الرسولى من قبله، طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد [٣] ورفض القديس البابا ديسقوروس (ال٢٥) التعليم الخلقيدونى فكان جزاؤه النفى من قِبل مركيان إلى جزيرة بفلاجونيا[٤] حتى تنيح فى منفاه.

إن ما حدث فى مجمع خلقيدونية من محاولة إذلال كنيسة الإسكندرية على المستوى المسكونى بحرم بطريركها البابا ديسقورس ونفيه لم يكن هو خاتمة المطاف فى ذلك الصراع، بل كان هو البداية.

عزل البابا ديسقورس وتجدد عصر الاستشهاد:

وصل رسول إمبراطورى إلى الإسكندرية يحمل قراراً بعزل البابا ديسقورس وتعيين القس الإسكندرى بروتيريوس Proterius بدلاً منه (٤٥٢ - ٤٥٧م).[٥]

وإلى جانب هذا القرار كان رسول الملك مركيان، يحمل معه رسالة إمبراطورية.. ثانية يهدد

---

١ - قداسة البابا شنودة الثالث: مذكرات فى علم اللاهوت المقارن الجزء الثالث ص٢ طبعة ديسمبر سنة ١٩٨٤م.

٢ - الانبا يؤانس: مذكرات فى تاريخ الكنيسة (بعد مجمع خلقيدونية) ص٢.

Migne, P.G., VOL. 76 & 77

٣ - قداسة البابا شنوده الثالث: مذكرات فى علم اللاهوت المقارن - الجزء الثالث - طبعة ديسمبر ١٩٩٨ ص ١

٤ - الانبا يؤانس - مذكرات فى تاريخ الكنيسة القبطية (ما بعد خلقيدونية حتى الفتح العربى ص ٢)

٥ - تاريخ المجامع لابن المقفع نسخة باريس ص ٦١ انظر مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة لابن كبر باب ٢: ١٥٨ من طبعة باريس.

فيها كاتبها كل من يجرؤ على العصيان - أياً كان - بأشد العقوبات؛ جاء فيها:

[أما المخالفون الساكنون في هذه المدينة في الإسكندرية وفي اقاليم مصر فإن لم يرجعوا عن كفرهم ويؤمنوا بما آمن به الآباء القديسون السالفون وإذا لم يشتركوا مع المكرم بروتيريوس أسقف الإسكندرية المعترف بالإيمان الأرثوذكسي فإننا نأمر بأن يعودوا تحت عذاب الملوك السالفين المنادي ضد حزب ابوليناريوس، ثم نأمر بأن لا يستطيعوا ان يكتبوا وصية في آخر حياتهم ولا يرثوا ميراث غيرهم، ولايقبلوا هدية معطاة لهم ولا يهبوا لأحد شيئاً من أملاكهم. ثم نامر ايضاً بأن لا يُرسم (يُشرطن) لهم أساقفة ولا قسوس ولا شمامسة، ثم نأمر بأن لا يُعمَّر لهم كنائس ولا أديرة ولا يجادلوا في بدعتهم البتة، ثم نأمر ايضاً بأن لا يُجند احد من المخالفين في بعض جماعات الأجناد، ومن خالف أمرنا في المستقبل يعود تحت العذابات المذكورة ...إلخ].

وهكذا انقلبت المعايير، فالمؤمنون الحقيقيون المصريون الأرثوذكس صار يتهمهم الحاكم بالكفر والهرطقة. لا لشيء، سوى لأنهم يحافظون على إيمان آبائهم القديسين ولم ينحازوا إلى عقيدة الملك. أما بروتيريوس الدخيل الذي سار على هوى الملك وعقيدته فقد صار مكرماً. وهكذا بمساعدة السلطة الحاكمة تمكَّن هذا الدخيل من دخول الإسكندرية[١] وكانت تصحب بروتيريوس شرذمة من الجند مكلفَّة بمعاقبة مخالفي الأوامر الإمبراطورية. على أن هذه القرارات أدت إلى عكس ما كان يرجوه الامبراطور مركيان منها، فإن المصريين بدلاً من أن يتراجعوا أمام تهديد هذا الحاكم الغاشم، وأمام تجليس دخيل، قد قابلوا الوعيد والتهديد بأن أضرموا نار الثورة في الإسكندرية. وعلى أثر ذلك اندلعت نار الاضطهاد وتجدد عصر الاستشهاد ثانية - ولكن للأسف على يد مسيحيين.[٢]

والذين سقطوا قتلى في هذا الاستشهاد يُعدون بالآلاف معظمهم من الأساقفة والكهنة والرهبان (قيل إنهم٢٤ ألفاً من المصريين)[٣] ومن بين مَن استشهدوا الأنبا مقاريوس أسقف إدكو بالصعيد (الذي صحب البابا ديسقورس إلى خلقيدونية). كان في الإسكندرية وحاول والي الإسكندرية أن يرغمه على أن يوقع على قرارات مجمع خلقيدونية، لكنه رفض. فما كان من أحد الجنود إلاَّ أن ركله في بطنه بقوة فسقط على الأرض ميتا نظراً لشيخوخته[٤] .. أما بقية الأساقفة الذين رفضوا التوقيع فقد نالهم النفي والتشريد.

وكان من أثر قتل الأنبا مقاريوس وتشريد الأساقفة أن ثار الشعب الإسكندري وأصرَّ على الحيلولة دون اعتلاء بروتيريوس الكرسي المرقسي وسدوا في وجهه كل طريق يوصله إلى الكنيسة المرقسية، وقد تم لهم ما أرادوا إذ عجز الدخيل عن الوصول إلى الكنيسة التي هي مركز الرياسة الروحية.

١ - ورد نص هذه الرسالة في كتاب "مضمون المجمع الخلقيدوني" نقله إلى العربية من الأصل اللاتيني الراهب فرنسيس ماريا - طبع في رومية سنة ١٦٩٤م، ص ٢١٧، ٢١٨.

٢ - إيريس حبيب المصري: قصة الكنيسة القبطية ج ٢ ص ٨٤.

٣ - مارساويروس يعقوب توما: تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ج ٢ ص ١٩٧.

٤ - E. Amelineau Monuments, II. Panegyrique de Macaire de Tkoou par Dioscore D'Alexandrie. P. 157.

وكانت النتيجة الحتمية لهذا التصرف أن أُذيقَ المصريون صنوف العذاب ولاقوا أشدّ العقاب. لأن الوالي، بالاتفاق مع الأسقف الدخيل، أمر بإغلاق جميع الكنائس ما عدا النزر اليسير منها الذي اغتصبه الإمبراطور وسلمه إلى أنصاره.

ثم جدّ بروتيريوس في سلب الكنائس التي مكّنه الجند من الاستيلاء عليها عنوةً بحكم إمبراطور القسطنطينية إذ أحسّ في أعماق نفسه بأنهالابد عائدة إلى اصحابها يوماً ما. فرأى أن ينتهز الفرصة ويسلب كل ما فيها حتى إذا عادت إلى أصحابها وجدوها قاعاً صفصفاً. فكان بروتيريوس كاللص الذي يتسلق الجدران لا راعي الحظيرة الذي يشفق على الرعية.[1]

رسامة البابا تيموثاوس خلفاً للبابا ديسقورس:

توفي مركيان في فبراير سنة ٤٥٧م وخلفه لاون الأول (٤٥٧ ـ ٤٧٤م) فانتهزها الإسكندريون فرصة لرسامة بطريريرك خلفاً للبابا ديسقورس الذي تنيح في منفاه في ٤ سبتمبر سنة ٤٥٤م وهكذا رُسم البابا تيموثاوس البطريرك (الـ٢٦) في ١٦ مارس سنة ٤٥٧م.

ويعرف في المراجع باسم تيموثاوس ايلوروس Aelurus. وتبع ذلك أن انشقت أسقفية الإسكندرية بين سلسلتين من البطاركة:

+ **الأولى سلسلة:** الملكانيين Melkites وكانوا من الروم (الإغريق) ويتم رسامتهم في القسطنطينية غالباً ويخضعون لمجمع خلقيدونية.

+ **والسلسلة الأخرى:** الأرثوذكسيون (Monophysite) وكانوا وطنيين اقباطاً تمسكوا بقوميتهم ورفضوا زعامة الروم والخلقيدونيين وسيطرتهم.[2]

وقد رأى البابا تيموثاوس الثاني أن واجبه الرعوي يحتم عليه تفقد رعيته في هذا الوقت العصيب. فغادر الإسكندرية وأخذ يتنقل بين مختلف البلاد المصرية.. وبينما كان البابا تيموثاوس يقوم برحلته الرعوية، وصل إلى الإسكندرية الكونت ديونيسيوس أمير الجيش، حاملاً الأوامر المشددة بإخضاع المصريين لبروتيريوس بكل ما أوتي من قوة. وقد نفذ هذا الكونت اوامر إمبراطوره إلى حد اقترف معه من الفظائع ما لطخ جبين ذلك القرن الخامس، وذكّر المصريين بما قاساه اباؤهم على ايدي الاباطرة الوثنيين. ولما رجع البابا تيموثاوس من رحلته وجد أن ديونسيوس قد اغلق في وجهه جميع ابواب الإسكندرية العظمى ليمنعه من دخول عاصمته، فاضطرم غضب المصريين ولم يعودوا يطيقون تدخل الروم في شئونهم الدينية تدخلاً ظالماً غشوما، وقرروا أن يضعوا حداً لكل هذه المهازل.[3]

فاستغل شعب الإسكندرية فرصة انشغال حاكمها بمحاربة الوندال بشمالي إفريقيا وقبائل البلميس Belmyes في صعيد مصر وانقضّوا على بروتيريوس، الأمر الذي انتهى إلى قتله وسحله في شوارع الإسكندرية، واحرقوا جثته وذروا رمادها في الهواء، إمعاناً في التشفي

---

١. إيريس حبيب المصري: قصة الكنيسة القبطية ج ٢ ص ٨٦ ـ ٨٧.

١ ـ الانبا يؤانس: مذكرات في تاريخ الكنيسة القبطية ما بعد خلقيدونية حتى الفتح العربي ص ٣

٢ ـ إيريس حبيب المصري: قصة الكنيسة القبطية ج٢ ص ٩٠ ـ ٩١.

والانتقام، وكان ذلك فى ٢٨ مارس سنة ٤٥٧م [١] وانتهى الأمر بصدور قرار الملك لاون بنفى البابا تيموثاوس الثانى إلى جزيرة غنغرة فى بفلاجونيا Gangra in paphlagonia حيث نُفى البابا ديسقورس ثم نقلوه إلى منفى اخر [٢] ولكن باسيليسكوس أعاده من المنفى عندما خلع لاون وتولّى الملك مكانه، ولما عاد من النفى عقد مجمعاً فى القسطنطينية بموافقة باسيليسكوس حضره ماربطرس الثانى الأنطاكى (المعروف ببطرس القصار) وحرموا المجمع الخلقيدونى ولاون الرومانى وطومس لاون.

ثم أصدر الملكان باسيليسكوس ومرقس مرسوماً وضع صيغته الأخيرة الراهب الفيلسوف أحد الرهبان الإسكندريين. وكان موجهاً إلى تيموثاوس البهى ومحب الله رئيس أساقفة الإسكندرية المدينة العظمى وفيه أعلنا وجوب الاتحاد والتمسك بالإيمان النيقاوى وحده الذى يمحق جميع الهرطقات والذى أيَّده الملكان المغبوطان قسطنطين الكبير وثيودوسيوس وثبتته مجامع مسكونية أى المجمع القسطنطينى الملتئم ضد محاربى الروح القدس ومجمعا افسس (الأول فى سنة ٤٣١م والثانى فى سنة ٤٤٩م) برأى رؤساء الكهنة فلسطين الرومانى وكيرلس وديوسقورس الإسكندريين، ضد المبتدع نسطور والذين نسجوا على منواله أى طومس لاون ومجمع خلقيدونية، مشوهين نظام الكنيسة، ومشوشين سلام العالَم، وممزقين الوحدة. وأمر الملكان بإحراق أوراق هذا التعليم حيثما وجدت.[٣]

فوقَّع على هذا المرسوم الآباء تيموثاوس الإسكندرى وبطرس الأنطاكى وبولس الأفسسى وأساقفة أسيا الصغرى والشرق، وانسطاسيوس الأورشليمى (الذى خلف يوبيناليوس) وأساقفة ولايته وغيرهم وكانوا نحواً من سبعمائة أسقف، حارمين طومس لاون ومجمع خلقيدونية.

أما أكاكيوس القسطنطينى فتردد فى توقيعه حين طلب إليه ذلك القديس تيموثاوس الإسكندرى.[٤]

ثم ذهب البابا تيموثاوس الإسكندرى إلى افسس حيث عُقد مجمع من ستمائة أسقف وحرموا مجمع خلقيدونية وطومس لاون وأكاكيوس القسطنطينى وأتباعه قائلين إن طومس لاون قسَّم العالم إلى اثنين وبسببه حُرمت روما من ملك واعترفوا بشرعية ماربولس أسقف أفسس الذى كان قد نُفى لرفضه مجمع خلقيدونية وأعادوا إلى كرسيه حقوقه المهضومة التى انتزعها منه مجمع خلقيدونية وخلعها تزلفاً للكرسى القسطنطينى، بل ومنحوا ماربولس شرف البطريركية.

ثم بعثوا برسالة شكر إلى الملك باسيليسكوس لاهتمامه بالإيمان الحق.[٥]

---

١ - اسهب سانت الفنسو دى ليجورى فى وصف هذه الحادثة فى كتاب (تاريخ الهرطقات) المطبوع بالعربية فى دير سيدة طاميش فى مقاطعة كسروان سنة ١٨٦٤ ص ٢٦٧.

٢ - الأنبا يؤانس. مذكرات فى تاريخ الكنيسة القبطية ما بعد خلقيدونية حتى الفتح العربى ص ٣

٣ - تاريخ زكريا الفصيح مجلد ١ ص ٢١١ - ٢١٣، نقلاً عن كتاب تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية ج ٣ ص ٢٣١.

٤ - المرجع السابق ص ٢٣٢.

٥ - تاريخ مارميخائيل الكبير ص ٢٥٠، ٢٥١ نقلاً عن تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية ج ٢ ص ٢٣٠.

عودة البابا تيموثاوس إلى الإسكندرية ومعه رفات القديس ديسقورس:

بعد ذلك عاد البابا تيموثاوس من أفسس إلى الإسكندرية حيث استقبله المؤمنون والكهنة والرهبان بحفاوة كبرى، بالمصابيح والتسابيح وهم يهتفون مبارك الآتى باسم الرب، وأدخلوه الكنيسة الكبرى التى كان قد غادرها تيموثاوس (سالوفاكيولس).

وفى هذه السنة عينها ردّ باسيليسكوس ماريطرس الثانى الأنطاكى أيضاً وماريولس أسقف أفسس وغيرهما. وبأمره نقل البابا تيموثاوس إلى الاسكندرية رُفات القديس ديسقورس الإسكندرى وأخيه أناطول فى صندوق فضى باحتفال مهيب، وجنزه كمعترف ووضعه فى مدفن البطاركة.[1]

عصر الملك زينون:

تهيأ زينون Zenon إمبراطور روما للقتال فهيّج إقليم إيسوريا وأعدّ جيشاً وزحف به على القسطنطينية.. وانتهى الأمر بأن أرسل زينون باسيليسكوس وأولاده إلى ولاية كبَّادوكية وتركهم هناك بلا مأوى ولا ماء يموتون بلا شفقة ودفنوهم فى نفس المكان.

ثم أصدر زينون مرسوماً بإلغاء كل ما عمله باسيليسكوس وذلك فى سنة ٤٧٦م كما نفى الأب ماريولس الأفسسى وماريطرس الأنطاكى ظناً منه أنه كان متواطئاً مع باسيليسكوس ضده. وأرسل يتهدد القديس تيموثاوس الإسكندرى. إذ يذكر يوحنا النقيوسى ذلك قائلاً: "وبعد ذلك أرسل الإمبراطور زينون ضابطاً يدعى قسطور إلى مدينة الإسكندرية لكى يحضر له البطريرك تيموثاوس رجل الله.. وعندما مثل امامه قال له إن الإمبراطور يدعوك إليه فأجابه البطريرك إن الإمبراطور لن يرانى. وفى الحال مرض البطريرك ومات كما قال."[2]

رسامة البابا بطرس الثالث:

وبعد نياحة البابا تيموثاوس الثانى أقام الأقباط البابا بطرس الثالث (المعروف ببطرس منغوس الـ٢٧) الذى عقد مجمعاً فور رسامته وقرر حرم مجمع خلقيدونية ولاون الرومانى وطومسن. فأرسل إليه الملك زينون يتوعده فأخذ يتخفى فى بيوت المؤمنين بالإسكندرية. وفى نفس الوقت أعاد الملك البطريرك الخلقيدونى تيموثاوس سالوفاكيولس لكنه توفى سنة ٤٨٢م فتوسل الأقباط لدى الإمبراطور زينون أن يجعل بطريركهم بطرس منغوس هو البطريرك الوحيد، لكن الإمبراطور رفض طلبهم وأقيم بطريرك ملكانى هو يوحنا طلايا Talaia الذى كان يحوز على مساندة روما، لكنه لم يكن على علاقة ودّ مع دوائر القصر والكنيسة فى القسطنطينية وانتهى أمر هذا الدخيل بالهرب إلى روما.

---

١ ـ تاريخ زكريا الفصيح مج ١ ص ٢٥١ ـ ٢١٧ نقلا عن تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ج ٢ ص ٢٣٠.
M. H. Zotenberg: Chronique de Jean Eveque de NIKIOU. P 478 - 480.

٢ ـ Idp. P. 481.

مصالحة بين البابا القبطى بطرس الثالث
وأكاكيوس رئيس أساقفة القسطنطينية:

فى هذا الوقت بدأ التقارب بين اكاكيوس بطريرك القسطنطينية (٤٧١ ـ ٤٨٩م) والبابا بطرس الثالث (منغوس) البطريرك الإسكندرى. فقد جرت بينهما مكاتبات بدأت بأن كتب اكاكيوس بطريرك القسطنطينية رسالة أرسلها إلى البابا بطرس الثالث بطريرك الإسكندرية على يد الشماس بوليانوس (شماس البابا بطرس) يسأله فيها أن يعيد قبوله فى الشركة معه بعد أن كان أكاكيوس قد رفض قرارات مجمع خلقيدونية وطومس لاون الملوءة تجديفاً وعقيدة نسطور الكافر.

فكتب إليه البابا بطرس الثالث رسالة يتحقق فيها من صحة قوله، فلما وصلت هذه الرسالة الى اكاكيوس قبلها بفرح ومسرة وأظهرها لكل من يعتقد بالإيمان الأرثوذكسى. ثم كتب أكاكيوس رسالة عقائدية معروفة بالسنوديقا وأرسلها إلى البابا بطرس المغبوط[١]. ثم بعد ذلك توالت بينهما الرسائل التى افضت إلى الصلح والسلام بين الكنيستين. وعدد هذه الرسائل والمكاتبات أربع عشرة منها ثمانى رسائل من الأنبا بطرس وست من اكاكيوس.

الملك زينون يصدر مرسوم الاتحاد:

هذا التقارب بين القسطنطينية والإسكندرية حدث فى الوقت الذى أخذ فيه زينون يفقد الأمل فى كسب الاقباط الأرثوذكس فى الإسكندرية عن طريق العنف وبات واضحاً أنه لابد من التفكير فى إيجاد حل لإعادة السلام للكنيسة الذى يؤثر بدوره على سلام الإمبراطورية ووحدتها.

فى سنة ٤٨٢م تمكن أكاكيوس من إقناع الإمبراطور زينون بالموافقة على المحاولة الجديدة لحل المشكلة وهى ما عرف بالهينوتيكون Henoticon (مرسوم الاتحاد). وفى هذا الوقت جاء من مصر بعض شيوخ البرية والمحبون للعمل والخدمة إلى القسطنطينية إلى الملك زينون الذى أصدر مرسوم الاتحاد والمصالحة بين الكنائس.

نص مرسوم الاتحاد Henoticon:

من الإمبراطور القيصر زينون التقى الظافر والغالب العظيم السيفستوس (الجليل) الأغسطس المحترم إلى أهل الإسكندرية وليبيا والخمس مدن. الأساقفة والشعب.

إننا نعلم أن رئاسة مملكتنا وثباتها (دوام بقائها) وقوتها وأسلحتها التى لا يمكن مقاومتها كائنة بواسطة الإيمان الأرثوذكسى الحقيقى وحده الذى قرره الآباء القديسون الثلاثمائة والثمانيةعشر الذين اجتمعوا فى مدينة نيقية بقوة الروح القدس، وثبتها (وأيدها) الآباء القديسون المائة والخمسون الذين اجتمعوا فى القسطنطينية.

ونحن نأمر بالتمسك بهذا الإيمان بثبات (بيقين) فى الليل والنهار فى كل صلاة وكل اجتهاد وكل قانون، فى كل مكان فى الكنيسة الجامعة الرسولية. لتنمو فى الإيمان الأرثوذكسى غير الفاسد وغير المائت الذى لمملكتنا، لتكون الشعوب التقية فى سلام ووحدة وتقدم صلوات مقبولة

---

٢ ـ تاريخ البطاركة ـ طبعة B. EVETTS ـ سيرة البابا بطرس الثالث ص ١٨٢.

له من أجل مملكتنا.

لأن سيدنا المسيح إلهنا الذى تجسد من القديسة العذراء مريم والدة الإله يقبل إليه خدمتكم وتمجيدكم له وهو يفتخر بهذا. أما الفئات المقاومة والمحاربة فسوف يسحقها الله، وسيمنح الله للبشر السلامة والصالحات والعافية والثمار الصالحة وكل ما هو نافع.

والآن قَدّم لنا محبو الإله ارشمندريتيون (رؤساء المتوحدين) وشيوخ البرية وأناس آخرون أتقياء يسألوننا (يتوسلون إلينا)بدموع أن نصنع صلحاً(اتحاداً) للكنائس المقدسة وأن نجمع الأعضاء (المشتتة) إلى شركة العضوية تلك التى مزّقها عدو الخير منذ زمن بعيد. لأجل هذا أسرعنا أن نسمع (ذلك) ونكمّل هذا العمل الصالح نفسه.

والآن نخبركم أن أى بحث آخر أو تحديد إيمان آخر خارج الإيمان الذى قرره الآباء الثلاثمائة والثمانية عشر لا نقبله أبداً، ولكن إذا كان أحد أخذ إيماناً خارجاً عن الذى سبق وأخبرنا عنه هذا (نجعله) غريباً عنا لأن إيمان الآباء الثلاثمائة والثمانية عشر كما سبق أن قلنا نحن نعرفه وقد ثبته الآباء القديسون المائة والخمسون فى القسطنطينية وتبعه آباؤنا القديسون الذين اجتمعوا فى أفسس مع القديس كيرلس وحرموا المنافق نسطور. وقبلوا الإثنى عشر فصلاً التى للطوباوى كيرلس.

ونحن أيضاً نحرم نسطور وأوطاخى الخيالى وكل أحد يرتئى (يفكر) إيماناً آخر مخالفاً للإيمان الذى سبق وأخبرنا عنه الذى للآباء القديسين الثلاثمائة وثمانية عشر.

ونعترف بأن ابن الله الوحيد الجنس إلهنا وربنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى تأنس بالحقيقة المساوى له حسب اللاهوت هو مساوٍ لنا أيضاً حسب الناسوت. ذاك الذى تنازل (نزل) وتجسد من الروح القدس ومن القديسة العذراء مريم.

نعترف به ابناً واحداً وليس اثنين. والآلام والمعجزات نعتقد أنها تخص واحداً، أعنى بالواحد ابن الله.

أما أولئك الذين يجعلونه منقسماً إلى اثنين أو يظنونه خيالاً أو امتزاجاً (اقساماً) فلا نقبلهم على الإطلاق لأن الميلاد من العذراء، لم يضف إليه ابناً آخر لأنه ظل الثالوث ثالوثاً بعدما صار كلمة الله الواحد من الثالوث جسداً، ونحن نخبركم أيضاً أيها الأحباء أنه لا نحن ولا الكنائس كلها ولا أساقفة الكنائس الأرثوذكسيون نقبل إيماناً آخر ولا تحدياً آخر (قانوناً آخر) ولا بحثاً آخر خارجاً عن إيمان الآباء القديسين الثلاثمائة والثمانية عشر لأن هذا هو الإيمان فقط الذى به وحده تتم المعمودية.

فلنتحد أيضاً بعضنا مع بعض غير خائفين من أحد ولا منقسمين.

وكل من آمن أو فكر (ارتأى) حالاً آخر (بنوع آخر) سواء اليوم أو قبل فى المجمع الخلقيدونى أو فى أى إجماع آخر خارجاً عن الإيمان الذى سبق وقلنا عنه الذى للآباء الثلاثمائة والثمانية عشر هذا نحرمه ونجعله غريباً عن الكنيسة الجامعة ولا سيما نسطور الذى

اعترف بطبيعتين والذين يعتقدون مثله وأوطاخي الخيالي. نحن نحرمهم.

فاصطلحوا إذن مع الأم الروحية الكنيسة الجامعة كأبناء متطلعين إلى الأمام. وهي تروم أن تحتضنكم ببركة عظيمة. لكي يفرح الله بنا جميعاً ويفرح بكم كافة الملائكة.

الهينوتيكون لم ينجح في لم شمل الكنيسة:

هذا ما جرى بين الأب البطريرك الأنبا بطرس الثالث بطريرك الإسكندرية والأب أكاكيوس بطريرك القسطنطينية.

وفي الحقيقة أن أكاكيوس هو واضع الهينوتيكون . وكان يهدف كل من أكاكيوس وزينون الملك إلى العودة بالكنيسة إلى المفهوم اللاهوتي الصحيح السابق لمجمع خلقيدونية أي قبل الانقسام. ولقد اعترف الهينوتيكون بقرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى وحرم كل من نسطور وأوطاخي وأتباعهما، ولم يتعرض للنقطة الحساسة سبب الانقسام وهي الخاصة بطبيعة المسيح، ولكن المنشور اختُتم بهذه الفقرة المهمة [وكل من آمن أو ارتأى حالاً آخر إن كان اليوم أو قبل هذه الأيام في المجمع الخلقيدوني أو بأي اجتماع آخر خارجاً عن الكنيسة الجامعة ولا سيما نسطور الذي اعترف بطبيعتين والذين يعتقدون مثله، وأوطاخي الخيالي، فإننا نحرمهم].

لقد كان منشور الاتحاد (الهينوتيكون) - كمحاولة لإيجاد حل وسط مقبول لدى البعض (مثل البابا القبطي بطرس منغوس وأكاكيوس أسقف القسطنطينية)، لكنه كان بصفة عامة غير ناجح، وقد بدا الهينوتيكون بالنسبة للخلقدونيين، وكأنه إنكار لقانون مجمع خلقيدونية أما لدى اللاخلقيدونيين فكان غير وافٍ لأنه لم ينكر مجمع خلقيدونية بصفة خاصة.[1]

وهذا ما جعل بعض الإكليروس الأقباط يتحفظون ضد الهينوتيكون ويناهضون اباهم البابا بطرس منغوس لقبوله. وكادت تحدث فتنة كبيرة لولا أنه حرم علناً طومس لاون ومجمع خلقيدونية.[2] ومع ذلك يذكر كتاب تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع: "انه لم يكن بعض من الأساقفة الأقباط موجودين وقت أن كتبت هذه الرسائل بين البطريركين بطرس وأكاكيوس فأثار الشيطان - خزاه الله - الهواجس في قلوب أولئك الأساقفة وكان يتقدمهم يعقوب أسقف صا ومينا أسقف منية طامه وساروا إلى مدينة الإسكندرية وسألوا البابا بطرس قائلين: كيف قبلت أكاكيوس من جملة الأساقفة الذين حضروا المجمع الخلقيدوني؟ فأجابهم بوداعة ومسكنة إنني قبلته لرجوعه عن ذلك الرأي(أي لرجوعه عن إيمان خلقيدونية)، كما اطلعهم على ما وصل إليه من رسائله التي تشهد برجوعه واعترافه بالإيمان المستقيم وذكر لهم أنه أرسل إليه بعضاً من الأساقفة ليسمعوا لفظه بحكم قانون البيعة (الكنيسة).

ولكن هؤلاء الأساقفة لاستحكام الكبرياء في قلوبهم لم يقبلوا قول البابا بطرس وأفرزوا نفوسهم من كرسي مارمرقس الإنجيلي وقالوا بجهلهم كما قال بنو اسرائيل (إنهم ليس لهم نصيب في داود ولا ميراث مع ابن يسى) وافترقوا عن البطريرك القديس بطرس ولم يدخلوا

١ - جون لوريمر تاريخ الكنيسة ج٣ ص ٢٠

٢ - تاريخ البطاركة طبعة B. Evetts سيرة البابا بطرس ص ١٨٢، ١٨٣.

تحت طاعته حتى أن الأرثوذكسيين أطلقوا عليهم "الذين لا راس لهم".

رد الفعل فى روما:

وكان رد الفعل فى روما أن عقد فيلكس Felix بابا روما مجمعاً فى سنة ٤٨٤م حرم فيه اكاكيوس، وقام اكاكيوس بدوره بحذف اسم الأسقف الرومانى من الليتورجيا. وحدثت جفوة بين القسطنطينية وروما عرفت فى الكنيسة الكاثوليكية باسم "انقسام اكاكيوس، وقد دامت هذه الفرقة نحو خمسة وثلاثين عاماً.[١]

اتفاق لم يستمر:

هذا الأمر كان اتحاداً وقتياً لم يدم طويلاً بين الإسكندرية والقسطنطينية على عقيدة الطبيعة الواحدة لله الكلمة المتجسد فى عهد ملك أرثوذكسى مثل زينون، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد الفريق الذى يؤمن بالطبيعة الواحدة، وعادت كنيسة القسطنطينية إلى التمسك بقرارات مجمع خلقيدونية، وفى الواقع أن كنيسة الإسكندرية كانت صامدة فى موقعها على الإيمان (الأرثوذكسى المستقيم) لا تزحزحها عنه أقوى الاضطهادات ولم تثبت معها فى ذلك سوى كنيسة أنطاكية السريانية والكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية.

وقد استمرت فترات الهدوء أيضاً خلال حكم أنسطاسيوس (٤٩١ - ٥١٨م) وفى هذا العهد بالذات توطدت أواصر التعاون بين كنيستى الإسكندرية وانطاكية السريانية لاتفاقهما فى الإيمان الواحد.[٢]

عودة الاضطهادات:

لما تولى الحكم الإمبراطور يوستينوس الأول (٥١٨ - ٥٢٧م) وكان على كرسى الإسكندرية البطريرك تيموثاوس الثالث. حاول هذا الإمبراطور إرغام كنيستى الإسكندرية وانطاكية السريانية على قبول معتقد مجمع خلقيدونية.

فلما رفض القديس ساويرس بطريرك أنطاكية نفاه عن كرسيه فجاء إلى مصر، وظل فيها هارباً يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن دير إلى دير محاطاً بمحبة المصريين الذين قبلوه كمعلم فى الكنيسة الأرثوذكسية، وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم فى الإيمان.

كما أخذ الإمبراطور يضطهد الأنبا تيموثاوس الثالث بطريرك الإسكندرية، وأمر بنفيه، وجرت بسبب ذلك مذبحة هائلة قُتِل فيها نحو مائتى الف من الأقباط الذين أرادوا حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين تمكنوا على الرغم من ذلك من القبض عليه وتم نفيه، وبقى فى منفاه ثلاث سنوات. ثم رجع إلى كرسيه واستمر يدافع عن الإيمان بالاشتراك مع القديس ساويرس الأنطاكى حتى تنيح فى سنة ٥٣٥م فى عهد الإمبراطور جستنيان الأول.[٣]

---

١ - أسد رستم: كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى. ج١ ص ٣٥٠، ٣٥١.

٢ - تاريخ الحضارة المصرية - الجزء الثانى - ص ٢٢٢.

٣ - تاريخ الحضارة المصرية ج٢ ص ٢٢٢.

عصر جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م):

تبوأ جستنيان عرش الدولة البيزنطية فى سنة ٥٢٧م. ولما استتب له الحكم اقام فى القسطنطينية مع زوجته ثيؤدورا، واستهل حكمه بعدة أعمال طيبة، فاختفى الثائرون من أمامه وشيّد الكنائس فى كل مكان وأقام الفنادق للسائحين والديار لإيواء العجزة، والمستشفيات للمرضى، والملاجىء للأيتام، وعدة مبان وعمارات أخرى من هذا القبيل، كما أنه قام بتجديد عدة مدن كانت متهدمة ووزع أموالاً كثيرة وقام بأعمال لم يسبقه إليها أحد من الأباطرة السابقين.[1]

ولكن للأسف بدأ مع هذه النهضة الإصلاحية والمعمارية خراب من نوع آخر، وهو خراب فى جسم الكنيسة الجامعة بتدخلاته السافرة فيها والرجوع إلى عقيدة مجمع خلقيدونية. إذ أمر جستنيان الكنائس الشرقية بإدراج أسماء الأساقفة الذين اجتمعوا فى مجمع خلقيدونية بينما استبعد اسم البطريرك ساويرس الانطاكى من ذبتيخا الكنيسة، الأمر الذى لم يسبق له مثيل ولم يرد عنه نص فى قوانين الرسل ولا مجامع الآباء التى تلتهم، وكان من الواجب الا يذكره أى مجمع فى القداس. أما جستنيان فإنه وحده الذى أدخل هذه العادة فى كل إمبراطوريته، كما كتب أسماء أساقفة مجمع خلقيدونية. أما انتيموس بطريرك القسطنطينية واكاكيوس البطريرك الذى كان فى عهد الإمبراطور زينون والبابا بطرس (منغوس) بطريرك الإسكندرية، فقد حرموا من الذبتيخا كما الغى الهينوتيكون (مرسوم الاتحاد) الخاص بالإمبراطور زينون ومنع سكان الإسكندرية من الارتواء بأقوال البابا ديسقورس الثانى.[2]

سياسة جستنيان الدينية:

عندما تبوأ جستنيان العرش فى سنة ٥٢٧م أحس كخليفة للقياصرة الرومان أن عليه واجباً وهو أن يعيد مجد الإمبراطورية الرومانية ووحدتها، ورأى أيضاً أن يعيد لهذه الإمبراطورية سيرتها الأولى، كما أراد فى نفس الوقت أن يجعل للإمبراطورية قانوناً واحداً وعقيدة واحدة. وتتمثل حياة جستنيان السياسية فى هذه العبارة الموجزة: دولة واحدة، قانون واحد، كنيسة واحدة. وإذ بنى آراءه وأفكاره على مبدأ السلطة الاستبدادية، افترض أن كل شىء فى الدولة المنظمة يخضع لسلطة الإمبراطور. ولإدراكه بأنه يصح للحكومة أن تستخدم الكنيسة وتتخذ منها سلاحاً قوياً، بذل كل ما فى وسعه من جهد لإخضاع الكنيسة لسلطانه.

ولحرص جستنيان على أن تكون له السيطرة التامة على الكنيسة لم يكتف بأن جعل فى يده التنظيم الداخلى لرجال الدين، مهما علت مكانتهم، بل رأى أيضاً أن من حقه أن يحدد لرعاياه نوعاً معيناً من العقيدة، فما يتبعه الإمبراطور من مذهب دينى ينبغى أن يسير عليه رعاياه.[3]

---

١. M.H. Zotenberg: Chronique de Jean Eveque de Nikiou. P. 508.

٢. Ibid. p. 513.

٣ - الدكتور السيد الباز العرينى ـ الدولة البيزنطية ـ ص ٨٤، ٨٥.

كانت هذه باختصار سياسة جستنيان، ومن هذا المنطلق بدأ العمل فى القضية الإيمانية اللاهوتية.

صمم على تحقيق الوحدة فى الكنيسة كخطوة أساسية لتحقيق طموحه فى السيطرة على الإمبراطورية.. كان جستنيان خلقيدونياً ويميل نحو الخلقيدونيين ولكنه كان يتراجع احياناً عن الدخول فى نزاع مع الأرثوذكسيين اصحاب مذهب الطبيعة الواحدة. فكانت زوجة جستنيان الإمبراطورة ثيؤدورا Theodora ارثوذكسية فى الخفاء دافعت عن عقيدة "الطبيعة الواحدة لله الكلمة المتجسد" وعن معتنقيها بكل ما أوتيت من قوة، لكن بحكمة حتى لا تثير ثائرة الإمبراطور.

كانت ثيؤدورا إمرأة متدينة ذات شخصية قوية، ظهر نفوذها فى تشكيل سياسة الدولة الدينية.

وبفضل جهودها سمح جستنيان للأساقفة الأرثوذكسيين المنفيين بالعودة إلى ديارهم وكراسيهم. كما دعا كثيرين من الأرثوذكسيين إلى مؤتمر دينى للتصالح فى القسطنطينية.

وطلب إليهم أن يناقشوا كل الأسئلة التى يكتنفها الشك مع خصومهم. وهكذا تمكن القديس ساويرس الأنطاكى من أن يذهب فى أمان إلى القسطنطينية فى سنة ٥٣٥م على رأس مجموعة قوية من مصر لهذا الغرض، ومكث سنة كاملة، ولكن لم تتخذ اجراءات أو قرار حاسم. فقد كانت المشكلة بما يكتنفها من تيارات وأهواء شخصية أعقد من أن تُحل.[١] وهكذا لم يتحقق صدق جستنيان من توحيد الكنيسة وبالتالى لم يتحقق طموحه فى السيطرة على الإمبراطورية.. ولكنه لم يفقد الأمل، وقرر أن يحقق هدفه ولو بالقوة. ويذكر تاريخ البطاركة أن جستنيان جدد الدعوة (حوالى سنة ٥٣٨م) برسالة للبابا القبطى ثيؤدوسيوس (ال٣٣) بأن يقبلَ الإيمان الخلقيدونى وطومس لاون ويساعده على ذلك، ومقابل هذا تكون للبابا ثيؤدوسيوس الرئاستان البطريركية والولاية (المدنية)، ويكون أساقفة إفريقيا تحت سلطانه ويكون له الأمر فى جميع ذلك.. وإذا لم يقبل يخرج من البيعة ويمضى إلى حيث يشاء. فلما سمع البابا ثيؤدوسيوس رسالة الملك رفع يديه قدام رسول الملك والوالى وأمام الجمع الموجود وقال: بالحقيقة أحرم طومس لاون ومجمع خلقيدونية وكل من يعترف به فهو محروم من الآن وإلى الأبد ثم خرج من المدينة ومضى إلى صعيد مصر وأقام هناك يعلّم الناس والرهبان فى الأديرة ويثبتهم فى الإيمان الأرثوذكسى ويصبرهم على الجهاد حتى الموت.[٢]

جستنيان يتحايل:

فلما علم جستنيان بذلك دبر حيلة حتى يأتى البابا ثيؤدسيوس إلى القسطنطينية بأن أرسل إليه كتاباً مملوءًا وعودًا وعهودًا.. فذهب الأب البطريرك إلى القسطنطينية مع عدد من الكهنة الحكماء، وهناك استقبلوه استقبالاً حسناً فى موضع أعدوه له ومن معه. ثم استدعاه الإمبراطور مرة ثانية وثالثة إلى سادس مرة، وهو فى كل مرة يخاطبه بلطف ويريد منه مساعدته

١ ـ الأنبا يؤانس: مذكرات فى تاريخ الكنيسة "ما بعد خلقيدونية" ص ٨.

٢ ـ تاريخ البطاركة: سيرة البابا ثيؤدوسيوس ص ١٦٣.

على تثبيت مجمع خلقيدونية. ولكن البابا ثيؤدوسيوس رفض رفضاً باتاً، فلما لم يقدر جستنيان على استمالته أمر بنفيه حيث اعتقله في قلعة ديركوس Derkos ثم أقام بولس التنيسي بطريركاً (ملكانياً) على الإسكندرية.. وبقى البابا ثيؤدوسيوس في منفاه حتى تنيح.[١]

أما بولس "تنيسى فقد استخدم ضد المصريين من وسائل الاضطهاد ما لم يستخدمه إلا الأباطرة والحكام الوثنيون، فصار يلقي بالمصريين في مستوقدات الحمّامات ليكونوا وقودًا لتسخين مياهها[٢] والواقع أن مصر، على حد قول ماسبيرو، لم يكن ممكناً أن تصطبغ بالصبغة اليونانية (البيزنطية) إلاّ إذا تجردت من قسيسيها ورهبانها وأعيانها والموظفين المصريين وغمر الأجانب البلاد واختفى سكان مصر، وإلا أعلنوا الثورة وخرجوا على الحكومة.[٣] غير أن الحكومة البيزنطية كانت تعتقد أن في وسعها أن تقوم بهذا العمل. فانتهى الأمر بانكسارها بعد أن أثارت بعنادها وعنفها كراهية المصريين.[٤]

سعت الإمبراطورة ثيؤدورا لدى الإمبراطور إلى عزل بولس التنيسي فتقرر عزله وتعيين شخص آخر اسمه زويل Zoile. غير أنه لم يستطع أن يتولى كرسيه إلا في حماية الجند، ولم يلبث أن تقرر عزله أيضاً في سنة ٥٥١م وتعيين شخص آخر هو أبوليناريس Apollinaris الذي قَدِم في حراسة جيش وهو مُتخفٍ في زى قائد، ثم خلع زيه المدني واتخذ زى البطاركة. [٥]

لقد استحدث جستنيان أمراً خطيراً كان له أسوأ الأثر على نفسية الأقباط ومستقبل مصر السياسي. فحينما نُصب أبوليناريس لكرسي الإسكندرية قلّده بالإضافة إلى وظيفته الدينية سلطات عسكرية لتنفيذ سياسته الدينية. وما لبث أن أعطى هذا البطريرك الملكاني حق جمع الضرائب مباشرة لصيانة الكنائس وللرعاية.

كانت هذه سابقة خطيرة لمن أتى بعد جستنيان من الأباطرة.. لقد أعطوا لأنصارهم الوسائل التي يمكنهم بها أن يُنكِلوا بخصومهم الدينيين ويجددوا الاضطهاد الديني مرة أخرى بين المسيحيين والمسيحيين.[٦]

كانت بداية المأساة على يد الأسقف الدخيل أبو ليناريس الذي حاول كبح جماح العناصر الأرثوذكسية الهائجة. فدعا الناس إلى الاجتماع به في الكنيسة ليتلو عليهم رسالة الإمبراطور. وبعد أن فرغ من ذلك وجّه إليهم هذه العبارات: يا أهل الإسكندرية الأشرار، إن رجعتم إلى الإيمان، وتخليتم عن البدعة اليعقوبية كان ذلك خيراً لكم، وإن لم ترجعوا عما أنتم فيه، فأشد ما أخشاه أن يبعث إليكم الإمبراطور من القادة من يهدر دماءكم، ويستبيح نساءكم ويتيم أبناءكم[٧]. ومن الطبيعي أن يرد السامعون على هذا الخطاب بقذف البطريرك بالحجارة، وعندئذٍ

١ - الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين: تاريخ البطاركة - طبعة B. Evets، سيرة البابا ثيؤدوسيوس ص ١٦٥، ١٦٦

٢ - Maspero: Histoire des patriarches, d's , Alexandrie. P. 144.

٣ - Ibid. p. 145.

٤ - الدكتور السيد الباز العريني: مصر البيزنطية ص ٣٦٦.

٥ - Hardy: Christian Egypt. p. 154.

٦ - الأنبا يؤانس أسقف الغربية: مذكرات في تاريخ الكنيسة (ما بعد خلقيدونية) ص ٩.

٧ - Duchesne: Histoire de L'Eglise au Vie siele. P. 341

اقبل الجند وأجروا مذبحةً مروعة فى الناس داخل الكنيسة وخارجها. وبلغ من خوف الناس وذعرهم أن هربوا إلى الأديرة[1] بصحراء الأسقيط Scete. وجاء فى بعض الروايات أن عدد الضحايا نحو ٢٠٠ (مائتى) ألف وعلى الرغم من أن الهدوء والسلام عادا إلى المدينة (الإسكندرية) فإن المصريين لم ينسوا مطلقاً تلك المذبحة الدامية ويقول الأنبا ساويرس بن المقفع الأشمونى: إن ما حدث وقتذاك لم يكن له مثيل حتى فى زمن الوثنية.[2]

ولم تنجح أى محاولة حتى أواخر عصر جستنيان فى إخضاع الأقباط وجعلهم يأخذون بالمذهب الملكانى (الخلقيدونى).

يذكر المؤرخ كونبرج Cauwenbergh فى كتابه دراسة حول رهبان مصر من عصر جستنيان إلى الفتح العربى معتمداً على دراسة العالم جون ديفاز Jean Dephese أن الإمبراطور جستنيان كان قد دعا فى عام ٥٥٤م العديد من الأساقفة والرهبان الذين يؤمنون بطبيعة واحدة للمسيح للحضور إلى عاصمته الإمبراطورية لمناقشة المسائل اللاهوتية المتنازَع عليها. وقد تكررت هذه الدعوة فى عامى ٥٥٨ و٥٦٠م وأخيراً فى عام ٥٦٣م. وبدا أربعمائة من المؤمنين بطبيعة واحدة من سوريا ومصر مناقشات عديدة استمرت لمدة عام مع الخلقيدونيين تحت إشراف الإمبراطور ولكنهم لم يتوصلوا إلى اتفاق بينهم.[3]

جستنيان يستدعى رؤساء الأديرة القبطية:

بعد أن فشلت هذه المحاولات التى قام بها جستنيان للتوفيق بين الأطراف المتنازعة حول طبيعة السيد المسيح (كرستولوجى Christology)، رأى أن ذلك لا يحقق هدفه، أى لم يقم كنيسة موحدة، وهذا بالطبع سيؤثر على وحدة الإمبراطورية، وفى نفس الوقت أدرك جستنيان أن وراء البطريرك القبطى جيشاً روحياً من الرهبان المصريين يسندونه بصلواتهم ويقومون على حراسة العقيدة السليمة فى مصر.. فقرر أن يستدعى رؤساء الأديرة القبطية ولاسيما رؤساء الأديرة الباخومية، ويلزمهم بعقيدة مجمع خلقيدونية، ولدينا فى النصوص والوثائق القبطية ما يؤكد ذلك:

أرسل جستنيان رسالة إلى كل مصر موجهة إلى الأساقفة فى كل جهة وإلى رؤساء الأديرة لكى يتواجدوا لديه فى المدينة العاصمة للإمبراطورية. وكتب رسالة إلى القديس انبا ابراهام الذى كان قمصاً (مديراً = رئيسًا) لدير القديس انبا باخوم فى بيبو (حالياً ناحية فاو قبلى بمركز دشنا) فى ذلك الوقت لكى يذهب إلى القصر الإمبراطورى فى القسطنطينية ويقابله.[4] فلما وصلت هذه الرسالة الإمبراطورية إلى القديس ابراهام اخذ معه أربعة من الإخوة. وليته لم

---

١ - الدكتور السيد الباز العرينى: مصر البيزنطية ص ٣٦٧.

٢ - المرجع السابق ص ٣٦٧.

٣ - P. Van Cauwenbergh: Etude sur Les moines d'Egypte depuis le concile de Chalcedoines (451) Jusqua' l'invasion Arabe (640), p. 744.
E. Amelineau, Monuments, XII, VIE D'ABRAHAM, p. 744.

٤ - Ibid., p. 745.

يأخذهم معه. وسافروا إلى المدينة العاصمة. ولما وصلوا إلى مقر الملك أمر بتقديمهم إليه. وتكلم معهم قائلاً: لقد بعثت إليكم لأمر هام جداً مستهدفاً مشاركتكم إيماننا وتناولكم معنا (أى يشتركون معه فى الأفخارستيا) وذلك لكى أمنحكم مجداً وإكرامات عديدة فى مملكتى، ثم هددهم بأن الذى يرفض هذا سوف يطرد من رئاسة ديره.

ولكن القديس ابراهام لم يطمع فى الأمجاد البائدة بل اختار لنفسه المجد الباقى إلى الأبد أى أنه رفض إيمان الملك ووعوده واختار لنفسه الطرد من رئاسة الدير مع الاحتفاظ بإيمانه الأرثوذكسى الذى تسلمه من آبائه القديسين.[1] فى الوقت الذى ضعف فيه بعض رؤساء الأديرة الذين رافقوه وقبلوا عقيدة الملك، وكانت النتيجة أن اقامهم الملك رؤساء على الأديرة وأمر بطرد القديس ابراهام من رئاسة الدير.

فلما علمت الملكة ثيؤدورا (زوجة جستنيان) بما حدث تألمت كثيراً، وحينما دخل الملك إلى القصر استعطفته كثيراً من اجل عودة القديس ابراهام إلى ديره بسلام.. ولكن لما ادركت انها لن تستطيع ارجاعه عمّا فكر فيه ضد القديس تركته. على انه لما حلَّ الليل ارسلت الملكة إلى القديس ابراهام وقامت بحمايته سراً إلى أن عاد إلى ديار مصر.[2]

جستنيان يتعقب رؤساء الأديرة:

أرسل الملك جستنيان أحد الولاة ومعه مجموعة من الجند وأمره بألا يبقى من رؤساء الأديرة القبطية إلا الذين يقبلون إيمان الملك، ومن يخالف هذا الإيمان ينفى ويطرد.

وكان من نتيجة ذلك أن خرج الرهبان وتفرقوا فى البرارى والأديرة. وعلى سبيل المثال كان ضمن رؤساء الأديرة فى صعيد مصر القديس ابراهام الفرشوطى الذى ترك رئاسة الدير ومضى إلى دير انبا شنودة بجبل أدريبة (غرب سوهاج) وسكن فيه[3] ثم انتقل بعد ذلك إلى جبل فرشوط وأقام هناك ديرين تحت رئاسته أحدهما للرهبان والآخر للراهبات.

أما فى الوجه البحرى، ولاسيما اديرة وادى النطرون، فخير مثال لذلك هو القديس انبا دانيال قمص شيهيت الذى لقى عذابات كثيرة تحملها من أجل الإيمان المقدس. إذ كان بشيهيت وحضر مندوب الملك جستنيانَ ليرغم الرهبان على الموافقة على عقيدة خلقيدونية. فوقف أنبا دانيال بصفته قمص شيهيت وشجب طومس لاون وعقيدة مجمع خلقيدونية علناً أمام الوالى وثبَّت إيمان الآباء الرهبان وعزّز من شجاعتهم، فما كان من الوالى والجنود إلا أن سدّدوا إليه ضربات كثيرة حتى قارب الموت.. وبعدها قام هو وكثيرون من الرهبان وانحدروا إلى النواحى المختلفة فى مصر وتشتتوا فى البلاد. وتذكر سيرة حياة أنبا دانيال أنه التجأ إلى مدينة تسمى تامبوك (مركز شبراخيت) حيث أقام بجوارها ديراً ومكث فيه يجاهد جهادات كثيرة حتى مات جستنيان فى سنة ٥٦٥م عندئذٍ قام وعاد إلى ديره فى شيهيت.[4]

1 - R.BASSET., LE Synaxaire Arabe JACOBIE, 24 TOUBEH.

٢ ـ رشدى واصف بهمان ـ سيرة القديس ابراهام الفرشوطى ـ ص. ٢٠.

٣ ـ الأب متى المسكين ـ الرهبنة القبطية فى عصر ابو مقار ـ طبعة اولى ص ٤٢٥.

٤ ـ الدكتور السيد الباز العرينى ـ الدولة البيزنطية ـ ص ٨٩ ـ ٩٠.

نهاية عصر جستنيان:

إن ما حدث من محاولات جستنيان لمالأة المنوفيزيتيين (اللاخلقدونيين) والديوفيزيتيين (الخلقيدونيين) على حد سواء، إنما أدى إلى تشجيع النزعات الانفصالية فى الشرق وإلى قطع الصلة بالغرب، فضلا عن انهيار الأقاليم التى كانت فى جوف الدولة البيزنطية.

كان جستنيان يرمى إلى أن يجعل عهده بداية عصر جديد، ولكن الواقع أن عهده يعتبر نهاية عصر مجيد. لم ينجح جستنيان فى إعادة بناء الإمبراطورية، وحاول مد أطرافها، غير أن ذلك لم يستمر إلا مدة قصيرة، ولم يكن فى وسعه أن يعيد الحياة إلى جسم دولة منهارة. وما فتحه من بلاد لم يقم على أساس سليم، وما حدث من الانهيار الفجائى لعمله أدى إلى نتائج بالغة الخطورة. فعلى الرغم من الانتصارات الباهرة، خلّف جستنيان لمن جاء بعده من الأباطرة دولة متداعية فى الداخل قد تطرق إليها الخراب من النواحى الاقتصادية والمالية (والدينية أيضاً). وكان عليهم أن يصلحوا ما وقع فيه هذا الرجل من أخطاء جسيمة كيما يستطيعون إنقاذ ما يمكن إنقاذه.[1]

عصر جوستين الثانى:

خلف جستنيان على العرش الإمبراطور جوستين الثانى (يوستن الثانى: ٥٦٥ - ٥٧٨م). ومع أنه أعلن فى مستهل حكمه قائلاً إن الله لا يجيز لنا أن نلقى القبض على أحد أو نقذف به فى السجن من أجل العقيدة الدينية[2] إلا أنه سار على خطة سلفه بأن ساند أبوليناريوس الأسقف الدخيل وانتهج منهجهما جميع أباطرة القسطنطينية من بعدهما. وهكذا بذر الإمبراطوران جستنيان وجستن الثانى بذور الشقاق بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية مرة أخرى. كما زرعا القلق والاضطراب فى جزء هام من الإمبراطورية الشرقية نتيجة لمسلكهما هذا، لأنه بينما أخذ عملاء الأباطرة من المستعمرين يتعاقبون على الكرسى الإسكندرى، ظل المصريون على ولائهم لباباواتهم الشرعيين الذين كانوا ينتخبونهم من بين مواطنيهم وبمحض إرادتهم . وقد أصروا على الاحتفاظ باستقلالهم الكنسى، وكان إصرارهم هذا صورة لقوميتهم الراسخة وتصميمهم على مقاومة الاستعمار الفكرى رغم بطش الحكام المدنيين بهم.[3]

جوستين الثانى يعارض فى رسامة البابا بطرس (الرابع):

فى خضّم هذه الرزايا انتقل البابا ثيؤدوسيوس إلى الأخدار السماوية بعد أن قضى ثمانياً وعشرين سنة فى أحد سجون القسطنطينية[4] وفى هذه الآونة العصيبة تدارك السيد المسيح كنيسة الإسكندرية بمراحمه حيث استبدل الإمبراطور والى الإسكندرية الموالى لأبوليناريوس بوالٍ جديد إسمه أريستوماخوس خطب ودّ المصريين وكان لهم فى شدتهم خير عزاء.

---

١ - Diehl; p. 527.

١ - إيريس حبيب المصرى: قصة الكنيسة القبطية - الجزء الثانى - ص ١٥٦، ١٥٧.

٢ - المرجع السابق ص ١٥٧.

٣ - المرجع السابق ص ١٥٧.

٤ - المرجع السابق ص ١٨٥.

فأوعز أريستوماخوس إلى المسئوليين منهم بأن يقصدوا إلى أحد الأديرة المتاخمة للإسكندرية بدعوى إقامة الصلاة، وهناك يقومون برسامة من ينتخبونه للكنيسة المرقسية. ففرح الأقباط فرحاً عظيماً بهذا الاقتراح، إذ كان سيوفر عليهم ضريبة الدم التى كانوا سيدفعونها حتماً لو أنهم انتخبوا راعيهم رغم إرادة الحاكم المدنى.

وفعلاً اتفقت كلمة الأساقفة بعد مشاورات على انتخاب راهب اسمه بطرس من دير الزجاج الذى اجتمعوا فيه، فوضع الأساقفة اليد عليه باسم بطرس الرابع، ومن ثم أصبح الخليفة الرابع والثلاثين للقديس مرقس فى سنة ٥٥٩م (٢٧٥ش).[١]

ولما علم أبوليناريوس الأسقف الدخيل نبأ رسامة الأنبا بطرس وتأكد من أن الأقباط مصممون على ممارسة حقهم الشرعى فى انتخاب من يريدونه ليجلس على السدة المرقسية جن جنونه واستثار الحكام المستعمرين ومشايعيهم من العملاء، ليحولوا دون دخول البابا الإسكندرى عاصمة رئاسته.. وقد شدَّد الامبراطور الخناق على المصريين آنذاك فاستبد بالأساقفة الأقباط واضطر البابا بطرس أن يعيش شريداً ينتقل من دير إلى دير. ولم يكتف جوستين الثانى بهذا التعسف، بل زاد الطينة بلة بالاستيلاء على القمح الذى تعب الأقباط فى زراعته وحصده ليقتاتوا به هم وأولادهم وقام بتصديره إلى روما التى كانت محاصرة بجحافل اللومبارديين[٢] إذ ذاك.[٣]

ثم أمر الإمبراطور بنقل الوالى المهادن للأقباط. وبعث إلى مصر من قبله رسولاً اسمه فوتين Photin صهر بليزاريوس. وعهد إليه أن يعيد الهدوء إلى كنائس مصر والإسكندرية وجعل له سلطات استثنائية ضخمة، على كل الأفراد والأعيان. على أن جوستين الثانى لم يكن موفقاً فى اختيار هذا الشخص للقيام بهذا العمل، لما اشتهر به من الجشع والقسوة، ولأن سلوكه لم يؤد إلى السلام المنشود. ولما فشل جوستين الثانى فى استمالة الأقباط لجأ فى سنة ٥٧١م إلى وسائل العنف لقمعهم. فاستأنف اضطهاد المصريين بسبب فشل سياسته من جهة وبسبب تحريض بطريرك القسطنطينية من جهة أخرى.[٤]

استمرار الضغط على الباباوات الأقباط:

لما خلت السدة المرقسية بنياحة الأنبا بطرس الرابع أجمع الإكليروس والشعب على انتخاب البابا دميانوس خلفاً له. وقد قُدِّرَ للأنبا دميانوس أن يعمر حتى عاصر فى سنى بابويته أربعة أباطرة هم جوستين الثانى وطيباريوس وموريس وفوكاس (فوقا). وكان التوتر بين المصريين والدخلاء المستعمرين خفيفاً فى عهد الإمبراطورين جوستين الثانى وطيباريوس. ولكن لم يكد الإمبراطور موريس يعتلى عرش القسطنطينية حتى اشتدت وطأة التوتر مما دفع المصريين إلى أن يتمردوا على القيصر ويضرموا عليه نار الحرب بقيادة ثلاثة إخوة هم مينا وأبيسخيرون

---

١ ـ المرجع السابق ص ١٨٥.

٢ ـ من القبائل الشمالية التى اجتاحت أوربا ونجحت فى النهاية فى قهر الإمبراطورية الرومانية الغربية.

٣ ـ إيريس حبيب المصرى: قصة الكنيسة القبطية ـ الجزء الثانى ص ١٥٩.

٤ ـ السيد الباز العرينى: مصر البيزنطية ـ ص ٢٩٧.

ويعقوب. ولقد لاحقوا القوات البيزنطية فى قتالهم حتى جزيرة قبرص.

ولمّا رأى الإمبراطور موريس أن المصريين انتصروا على جيشه رغم سطوته قور أن يلجأ إلى الخديعة والمكر. فبعث إلى أولوجيوس الأسقف الملكانى الدخيل برسالة طلب إليه فيها أن يفاوض زعماء مصر فى الصلح. وفى أثناء المفاوضات أقام ذلك الإمبراطور على القوات المرابطة فى مصر قائداً جديداً شديد البطش.. تمكن من تعزيز الجيش خلسة واستطاع بذلك أن يخمد نار الثورة ثم غدربالمصريين شر غدر. فقطع رؤوس زعمائهم الثلاثة ونفى ابن مينا (الأخ الأكبر) خارج البلاد. كما شرد جميع الزعماء، إذ خشى أن يعاودوا الكرّة فى التمرد على الإمبراطور. وكانت نتيجة هذا الغدر ازدياد الاضطراب فى كثير من جهات القطر المصرى. وقد أدىَّ ذلك إلى إثارة غضب المستعمرين على المصريين والمغالاة فى التنكيل بهم. ولم يكد ينتهى القرن السادس حتى بلغت العداوة بين المصريين وحكامهم الأجانب أشدها وخصوصاً فى بداية القرن السابع فى عهد الإمبراطور فوكاس (فوقا) الذى كان أشد بطشاً وعسفاً من غيره فى مصر، إذ أمر بمضاعفة اضطهاد المصريين وأن يختصوا البابا والأساقفة بالنصيب الأوفر من هذه الاضطهادات. والسنوات المتبقية للحكم البيزنطى فى مصر تؤلف واحدة من أكثر فترات التاريخ المصرى امتلاءً بالأسى.

إن المنافسة بين حاكمى شطرى مصر كانت سببًا فى اضطراب شئون الحكومة وخللها. وهكذا تعرضت مصر لعناصر الشر من الداخل وأطماع الغزاة من الخارج. فقد حدث فى بوصير (كانت على مقربة من مركز السلطة فى الإسكندرية) بينما كان أحد الحكام منشغلاً بإنزال آخر والاستيلاء على السلطة فى المدينة العظمى أن كان عرش الإمبراطور فوكاس Phocas (٦٠٢ ـ٦١٠) يترنح فى ذلك الوقت، ووقع فى قبضة مغتصب آخر للعرش الإمبراطورى هو هرقل الذى كان قائداً بيزنطياً لجيوش الدولة فى إفريقيا، وقد عبر البحر المتوسط وتمكن من إسقاط خصمه واستولى على العرش فى سنة ٦١٠م.

وبينما كان ذلك يحدث، إذا بالجيش الفارسى بقيادة كسرى Chasroes Parirz يجتاح أقاليم الدولة الأسيوية فى سوريا وفلسطين. وفى لحظة تبوأ هرقل العرش (٦١٠ ـ ٦٤١م)، وكان الجيش الفارسى على مقربة من مدينة أنطاكية. وفى سنة ٦١٣م دخل دمشق وفى سنة ٦١٤م سقطت أورشليم فى يده وحمل الصليب المقدس وآلات تعذيب المسيح. وفى سنة ٦١٩م بينما كانت إحدى فرق الجيش تتجه إلى البسفور كانت فرقة أخرى تغزو مصر التى ظلت فى قبضة الفرس قرابة عشر سنوات.(١)

١ ـ الأنبا يؤانس ـ مذكرات فى تاريخ الكنيسة القبطية (ما بعد خلقيدونية حتى الفتح العربى) ص ١٠.

الاحتلال الفارسى لمصر (٦١٧ـ٦٢٧م)

ذكرت المراجع التاريخية أن الأقباط لم يُسلموا البلاد للفرس. وذكر بتلر أن الخائن الذى سهّل للفرس اقتحام الإسكندرية لم يكن من مواطنيها الأقباط، ولكنه كان طالب علم وفد من إقليم البحرين (شمال شرق بلاد العرب) ويدعى بطرس، ولا نعرف ديانته أكان مسيحياً أم يهودياً أم وثنياً.. كما لا يُعرف الدافع الذى دفع هذا الخائن الى خيانته. أكان خوفه الدنىء على حياته وسعيه لتخليصها مهما بذل فى سبيل ذلك.. أم لأن بلاده كانت تحت الحكم الفارسى وكان أهلها خليطاً من الفرس واليهود.[١]

ولعل مفاتيح الإسكندرية أُرسلت إلى كسرى فى أول سنة ٦١٨م، أما أهلها فقد قُتل منهم كثيرون عند أول المدينة، ولكن الفرس أبقوا على عدد كبير منهم أُخِذَ بعضهم سبايا وأُرسِلَ إلى بلاد الفرس وبقى البعض الآخر لم يمسسه سوء. وكان من بين الذين نجوا بغير أذى البطريرك (أندرونيكوس)، ولكن أثر المصائب التى شهدها تحل بقومه والخراب الذى نزل بهم فى جميع أنحاء أرض مصر لم يزل فى قلبه يملاه حزناً حتى تنيح.[٢]

وترجمة حياة البابا أندرونيكوس التى كتبها الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ما هى إلا ذكر للمصائب التى أنزلها الفرس عند فتحهم. ومن تلك المصائب التى ذكرها أنه كان هناك ستمائة دير عامرة بهاناطون قد أحاط بها جيش الفرس من الغرب ولم يبق لهم (لرهبانها) ملجأ فقتلوا جميعهم بالسيف إلاّ قليلاً منهم اختفوا فخلصوا. وجميع ما كان هناك من المال والأوانى نهبه الفرس وخرّبوا الديارات.[٣]

وقد ختم الأنبا ساويرس بن المقفع الأشمونى سيرة البابا أندرونيكوس بقوله: "فلمّا كمل البطرك أندرونيكوس ست سنين فى بطريركيته وقاسى هذه الآلام ورأى هذه الأمور الصعبة التى لقيها وصبر عليها تنيح ومضى إلى الرب بسلام".[٤]

وقد أُتيح للبطريرك (القبطى) أندرونيكوس أن يبقى فى الإسكندرية مدة رئاسته (بطريركيته). وذلك لمكانته الكبيرة من ناحية، ومن ناحية أخرى كان ابن عمه كبير مجلس الإسكندرية عندما ولى الأمر، وهذا الخبر عظيم الدلالة إذ نعلم منه أن بعض القبط كانوا يبلغون المراتب العالية فى الدولة حتى فى أيام هرقل، ونعلم منه أيضاً أن الفرس عندما استقر بهم الأمر فى البلاد بعد الفتح استخدموا كبار رجال الدولة السابقة التى أزالوها وحلّوا محلها.. وليس فى الاستطاعة من سبيل غير ذلك كلما غزا جيش أجنبى بلاداً تسبق مدينته يرى واجبًا عليه أن يدبر أمورها وهى منظمة تنظيماً حسناً. ولا نزاع فى أن القبط قد اشتركوا فى هذا الأمر، وما كان لهم أن يرفضوا ذلك الاشتراك، إذ أن الرفض حماقة لا مبرر لها، ولكن بعض الكتّاب المحدثين يعتبرون ذلك الاشتراك ترحيبًا بالفرس الغزاة باعتبارهم رسل الخلاص من الحكم البيزنطى، غير أن هذه

---

١ ـ بتلر: فتح العرب لمصر ص ٦٠.
٢ ـ بتلر: فتح العرب لمصر ص ٦٠.
٣ ـ الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين ـ تاريخ البطاركة ـ طبعة Evetts ص ١٠٢ (حياة البابا أندرونيكوس).
٤ ـ المرجع السابق ص ١٠٣.

التهمة لا مبرر لها.. ولكننا لسنا فى حاجة لكى نظهر براءة القبط مما نُسب إليهم. فمّما لا شك فيه أن أكثر من هلك من الرهبان فيما حول الإسكندرية كانوا من القبط، ولو لم يكن لدينا من الأدلة إلا هذه الحقيقة لكانت كافية لدحض افتراء المفترين على القبط بأنهم رحبوا بالفرس. ولكن ليست هذه الحقيقة كل ما لدينا فإننا نعلم أنه بعد فتح الإسكندرية سار قائد جيوش كسرى بجنده صاعدًا إلى الجنوب بحذاء النيل لكى يفتح الصعيد. وكانت معاملته للقبط واحدة فى كل مكان: يحل الموت والخراب حيث حل. ويقول الأنبا ساويرس إنه لما بلغ مدينة (بشاتى) وهى (نيقيوس) وشى إليه عدو من أعداء القبط بالرهبان الذين كانوا يعيشون فى مغاور الجبال قائلاً: إن عندهم مالاً كثيراً وإنهم أهل فساد وظلم، ثم قال له إن كثيرين منهم كانوا مجتمعين عند ذاك فى الحصن. فاثرت فيه هذه الوشاية وحاصر المكان فى الليل بجنوده، ولما أصبح الصباح اقتحموه وأوقعوا بمن فيه من المسيحيين فقتلوهم ولم ينجُ منهم أحد.[1]

ولا شك أن الرهبان الذين قُتلوا فى ذلك المكان أيضاً كانوا من القبط، وقد حدث فى الصعيد مثل ما حدث فى نيقيوس. ولدينا فى هذا الموضوع من النصوص القبطية ثلاث روايات أقرب عهداً بتلك الحوادث من الأنبا ساويرس أسقف الأشمونيين، وتكاد كتابتها تكون فى نفس ذلك العهد الذى يروون علينا نبأه وهى:

(أ) سيرة الأنبا بسنتاؤس أسقف قفط الذى كان فى مدينة قفط بمحافظة قنا بالصعيد فى وقت غزو الفرس، وقد قام بترجمة حياته من القبطية إلى الفرنسية عالم القبطيات (المسيو اميلينو) وهذه السيرة أيضاً كانت موضوع رسالة الدكتوراه التى كتبت فى القرن السابع نستنتج منها أمرين:

الأمر الأول: أن الفرس بلغوا فى فتوحهم أبعد أطراف وادى النيل حتى أسوان.

الأمــر الثــانى: أن المصريين القبط لم يرحبوا بهم أو يروا فيهم رسل الخلاص، بل كانوا يرمقونهم بعين الجزع والمقت، وهذا واضح من وصف الأنبا بسنتاؤس للفرس فى عظته التى بعث بها إلى أبروشيته حيث قال: لقد خذلنا الله لما نقترفه من الذنوب وسلَّط علينا من الأمم من لا يرحمنا.[2]

(ب) سيرة الأنبا شنودة رئيس المتوحدين التى نشرها أميلينو[3] فى سنة ١٨٨٨م وقد أُخذ النص العربى عن نسخة مخطوطة فى مصر، وكل تلك النسخ مأخوذة من أصل قبطى كتب (تم نسخه) فى سنة ٦٨٥ أو سنة ٦٩٠م. نلاحظ أن الأنبا شنودة رئيس المتوحدين تنيح قبل الغزو الفارسى بنحو ١٦٠ سنة. ويذكر كاتب السيرة أن الأنبا شنودة تنبأ بمجيئ الفرس قائلاً: (سيأتى الفرس إلى مصر يسفكون فيها الدماء ويسلبون أموال المصريين ويسبون نساءهم يبيعونهم بالذهب، فإنهم قوم ظالمون معتدون وستنزل المصائب على أيديهم بمصر، يغتصبون الكنائس وما بها من انية مقدسة ويشربون الخمر فى المحراب غير مبالين، ويهتكون أعراض النساء على مرأى

١ ـ بتلر: فتح العرب لمصر ص ٦١، ٦٢، ٦٣.
٢ ـ بتلر: فتح العرب لمصر ص ٦٦.
٣ ـ E. Amelineau, Monuments pour servir a l'histoire de Eg. Chretienne.
٤ ـ بتلر: ص ٦٦.

من رجالهن، وسيبلغ الشر أعظمه والشقاء أقصاه، سيهلك ثلث من يبقى من الناس فى بؤس وعذاب وسيبقى الفرس فى مصر حيناً من الدهر ثم يخرجون منها)[1] وهذا دليل آخر يهدم رأى من يزعمون بأن القبط فرحوا بالفرس ووجدوا فيهم رسل خلاص.

(ج) سيرة القديس ابراهام الفرشوطى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى وتنيح (حوالى سنة ٥٨٠م). وهذه السيرة وجدت بعض أوراق منها نشرها أميلينو وقام كاتب هذه السطور بترجمتها من القبطية إلى العربية. وفى هذه السيرة يذكر الكاتب أن نبوءة حدثت يوم تذكار القديس (بعد نياحته) عن مجئ الفرس.

يقول كاتب السيرة : وقد رأينابأعيننا هذه الأعجوبة إلى حد أن الهيكل كله أفرز مياهًا وكانت الدموع تنساب (من الأعمدة) التى سندت المائدة المقدسة حتى أن المياه المنسابة من الأعمدة الباكية سالت فوق الموائد، كذلك المياه التى أعلنت الخراب الذى كان يجب أن يسقط علينا أو الخراب العظيم على الأرض كلها من مصر الى إثيوبيا[2] وهذا دليل ثالث على أن القبط رأوا فى الفرس الخراب والدمار وليس كما يزعم البعض أن القبط رحّبوا بالفرس ووجدوا فيهم رسل الخلاص.

جلاء الفرس عن مصر:

لم يرسل هرقل جيشاً لطرد الفرس من مصر، لكنه قام فى سنة ٦٢٧م بهجوم مركز شديد على إقليم ما بين النهرين، فاضطر الفرس تلقائياً إلى الانسحاب من مصر خشية قطع طرق الإمداد التى تأتيهم من بلادهم، وبذا يُعزل جيشهم الذى فى مصر نهائياً.[3]

عودة الحكم البيزنطى لمصر ومشروع المونوثيليتية:

عادت مصر ثانيةً إلى الحكم البيزنطى، لكن هرقل لم يستفد شيئاً من الدرس القاسى الذى سبق أن أخذه، ولم يكتف بأنه أحيا سياسة جستنيان فى مصر، بل بالغ فيها كثيراً. فقد عيَّن بطريركاً ملكانياً، صار هو حاكماً مدنياً لمصر كلها فى نفس الوقت، مع منحه سلطات دينية وحربية ومالية وتنظيمية وقضائية واسعة.

وفى محاولة جديدة لكسب فريق الأرثوذكسيين من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، دون أن يخسر الخلقيدونيين الغربيين، لجأ إلى صياغة إيمانية جديدة تحل محل الهينوتيكون الذى لم يحقق النجاح الكامل.

اتحد هرقل مع سرجيوس بطريرك القسطنطينية (٦١٠ - ٦٣٨م) وأعلن فى سنة ٦٢٢م العقيدة الجديدة التى عرفت باسم المونوثيليتية Monotheletism وهى القول بمشيئة واحدة فى المسيح على أمل أن تحل محل الاعتقاد (بطبيعة واحدة للمسيح)، وهو الاعتقاد السائد فى الأقاليم الهائجة فى سوريا ومصر. ودون التعرض للموضوع الحساس الملتهب الخاص بطبيعة

---

١ - بتلر: ص ٦٦.

٢ - E. Amelineau, Monuments , VIE. D'ABRAHAM.. p. 753.

٣ - الأنبا يؤانس: مذكرات فى تاريخ الكنيسة القبطية "ما بعد خلقيدونية حتى الفتح العربى" ص ١٦.

المسيح وهل هو طبيعة واحدة أو طبيعتان، ركزت المونوثيليتية على وحدة مشيئتى المسيح الناسوتية واللاهوتية وأنهما كانتا متطابقتين، متوافقتين، غير متغيرتين.

كان هرقل يأمل أن يقبل الأرثوذكسيون الصيغة الجديدة، وهى لا تتعارض فى نفس الوقت مع أنصار خلقيدونية وقولهم بالطبيعتين.

فى البدء، بدت هذه الفكرة وكأنها مقبولة لدى بعض رؤساء الكنائس من الجانبين.. وممن قبلوها أثناسيوس بطريرك أنطاكية (٦٢١ - ٦٢٩م) وهونوريوس الأول أسقف موارنة روما (٦٢٥ - ٦٣٨م). على أن قبول هذه الصيغة لم يدم إلاّ بين موارنة لبنان، بينما قوبل هونوريوس بمقاومة عنيفة من أساقفة الغرب. وفى سنة ٦٣٨م طبع هرقل مرسومه الذى عُرِفَ باسم إكتيسيس "Exthesis" وعزم على إرغام الجميع على قبول المونوثيليتية. لكن المقاومةَ الكبرى لتلك العقيدة الجديدة كانت فى الإسكندرية حيث رفض الأقباط أى حل بيزنطى ابتداءً من خلقيدونية إلى الهينوتيكون والمونوثيليتية.. كان سبب الخوف هو الابتعاد عن عقيدة القديس أثناسيوس الرسولى والقديس كيرلس عمود الدين .. فضلاً عن أن شعور الأقباط بقوميتهم جعلهم أكثر الرافضين للحيدة عن التقاليد القديمة، ليقابلوا السلطة الإمبراطورية فى منتصف الطريق فى المسائل الخاصة بالإيمان.

لكن مصر كانت ذات أهمية خاصة للإمبراطورية. إذ كانت تعتبر مخزن غلالها، لذا فقد رفض هرقل الاستسلام للنزعة الانفصالية الدينية والمدنية. وكان مصممًا على فرض معتقده بأى وسيلة. كانت الخطوة الأولى فى تنفيذ هذا المخطط هى تعيين قورش Cyrus أسقف فاسس Phasis فى القوقاز قرب البحر الأسود، والذى كان ذا ميول نسطورية ويتمتع بذكاء، وولاء ريائى للإمبراطور. تم تعيينه بطريركاً ملكانياً على الإسكندرية والحاكم الإمبراطورى لإقليم مصر، تحت شرط أن يقهر الأقباط لكى يقبلوا الإيمان الخلقيدونى، والمونوثيليتية بأى وسيلة. وقورش هذا هو المعروف فى المراجع العربية باسم المقوقس، وكان وصوله إلى الإسكندرية فى سنة ٦٣١م. وبدأ فى تنفيذ خططه بلا أدنى شفقة، وفى خلال عشر سنوات غدا من أكثر الطغاة المكروهين فى تاريخ مصر.[١]

لقد استخدم الصليب وصولجان الحكم لسحق المقاومة الوطنية. وكان ذلك سبباً فى انخفاض شعبية هرقل إلى الحضيض فى مصر بعد شهرته التى نالها نتيجة استرداد الصليب المقدس من الفرس. والقوميون من الأقباط كان عليهم إما أن يقبلوا معتقده أو يفقدوا حياتهم.

هروب البابا بنيامين الأول (ال ٣٨):

ومن فرط الضيق هرب البطريرك القبطى الأرثوذكسى البابا بنيامين الأول (ال٣٨) (٦٢٣-٦٦٢م) إذ ظهر له ملاك الرب وأمره بأن يهرب قائلاً له: "اهرب أنت ومن معك من هاهنا لأن شدائد عظيمة سوف تنزل عليكم. لكن تَعَزَّ فما يستمر هذا الجهاد إلا عشر سنوات. واكتب إلى جميع الأساقفة الذين فى كرسيك ليختفوا حتى يجوز غضب الرب". فدبر الأب بنيامين المعترف

١ - الأنبا يؤانس: مذكرات فى تاريخ الكنيسة القبطية "ما بعد خلقيدونية حتى الفتح العربى" ص ١١.

حال البيعة ورتبها وتقدم إلى الكهنة وأوصاهم بالتمسك بالإيمان المستقيم حتى الموت، ثم كتب إلى سائر أساقفة كورة مصر بأن يختفوا من أمام التجربة الآتية[1] و بعد ذلك خرج ماشياً على رجليه ليلاً لا يرافقه إلا اثنان فقط سائراً فى الطريق إلى مريوط.. حتى وصل إلى المُنى، ومن هناك مضى إلى وادى هبيب ثم خرج من وادى هبيب ورحل إلى الصعيد الأعلى وصار مختفياً هناك فى دير صغير فى البرية (وهو حالياً كنيسة الأمير تادرس بدير بصرى)[2]وصار مختفياً فى الصعيد إلى تمام السنوات العشر كما قال له الملاك.[3]

اضطهاد المقوقس للأقباط:

استمر هذا الاضطهاد عشر سنوات، وكان على حد ما ورد فى الوثائق القبطية بالغ العنف والشدة.. وما وصل إلينا من سير القديسين فى هذا العصر زخر بالروايات التى تشير إلى ما أصاب المؤمنين من ألوان التعذيب.

ومن الذين نالتهم الشدائد واستشهدوا فى تلك الفترة مينا شقيق البابا بنيامين. يقول تاريخ البطاركة: قبض (المقوقس) على الطوباوى مينا شقيق الأب بنيامين البطريرك وعذبه عذاباً شديداً، وأمر بوضع مشاعل تحت جنبيه حتى خرج شحم كليتيه من جنبه وسال على الأرض وقلع أضراسه وأسنانه باللكم لاعترافه بالإيمان وأمر أن يملأ جوال بالرمل ويوضع القديس مينا فيه ويغرق فى البحر.[4]

وقد خلفت زيارات المقوقس لمدن الدلتا والصعيد فزعاً عظيماً.. فالضرب بالسياط والسجن والقتل اقترنت بمصادرة الممتلكات وأوانى الكنائس، وحتى الأديرة لم تنج منه، فقصدها ليتصيد مخالفيه فى الرأى والمعتقد، ورهبان الأديرة إما أنهم قاوموه مقاومةً خاسرة وإما أنهم هربوا من أمامه. حتى النساك والمتوحدون قُبِضَ عليهم وعُذبوا حتى الموت. ولدينا فى سيرة حياة الأنبا صموئيل المعترف فى دير القلمون بصحراء الفيوم مثال على مقاومة الأقباط البطولية أمام إرهاب البيزنطيين.

لقد جروا الأنبا صموئيل من مسكنه بالسلاسل، وحول عنقه طوق من حديد كأشرّ المجرمين. اقتيد إلى مدينة الفيوم حيث أُهين وجُلِدَ وضُرِبَ على أسنانه، وخضع لكل أنواع العذابات الشيطانية، إذ فقأوا عينيه وأمر الجنود بقتله. ولم ينقذه من أيديهم سوى سدول الليل، الأمر الذى مكّن تلاميذه من إنقاذه وتهريبه وهو بين الحياة والموت.

فى تلك الفترة حلَّ بالأقباط من الاذلال ما لا عهد لهم به من قبل فى كل العصور.. وتحملت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية عذابات كثيرة على يد ذلك المستعمر الملكانى.. والعجيب أنها استطاعت أن تتحمل كل هذه الضيقات دون أن تلين لها قناة.. حقيقة أن بعض أبنائها ضعفوا واستسلموا للمستعمر لسبب أو لآخر، لكن تلك كانت حالات فردية وليست جماعية.. أما نتيجة

١ـ تاريخ البطاركة: طبعة EVETTS (سيرة الأنبا بنيامين)

٢ـ Nuba et Orient christianus, G. D. Girgis. ABBA Beniamin the patriarch in 7th century.

٣ـ H.G. Evelyn White, The Monasteries of the Wadi'n Natrun, part II, p. 272.

٤ـ تاريخ البطاركة ـ طبعة B. EVETTS ـ سيرة البابا بطرس الثالث ص

كل ذلك، فهي أن الأقباط حملوا لمضطهديهم من البيزنطيين ولكل ما هو بيزنطي كراهية عميقة. وقد عبّر الأقباط عن كل ذلك ليس فقط في العقيدة الأرثوذكسية بل في اللغة القبطية والأدب القبطي أيضاً وفوق كل ذلك في الفن القبطي.(١-س)

لقد اتسعت الهوة بين الكنيستين القبطية والبيزنطية، ولم يعد ممكناً تخطيها. وذهبت الخلافات إلى ما وراء حدود المعقول، وكان الموقف كان يهئ لتغيير كبير. ومهما يكن هذا التغيير لقد وقع الفتح العربي .. وكان ذلك إيذانًا ببدء صفحة جديدة من تاريخ كنيسة الإسكندرية العريقة، ذلك السجل الحافل بآلام الأقباط وثباتهم وبطولتهم وشجاعتهم وحبهم لإلههم. وهكذا كانت فترة ما بعد خلقيدونية من سنة ٤٥١م حتى الفتح العربي في سنة ٦٤٢م فترة حرجة في تاريخ الكنيسة. هذه الفترة التي اتسمت بمحاولة الدولة البيزنطية إقحام نفسها في المسائل اللاهوتية الدقيقة دون أن يكون للحكام دراية كافية بهذه المسائل اللاهوتية، ومحاولة فرض سيطرة الحكام البيزنطيين على رجال الكنيسة في مصر بأن يقبلوا إيمانا لم يقر به آباؤهم من قبل.

١ ـ الانبا يؤانس: مذكرات في تاريخ الكنيسة القبطية "ما بعد خلقيدونية حتى الفتح العربي" ص١٢، ١٣.

الباب الرابع

الأقباط تحت الحكم العربى

ا. د. عزيز سوريال عطية

الفصل الأول

الفتح العربى لمصر

مجئ العرب إلى مصر،[1] شأنه شأن مجئ القديس مرقس إلى الإسكندرية، يعد حدثاً هاماً ترك آثارًا بعيدة المدى فى تشكيل مصير هذه البقعة الحساسة من العالم القديم والوسيط. فمصر التى كانت بمثابة مزرعة الحبوب لروما البيزنطية، لم تكن معروفة للعرب فى تاريخ ما قبل الإسلام، لكن يبدو أن عمرو بن العاص، الذى غزا مصر، كان قد قاد قوافل التجارة العربية إلى وادى النيل وأنه زار الإسكندرية وحدّق بدهشة وانبهار فيما كان يراه حوله من روعة وثراء. فلا عجب إذن، أن يطلب من الخليفة الراشد الثانى عمر (٦٣٤-٤٤) إبّان حملته على سوريا وبعد موقعة اليرموك (٢٠ أغسطس ٦٣٦) وبعد الاستيلاء على بيت المقدس ٦٣٨م، أن يأذن له بغزو مصر، درة الأقاليم البيزنطية، والتى كان عمرو بن العاص على دراية تامة بما فيها من ممرات وحصون. فإذا كان الفرس قد استطاعوا أن يستولوا عليها مرتين، فمن المؤكد أن العرب الذين انتصروا على الفرس فى موقعة القادسية (٦٣٦م) كانوا يستطيعون فعل الشئ ذاته بل وأكثر منه، كما أنه بعد حملة سوريا، صارت قوة الجيش البيزنطى الذى كان لا يقهر أشبه بالخرافة. أما الخليفة الذى يبدو أنه استسلم لرغبة عمرو بغير اقتناع منه أثناء وجوده فى بيت المقدس فقد أخذ يراجع نفسه بعد عودته إلى المدينة خوفاً من حدوث نكسة للجيش. فبعث إلى قائده برسالة عاجلة يأمره فيها بالعودة إذا وصلته الرسالة قبل عبوره الحدود المصرية، أما إذا وصلته بعد ذلك، فعليه أن يمضى، وسوف يتضرع المسلمون إلى السماء لكى تكون فى عونه. لكن عمرو المتشكك لم يفضّ الرسالة حتى وصل بفرسانه البالغ عددهم أربعة آلاف إلى مدينة العريش التى تقع على حدود مصر. وهكذا واصلوا سيرهم فى شمال سيناء حتى منطقة البيلوزيوم Pelusium (الفرافرة) وهى قلعة فى شمال شرق سيناء، كانت منذ أمد بعيد تعتبر بوابة الدخول إلى الدلتا، وقد سقطت هذه القلعة فى أيدى المسلمين فى أوائل عام ٦٤٠م أى بعد شهر واحد. وبعد شهر آخر تم الاستيلاء على بلبيس فى شرق الدلتا. وفقدت الحامية البيزنطية ألف جندى تم ذبحهم وثلاثة آلاف أُخذوا أسرى. وسرعان ما وقف العرب بعد ذلك أمام حصن بابليون الاستراتيجى[2] عند

---

١ ـ كتاب ألفريد ج. بتلر "فتح العرب لمصر والثلاثون عاما الأخيرة من حكم الرومان" (أكسفورد ١٩٠٢) وهذا الكتاب هو أوفى المراجع الموثوق بها فى هذا الموضوع.

يلاحظ أن الكتب المعترف بها عن تاريخ مصر تحت الحكم العربى قد أفسحت مجالاً كافيًا لهذا الحدث. ويهمنى أن أشير هنا إلى الكتب التالية لمن يرغب فى الرجوع إليها: س. لين بول S,Lane, Poole "تاريخ مصر فى العصور الوسطى" (لندن، ١٩٢٥) ص ١-٤٨؛ C. Wiet "تاريخ الأمة المصرية" جـ ٤: مصر العربية (باريس ١٩٣٧) ص ١-٨٠ ومثله كتاب "موجز تاريخ مصر" مجلد ٢، الجزء الثانى: الدراسات التاريخية الأخرى "مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى" (القاهرة ١٩٣٢) ص ٩-١٠٣،١ وكذلك فيليب حتىّ P. K.Hitti "تاريخ العرب" (لندن ١٩٥٨) ص ١٦٠-١٧٧. وكل التواريخ الأخرى التى جرى سردها فى أماكن أخرى تخصص اهتماما كافيًا لهذا الحدث الرئيسى. من ضمن الدراسات العربية، كتاب "حياة البطريرك بنيامين الأول" لمؤلفه كامل صالح نخلة (القاهرة ١٩٤٦) ثم كتاب جاك تاجر عن الأقباط والمسلمين حتى سنة ١٩٢٢ (القاهرة ١٩٥١) ص ١١-١١٦ بالنسبة للمصادر الأصلية والوثائق فقد أوردها أ. بتلر...

٢ ـ بناه الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧م) فوق أساس فارسى، وليس لهذا أى علاقة ببابل الأشورية، والأصح أنه تشويه لكلمة بابليون (Bab-al-yun) المأخوذة عن الكلمة المصرية القديمة Crxcized Egyptian Pi- Hapi-n- On or Per-Hapi-n-On التى تعنى مدينة النيل أون "The Nile City of On" وهى جزيرة الروضة المواجهة للحصن. يقول لين بول ص ٣ ملحوظة ٢، إنها كانت تسمى "قصر الشام" فى أيام العرب. (أى قلعة الشموع) لأنها كانت تضاء فى الليل بواسطة الشموع أو المشاعل.

رأس الدلتا. وكان البيزنطيون يحكمون منه مصر السفلى فى جانب ومصر العليا فى الجانب الآخر. لكنهم لم يستطيعوا هنا أن يفعلوا شيئًا سوى أن يضربوا حوله حصارًا طويلاً، ثم يتوغلون فى الوقت نفسه فيما حولهم لإخضاع الأقاليم المجاورة. وجاءت الإمدادات من الجزيرة العربية لتقفز بهذه الفرقة الصغيرة إلى مستوى جيش كبير قوامه عشرون الف جندى. فاحتلوا قرية أم دينين Um Dunain التى تقع إلى الجنوب من هذا المكان،[1] ثم قطعوا الطريق على حامية بيزنطية فى موقعة هليوبوليس (عين شمس)[2] فى الشمال، ثم وصل طابور من الجنود العرب إلى مدينة ممفيس وهاجم إقليم الفيوم فى وسط مصر، وتم كل هذا فى غضون عام ٦٤٠م.

أما قورش المحاصر، والذى أسماه العرب المقوقس[3] ظناً منهم أنه قبطى، فقد اختار أن يتفاوض حول تسليم الحصن. وتم هذا فى يوم الجمعة الموافق ٦ أبريل سنة ٦٤١م. وحاول قورش الذى لم يكن يهتم إلا بمصلحته الشخصية أن يحصل على بعض الامتيازات من الغزاة الذين تشددوا فى تقديم عرضهم المعتاد. وكان ثمة بدائل ثلاثة وهى: اعتناق الإسلام والانضمام إلى المسلمين والاستسلام غير المشروط ودفع الجزية، أو القتال حتى يفصل الله بين المتحاربين. أحدث سقوط هذه القلعة صدمة عنيفة بين الأقباط من أهل مصر وبين البيزنطيين الأجانب، وحدثت اشتباكات صغيرة على الطريق إلى الإسكندرية، عاصمة القطر فى ذلك الوقت. وفى هجوم عاصف استولى العرب على مدينة نيقيوس Nikious [4] التى تقع على فرع رشيد وقتلوا جنود حاميتها فى شهر مايو. ثم تبين الغزاة أن حصار الإسكندرية سوف يمتد طويلاً. فقد كانت لهذه المدينة أسوار حصينة وأبراج قوية وحامية مكونة من ٥٠.٠٠٠ (خمسين الف) جندى مسلحين بعُدة الحرب وبآلات النيران الإغريقية المخيفة وأنها خط اتصال آمن يربطها بالإمبراطورية عن طريق البحر بحيث يضمن إعادة تزويدها بالإمدادات. أما العرب الذين كانوا متفوقين فى المعارك المفتوحة، فلم يكن لديهم اية خبرة فى حروب الحصار. وكان يمكن للإسكندرية أن تصمد إلى ما لانهاية لولا ازدواجية قورش وخيانته، وقد تم سحبه من مصر بأمر الإمبراطور هرقل، لكن ابنه كونستانس الثانى اعاده إلى وضعه فقط بعد وفاة والده فى فبراير ٦٤١م. وهنا أعاد المقوقس فتح باب المفاوضات مع العرب، ومن المحتمل انه كان يأمل فى الاحتفاظ بقيادة الكنيسة المصرية تحت حماية الغزاة. وتبعاً لذلك أوقع اهل الإسكندرية فى ورطة شديدة، ليس بسبب موافقته على تسليم المدينة للعرب فى سبتمبر ٦٤٢م وحسب، بل بسبب موافقته على أن يدفع جميع البالغين للسيد الجديد ضريبة الرؤوس بواقع دينارين من الذهب لكل رأس.

وربما كان هذا هو السبب الذى دفع أهل الإسكندرية للتآمر مع الإمبراطور البيزنطى، الذى استجاب فأرسل أسطولا من ثلاثمائة سفينة شراعية بقيادة الأدميرال عمانويل.. واستطاع

١ - تند ونياس القديمة تقع إلى الجنوب من بابليون وليس إلى "شمال. بتلر ص ٢٣٦

٢ - مدينة (أون) المصرية القديمة.

٣ - ناقش بتلر حقيقة شخصية المقوقس المريبة واثبت ان اسمه قـ ـرش Cyrus، وذلك فى ملحق ص ٢٠٨-٢٢٦. فلم يكن قبطياً ومن المحتمل ان اسمه مشتق من إقليم القوقاز حيث نشأ.

٤ - تقع نيقية Nikious داخل حدود إقليم المنوفية، وهى محطة رومانية قديمه على الطريق بين بابليون والإسكندرية. حددها بتلر ص ١٦،١٧ اعتماداً على Quatremère as the modern Shabshir.

الإغريق استعادة المدينة لوقت قصير، لكنهم سرعان ما طُردوا منها بسبب خيانة داخلية. وبعد ذلك قام العرب بتفكيك أسوار المدينة لكي يحُولوا دون تكرار هذه الأحداث المعادية. وعلى هذا تقرر مصير مصر نهائياً تحت حكم العرب. ويفخر عمرو بن العاص بأنه قد توّج احتلاله للإسكندرية بالاستيلاء على ٤٠٠٠ من قصورها، و٤٠٠٠ حمّام شعبي و ٤٠٠٠ مسرح وأربعين ألفاً من أغنياء اليهود لدفع ضريبة الرؤوس من بين مجمل السكان البالغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ من الرجال بخلاف النساء والأطفال.[١]

يتضمن غزو العرب للإسكندرية واقعة حزينة تتعلق بحرق مكتبتها العظيمة بواسطة عمرو ابن العاص[٢] الذي قيل إنه إنما كان ينفذ أوامر الخليفة عمر. إلاّ أن هذه القصة الرومانسية تنتمي إلى عالم الأساطير. فقد ظهرت لأول مرة في كتابات الرحالة الفارسي (عبد اللطيف البغدادي،[٣] المتوفى عام ١٢٣١م) والمطران اليعقوبي بارهيبراوس Bar Hebræus[٤] (المتوفى ١٢٨٦م) أي بعد الغزو بستة قرون. إذ يزعمان أنه بناء على تشاور الخليفة عمر مع قائد جيش المؤمنين في مكة بعث إلى قائده عمرو بقراره المعروف الذي يؤكد فيه بأنه إذا كانت محتويات المكتبة تتفق مع ما جاء في القرآن فهي أشياء لا ضرورة لها، ومن ثم فهي تافهة، وإذا كانت تختلف مع القرآن، فلابد من التخلص منها على اعتبار أنها خطر يهدد روح الإسلام. وفي كلتا الحالتين، يجب إحراق هذه الكتب. وبعد تسلم عمرو لهذه الرسالة، تمّ التخلص من هذه المحتويات الضخمة باستخدامها كوقود للحمّامات الشعبية بالإسكندرية ستة أشهر، وهي مدة لا تصدق. ولم يشر أحد من المؤرخين المعاصرين إلى هذه القصة. فضلاً عن ذلك، فمن المشكوك فيه أن تكون لمكتبة بطليموس آثار باقية حتى مجيء العرب. والمعروف أن جزءًا كبيرًا منها قد دمر في حروب يوليوس قيصر في سنة ٤٨ ق. م. وحدث في القرن الرابع الميلادي، أن المسيحيين المتنصرين قد قاموا بعمليات منظمة لإحراق المباني عمدًا لإزالة كل أثر للمؤسسات الوثنية، التي لابد أنها قد أصابت المتحف Muscion أو ما بقي منه. إن طبيعة لفائف البردي والمخطوطات المتراكمة في المكتبة كان لابد أن تتحلل نتيجة استعمالها على مدى قرون عديدة قبل الفتح العربي. وبعبارة أخرى، فإن قصة إشعال حمامات الإسكندرية بتراث مكتبة الإسكندرية قصة يجب رفضها باعتبارها بدعة غير تاريخية ولا أساس لها.

أما عن وضع الأقباط في تلك الأزمنة المضطربة، فإن المادة التاريخية المعاصرة تتضارب كثيراً. ويبدو أنهم كانوا يلتزمون بسياسة الحياد. ومع أن العرب كانوا على دراية كافية بطرق القوافل التي تقع على أطراف الصحراء، فإن المسالك الداخلية كانت تحتاج إلى مرشدين (أدلاّء) محليين، ويقال إن هذه المهمة كانت من اختصاص اليهود لا الأقباط. وعلى الرغم من هذا، فإن الأقباط كانوا متباعدين كليةً عن الملكانيين الذين كانوا يضطهدونهم دون رحمة، ولم تتبقَ لديهم أي رغبة في تقديم المواساة أو المساندة لهم. أما الجيوش البيزنطية فكان قد بدأ تقسيمها منذ عهد جستنيان Justinian إلى

---

١ ـ بتلر ص ٣٦٠، لين بول ص ١٢ والأخير يذكر أن العدد ٧٠٠٠٠ من اليهود.١ ـ بتلر ص ٤٠١ ـ ٣٦
٢ ـ بتلر ص ٤٠١ ـ ٣٦
٣ ـ موجز التاريخ المصري
٤ ـ Historia D,... ed. E. Pococke (Oxford, 1663), p. 114 Latin, p. 180 Arabic text.

وحدات محلية منفصلة، بحيث باتت تفتقر إلى وسيلة العمل الموحد.هذه الحقيقة بالإضافة إلى موقف المواطنين الأقباط المعادى للبيزنطيين قد أدت إلى إضعاف الروح المعنوية لجنود الحاميات خصوصًا فى وقت اشتداد الأزمة. كما أن شخصية المقوقس البغيضة لم تؤدِ فقط إلى جعل المقاومة الإيجابية أمرًا مستحيلاً، بل إنها مهدت الطريق للإسراع بوقوع الكارثة التى كانت تلوح فى الأفق. فى تلك اللحظات المنهكة للقوى فى تاريخ مصر، لم يخسر الأقباط شيئاً بتغير الحكام. فقد حاول البيزنطيون أن يقضوا على الحرية الدينية والسياسية فى مصر، فى حين جاء العرب الأوائل يلوحون بأمل الحرية الدينية للأقباط، الذين قُدِّر لهم أن يفقدوا حريتهم السياسية فى كل الأحوال. إن موقف المسلمين من أهل الكتاب أو الذميين فى ظل العهد الذى قطعه الخليفة عمر كان يضمن للأقباط أن ينعموا بهذه الحرية الدينية التى لم ينعموا بها طويلاً تحت حكم البيزنطيين.

أصبح هذا الموقف واضحاً بعد قيام الحكم العربى. فالبطريرك السكندرى[1] بنيامين، الذى ظل لاجئاً مطارداً من خصومه الملكانيين، قد عاد إلى الظهور على مسرح الأحداث مرة أخرى، ولقى تكريم عمرو بن العاص الذى منحه الأمان وأتاح له حرية الحركة لتصريف أمور الكنيسة. كذلك أصدر البطريرك عفوًا عن الكهنة الذين ارتدوا عن المذهب غير الخلقيدونى تحت الإكراه إلى مذهب المونوثيلتية Monotheletism. كما أنه استعاد كثيراً من الكنائس ومنشآت الأديرة. وشهد الأقباط فى عهده وعهد خلفائه حركة إحياءلم يسبق لها مثيل شملت إحياء العقيدة القومية والأدب والفنون وتحررها كلية من المؤثرات اليونانية. وبالنسبة للحكومة فقد تم الاستعانة بالأقباط ووضعهم محل كثيرين من الموظفين اليونانيين الذين كان يحتاج إليهم الحاكم الجديد لإدارة دفة الأمور فى الإقليم الجديد. وربما يكون من الخطأ أن نفترض تبعًا لذلك أن العرب كانوا يفضلون الأقباط أو أن الأقباط قد خرجوا عن طريقهم لمساندة العرب الغزاة. فالحقيقة الواضحة أن العرب لم يمارسوا أى تمييز طائفى بين أتباع المذهب غير الخلقيدونى وأتباع مذهب المونوثيلتية (الملكانيين)، وكان هذا وحده مصدر ارتياح عظيم للأقباط الذين عاشوا فى ظل الاضطهاد الدينى، وعانوا من الفوضى وعدم الاستقرار للإدارة المدنية، ثم وجدوا أنفسهم يعاملون على قدم المساواة مع الملكانيين. والجدير بالذكر مع ذلك، أن العرب لم يطردوا الشخصيات القيادية الإغريقية من الإدارة حبًا فى الأقباط أو إسترضاءً لهم، بل لأن العرب كانوا مهتمين أساساً بتحصيل الضرائب فى هدوء دون اعتبار لأى أسباب أخرى. والأمثلة على ذلك أنهم احتفظوا بثلاثة من كبار الموظفين كان الأقباط يكرهونهم لأنهم كانوا أدوات لحكم هرقل. وكان هؤلاء الموظفون هم ميناس، والى مصر السفلى، وساناطيوس والى الريف،

١ ـ لقد أطلق على كنيسة الإسكندرية للأقباط الأرثوذكس لقب "المونوفيزيقية". ولقد كان هذا التلقيب الخاطئ، نتيجة للتطاحن ضد كنيسة الإسكندرية وذلك للإقلال من مكانتها المرموقة فى قيادة العالم المسيحى المونوفيزيتية.

وبالنسبة للمداخل الخاصة بعقيدة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ارجع أيضاً إلى التصاريح المشتركة للجان التفاوض مع الكنائس الأرثوذكسية (غير الخلقيدونية)، والكاثوليكية والإنجيلية.

See also:
S. I. Girgis, "A Short Introduction to the Coptic Orth :ox Church of Alexandria", St. Pachom's Publications VII, 1987.

وفيلوكسينوس، والى أركاديا والفيوم.[1] ويعطينا الفريد بتلر مؤرخ الغزو العربى لمصر انطباعاً بأن الثلاثة كانوا مرتدين وخونة ثم إنه يسجل هذه العبارة المدهشة "يتساءل المرء تقريباً إن كان يمكن تفسير سلوك المقوقس على أساس النظرية التى تقول إنه كان قد تحول سراً لديانة محمد".[2] والواضح أن الموظفين المحليين، وجامعى الضرائب وحكام الأقاليم كانوا من القبط، وكانت اللغة القبطية قد حلّت محل اليونانية فى المعاملات العادية حتى ظهرت العربية فى أوراق البردى المكتوبة باللغتين.

كان العرب يهتمون أساساً بموارد الدولة، التى كانت تتكون من ضريبة عامة تسمى الخراج، وضريبة الرؤوس أو الجزية، التى كانت تفرض على كل من بلغ سن الرشد من المسيحيين القادرين، الذين حرموا من الخدمة العسكرية وعليهم أن يدفعوا بدلاً نقدياً. وبلغ مجمل ما جمعه عمرو بن العاص إثنى عشر مليوناً من الدنانير الذهبية. أما خليفته الطاغية، عبد الله بن سعد بن أبى السرح، فقد زاد هذا المبلغ الضخم بمقدار مليونين من الدنانير[3]. وأدى ذلك إلى وقوع سلسلة من الثورات المحلية كان أشدها عنفاً وأكثرها دموية انتفاضة البشموريين Bashmuric التى وقعت فى سنتى ٨٢٩ ـ ٨٣٠م فى برارى الدلتا. وانتهى العناد المستميت للبشموريين إلى طردهم وراء البحار حتى سوريا بعد هزيمتهم المحتومة. لم يكن الأقباط فى حال من الرضا الكامل بالحكم العربى، رغم وجود إحساس عام بالتحرر من الاضطهاد الدينى الذى كان البيزنطيون يمارسونه بوحشية. فإن الموارد العامة استمرت فى التدهور فى عهد الأمويين والعباسيين حتى توقفت عند ثلاثة ملايين دينار فى القرن التاسع الميلادى. حدث هذا التدهور نتيجة الزيادة المطردة فى عدد الذين كانوا يتحولون من المسيحية إلى الإسلام هروباً من الضرائب. واستمر هذا التحول حتى بلغ حدًا جعل بعض حكام المسلمين يعمل على وقفه حفاظًا على موارد الدولة من الجزية. ثم أخذ الأقباط فى التوافق والتكيف مع الأوضاع الجديدة، بل نجوا من كل التقلبات الأخرى التى تعرضوا لها بعكس ما حدث للمسيحية فى النوبة وشمالى إفريقيا.

إذا شئنا تلخيص الفوائد التى جناها الأقباط من الغزو العربى، فسوف نرى أن أولها هو الحرية الدينية. كذلك استطاعوا الاستيلاء على كثير من الكنائس الملكانية والمنشآت الدينية التى أخلاها اليونانيون. وفى الإدارة المحلية فإنهم احتكروا الوظائف الحكومية، فصاروا هم وحدهم النسّاخ وجامعى الضرائب ومديرى الإدارة. كما أدى إحياء الثقافة القبطية إلى ملء الفراغ الذى نشأ نتيجة الاختفاء المفاجىء للنفوذ البيزنطى. كما أن عملية تدفق رأس المال إلى خارج

١ . بتلر ص ٣،٣٦٢ لقد تأكد أن سناتيوس كان قبطياً وليس يونانياً لأن اسمه شنودة حسب تقدير كامل صالح نخلة ص ٧،١٠٦ وأنه لعب دوراً مهماً فى إقامة العلاقات بين البطريرك بنيامين، وعمرو.

٢ . بتلر ص ٢٦٣

٣ . يضاف إلى هذا حصيلة الضرائب العينية التى كانت تشمل الحبوب والحيوانات والقماش، والضيافة وكل أنواع السلع اليومية التى يحتاج إليها الجيش العربى، إذ يتحتم على كل دراسة خاصة بالفترة الأولى للحكم العربى فى تاريخ مصر، أن ترجع إلى أوراق البردى العربية التى تحتوى على تفاصيل لا تعد ولا تحصى للحياة الاجتماعية الاقتصادية. ولعل أعظم الإسهامات التى قدمت فى هذا المجال هى كتاب أدولف جرومان من منشورات الآثار وعنوانه "أوراق البردى فى المكتبة العربية" مجلد ٦ "القاهرة ١٩٣٤، ٦٢" ومن الأعمال الأخرى المحدودة مخطوطات مثل،
A.Dietrich. Arabiscbe Briefe aus der Papyrwssammlung der Hamburger Staats undUniversitats- Bibliotek (Hamburg. 1955); Nadia Abbott,

أديرة الفيوم (شيكاغو ١٩٣٧) ولمزيد من التفاصيل يرجع إلى ما ذكره جروهام فى قائمة كتابه الموجز بل الرائع "عالم أوراق البردى العربية" القاهرة١٩٥٢م

مصر عن طريق الحكام العرب فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين تم ضبطها والتحكم فيها، نتيجة قيام بعض الأسر الحاكمة المستقلة مثل الطولونيين (٨٦٨-٩٠٥) والإخشيديين (٩٣٥-٩٦٩) الذين انتزعوا مصر من الخليفة العباسى فى بغداد ثم جاءت الخلافة الفاطمية بعد ذلك أكثر استقلالاً (٩٦٩-١١٧٠) وصار من النادر أن يفرض على الأقباط زى خاص أو يحرم عليهم ركوب الخيل. وعندما أصدر الوالى الأموى عبد الله ابن عبد الملك مرسوماً يجعل اللغة العربية لغة المكاتبات الرسمية فى الدولة، اجتهد الأقباط فى محاولة لاتقان هذه اللغة إضافة إلى لغتهم الأم التى ظلت حية فى الاستخدام اليومى لعدة قرون. وفى نهاية القرون الوسطى انقطع استخدام اللغة القبطية فى الأحداث اليومية لبعض الوقت، وإن ظلت مستخدمة فى الكنائس القبطية حتى يومنا هذا. كانت المتاعب الكبرى ما زالت مخبوءة تنتظر الأقباط فى قادم الأيام. ولم يكن ذلك نتيجة سياسة ثابتة للعائلات الحاكمة، وإنما ذلك بفعل النزوات الفردية للملوك والحكام. وسوف نلاحظ أن حياة الأقباط حتى الآن يمكن فى الحقيقة ارجاعها إلى عاملين أساسيين: أولهما أن النكبات التى لحقت بهم تحت الحكم العربى لم تكن متصلة، وكانت الضغوط المتقطعة عليهم تخلى مكانها لفترات من السلام والتفاهم بين أصحاب الديانات المتصارعة. وباستثناء ما حدث فى عهد الحاكم بأمر الله، كحالة من حالات الجنون، فليس هناك حاكم عربى آخر حاول أبداً إبادة الأقباط أو القضاء عليهم.. والعكس هو الذى حدث، فقد تم الحفاظ على الأقباط باعتبارهم مصدراً كبيراً لموارد الدولة. والعامل الثانى هو الخصائص العرقية للأقباط، وولاء الأقباط الذى لا يهتز ولا يتذبذب لكنيستهم وصمودهم التاريخى فى حماية عقيدة آبائهم وأجدادهم، إذ توحدت كل عناصر التماسك فى بنيتهم الاجتماعية. مما جعل طائفتهم أثراً عتيداً باقياً عبر العصور. وكانت صفاتهم الخاصة محل تقدير لا يختلف عليه أحد من جيرانهم المسلمين أو حكامهم. زد على ذلك، أن الأقباط قد استطاعوا تنمية قدرتهم الخاصة فى إدماج أنفسهم فى الكيان السياسى للدولة الإسلامية ودون أن يفقدوا شيئاً من طريقة حياتهم الروحية أو هويتهم الدينية. لقد اجتازوا كل مخاطر تهدد حياتهم المضطربة، ومازالوا كأقلية راسخة، ينعمون بالأمن والقوة.

الفصل الثانى

القرون الخمسة الأولى

بإعادة السلام وإعلان الحرية الدينية، أو على الأقل معاملة العرب للمسيحيين جميعاً معاملة تسوى بين أصحاب المذهب غير الخلقيدونى وأصحاب المذهب الملكانى، تم تخفيض الجباية البيزنطية من عشرين مليون دينار إلى اثنى عشر مليوناً قيمة ما يدفعونه للعرب كخراج. وفضلاً عن موقف التقدير والاحترام الذى أظهره الحاكم العربي نحو البطريرك القبطى بنيامين، فإن العرب بقيادة عمرو ابن العاص قد فتحوا فتحاً عظيماً. وإزاء تلك التحولات العنيفة لابد أن الأقباط قد عاشوا وقتاً مثيراً وهم يشهدون تراجع السلطة الملكانية الكريهة، بكل جوانبها الدينية والعسكرية. واستمتعوا بفرص سانحة لاحتلال الأراضى والمنازل والكنائس التى أخلاها اليونانيون. وباستثناء قلة من اليونانيين المنشقين، فإن دولاب الإدارة كله أصبح فى أيدى الأقباط. أما أولى النكسات الخطيرة، فقد حدثت فى أثناء حكم عبد الله ابن سعد بن أبى السرح الذى خلف عمرو فى ولايته على مصر. ومما لاشك فيه أن هذا الوالى قد أثرى ثراءً فاحشاً، واستخدم فى سبيل ذلك أساليب للاغتصاب والابتزاز لم تعرف من قبل. وكان هذا هو النمط السائد على مدى القرنين التالين طوال حكم الأمويين والعباسيين. فقد سار الخلفاء على عادة تقليص فترة الولاية على مصر بصفة خاصة حتى لاتتاح لأحد من الولاة فرصة كافية لمد جذوره فى تربتها والاستقلال بهذا الإقليم الغنى. وتبين الجداول التى أعدها ستنالى لين بول[1]، أن عدد الولاة الذين توالوا على حكم مصر بلغ ١٠٨ فى مدة لا تزيد عن ٢٢٩ عاماً. هى الفترة الأولى من حكم العرب التى تمتد حتى عام ٨٦٨م عندما استقل بها أحمد بن طولون وأقام أول أسرة إسلامية مستقلة فى مصر. وتبعًا لهذا فإن أحدًا من هؤلاء الحكام، الذين لم تزد مدة كل منهم عن عامين، لم يكن بوسعه أن يضع مصلحة هذا البلد وأهله موضع رعايته القلبية. وبرغم التنوع فى أساليب الابتزاز والاغتصاب التى استخدموها، فإن حصيلة الجزية أخذت فى التناقص باستمرار، وهى حقيقة تحتاج إلى تفسير مقنع. فباستثناء بعض المواسم التى انخفض فيها النيل أو حتى شهدت انتشار وباء الطاعون، فإن عدم وجود خطة مركزية للعناية بنظام الرى وإقامة السدود وتطهير الترع والقنوات قد أحدثت ضرراً بالغاً بالزراعة بما لا يمكن إصلاحه، وقلّل من قدرة المزارعين على الدفع. حدث هذا على الرغم من زيادة فرض الضرائب المالية وامتداد ضريبة الرؤوس لتشمل الرهبان والكهنة (وكانوا حتى ذلك الوقت معفين منها)، ثم جرى إعداد سجل جديد[2] وضع كثيراً من الملكيات العقارية فى نطاق الضريبة، واستخدم السنة القمرية حيث عدد أيامها أقل[3] كأساس لحساب الضريبة بدلاً من السنة القبطية.

---

١ . مصر فى العصور الوسطى، ص ٤٠٥-٤٨٤.

٢ . أى سجل الأراضى المسيحية أو "الروك" الذى فرضه الحاكم عبيد الله بن الأحداث فى سنة ٧٢٤-٧٢٥م وهكذا رفع قيمة الجزية إلى أربعة ملايين دينار رغم انخفاض سعر الحبوب فى ذلك الوقت، وتكشف أوراق البردى أن المسّاحين كانوا يبالغون فى تقديراتهم لصالح الحكومة، ومن أمثلة ذلك، ضيعة من ١٣٩ فداناً قدرت بمائتى فدان وبناء على شكوى أصحابها تمت مراجعة المساحة وحُددت ب ١٤٨ فداناً. جاك تاجر "أقباط ومسلمون" ص ٨٩.

٣ . تاجر، ص ٨٩.

أدت زيادة الجزية ورفع قيمتها فى الوقت الذى كان يتدهور فيه دخل الفرد إلى إشعال روح الثورة بين المواطنين. وقد جرى إخماد هذه الروح بشراسة ووحشية. ففى الفترة بين ٧٣٩، ٧٧٥م قامت خمس ثورات. وجدير بالذكر هنا أن بعض المسلمين قد انضموا لهؤلاء الثوار فى معارضتهم للقهر المالى الذى كان مسلطاً على عنصرى الأمة. وكانت أعنف هذه الثورات وأخطرها أثراً انتفاضة البشموريين فى سنة ٨٣١م فى أيام حكم الخليفة المأمون، إذ حدث بعد أن عاد الناس إلى الهدوء، أن جاء الخليفة فى زيارة مصر لكى يسترضى شعبها، لكن عمليات القهر تجددت حتى سنة ٨٦٩، حين لجأ آخر ولاة العباسيين أحمد بن المدبر إلى إجراء تعداد دقيق لكل رجال الكنيسة والرهبان فى أديرتهم، ثم ألزم البطريرك سناطيوس بدفع مبلغ كبير من المال نيابة عن الجميع. وبدافع اليأس اختار البطريرك رجلين من أعيان الأقباط هما ساويرس وإبراهيم[1] وأوفدهما إلى بغداد لتوصيل رسالة منه إلى الخليفة المعتز (٨٦٦ ـ ٩) يلتمس فيها تخفيف الجزية. وواضح أن الخليفة قد استجاب لهذا الطلب. ثم تأكد إعفاء رجال الدين من ضريبة الرؤوس وضمان سياسة التسامح الدينى للمرة الثانية بواسطة الخليفة المهتدى الذى خلف المعتز (٨٦٩ ـ ٧٠). وفى عهد هذا الأخير قامت دولة ابن طولون (٨٦٩ ـ ٩٠٥) الذى استقل بمصر ثم الدولة الإخشيدية (٩٣٥ـ٩٦٩م) التى حافظت على هذا الاستقلال. ومن الواضح جداً أن هؤلاء الحكام غير العرب الذين رفضوا أن يولّوا حاكماً عربياً فى مكان إبن المدبر بعد انسحابه، قد عاملوا الأقباط معاملة طيبة، بل اعتمدوا عليهم فى الوظائف الرئيسية تحت إشرافهم المباشر. اثبتت هذه الخطوة فائدتها لكل من الأقباط والحكام الجدد على السواء. أما المشكلة الوحيدة الخطيرة التى تعرَّض لها البطريرك شخصيًا فقد نتجت عن مؤامرة داخل الكنيسة نفسها دبرها أسقف كان قد وقع عليه الحرمان[2]. ويدين ابن طولون بالفعل لأحد المعماريين المسيحيين واسمه ابن كاتب الفرجانى الذى أنشأ له أعظم أثرين معماريين فى عهده وهما: مقياس النيل فى الطرف الجنوبى من جزيرة الروضة والجامع العظيم الذى يحمل اسمه (جامع أحمد بن طولون) ولايزال كلاهما حتى الآن من الآثار الإسلامية العظيمة فى القاهرة. ويجدر بالذكر أن ابن الكاتب قد صمم القوس المدبب Pointed arch خصيصاً لهذا الجامع واستعمله فى بنائه. وعلى هذا يكون قد سبق الأوربيين فى استخدامه بقرنين من الزمان حين ظهر نموذجه الأول فى العمارة القوطية.[3]

١ ـ يعقوب نخلة روفيلة "تاريخ العرب والأمة القبطية" القاهرة ١٨٩٨م، ص٩٤.

٢ ـ كان البطريرك فى ذلك الحين هو خايل الثالث. أما الأسقف المقصود هنا فهو أسقف سخا فى مصر السفلى. وقد توسط للبطريرك إثنان من الكتبة منهم موسى الذى كان سكرتيراً لأحمد بن طولون . كما توسط له اثنان آخران من الموظفين فى مكتب الوزير أحمد الباردينى وهما يوحنا ومكاريوس اللذان طلبا توسيط رئيسهما أن يسمع لابن طولون التماسهما فقبل، وبناء على هذا أطلق سراح البطريرك وخرج من السجن بعد أن وقّع ضماناً بدفع دين مقداره (عشرون ألف دينار)، ضمنها الموظفان الأخيران مقابل تخليص البطريرك من المعاملة المتعسفة التى يلقاها فى السجن. وقد سدَّد البطريرك النصف الأول من الدين ثم أدخل إلى السجن مقابل النصف الثانى وظل فيه حتى تولى الحكم خمارويه بن أحمد ابن طولون فأطلق سراحه (نفس المرجع ص٩٨ـ١٠٠). من المهم أن تعرف أن البابا اضطر أن يبيع إحدى كنائس الفسطاط لليهود فى سبيل سداد المبلغ. مازال اليهود يستخدمون هذه الكنيسة حتى اليوم كمعبد فى مصر القديمة. نفس المرجع ص ١٠٠.

٣ ـ نفس المرجع ص (١٠ـ٩٢)، ستانلى بول، القاهرة ـ(لندن ١٨٩٨) ص. ٤٠٣. استخدم هذا المعمارى المخلص مادة جديدة فى البناء شيد بها عمودين من الطوب الأحمر ليتجنب النظام المتبع الذى كان يقوم على نزع الأعمدة الرخامية من الكنائس القائمة. وللمئذنة سلم خارجى مشابه تماماً لسلم الجر فى مئذنة بسامَرّا، وهى فى الجزء الأعلى من نهر دجلة. وقد يصعب علينا أن نقرر بدقة إن كان المعمارى الذى شيد هذه المئذنة الأخيرة من الأقباط أم كان أرمينيا، إلا أن المؤرخين الأقباط يقررون أنه قبطى.

كل ما وصل إليه الأقباط من مجد حقيقى وما أعقبه من تدهور فى العصور الإسلامية، حدث فى عهد الخلفاء الفاطميين[1] الذين جاءوا من تونس لغزو مصر فى ٩٦٩م وحكموها حتى سنة ١١٧١م. فقد انشأوا القاهرة[2] التى أصبحت فى أيامهم مركزاً لإمبراطورية مترامية الأطراف، تمتد من مراكش غرباً حتى سوريا فى الشرق. وفى القاهرة تجمعت فى أيديهم ثروات طائلة فأخذوا يشجعون الأنشطة الثقافية حتى غدت القاهرة منافساً عظيماً لبغداد فى العالم الإسلامى. كان الفاطميون الأوائل من الخلفاء يتعاملون بمنتهى التسامح مع المسيحيين واليهود، ويتيحون لهم فرص التقدم والرقى. ففى إدارة أول الخلفاء الفاطميين الذى اقام بالقاهرة وهو المعز لدين الله، كان قزمان بن مينا القبطى أحد الشخصيات الرئيسية. وكان يلقب "أبو اليُمن" والذى بقى على ديانته المسيحية حتى آخر لحظة فى حياته. بلغ قزمان أعلى المناصب حتى صار نائبًا للخليفة على سوريا وأظهر مقدرة عظيمة وأمانة ومهارة فائقتين فى أداء واجباته حتى فى أحرج الأوقات، وبخاصة أثناء الحرب مع الأتراك. ثم مات قزمان أعزب وترك ثروته كلها فى يد البطريرك كى ينفق منها على وجوه البر فيما يعود على الكنيسة والفقراء من أبناء الأمة بالخير والفائدة.[3] كان المعز لدين الله الفاطمى يفضل الأقباط ويتعاطف معهم تعاطفاً شديداً ماجعل بعض الكتاب من الأقباط ينسجون حوله أسطورة.[4] وخلفه ابنه العزيز فى الحكم (٩٧٦-٩٩٦م) فواصل سياسة أبيه فى التسامح الدينى وتزوج من مسيحية تنتمى إلى المذهب الملكانى. وبفعل نفوذها عنده اختار أخويها ارسانيوس وأرستيديز وعينهما بطريركين ملكانيين للإسكندرية وانطاكية Antioch، والغى كل مظاهر التفرقة الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة المسيحيين، بل رفع المسيحيين إلى أعلى مناصب الإدارة. وأعفى الأقباط من كل الضرائب غير العادية وسمح للبطريرك بأن يستعيد الكنائس القديمة بل ويبنى كنائس أخرى جديدة. وعندما هاجمت جماهير المسلمين الغاضبة الكنائس منح البطريرك حراسة مسلحة، وأصدر

١ - من ذرية فاطمة الزهراء، ابنة النبى محمد وزوجة على، ابن عمه، وكان رابع الخلفاء الراشدين، وكان الفاطميون من الشيعة المؤمنين بحقهم المقدس فى الخلافة كمعارضين لأهل السنة. وتقيم هذه الطائفة أساساً فى إيران، وعن الفاطميين راجع كتاب——Delacy O Leary "موجز تاريخ الخلافة الفاطمية" (لندن، ١٩٢٣)، وحسن ابراهيم حسن "الفاطميون فى مصر" (القاهرة ١٩٣٢).

٢ - القاهرة فى اللغة العربية تعنى (المنتصرة) وهى تمثل الطور الأخير لتطور المدينة فى العصور الوسطى. أما الأطوار الأخرى فهى الفسطاط The Pavilion التى انشأها عمرو بن العاص على أطراف الصحراء بالقرب من حصن بابليون. أما مدينة العسكر (The Camp) فقد طورها الحكام الأمويون والعباسيون إلى الشمال من الفسطاط (مصر القديمة) لتكون مقراً ملكيا لهم. أما القطائع (القطاعيات Wards; fiefs) فقد بناها ابن طولون جهة الشمال الشرقى واحتفظ بها ابناء الإخشيد أيضاً. أما الطور الأخير فهو القاهرة المحروسة التى مازالت تمتد بعيداً وراء القطائع حيث يقوم الجامع الأزهر. أنظر لين بول ص ٢-٦.

٣ - تاريخ روفيلة ص ١٠٨ - ١١١، جاك تاجر ص ١٢٢ الطبعة الأولى.

٤ - هناك قصة تقول إن ابن كيلبر اليهودى، فى محاولة منه لتوريط الأقباط، اوعز إلى الخليفة المعز بوجود آية فى إنجيل متى تسجل قول المسيح "لوكان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون للجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شئ، غير ممكن لديكم" متى ١٧: ٢٠ لذلك استدعى الخليفة بطريرك الأقباط الذى اكد له وجود هذه الآية. وتبعا لهذا امره الخليفة بأن يصنع هذه المعجزة حتى يثبت صحة اعتقاده الدينى. فظل البطريرك والشعب القبطى ساهرين للصلاة ثلاثة ايام وثلاث ليال. وعندما غفا البطريرك رأى العذراء تقوده فى حلم إلى بيت متواضع يسكنه دباغ جلود بسيط لم يحصل على أى قدر من التعليم. وجد البطريرك فى هذا الرجل ضالته. أى الرجل المؤمن الذى كان يبحث عنه. وفى مشهود بديع مذهل واداء رائع انتقل الجبل امام الجموع. الكهنة والشعب الذين كانوا يرددون ترانيم الرحمة خلف هذا الدباغ الفقير غير المدعى.

اما القصة الثانية فتقول إن الخليفة قد تأثر تأثراً عميقا بهذا المشهد لدرجة انه بدا يبحث فى المسيحية بحثاً منظماً حتى اقتنع بحقيقتها وتعمد مثل المسيحيين وقضى بقية أيام حياته فى التأمل بأحد الأديرة المسيحية بعد ان تنازل عن الملك لابنه. هذه القصة اعاد ذكرها الراحل جرجس سميكة، المدير السابق للمتحف القبطى، لكن أحمد زكى باشا ومحمد عبد الله عنان وهما من الكتاب المسلمين البارزين رفضاها رفضاً عنيفاً. جاك تاجر ص ١٢٠، ١٢٢.

وردت القصة السابقة بتفصيل مسهب فى كتاب "تاريخ البطاركة" (جـ ٢ ص ٩٣، ٩٦ الطبعة العربية ص ١٤٠ - ١٤٥ الطبعة الانجليزية) لكن القصة الثانية لم يأت لها أى ذكر. أما الصلاة التى سبق ذكرها، فقد أقيمت بالكنيسة المعلقة بمصر القديمة، وكان البطريرك هو افرايم السريانى (٩٧٥-٩٨٠م) وهو عندما كان علمانياً كان من الأثرياء، ومشهوداً له بالتقوى.

مرسوماً يتيح له أن يستكمل استعادة الكنائس، وعرض عليه دفع تعويضات للخسائر. وتقبل البطريرك كل شيء عدا المعونة المالية التى ردها إلى خزينة الدولة. وكذلك سمح الخليفة لكل الذين دخلوا فى الإسلام عن طريق القهر والإكراه حرية كاملة فى أن يعودوا إلى المسيحية. ويقال إنه امتنع عن معاقبة أحد المسلمين الذى كان قد تحول إلى المسيحية.[١] هذان الإجراءان يتعارضان بشدة مع روح التشريع الإسلامى.

فى ذلك الوقت ايضاً، أتُيح للأقباط أن يحملوا أرفع أوسمة الدولة وألقابها.[٢] ولقى الفنيون منهم كل مؤازرة وتشجيع ممّا جعلهم يتفوقون فى الحرف والصنايع الدقيقة التى اشتهر بها هذا العصر. فازدهرت صناعة الحُلى والأثاث والجوخ والصباغة وصناعة المعادن وأعمال البياض والهندسة والبناء والعمارة، وصناعة الزجاج العادى والملون، وأبدعوا قطعًا فنية لا تزال موضوع فخر بيّن فى كل من المتحفين القبطى والإسلامى بالقاهرة، شأنها شأن الكنائس والمساجد التى اقيمت فى ذلك القرن. اما الإنتاج الأدبى الخصب فقد تركز معظمه فى الفترة التالية، فترة حكم الأيوبيين. ومع ذلك، فقد كان يمكن للأقباط ان يفخروا فى عصر الفاطميين بكتاب "تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية"[٣] الذى جمعت مادته من المصادر القبطية القديمة التى كانت موجودة فى الأديرة المختلفة وبخاصة دير القديس مكاريوس بصحراء وادى النطرون، هذا الكتاب ألف الفه ساويرس بن المقفع ـ أسقف الأشمونين، وذلك فى عصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦ـ ١٠٢١) ذلك الخليفة ذو السمعة السيئة. كذلك ترك ساويرس بن المقفع أعمالاً صغيرة تتناول مسائل لاهوتية[٤]. لكن المثير حقاً انه ترك مقالات فى اللاهوت كتبها الواضح ابن الرجا[٥] احد المسلمين الذى تحول إلى المسيحية، وكان صديقاً شخصيا للأسقف ساويرس ومعاصراً له. ومثلها كتابات عبد المسيح الإسرائيلى[٦] وهو يهودى تحول إلى المسيحية ووضع مؤلفاته فى القرن الحادى عشر. أما البطاركة المعاصرون[٧] له مثل خرستوذلو Christodoulus (١٠٤٧ـ ١٠٧٧م)، وكيرلس الثانى Cyril II وجبرائيل ابن تريك (١١٣١ـ ١١٤٥م). فقد ألفوا مجموعات

١ ـ جاك تاجر ص ١٢٥، وهو يذكر، استنادا إلى Quatremère احد المسلمين الذى تحول إلى المسيحية باسم "Vasah" وكان يكتبه حرفيا باسم "Wasa" او ويصا. وربما جاك تاجر يقصد Et.Quatremère وكتابه "مذكرات جغرافية وتاريخية عن مصر وبعض الدول المجاورة" ويقع فى جزءين (باريس ١٨١١) لكنه لم يحدد المرجع بدقة. ومن هذه الحادثة ايضاً يضع Neale فصلاً كاملاً فى كتابه "تاريخ الكنيسة الشرقية: بطاركة الإسكندرية" (ج ١١ ص ١٥، ١٩٣، ٦) ولكنه لا يذكر المصدر الذى استقى منه "تاريخ ويصا" ويحتمل أن يكون المقصود بهذا الاسم هو "الواضح إبن الرجا"، الذى تحول إلى المسيحية فى عهد البطريرك فيلثيوس (٩٧٩ ـ٣ ـ ١٠) وفى عهد الحاكم بأمر الله وليس فى عهد المعز. وقد وردت تفاصيل قصته عند صديقه ومعاصره المؤرخ ساويرس بن المقفع اسقف الأشمونيين مؤلف كتاب "تاريخ بطاركة الإسكندرية" مجلد ٢ جـ ٢ ص ١٠ـ١٥.

٢ ـ يذكر روفيلة ص١٤٢من كتابه الألقاب التالية: "الرئيس، هبة الله، الأمجد، الأسعد، الشيخ، نجيب الدولة، تاج الدولة، فخر الدولة، وهذه الألقاب كلها كانت خاصة بالوزراء وكبار رجال الدولة. وإليك بعض الأسماء القبطية الأخرى التى اشتهرت فى عصر الفاطميين: المعلم سرور الجلال، Mastere Surūr al-Jūlāl مراقب اعمال الخليفة المنتصر، أبو الفخرين سعيد وأولاده، الذين تولوا وظائف رؤساء الموظفين، ابو الحسن الأماح امين سر الخليفة الحافظ، الأسعد ابن الميقات، احد الأثرياء الذى اتهمه الوزيرشاور بالاتصال بالصليبيين، أبو الفتوح بن الميقات كاتب شئون الأفراد بديوان الجيش، ابو اليمن بن مكارا وين زنبور الذى كان اميناً للخزينة ووالياً على الريف، ابو سعد بن منصور أبو اليمن وزير الخليفة المنتصر، ابو الفضل بن الأسقف، أمين سر بدر الجمالي: المعلم زيواين ،Master Zuwayn مراقب أعمال الخليفة الحافظ الشيخ احزم، مراجع حسابات الدولة. روفيلة ص ١٦٢ـ٩.

٣ ـ مراجع الفصل الثاني، ص ٢٥ ملحوظة رقم ١.

٤ ـ تاريخ جراف، الأدب المسيحى المكتوب باللغة العربية. ج ٢ ص ٢٩٥ـ ١١٨.

٥ ـ نفس المرجع السابق ص ٣١٨ـ ١٩.

٦ ـ نفس المرجع السابق ص ٣١٩ـ ٢٠.

٧ ـ نفس المرجع السابق ص ٣٢١ـ ٧.

عديدة من القوانين والنشرات الدورية للتعريف بوجوه الإيمان الصحيح. وكذلك من أجل تهذيب اخلاق الأقباط الذين انجذبوا إلى بعض العادات البذيئة مثل عادة الاحتفاظ بالمحظيات. ومن بين الشخصيات التى برزت فى ميادين الاصلاح الاجتماعى والدينى لهذا العصر أبو ياسر القسطل والكاتب مرقس بن القنبر.[١]

إن المجد الذى بلغه الأقباط فى ظل حكم الفاطميين قد انطفأ بريقه وغشيه الظلام بسبب ما ارتكبه الحاكم بأمر الله [٢] الذى كان مصابًا بانقسام الشخصية الجنونى، متعطشا للدماء يتلذذ بقتل المسيحيين واليهود ثم المسلمين كل فى دوره. وكانت البداية حين فرض على المسيحيين أن يرتدوا زياً خاصاً مميزًا، وأن يحمل كل منهم صليبًا زنته خمسة أرطال، كما فرض على كل يهودى أن يعلق حول رقبته جرساً ثقيلا، وطرد المسيحيين من وظائفهم، ثم حرّض الغوغاء على مهاجمة الكنائس وتخريبها. وربما كان أخطر الأعمال التى ارتكبها هدمه للقبر المقدس فى فلسطين وتسويته بالأرض. حتى صارت أعمال النهب والسلب والتدمير والمصادرة للأملاك وسجن الناس وقتلهم، وكل أساليب الإرهاب الشيطانية هى نظام الحياة العادية فى ذلك الوقت. ومن الأعمال البشعة التى اقترفها اغلاق احد شوارع اليهود وقتل كل من فيه من المارة والسكان. ثم إغلاق الحمّامات الشعبية الخاصة بالنساء، ودفن كل من بداخلها من البنات والسيدات أحياء. كذلك أصدر أوامره بمنع النساء من الخروج إلى الشوارع، ومنع الناس من أكل بعض الأطعمة الشعبية (الملوخية مثلاً) وإلاّ تعرضوا للموت. وفى نهاية حكمه وقع الحاكم بأمر الله تحت تأثير بعض الرهبان واصبح زائراً مستديماً لدير حلوان الذى يقع جنوبى القاهرة. وكانت النتيجة المباشرة لهذا الأمر هى تخفيف العبء عن المسيحيين ثم التشدد والصرامة مع المسلمين اتباع مذهب السنة. وفى النهاية اعتنق المذهب الإسماعيلى الذى كان يلقنه إياه رجل إسمه الدرازى (مات١٠١٩) الذى منح اسمه لطائفة الدروز وأعلن الحاكم بأمر الله انه تجسيد لله على الأرض، وانتظر ان تقوم الرعية بعبادته. ثم اختفى فى ظروف غامضة وهو يمارس هوايته فى دراسة الفلك على جبل المقطم. وقد تم تفسير قصة اختفائه تفسيرات مختلفة. فقد قال البعض إنه اعتزل الحياة واختلى بنفسه فى أحد الأديرة المسيحية، فى حين يقرر اتباعه انه يحيا فى صورة إلهية حتى يحين الوقت لعودته الثانية. وربما قُتل فى مؤامرة دبرتها اخته ست الملك التى صارت حياتها مهددة بالأخطار حين أحست انه غير راض عن اخلاقها وشخصيتها.

أما المرحلة التالية من تاريخ الأقباط تحت حكم بقية الخلفاء الفاطميين فهى مزيج من الفرح والحزن. فقد استرد الأقباط حريتهم الدينية كما استردوا معظم الكنائس المهدمة. وقام الخليفة الزاهر (١٠٢٠-١٠٣٦م) - الذى جاء بعد الحاكم مباشرة - بإعادة بناء القبر المقدس. وكان الحدث الأكبر فى تاريخ الأقباط وهو نقل مقر البطريركية من الإسكندرية إلى دمرو Damrū.[٣]

---

١ - روفيلة ص ١٤٩، ٥٧، جراف جـ ٢، ص ٣٢٧، ٣٢.

٢ - كان معاصرًا للبطريرك فيلوثيوس (٩٧٩-١٠٠٣) وزكريا ص ١٠٠٤ - ٣٢، انظر تاريخ البطاركة مجلد ٢ جـ ٢ ص ١٠٠-٥١ (النسخة العربية) وص ١٥٠-٢٢٨ (النسخة الإنجليزية).

٣ - إحدى المدن القديمة فى إقليم الغربية بالدلتا. ورد ذكرها فى مصادر تاريخ ما قبل الإسلام مع شهداتها الأوائل E. Amélineau "جغرافية مصر، فى العصر القبطى" (باريس، ١٨٩٣ط ١ ص ٥٠٥-٦).

التى أطلق عليها مؤرخ البطاركة اسم القسطنطينية الثانية A second Constantinople نظراً لما كان فيها من كنائس رائعة فخمة بلغ عددها سبع عشرة كنيسة. وأخيراً استقرت البطريركية فى القاهرة بجوار قصر الخليفة وتحت حمايته. وقد حدث كل هذا فى عهد البطريرك خرستوذلو Christodoulus (١٠٤٦ـ ١٠٧٧م)، أما خليفته كيرلس الثانى فقد جعل مقر إقامته فى حصن كنيسة القديس ميخائيل بجزيرة الروضة بالقرب من حى مصر القديمة ذى الكثافة السكانية القبطية. كذلك استأنف الأقباط احتفالاتهم الدينية العامة،[1] التى كان الحاكم بأمر الله أوقفها، وأخذت الدولة تشارك فيها مشاركة رسمية. وكان الوزير بدر الجمالى وهو مسيحى من أصل أرمنى يفضل الأقباط. كذلك استقدم بدر الجمالى الافاً من العائلات الأرمنية لكى تعيش فى مصر. وبفضل موظفى البطريركية المتازين أُقيمت علاقات ممتازة مع الممالك المسيحية فى الحبشة والنوبة، وسويت الخلافات الكنسية فى مجمع[2] عقده رؤساء الطوائف بناءً على أمر من بدر الدين الجمالى. ويكشف هذا المجمع عن أبعاد الأسقفية فى هذا الوقت. امّا ما تعرض له الأقباط من متاعب فى أواخر حكم الدولة الفاطمية فلم يكن يمثل سوى جانبٍ من جوانب الفوضى العامة والاضطراب والثورة داخل البلاط الملكى نفسه، إلى جانب المجاعة والطاعون الذى انتشر فى القطر كله. كما أن الجنود الأتراك والسودانيين الذين كانوا يقومون بواجب الحراسة الخاصة للخليفة قد أخذوا فى الاقتتال ودخلوا معًا فى معركة إبادة مهلكة للطرفين، بُغية الاستيلاء على القصر. وحاقت الكارثة القومية بمصر، ووقع الخلفاء الضعاف بين فكى الكماشة، فالصليبيون فى جانب، ووزيرهم شاور فى جانب آخر، ثم التركمان السنيون الذين جاءوا مع شيركوه الذى جلب معه ابن أخيه، صلاح الدين. هكذا تجمعت كل الصراعات العرقية والدينية والطائفية مع صراعات المنافع والمصالح وأخذت تشيع الفساد والخراب حول عرش الخليفة العاجز المنهار. وكانت النتيجة المنطقية فى صالح الوزير السنى الذى تمكن من قهر الخليفة الشيعى العاجز. وهكذا تمكن صلاح الدين من إقامة السلطنة الأيوبية (١١٦٩ـ ١٢٥٠م) وقد تصادف ظهورها مع عصر الحروب الصليبية.

---

١ ـ احتفالات الاقباط التى وضعها معظم المؤرخين والرحالة فى العصور الوسطى من امثال المسعودى، والمسيحى، والقلقشندى، والمقريزى، وابن إياس وغيرهم هى:

(أ) عيد الغطاس، كان الاحتفال به يجرى فى موكب عظيم، حيث توضع المشاعل على ضفاف النيل، وتضاء القوارب الشراعية، ويشارى الناس فى الغوص فى النهر "غطسة الصحة" السنوية أى التى تمنحهم الصحة طول العام . وكان الخليفة وحاشيته وحريمه يشتركون فى مشاهدة هذا الاحتفال البديع.

(ب) عيد النيروز او بداية السنة القبطية الجديدة، وكان الاقباط يحتفلون به بارتداء اللابس الجديدة وإقامة الولائم الفخمة، وأكل الفواكه بكثرة. وكان هذا اليوم إجازة رسمية تقوم فيه الدولة بتوزيع هدايا من النقود على الموظفين.

(جـ) عيد الميلاد Christmas وفيه تعلق الفوانيس على جميع الأبواب، ويجرى توزيع السمك والحلوى فى كل مكان، وكان الناس من جميع الطبقات، العليا والدنيا يشترون الشموع واللعب والحلوى واللابس الجديدة للأطفال.

(د) عيد الشهيد مارجرجس حيث يجرى الاحتفال بتغطيس اثر باق من أصبع الشهيد فى ماء النيل مع الصلاة كى يأتى الفيضان فى موعده. وكقاعدة سكت الحكومة قطعة من النقود لتوزيعها على الموظفين بهذه المناسبة. جاك تاجر ص ١٤٦ـ ١٥٠.

٢ ـ روفيلة ص ١٤٧ـ ٨ يذكر ان اربعين اسقفاً حضروا المجمع وتغيب خمسة بسبب كبر السن او بُعد المسافة. ويقدم الأسقف ايسوذوروس Bishop Isodorus فى كتابه "تاريخ الكنيسة" المكتوب باللغة العربية وهو من مجلدين (هليوبوليس ١٩١٥ـ ١٩٢٣ ص ٣١٣ـ ٣١٥) عرضاً مفصلاً لاثنين وعشرين اسماً من مصر السفلى (الدلتا) ومثلهم من مصر العليا بعدد أجمالى ٤٩ اسقفاً فى مصر كلها فى العصر الفاطمى. كما حضره كثيرون من الاراخنة العلمانيين. القوائم الموثوق بها جمعها هـ منير "مجموع قوائم أساقفة الكنيسة القبطية" الذى نشرته جمعية الآثار القبطية فى سلسلة "نصوص ووثائق" (القاهرة ١٩٤٣) ص ٢٧ يذكر (٤٧) أسقفاً بالإضافة إلى ثلاثة من منطقة العاصمة (مصر، الجيزة والخندق al-Khandaq) وقد إستدعاهم بدر الجمالى لحضور المجمع بالإضافة إلى آخرين لم يتمكنوا من الحضور. من المهم أن نلاحظ ان منير ذكر فى قائمته ٦٦ أبروشيه (أسقفية) فى ظل السلام الذى منحه قسطنطين بالإضافة إلى فيلاى Philae، ذكرها أثناسيوس فيما بعد ص ١ ويستشهد برأى جون رايلاند JohnRyland MSR بتاريخ ١٨٥٣م وربما بنى هذا على أساس قائمة القرن الرابع عشر التى اعدها أبو البركات بن كبر ذاكراً بالاسم ٩٩ اسقفاً من الدلتا والصعيد ص ٥٣ـ ٧ وتذكر قائمة Pococke فى عام ١٧٢٢م (٨٣) اسقفاً، راجع ص ٥٨ـ ٦٢.

الفصل الثالث

عصر الحروب الصليبية

فى زمن الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ـ ١٠٩٩م) وتأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية فى العقد الأخير من القرن الحادى عشر، صارت السلطة الفاطمية فى يد الوزير الأفضل بن الوزير المشهور بدر الجمالى وخليفته، وكان بدر الجمالى مسيحياً من أصل أرمنى ثم تحول إلى الاسلام وقد سار فى تعامله مع الأقباط على سياسة لينة. ومنذ اختفاء الحاكم بأمر الله، تأثرت سياسة الفاطميين عمومًا إزاء الاقباط بعاملين: [١] عداوة الطبقات الدنيا من المسلمين الذين كانوا يتعطشون للسلب والنهب ويكرهون جامعى الضرائب الاقباط كراهية لا تنتهى[٢]، ثم حاجة الحكومة المركزية المستمرة للمال. كذلك فشل الخلفاء فى كبح جماح الغوغاء من المسلمين، فلجأوا إلى طرد الأقباط بطريقة جماعية من الوظائف لتهدئة العامة. لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن الحكومة الصالحة لا يمكن أن يدير جهازها إلاّ الأقباط المقهورون (المطرودون)، وتبعاً لذلك جرت إعادتهم للوظائف. ومع ذلك، فإن البطريرك لم يكن يقبض عليه اويوضع فى السجن استجابة لصيحات العامة من المسلمين، بل فى كثير من الأحيان كان يأتى هذا العنف من داخل الكنيسة ذاتها بفعل أحد الفاسدين من الرهبان أو الأساقفة. ولعل أسوأ مثل لذلك هو ما حدث فى عهد البطريرك خرستوذلو Christoudolus (١٠٤٧ـ ١٠٧٧م) [٣] عندما قام أحد الرهبان بكتابة تقرير ملاه بالافتراءات ضد رئيسه الذى رفض أن يمنحه ترقية، ونتيجة لذلك قامت السلطات بالقبض على خرستوذلو فى دمرو. وصادرت ستة آلاف دينار من خزانة الكنيسة. أما خليفته كيرلس الثانى (١٠٧٩ـ ١١٠٢م) فقد قام يوحنا أسقف سخا[٤] بالدس له والافتراء عليه، ولم ينقذه من الهلاك سوى مجمع مكون من سبعة واربعين اسقفاً قاموا بالتوسط له.

إن التسامح الذى كان يظهره معظم الخلفاء الفاطميين بصورة شخصية تجاه الأقباط لم يحد أبداً من رغبتهم فى زيادة الضرائب المفروضة على الرعايا الأقباط بشتى الادعاءات. وهكذا كانت شهوتهم للمال، أو ربما حاجتهم الشديدة له هى الدافع لزيادة نسبة الضرائب العادية أو غير العادية، فى وقت تطلبت فيه الحرب مع الفرنجة فى سوريا كثيرًا من النفقات. وكان على الأمة أن تتحمل وطأة الأعباء الزائدة، التى كان الأقباط أول ضحاياها. وفى بداية الحملات الصليبية فقط كان من الطبيعى أن يشك الحكام المسلمون فى ولاء الاقباط ويتهموهم بالتعاطف مع شركائهم فى الدين من المسيحيين الذين نزلوا من غرب أوربا إلى الأراضى المقدسة. فهم لا يعرفون شيئاً عن مجمع خلقيدونية، وعن مذهب الطبيعة الواحدة Monophysitism

---

١ ـ "تاريخ البطاركة" جـ ٢ ص ١٨٠ (الطبعة العربية) ص ١٧٤، ٥ (الطبعة الانجليزية)

٢ ـ فى إقليم الغربية فى وسط الدلتا، ذكرت مراراً فى السنكسار وفى تاريخ يوحنا النقيوسى John of Nikiou فى وقت الفتح العربى. إميلينو. جغرافية مصر ص ٤١٠.

٣ ـ "تاريخ البطاركة" جـ ٢ ص ٢١٣، ١٦ (الطبعة العربية) ص ٣٣٢، ٧ (الطبعة الانجليزية)؛ روفيلة ص ١٤٦، ١٤٩.

٤ ـ E. Amelineau, Monuments, XII, VIE D'ABRAHAM, p. 744.

أو مذهب الطبيعتين Diophysitism. فالكل كانوا فى نظرهم مسيحيين، وكان على الحاكم المسلم فى مصر أن يكون يقظاً وأن يزيد من ابتزازهم هذا هو الموقف الذى استمر طوال أيام الحروب الصليبية الحافلة بالكوارث.

من ناحية أخرى، فقد تأكد لدى الأقباط أن الحروب الصليبية كانت إحدى الكوارث الكبرى التى حاقت بالمجتمعات المسيحية الشرقية. صحيح أنهم لم يناموا أبداً على فراش من الورود فى ظل الحكام والملوك المسلمين، ولم يتوقعوا أبداً أن ينالوا كافة حقوقهم فى المساواة مع جيرانهم المسلمين. فهذا الأمر معلق ينتظر بزوغ فجر الحرية والديمقراطية فى زماننا. لذا أدرك الأقباط أن عليهم أن يتنازلوا عن الكثير من امتيازاتهم المادية فى سبيل الحفاظ على تراثهم الروحى. ومع ذلك استطاع الأقباط، أن يتكيفوا مع أوضاع الحكم الإسلامى دون أن يتخلوا عن طريقتهم الخاصة فى الحياة، وكانوا فى أغلب الأحوال ينالون أرفع آيات التكريم من الخلفاء. فقد كانوا هم الكتبة وجامعى الضرائب، وأمناء الخزانة عند الخلفاء. وكان رؤساء الدولة يثقون دائماً فى مهارتهم وأمانتهم، وقد استطاعوا إلى حد ما أن يجعلوا وجودهم أمراً ضرورياً لا غنى عنه فى مجال الخدمة العامة. ولأن الحملات الصليبية كانت تمثل الحروب المقدسة من أجل الصليب المقدس، فقد أثارت عداوة أتباع محمد ضد كل "أتباع الصليب". سواء كانوا من اللاتين أو اليونانيين أو من الأقباط، وهكذا بدأت صفحة جديدة من الآلام التى تحملها الأقباط بصبر لا ينفد. وعلى الجانب الآخر، فإن الكارثة كانت أكثر فداحة، لأن اللاتينيين نظروا إلى أتباع كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية (غير الخلقيدونية) الشرقيين على أنهم منبوذون ومنشقون بل أسوأ حالاً من الملحدين. ووضع فى هذا التصنيف الأقباط، واليعاقبة، والأرمن على السواء، ونجا المارونيون فى لبنان فقط عن طريق خضوعهم لسلطة روما، برغم تعلقهم بعادات الكنسية الشرقية. إن عداوة اللاتينيين ضد المسيحيين الشرقيين تجلت بوضوح فى منعهم من الحج إلى بيت المقدس وزيارة القبر المقدس. وأن طبيعة الأقباط التى تتسم بالورع والتقوى جعلت الحجاج الأقباط يعتبرون زيارة الأماكن المقدسة فريضة واجبة الأداء على كل من استطاع إلى ذلك سبيلا. وأن منع الأقباط من السجود أمام قبر السيد المسيح ونوال البركات بالسير فى طريق الآلام كان بمثابة عملية تفجير أصابت خيال الأقباط وولاءهم بصدمة عنيفة.

إن خلو كرسى البطريرك لمدة تزيد عن عامين بعد وفاة مكاريوس الثانى فى عام ١١٢٨م يمكن إرجاع أسبابه جزئياً إلى عاملين. أولهما: أن عملية سلب أموال الأقباط وإفقارهم بلغت حدًا أعجزهم عن جمع مبلغ بين ٦ آلاف وثلاثة عشر ألفاً من الدنانير لدفعها لخزانة الدولة لإصدار مرسوم تسمية البطريرك الجديد. وكان هذا أساساً نتيجة لزيادة عبء الضرائب من أجل الحرب مع الفرنجة، وثانيا: لأن قادة الأقباط كانوا يخشون أن يرفض الوزير التصديق على نتيجة أى انتخابات قبطية بسبب أوضاع العلاقات الدولية. والأدهى من ذلك أن الموقف ازداد سوءًا بفعل اثنين من الموظفين الكبار اللذين كانا يضمران كراهية شديدة لكل المسيحيين: أحدهما مسلم والآخر سومرى اسمه إبراهيم، وهو الذى ضلل الخليفة حتى صدّق أن الأقباط يجمعون إيراد الكنيسة ويرسلونه لمساعدة الفرنجة[1]. وفى الحال أمر الخليفة بمصادرة

١ - روفيلة، ص ١٥٨، ٩.

الحصيلة المتوفرة لدى الأقباط سواء كانت كنسية أوعلمانية. واستمرت عمليات إنهاك الأقباط حتى اختفى هذان الشخصان من مسرح الأحداث باغتيالهما أثناء ثورة القوات المسلحة. وحل محلهما مسيحى ملكانى قام بالتوسط للأقباط عند الوزير أحمد، حفيد بدر الجمالى، وعن طريق هذه الوساطة سمح لهم الوزير بأن يرشحوا له اسم البطريرك ووقع اختيارهم على أحد الكتبة من العاملين فى الديوان، اسمه أبو العلا، عاش أعزب وكانت حياته الوظيفية وشخصيته فوق كل الشبهات، واستطاع جبرائيل بن تريك (١١٣١ـ ١١٤٥م)، وهذا هو اسمه الذى تسمى به بعد سيامته، أن يقود سفينته جيدًا فى تلك الأيام العاصفة.[١]

وأخيراً انتهى حكم الفاطميين بكارثة خطيرة أضرت بالمسيحيين ضررًا أبلغ وأشد مما أحدثته عند المسلمين، وكانت هذه الكارثة هى إحراق عاصمة الفسطاط القديمة (١١٦٨م) بواسطة شاور الذى كان وزيرًا للعاضد، آخر الخلفاء الفاطميين (١١٦٠ـ ١١٧١م)حتى لا تقع فى أيدى أمالريك Amalric. وقرَّر شاور أن يقضى على توقعات الصليبيين فى تحقيق أى نصر بأن صبَّ على مدينة الفسطاط الاستراتيجية، عشرين ألف برميل من النفط، واستعمل رجاله عشرة آلاف شعلة لإشعال النار فيها. واستمر الحريق أربعة وخمسين يومًا، مما اضطر السكان للهرب منها.[٢] ويعطى المؤرخون من الأقباط[٣] انطباعًا بأن الفسطاط كانت تسكنها أغلبية من الأقباط، ثم جرى تخريب كل بناءٍ مشيدٍ بين ليلة وضحاها، وهذه إحدى المصائب التى جلبتها الحروب الصليبية بطريق غير مباشر.

فى ذلك الوقت، حدثت فى تاريخ مصر عملية تغيير هائلة. ففى حين كان الفاطميون الشيعة يتعرضون لتهديد الصليبيين القادمين فى الطريق، كانت الجيوش السنية بقيادة السلطان نور الدين فى سوريا، تتحرك إلى مصر بقيادة شيركوه لتساعد فى الدفاع عن مصر ضد المسيحيين وهم العدو المشترك. وعند انسحاب الصليبيين بقيت هذه الجيوش فى مصر، بحجة حماية الخليفة. وبعد فترة قصيرة تم اغتيال شاور. وبمفارقة غريبة أعلن الخليفة الشيعى أنه قد اختار شيركوه السنى وزيرًا له. وكان ضمن ركب شيركوه ابن أخيه الشاب، صلاح الدين، الذى تولى زمام الوزارة بعد مقتل عمه. ولاح فى الأفق أن تغيير الأسرة الحاكمة بات وشيكًا. وعند موت آخر الخلفاء الفاطميين، قضى صلاح الدين نهائياً على خلافتهم الوهمية وصعد إلى قمة السلطة فى مصر. كانت فترة الانتقال بين حكم الفاطميين وتولى الأيوبيين، فترة حزينة امتلأت بالاضطراب وغياب الأمن بالنسبة للجميع. وافتتح صلاح الدين حكمه كوزير بطرد الأقباط من وظائفهم، وهو إجراء اضطر إلى سحبه بعد استقرار الأمور من أجل إدارة شئون الحكم بطريقة سليمة. وصارت عملية إذلال الأقباط سياسة معلنة، ففرض عليهم ارتداء زى خاص وحرَّم عليهم ركوب الخيل، كما فرض عليهم الغرامات الباهظة، واضطروا أن يبيعوا

---

١ ـ كامل صالح نخلة هو الذى كتب ترجمة عربية لحياة هذا البطريرك فى مجلد كامل (القاهرة ١٩٤٧) أنظر ص ٣٧، ٤٤ عن المصادرة وزيادة ضريبة الرؤوس.

٢ ـ لين بول، "مصر فى العصور الوسطى"، ص ١٨٤، ١٨٥. ص ١٤٠، ١٤٢، روفيلة ص ١٥٩، ١٦٠، يؤكد أن غالبية سكان الفسطاط كانوا أقباطاً.

٣ ـ روفيلة ص ١٥٩.

املاكهم لمواجهة هذا الابتزاز. واضطر كثير منهم إلى التنازل عن أراضيهم وحرياتهم للعرب مقابل حمايتهم، وآخرون اعتنقوا الإسلام للتخلص من القهر والاغتصاب، وبالأخص، أولئك الذين كانوا يحتلون الوظائف العليا، فقد اختاروا الطريق الثانى حتى يحتفظوا بحياتهم ووظائفهم. وأبرز الأمثلة على ذلك، هو ما تعرضت له تلك الأسرة القبطية العريقة من أهل أسيوط. وكان كبيرها يسمى زكريا بن أبي المليح بن مماتي، الذى حاول دون جدوى أن يخفف عبء الضرائب والعقوبات الباهظة، واضطر فى نهاية الأمر أن يغير اسمه ويعتنق الإسلام هو وأولاده. وهكذا تمكن من الاحتفاظ بوظيفته كرئيس لديوان المال بالمملكة (وزير الخزانة) وهى وظائف الشرف التى انتقلت إلى ابنه. وقد عاصر آخر الخلفاء الفاطميين كما عاصر صلاح الدين.

كان شاعراً على قدر من الجدارة غير قليل، وكاتبًا متميزًا اشتهر بدراسة عن الدولةالمصرية[1] فى زمن صلاح الدين، وهى تحوى أقدم سجلات القطر. وقد توفى الأسعد بن مماتى فى حلب فى سنة ١٢٠٩م.

إن أهم الآثار الباقية من عصر صلاح الدين هى القلعة المعروفة باسمه فى القاهرة. هذه القلعة بناها مهندسان قبطيان هما أبو منصور وأبو مشكور،[2] على جبل المقطم. ورغم كل هذا، فقد قررت السلطات الأيوبية هدم كاتدرائية القديس مرقس بالإسكندرية[3] حيث تحتل موقعاً يطل على الميناءين الكبيرين بالمدينة. وكانت حجة الأيوبيين فى ذلك أن الكاتدرائية هى بطبيعتها قلعة كبيرة يمكن للصليبيين أن يحتموا بها لو أمكنهم النزول إلى الإسكندرية. كذلك قام صلاح الدين بإرسال حملة لتأديب مملكة النوبة المسيحية، وكذلك العناصر القبطية الأخرى المقيمة فى الأطراف البعيدة من صعيد مصر والتى لم تكن خاضعة لسلطته. ثم شهد عام ١١٧٣م اكبر عملية غزو وتدمير إسلامى للنوبة حيث جرى تخريب دير القديس سيمون الحصين القريب من أسوان، بالإضافة إلى أحد الأديرة الأخرى فى إبريم Ibrim. بعد ذلك تم جمع السكان بما فيهم الأسقف المونوفستى (المؤكد العقيدة الصليبية الواحدة) فى السجن وبيعهم فى سوق العبيد. كذلك قام جنود الأيوبيين بهدم مدينة قفط القبطية الغنية، وتسوية مبانيها بالأرض، وبقيت قفط منذ ذلك الوقت حتى اليوم قرية فقيرة بائسة.

بعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين وبعد أن توج هذا النصر بسقوط بيت المقدس فى سنة ١١٨٧م. استعاد الأيوبيون هدوءهم واستقرارهم، وأخذوا فى تغيير سياساتهم المتعصبة

---

١. "كتاب قوانين الدواوين" طبعة عزيز سوريال عطية (القاهرة ١٩٤٣)، عن حياة بن مماتي، انظر ص ٨، ٢٨. أما بالنسبة "للروك" أو سجل الأراضى الممسوحة فى مصر، انظر ص ٨٥، ٢٣٦. يحتوى الكتاب أيضاً على فصول عن النيل، والرى، والقنوات، والسدود، والزراعة والمساحة، ووظائف الدولة، والمعادن، والموازين والمقاييس، وكذلك عن المال وضرائب الغابات، وعن المواسم والتقويم الزراعي، إلخ. ويكشف الكتاب عن معرفة عظيمة وقوة مرجعية. النسخة الأصلية التى أعدت لصلاح الدين وفيها بيان بمساحة الأراضى بالفدان ونظام الضريبة فإنها مفقودة، ولكن ما بقى منها فى المخطوطات الأخرى يعد وثيقة هامة لا تقدر بثمن. وهذا الكتاب هو واحد من أعمال ابن مماتى الكثيرة.

٢. روفيلة ص ١٧٠.

٣. بناها البطريرك أجاثوس (٦٦٢- ٦٨٠) الذى خلف البطريرك بنيامين، وكان ممن شهدوا الفتح الإسلامى وكانت تقع فى مكان بوكاليس Baucalis القديمة، وكانت ذات أبعاد مهيبة ويقال إن الأقباط عرضوا دفع مبلغ (٢٠٠٠) ألفي دينار لإنقاذها من الدمار دون جدوى.

ضد الأقباط. فمنحهم السلطان ديرًا بجوار "القبر المقدس"، مازالوا يمتلكونه حتى الآن. كذلك استعاد بعض الأقباط مناصبهم الرفيعة فى إدارة الدولة، واسترد البعض الآخر ثروته الضائعة ورفاهيته. واختار صلاح الدين أحد الأقباط هو صفى الدين بن أبى المعالى، الملقب بابن شرف، أميناً لسره، وتولى ابن الميقات، وهو قبطى أيضا، منصب رئيس ديوان الحرب فى عهد العادل سيف الدين (١١٩٩ـ ١٢١٨م) المعروف فى سجلات الغرب التاريخية باسم Saphadin أى صفاء الدين.

وفى أيام الحملة الصليبية على دمياط، تعرّض سكانها الأقباط للقسوة والمعاناة على يد اللاتين. وفى أثناء الحرب ضد لويس التاسع (١٢٤٩ـ ١٢٥٠م) وقف أعيان الأقباط إلى جانب السلطان[1] ضد الصليبيين.

ظلت اللغة القبطية حية فى الاستعمال اليومى، حتى عصر الأيوبيين رغم الإحساس بأن اللغة العربية قد أصبحت تشكل تهديداً لاستمرارها. ومن ثم نهضت فى تلك الفترة جماعة من العلماء الذين أخذوا فى تأليف الكتب المهمة فى قواعد اللغة القبطية، ووضع القواميس للمحافظة عليها. كانت للاقباط مدارسهم الملحقة بالكنائس وكانوا يودعون هذه المخطوطات القبطية لتكون فى متناول التلاميذ.[2] ومن بين تلك الشخصيات الفذه فى هذا الميدان أبناء العسال الذين برزوا وازدهروا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر[3] وارتفع ثلاثة منهم إلى أعلى مناصب الإدارة فى الدولة الأيوبية، وكانوا يتميزون بدرجة عالية من التعليم، ومعرفة عميقة باللغتين القبطية والعربية بالإضافة إلى اليونانية. ومن الأعمال الأخرى التى ظهرت فى تلك الفترة كتاب، تاريخ الكنائس والأديرة المصرية والدول المجاورة، وقد نسب هذا الكتاب النفيس إلى أبى صالح الأرمنى[4] ولكن الاحتمال الأكبر أن مؤلفه هو أبو المكارم سعد الله ابن جرجس بن مسعود. أما كتاب تاريخ العالم لمؤلفه المكين جرجس بن العميد[5] (المتوفى١٢٧٣م) فقد كان معروفاً فى أوربا من زمن بعيد، وتمت ترجمته إلى مختلف اللغات منذ القرن السابع عشر. وقد استفاد من هذا الكتاب المؤرخون المسلمون فى العصور الوسطى ومنهم المؤرخ العظيم المقريزى (١٣٦٤ـ ١٤٤٢م). أما يوساب، أسقف فوة[6] الذى توفى بعد عام ١٢٥٧م. فقد وضع تكملة ممتازة لكتاب

---

١ ـ روفيلة ص ١٨٣، ٩ يقرر أن عدداً كبيراً من ذوى الأسماء المتميزة فى الإدارة أو بالثروة أو بالتعليم وقفوا إلى جانب السلطان وساندوه.

٢ ـ جراف Graf جـ ٢ ص ٣٣٣، ٤٤٥ حيث يذكر عدداً كبيراً من الكتاب، منهم مؤرخون، ومفسرون، ومعلقون، وعلماء نحو اللغة وغيرهم من الفنان.

٣ ـ هؤلاء هم الصافى أبو الفضائل، الأسعد أبو الفرج، حبيب الله، ثم المؤتمن أبو إسحق إبراهيم. ويبدو أنهم ماتوا جميعا قبل سنة ١٢٦٠م. إن تنوع كتاباتهم فى مجالات الدين والفلسفة تحتاج إلى بحث خاص. فقد كانوا هم المؤسسون للدراسة اللغوية القبطية. وإن كان لابد من أن نذكر أنهم لم يكونوا وحدهم فى هذا الميدان. أنظر جراف جـ ٢ ص ٣٩٨، ٤٠٣، ٤٠٧ على التوالى.

٤ ـ نفس المرجع السابق جـ ٢، ص ٣٣٨، ٣٤٠ ثم B;A.T.Evetts الكنائس والأديرة وبعض الدول المجاورة المنسوب إلى أبى صالح الأرمنى (طبعة اكسفورد، ١٨٩٤ ترجمة ١٨٩٥م)

٥ ـ جراف جـ ٢ ص ٣٤٨، ٣٥١، Thomas Erpenius "تاريخ العرب المسلمين" لندن (١٦٢٥م)، صمويل بركلس "التاريخ الإسلامى" كتبه بالعربية جورج الماشين George Elmacin، فى بركلس " زيارته للحج" (لندن١٦٢٦)وكتاب Pierre Vattier, L' histoire mahométane ou les quarante-neuf Califes du Nacine (Paris, 1657) هناك قطعتان من هذه الحولية فى المخطوط الموجود فى المتحف القبطى: انظر مرقس سميكة "كتالوج المخطوطات القبطية والعربية فى المتحف القبطى، الكنائس الرئيسية فى القاهرة والإسكندرية وأديرة مصر مجلدان (القاهرة ١٩٣٩، ٤٢، مجلد ٢ رقم ٦١٠، ٦١٣، ص ٢٧٥، ٦).

٦ ـ جراف جـ ١١، ٣٦٩، ٣٧١، ويعرف أيضاً بابن المبارك، وتاريخه لم يطبع حتى الآن بطريقة منظمة. لايزال مخطوطاً فى دير السريان والملكية الخاصة لورثة المرحوم هيجومينوس فيلوثيوس Hegomenos Filutheus Awad وجرجس فيلوثاوس عوض استخدم عوض كامل نخلة المخطوط الأول فى وضع تاريخ حياة البابا كيرلس الثالث بن لقلق (طبع فى دير سيدتنا بدير السريان ١٩٥١م)For Fuwah or Fouah, see Amélineau, Géographie, pp. 244-5, 484.

"تاريخ البطاركة" وإن كان من المستحيل أن نذكر كل الكتّاب هنا، فإنه لا يمكننا بأى حال أن نتجاهل اسم كيرلس بن لقلق الذى تولى منصب البطريرك منذ ١٢٣٥- ١٢٤٣م. وكان شخصية يشتد حولها الجدال وقد ترك لنا عددًا كبيرًا من كتب القانون، وخدمة القداس والدراسات الدينية.(١)

فى بداية الحروب الصليبية، التزم الأقباط موقف الحياد الكامل بين اللاتين و المسلمين. وكان انشغالهم بمتاعبهم الداخلية قد وضعهم موضع الدفاع عن النفس، بطاقة تكفى فقط لمواجهة ضغوط الحكام ذوى النزوات المتقلبة، أو لجمع الأموال المطلوبة منهم. وكانت فترات التسامح هى التى تنفخ فيهم الحياة، وسرعان ما يدب فيهم النشاط والحيوية، فيظهرون مقدرة غير عادية فى استعادة أوضاعهم وأداء دورهم. وهذا واضح من دراسة مسيرتهم تحت حكم الأيوبيين، فلم تكد تنتهى فترة الاضطهادات الأولى، حتى استعادوا وضعهم فى الإدارة واستردوا ثروتهم الضائعة. وظهرت حيويتهم فى غزارة إنتاجهم الأدبى، بل إنهم وجدوا أنهم قادرون على المشاركة فى الدفاع عن وطنهم الأم مصر ضد الغزاة اللاتين جنبًا إلى جنب مع جيرانهم المسلمين. ولسوء الحظ فإن هذا الاتجاه الصحيح لم يستمر طويلاً بعد تغيير الأسرة الحاكمة. لقد قيل إن حكم المماليك منذ ١٢٥٠م لم يكن سوى استمرارلنظام الأيوبيين. وقد يكون هذا الرأى صحيحاً فى بعض جوانبه مثل مواجهتهم لسياسة التوسع التى كان يتبناها الصليبيون، أو تنمية التجارة الدولية بخلاف ذلك، فإن المماليك كانوا حقاً أسرة من العبيد الذين اعتقهم سادتهم. وكانت ثقافتهم الإسلامية لا تتعدى القشور. فهم لا يشاركون رعاياهم أمالهم ولا يتكلمون لغتهم. وفي تطاحنهم على الحكم تعاقبت عمليات الاغتيال الواحدة تلو الأخرى، ولم تتحقق وحدتهم أبداً إلاَّ فى مواجهة العدو الخارجي المشترك. ونتيجة لغياب الأمن واشتداد الفقر تحت حكم المماليك، دُفع المواطنون إلى حالة اليأس واللامبالاة. وكانوا كلما ارتقى الاقباط فى الثروة والمنصب لا لشىء إلاَّ لأنهم قادرون على إظهار عبقرية عظيمة فى إدارة شئون الدولة المالية، تذمرت الجماهير الفقيرة المحرومة وأخذت تطالب بطردهم من وظائفهم. وكان هياج الغوغاء وصخبهم هادرًا قويًا بدرجة لم يستطع حتى طغاة المماليك السيطرة عليهم. وبلغ تدمير الكنائس القبطية حدًا ينذر بالخطر لدرجة دفعت بعض الرهبان الأقباط للقيام بأعمال انتقامية للرد عليهم، فجرت عمليات إحراق ادت إلى تدمير كثير من المساجد ومئات المنازل تدميراً كاملاً. وفضلاً عن حالات العنف المتقطعة، والاضطهاد الشعبى، فإن السجلات تبين أن عمليات فصل الأقباط من الوظائف قد تكررت مراراً فى الفترة من ١٢٧٩ إلى ١٤٤٧م. وفى كل مرة يحدث فيها هذا الفصل كان جهاز الدولة يصاب بالشلل التام، فيضطر الحاكم إلى اللجوء إليهم باعتبارهم الشريحة الوحيدة فى المجتمع المصرى القادرة على إصلاح الوضع المتدهور. هكذا دارت دائرة الشر الخبيث. اما الصليبيون فكل ما فعلوه هو أنهم اشعلوا عداوة المماليك ضد الأقباط وهم فئة لا يمكن الاستغناء عنها. وتشير التقارير إلى أن عدد الكنائس التى دمرت فى إقليم القاهرة وحده أثناء تلك الفترة بلغ اربعاً وخمسين كنيسة بالإضافة إلى عدد من الأديرة. واضطر العديدون من الأقباط إلى أن يعلنوا إسلامهم إسميا ويقال إنهم كانوا يضطهدون

١- انظر جراف ص ١١، ص ٣٦٠-٩، والملحوظة السابقة.

المسلمين تحت غطاء التحول.[١]

ظلت مشاكل الأقباط حادة حتى القرن الرابع عشر. ففى سنة ١٣٦٥م قام الصليبيون بعملية نهب وحشية للمسلمين والأقباط على السواء. كانت الوصية على إحدى الكنائس القبطية فتاة مقعدة، وابنة كاهن اسمه جرجس أبو الفضائل، لم يشفع لها أن أكدت مسيحيتها برسم علامة الصليب، واضطرت الفتاة المسكينة أن تُسلِّم للصليبيين كل ثروتهاحتى تنقذ الكنيسة من النهب والتخريب. وعلى الجانب الإسلامى، قامت السلطات بجر البطريرك القبطى يوحنا العاشر Yuhannes (١٣٦٣ـ ١٣٦٩م) إلى المحكمة حيث تعرض هو وطائفته لكل أنواع المهانة والإذلال ومصادرة الأملاك. وفى أواخر العصور الوسطى، اتخذ إجراء صغير لتخفيف الاضطهاد نتيجة للتدخل الأجنبى من ثلاث جهات. الجهة الأولى هى الإمبراطور بالقسطنطينية الذى تفاوض مع المماليك نيابةً عن الأقلية الملكانية فى مصر، رغم أنه هو نفسه كان يتعرض لمضايقات الأتراك العثمانيين. أما الجهة الثانية فكان ملك أراجون الذى كانت بينه وبين مصر علاقات طيبة، والذى حث السلطات المصرية على إعادة فتح الكنائس فى مصر والأرض المقدسة. أما الجهة الثالثة والأهم فهى النجاشى Negus ملك الحبشة، الذى هدَّد السلطان بالانتقام من المسلمين فى الحبشة وبتحويل مجرى النيل حتى يرغمه على تخفيف الاضطهاد عن شركائه فى العقيدة من الأقباط المصريين.

وفى القرن الخامس عشر جرت محاولة مجهضة لرأب الصدع بين روما من جانب وبين الأقباط والأحباش على الجانب الآخر، فى مجمع فيرا ـ فلورنسا (١٤٣٨ـ ١٤٣٩م). كان يوحنا Yuhannes رئيس دير القديس أنطونيوس ونيقوديموس رئيس دير الأحباش بأورشليم، يمثلان دولتيهما فى المجمع. ونُشر مرسوم الاتحاد وظهر توقيع يوحنا على مرسوم الاتفاق مع اليعاقبة الذى أصدره البابا يوجينوس الرابع Eagenuis IV، ولكن بقى مرسوم الوحدة فى خانة الإهمال من جانب الأقباط، وظل الباباوات يحثون الأقباط على الاتحاد مع روما دون جدوى. حتى بعد الغزو التركى (١٥١٦ـ ١٥١٧م). وفى سنة ١٥٨٦م حضر وفد كبير من روما ونزل عند البطريرك يوحنا الرابع عشر (١٥٧١ـ ١٥٨٦م) وكان رجلاً طيعًا سهل الانقياد. وعقد مجمعًا لمناقشة فكرة الاتحاد مرة أخرى، ووافق البطريرك يوحنا وتغلب رأيه على كثيرين من الأساقفة. وأعدت اتفاقية الاتحاد للتوقيع، وإذ بالبطريرك يموت بالليل قبل أن يضع توقيعه عليها ودُفنت هذه المحاولة معه.

---

١ ـ تاريخ الاقباط طبعة ويستنيلد (جوتنجن ١٨٤٥) ص ٢٩، ٣٣ (العربية)، ٧٠، ٨١ (الألمانية)، روفيلة ص ٢٠٤، ٢٦١، جاك تاجر ص ١٧٣، ٢٠٦، عزيز سوريال عطية، "الصليبيون فى اواخر العصور الوسطى" (لندن ١٩٣٨) طبعة ٢ نيويورك ١٩٦٥، ص ٢٧٢، ٨ ثم موسى ——— "المماليك او اسرة العبيد التى حكمت مصر" ١٢٦٠ ـ ١٥١٧م (لندن ١٨٩٦م)، باسم، لين بول "مصر فى العصور الوسطى" ص ٢٤٢ جـ . وفيات Wiet "مصر العربية" ص ٢٨٣، وفاولر «مصر المسيحية» ص ٩٦.

الفصل الرابع
العصور الحديثة

الاتراك العثمانيون:

إن اختفاء السلطنة المملوكية بعد الغزو التركي لمصر بقيادة سليم الأول في عام ١٥١٧م لم يكن يعني الإبادة الكاملة للمماليك كعشيرة. وكان لإعادة تنظيم الدولة تحت السلطان الجديد هدف مزدوج: الأول، هو القضاء نهائياً على أي إمكانية تسمح لأي مغامر بانتزاع هذا الإقليم العظيم من أيدي السلطان، أما الثاني، فهو الحصول على جزية كبيرة سنوياً باعتصار حياة السكان، لذلك وزّع سليم السلطة بين ثلاثة منافسين لكي يحتفظ بتوازن القوى بين يديه. فنائب السلطان، أو الباشا، كان مختصاً بجمع الجزية وكانت مدة التزامه قصيرة في العادة حتى لا يتمكن من مد جذوره في تربة مصر. ثم كان لحامية الجيش القومية مجلسها المستقل. واخيراً، ترك أمر الحكومة المحلية للأقاليم في عهدة المماليك. حقق هذا النظام هدف السلطان الأساسي بدرجة رائعة، لكنه، جلب الخراب في نفس الوقت على مصر. ودون الدخول في تفاصيل مؤسسات الحكومة العثمانية، فيكفي أن نقول إن البلد قد أصبح فريسة لثلاث وكالات للضرائب، بدلاً من وكالة واحدة، واستمرت سلطة المماليك السيئة في ممارسة وحشيتها المعتادة. ومع أن الإدارة كانت ذات شخصية إسلامية، إلاّ أنها لم تكن تراعي أي اعتبارات دينية فيما يتعلق بالأمور المالية. وفي هذه الناحية، لم يكن هناك أي تمييز بين مسلم وقبطي. فقد أصبح كل منهما خاضعاً بالمثل لجهاز ثلاثي لفرض الضرائب في وقت كانت مصر قد فقدت فيه مصدرًا رئيسيًا للدخل بسبب التدهور السريع في تجارتها الدولية في العصور الوسطى. هكذا دخلت مصر أحلك فترة في تاريخها الطويل بمجيء الأتراك العثمانيين.

دخل الشعب المصري كله في حالة من السُبات والبلادة. ولم يكن الأقباط استثناءً من القاعدة. إن الأقدار قد رسمت لهم بحكم الطبيعة والنشأة أن يلعبوا الدور البارز في إدارة اقطاعيات المماليك وتدبير أمور المال والضرائب. ومن الخطأ أن يزعم احد أنهم لم يعانوا ضغوطاً، لكن كانت تلك الفترة، في مجملها واحدة من فترات الهدوء البائس إذا قورنت بفترات القهر والاغتيال في أواخر حكم المماليك. وضمن الوضع العام لكل المصريين، تناقص عدد الأقباط بسبب وباء الطاعون والفقر. وفقدت القاهرة بريقها وأصبحت مدينة من الدرجة الثانية. وإنه ليصعب علينا الحصول على صورة واضحة لمصر في تلك الفترة من مصادر هزيلة "بصورة غير عادية". ففي سنة ١٧٦٧م انتهى صعود المماليك بقيام علي بك الكبير بطرد الباشا التركي وإعلان استقلال مصر. وسرعان ما ضمّت إمبراطورية علي بك القصيرة العمر كلاً من سوريا والحجاز. وفي النهاية، جاء سقوطها العاجل في عام ١٧٧٣م عن طريق مؤامرة مملوكية ومكيدة سرية من جانب الترك. وحدث في أثناء هذه الانقلابات،ان تقدم بعض الأقباط في حاشية سادتهم المماليك فأصبح المعلم رزق [1] رئيساً لدار سك العملة والمستشار الأول في المسائل

---

١ - روفيلة ص ٢٧٠ - ٣.

المالية عند على بك الكبير.

ومن بين أتباع زعماء المماليك الآخرين، هناك أسماء أخرى مثل الأخوين المشهورين[1] إبراهيم وجرجس الجوهرى اللذين جمعا ثروة أسطورية وحازا احترام المعاصرين بعامة من المسلمين والمسيحيين على السواء. فإبراهيم الذى فقد ابنه الوحيد، قد وهب معظم ثروته للكنيسة القبطية. وهناك قائمة بها ٢٣٨ وثيقة[2] تحمل اسمه تشير إلى عطاياه الكثيرة للأديرة ومؤسسات البر الفردية فى المجتمع. وقد استأجر عددًا من الكتبة لنسخ كتب اللاهوت القديمة لتوزيعها على الكنائس حتى تساهم فى نشر المعرفة الدينية وزيادتها، وربما كانت هذه أول محاولة جادة لإحياء الدراسات القبطية فى العصور الحديثة. كما أنه حصل على فرمان أو مرسوم من اسطنبول لإقامة كاتدرائية القديس مرقس الحالية فى الأزبكية، التى أصبحت منذ ذلك الحين مقراً للبطريركية. وبفضل نفوذه حصل على الضمانات القانونية لاستعادة كثير من الكنائس والأديرة. وكان كتّاب تلك الفترة من المسلمين والمسيحيين يمتدحون سلوكه الكريم إزاء المصريين جميعًا دون تمييز دينى أو طائفى. ومات عشية مجيء الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٧م. وأصبح أخوه وخليفته جرجس الجوهرى[3] رئيسًا لديوان آخر أمراء المماليك وهما، إبراهيم بك ومراد بك. لقد شاهد أفول نجمهما وعاش السنوات العاصفة للفرنسيين حتى صار السكرتير المالى لمحمد على. وربما كان الرجل الوحيد الذى حظى فى عصره باحترام المماليك والفرنسيين والأتراك معًا. فمعاملته اللينة فى تحصيل الجزية جعلت جميع المصريين يحبونه، لكنها جلبت عليه سخط المغتصب محمد على، الذى عزله لمدة أربع سنوات، ثم أجبر على إعادته إلى مركزه فى سنة ١٨٠٩م تقديراً لمقدرته وعلمه اللذين لا يستغنى عنهما، لكنه سرعان ما توفى بعد ذلك فى سنة ١٨١٠م.

قرب نهاية الحكم العثمانى، برزت من خلال الفوضى وسوء الإدارة آنذاك حقيقتان مهمّتان، أولاهما: إن قوة الأتراك التى لا تقهر قد أصبحت خرافة، وثانيتهما: أن القوى الخارجية قد أصبحت تعى جيداً أهمية موقع مصر المتميز من الناحية الاستراتيجية. وهذا يفسر لنا صعود نابليون وسقوطه وفشل مشروعه لاستعمار الشرق الأوسط. وفى الوقت نفسه ظهر توجه جديد فى حوليات تاريخ الأقباط المعاصر حين بدأت تختفى الحواجز التى كانت تفصل بينهم وبين المسلمين.

الأقباط تحت حكم الفرنسيين:

أثبتت الحملة الفرنسية، رغم قصر عمرها، أنها حدث بارز فى تاريخ مصر الحديثة. فللمرة الأولى منذ عصر الصليبيين تدخل مصر فى علاقة مع الدول الأوربية. فقد جاء نابليون الآن لتأسيس إمبراطورية فى الشرق الأوسط بحجة الدفاع عن الإسلام، لا الهجوم عليه، وبهذا الفعل، يكون قد عرّض مصر لتأثير الفكر الغربى والسياسة الغربية. وقد تأثرت كل وجوه الحياة فى مصر وبدرجات مختلفة من القوة بتلك الحركة، وأصبحت مصر أيضاً عاملاً يحسب له حساب فى السياسة الدولية. إن صعود محمد على وتأسيس أسرته الحاكمة فى مصر قد

١ - نفس المرجع ص ٢٧٣ - ٨٧.

٢ - توفيق إسكاروس "توابغ الأقباط" الخ. (حياة مشاهير الأقباط فى القرن التاسع)، مجلدان (القاهرة ١٩١٠- ١٣) ١، ٢٨١.

٣ - روفيلة ص (٢٧٣، ٨٧) إسكاروس، جـ ٢، ٢٨٠، ٣١٢.

ينظر إليه على انه نتاج غير مباشر للحملة. وفى تلك الأيام التى كانت تحفل بالتقلب والتغيير، لم يقف المجتمع القبطى موقفًا سلبيًا. ففى سنة ١٧٩٨م تقدم المعلم جرجس الجوهرى بالتماس لنابليون باعتباره ابن الثورة الفرنسية الحقيقى والممثل لمبادئ الحرية والمساواة والإخاء، وطالبه بأن يرفع القيود التى تُعجز كاهل الأقباط وأن يضمن لهم كامل المساواة مع إخوتهم المسلمين. وكانت استجابة نابليون الأولية طيبة، لكنه لم يضح أبدًا بمصالح الاغلبية المسلمة من أجل مصالح الأقلية القبطية، وعلينا أن نتذكر هذا العدد الكبير من الجنود الفرنسيين وعلى رأسهم نابليون وهم يدَّعون أنهم مسلمون.

ومع ذلك، فقد توسَّع الفرنسيون فى استخدام الأقباط فى الإدارة، وارتفع بعضهم إلى المناصب العليا. فقد عُين جرجس الجوهرى مرة أخرى فى منصب رئيس الإدارة لشئون الضرائب، بعد هروب أمراء المماليك أمام الفرنسيين. وفى إحدى اللجان التى شكلت لإدارة شئون القضاء المحلى من اثنى عشر عضوًا، كان ستة منهم من الأقباط وستة من المسلمين، وكان رئيس اللجنة هو المعلم ملطى،[1] الذى تصادف أنه كان قبطيا. ومع أن الأقباط لم يكونوا موضع تفضيل عند شركائهم فى الدين من الفرنسيين، فإن الحقيقة الباقية هى أنهم لم يتعرَّضوا للقهر أبدًا.

ربما كان الجنرال (المعلم) يعقوب (١٧٤٥ ـ ١٨٠١)[2] هو أغرب الشخصيات وأكثرها رومانسية فى تلك الفترة من تاريخ الأقباط، إذ كانت مهمته هى التمهيد لمصر مستقلة عن الفرنسيين والأتراك. وتبعًا لأهمية الموضوع فى حوليات الأقباط والمصريين، فقد يلزمنا وصف موجز لحياته وعمله ضمن هذه الصفحات.

فى أيام المماليك كان المعلم يعقوب حنا مسئولاً عن إقليم أسيوط تحت حكم الأمير سليمان بك، وأحسَّ فى فترة شبابه، أن عليه واجب تطوير نظام خاص به للشرطة فى هذا الإقليم الذى لا يشعر الناس فيه بالأمن ولا الأمان. وكان قد تعلَّم من المماليك فن الفروسية وطرق الحرب. وحارب جنبًا إلى جنب مع سليمان بك، وانضمَّ فيما بعد إلى مراد بك فى معركة المنشية القريبة من أسيوط، حيث تمت هزيمة الأتراك عشية مجىء الفرنسيين. وفى سنوات القتال المرير بين الأتراك والمماليك، بدأ المعلم يعقوب يدرك الحقيقة الناصعة بأن الشعب المصرى كان ضحية اغتصاب من جانب هذين العنصرين الأجنبيين، وأنه لم يجد لنفسه طريقاً للخلاص منهما. ثم جاء دخول الفرنسيين واندحار الأتراك والمماليك أمام أسلحتهم الحديثة، فألهم يعقوب فكرة إمكانية الخروج من المأزق. ولأن الوضع فى مصر لا يمكن أن يكون أسوأ مما كان عليه، فقد قرر أن يجرب خطة الفرنسيين. وكانت معرفته بطرق المواصلات ووسائل الاتصال فى مصر، وكذلك طرق إعداد الجيش بالمؤن قد جعلت خدمته للفرنسيين خدمة عظيمة لا تقدر بثمن. وعندما

---

١ ـ اسكاروس جـ ٢ ص ٢١٣.

٢ ـ الدراسات القديمة عن حياة يعقوب التى وضعها بعض الكتاب مثل روفيلة قد حلت محلها مجموعة من الوثائق التى اكتشفها الدكتور شفيق غربال فى لندن، ونشرها باللغة العربية تحت عنوان "الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس" (القاهرة ١٩٣٢)، وكذلك الوثائق الاخرى التى وجدها جـ. دوين .G.Douin فى باريس "مصر المستقلة" مشروع ١٨٠١، ضمن منشورات الجمعية الجغرافية المصرية (القاهرة ١٩٢٤). راجع جاستون حمصى "الجنرال يعقوب والحملة الفرنسية" فى (مارسليا ١٩٢١) قامت لجنة التاريخ القبطى بإعادة نشر نفس الوثائق فى ملازم صغيرة باللغة العربية (منشور رقم ٣٠، القاهرة ١٩٣٥). يجب مراجعة اراء عبد الرحمن الجبرتى وهو المؤرخ الذى عاصر الأحداث فى ضوء الوثائق الرسمية.

أرسل نابليون الجنرال ديزيه لاستكمال غزو صعيد مصر، عيَّن يعقوب مساعدًا له. حارب يعقوب بشجاعة وتمكن فى إحدى المناسبات من أن يصد المماليك ويوقف تقدمهم حتى جاء الجيش الفرنسى ليسانده من الخلف، وقد أهداه ديزيه سيفًا مزينًا بالنقوش تخليدًا لذكرى هذا النصر على المماليك. وكان لتعاونه مع الفرنسيين أثر مهم مكنهم من إخضاع الصعيد كله حتى أسوان، واتخاذ أسيوط مركزاً رئيسياً. وبفضل تنظيمه المحكم لخدمة البريد ربط بين الحاميات ربطًا دقيقًا عن طريق الإبل السريعة التى أثبتت قدرتها العظيمة كوسيلة لنقل الرسائل والمؤن إلى جانب الجرحى من الجنود وتوصيلهم إلى مراكز العلاج.

وبينما كان يعقوب يتمركز فى الصعيد، كانت الأحداث قد أخذت تتحرك بسرعة ضد الفرنسيين فى الشمال. لقد فقدوا أسطولهم فى موقعة أبى قير، وأصبح القائد نلسون مسيطراً على البحر، وعاد نابليون إلى فرنسا، تاركًا خلفه كليبر، وخزينته خاوية. حدث هذا كله فى وقت كان فيه المسلمون قد أخذوا يرتابون فى السياسة الفرنسية. وأصبح الفرنسيون فى حاجة شديدة لرجال من صنف المعلم يعقوب. إذ بينما كان كليبر يحارب الأتراك فى معركة هليوبوليس (مارس ١٨٠٠م)، كان يعقوب يجاهد لإخماد ثورة اشتعلت بتحريض من الأتراك داخل المدينة. وفى تلك الظروف المعاكسة استطاع يعقوب أن يقنع الفرنسيين بمساعدته فى تحقيق حلمه القديم. لقد حرمت مصر منذ أمد طويل من أن يكون لها جيشها القومى، وكان يعقوب يعتقد أنه بدون وجود هذا الجيش القومى لن تستطيع الأمة رد اعتبارها أو إصلاح حالها. وبما أن الأتراك يلعبون على المشاعر الدينية للمسلمين لتمزيق وحدة الشعب المصرى، فعليه أن يجرب مع إخوانه المسيحيين. وبعد معركة "هليوبوليس" وافقت السلطات الفرنسية على خطته فى تكوين فيلق قبطى قوامه ألفان من المجندين، من الصعيد أساساً. وتم تدريبهم بمعرفة الضباط الفرنسيين. واختار كليبر يعقوب قائدًا لهم برتبة كولونيل فى مايو ١٨٠٠م، وفى مارس ١٨٠١م رقاه أخيراً إلى رتبة جنرال.

إن حقيقة المعلم يعقوب وأسرار مهمته إلى أوربا كشفتها مذكرات الفارس لاسكاريس، الذى سافر على الفرقاطة الإنجليزية بالأس Pallas وكان يقوم بدور الترجمان بين يعقوب والكابتن إدموندز، قبيل مرض يعقوب. فقد كان يعقوب يريد من الكابتن إدموندز، أن ينقل رسالة باسمه واسم الشعب المصرى إلى الحكومة الإنجليزية تؤكد أن الحلَّ الوحيد للمسألة المصرية هو استقلال مصر. وتُرجمت الرسالة إلى قائد البحرية ,Earl of Saint - Vincent الإيرل اوف سانت فنسنت، مغلفة بخطاب فى ٤ أكتوبر ١٨٠١م من جزيرة مينورقة. وقُدمت التماسات مماثلة من أعضاء الوفد المصرى الآخرين إلى بونابرت باعتباره القنصل الأول وإلى تاليران، وزير خارجيته. وعلى هذا بزغ فجر القومية المصرية من بين أشلاء الجنرال يعقوب المبعثرة.

عصر كيرلس الرابع، رائد حركة الإصلاح القبطى:

انتهى عصر مرقس الثامن، البطريرك القبطى، الذى عاصر الحملة الفرنسية، وخلفه بطرس السابع (١٨٠٩ـ ١٨٥٢م)، الملقب بالجاولى[1]، الذى توافق مجيئه مع عصر محمد على. لقد

١ ـ إسكاروس، جـ ١ ص ٥٨.

ازداد تقدير محمد على باشا للبطريرك حين رفض دعوة قيصر روسيا للكنيسة القبطية بأن تعتبره حامياً لها. مدُّ بطرس نفوذ الكنيسة بتكريس أول أسقف للسودان بعد فتحه فى سنة ١٨٢٣م، وإرسال راهب من دير القديس أنطونيوس إسمه داوود فى مهمة دبلوماسية إلى إثيوبيا. وقُدِّر لداوود هذا أن يخلف البطريرك باسم كيرلس الرابع. ونتيجة لتقشف بطرس وحسن تدبيره للمال تجمعت لديه ثروة كبيرة مهدت الطريق لخلفه لكى يقوم بإصلاحاته.

عرف كيرلس الرابع على المستوى العام بأبى الإصلاح القبطى (١٨٥٤- ١٨٦١م).[1] ولد لأبوين من الفلاحين فى حوالى سنة ١٨١٦م بقرية مغمورة فى إقليم جرجاوكان داوود (كما كان يسمى حينذاك) يشارك فى فلاحة الأرض وأقام صداقةً مع جيرانه العرب الذين علموه فن الفروسيةوركوب الجمال. وقد حاز إعجابهم لمهارته فى الفروسية. وفى سن الثانية والعشرين دخل الرهبنة فى دير القديس أنطونيوس، وسرعان ما ظهر تميزه فى التقوى والاستنارة والمهارة الإدارية. وعند موت رئيس الدير اختاره زملاؤه بالإجماع لمنصب الرئاسة. وتجلت روح الإصلاح سريعًا فى مكافحته للأميةً وتطوير الدراسات اللاهوتية بين الرهبان، الذين اقنعهم بمراعاة القواعد القديمة لسلك الرهبنة. كما ضاعف موارد الدير بيقظته، واستخدم جزءًا من الحصيلة المالية فى إنشاء أول مدرسة إبتدائية فى مدينة بوش، لتقديم التعليم المجانى للأطفال المقيمين فى مزارع الدير وما حوله من عزب.

بعد إتمام المهمة التى أوفده فيها البطريرك إلى إثيوبيا، وعند عودته فى يولية ١٨٥٢م، وجد داوود أن البطريرك قد تنيح فى إبريل، وكان الرأى مجمعاً على تفضيل انتخابه ضد رغبة المحافظين ممن هم فى قمة الهرم الكنسى. فقد كان الأساقفة أتقياء، ولكنهم جماعة من الشيوخ غير المتعلمين، ليس من السهل عليهم أن يقبلوا فكرة تقديم شاب ممن يميلون إلى تيار التحديث. لذلك نحا الأراخنة نحو ترقيته على مراحل. فعقدوا مجمعاً فى ١٧ ابريل ١٨٥٣م، حيث اقنعوا الأعضاء بترشيحه رئيساً لأساقفة القاهرة باسم كيرلس، وأن تسند إليه إدارة شئون البطريركية التى يعود الفضل فى افتتاحها بالأزبكية إلى الفرمان الذى حصل عليه الأخ الاكبر لأولاد الجوهرى. وحاز هذا المشروع ترحيب الطائفة القبطية والأمة المصرية على السواء. وهكذا كسبت حركة الإصلاح أولى معاركها، وتم تثبيته فى منصب البطريرك تحت اسم كيرلس الرابع فى يونية ١٨٥٤م. وتم التصديق على انتخابه من الخديوى عباس الأول عند نهاية حكمه.

حفل العهد القصير لكيرلس (١٨٥٤- ١٨٦١م) بالإصلاحات. فقد جعل هدفه الأول هو التعليم، وأنفق مالايقل عن ستمائة الف قرش، وهو مبلغ هائل بحساب تلك الأيام، لكى يكمل كليته النموذجية، بحيث كان التعليم مجاناً. بل إنه كان يوزع الكتب والأدوات المكتبية على التلاميذ بدون مقابل. ثم عيَّن عددًا من الأساتذة البارزين لتعليم اللغات القبطية والعربية والتركية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية، وكذلك الموضوعات المعتادة فى أى منهج أكاديمى.

١. روفيلة، ص ٣٠٥- ٢٤، إسكاروس، جـ ٢ ،٦٠- ١٩٧، الأسقف ازوذورس "تاريخ الكنيسة المصرية العربية" جـ ٢ ص ٥٠٦- ١٢، توجد حاجة ماسة لدراسة بيوجرافية لكل اسم جرى ذكره هنا وبصفة خاصة كيرلس الرابع، الموجود الآن هو تلخيص قصير منظم لموضوع هام انظر ايضا ;R. Strothmann, Die Koptiche in der Neuzeil, pp. 24-31; Fowler, Christian Egypt, pp. 131- 3 مصر المسيحية ص ١٣١- ٣، وماريا كرامر "مصر المسيحية القبطية" ص ٩٣- ٤.

إن تفانيه لإنجاح هذا المشروع بلغ حدًا جعله يقضي كل وقت فراغه في الفصول، وجعل المدرسة مكانه المفضل للالتقاء بزائريه الذين كان يسعى لاستشارتهم في مسائل التعليم. حازت هذه الكلية شهرة عالية جدًا، جعلت الخديوي إسماعيل، يتبرع للبطريركية في عهد ديمتريوس الثاني، خليفة كيرلس، بألف وخمسمائة فدان من الأرض الصالحة لزراعة الحبوب، كهدية دائمة لمواجهة عملية التوسع في قبول التلاميذ، بالإضافة إلى منحة سنوية قدرها مائتا جنيه نقدًا، لكنها لم تدفع بسبب عجز الميزانية المصرية في ذلك الوقت.

وفوق كل هذا، تم إنشاء مدرستين أخريين في أحياء متباعدة من المدينة، ولكن الشيء المبهر جدًا أنه افتتح أول كلية للبنات في مصر وصار هو الرائد العظيم لتعليم البنات. وعندما انزعج لندرة الأدب المطبوع بالقبطية والعربية، لأن مصر كانت تملك مطبعة واحدة فقط هي مطبعة بولاق الحكومية، بادر بشراء مطبعة من أوربا وحصل على إذن من الخديوي سعيد باشا لإرسال أربعة من الأقباط لتعلم الطباعة في بولاق. وعند وصول المطبعة إلى الإسكندرية أمر كيرلس الذي كان موجوداً بدير القديس أنطونيوس، بأن يتم استقبالها في احتفال رسمي بموكب مهيب من الشمامسة في زيهم الكنسي وهم يرددون الترانيم على طول الطريق من محطة القاهرة حتى البطريركية. وعندما وُجِّه إليه النقد بسبب هذا الاحتفال كانت إجابته أنه لو كان موجودًا في مكان هذا الحدث العظيم لرقص أمامه كما رقص داود النبي أمام خيمة الاجتماع.

شملت إصلاحات كيرلس الرابع أيضاً ترميم الكنائس القديمة وبناء كنائس جديدة. ربما كانت عملية إكمال بناء كنيسة القديس مرقس الحالية في الأزبكية أعظم أعماله البطولية. ولأنه كان يدرك أن الكهنة يعيشون منذ أمد طويل فريسة للجهل، وجّه نداءً لكل الكهنة القريبين من القاهرة إلى اجتماع أسبوعي كل يوم سبت في البطريركية لقراءات منهجية ومناقشات لاهوتية. وكان يشارك بنفسه في تثقيفهم وتنويرهم. ثم فرض النظام الكنسي، وبخاصة في مراعاة أن تكون الألحان الكنسية والملابس الكهنوتية تتفق مع النماذج القديمة. وأمر الأب تكلا، وهو معروف بإتقان الأصوات الموسيقية التقليدية، أن ينظم دروسًا للشمامسة في الألحان الدينية. أما كتب القداسات، والترانيم، والسنكسار، والأجبية، ونصوص القراءة من الإنجيل، وتنظيم الوظائف الكنسية وحتى الأدب الإنجيلي، التي ظلت كمخطوطات تقرأ في نطاق ضيق، فتم طبعها وتوزيعها على الكنائس وحتى على البيوت القبطية.

عند إعادة تنظيم الإدارة الخاصة بممتلكات الكنيسة، قضى على عشوائية الإدارة الفردية التي أدت إلى الفوضى وإلى نقص الإيرادات. فابتدأ بوضع دفاتر منظمة وسجلات نموذجية للأملاك، كذلك للزواج والمواليد والأموات والمسائل الأخرى المماثلة في أرشيف البطريركية.

اكتسب كيرلس الرابع سمعة طيبة للكنيسة في الخارج. فقد أرسله سعيد باشا، خديوي مصر، في بعثة محفوفة بالمخاطر للقيام بوساطة سياسية بينه وبين تيودور، ملك الحبشة، عندما كانت الحرب على وشك الوقوع بين القطرين. وسافر إلى الحبشة في ٤ سبتمبر ١٨٥٦م وعاد

---

١ ـ نفس المرجع ص ٢٧٣ ـ ٨٧.

٢ ـ توفيق إسكاروس "نوابغ الأقباط" الخ. (حياة مشاهير الأقباط في القرن التاسع)، مجلدان (القاهرة ١٩١٠ـ ١٣) ١، ٢٨١.

٣ ـ روفيلة ص (٢٧٣، ٨٧) إسكاروس، جـ ٢، ٢٨٠، ٣١٢.

متأخرًا فى ١٣ فبراير ١٨٥٨م[١] بعد أن نجح فى تسوية الخلافات بين الملكين ببراعته وحسن كياسته. وعبر تيودور عن تقديره للبطريرك باصطحابه فى رحلة لمدة ثلاثة أيام خارج العاصمة.

أمّا فى مجال الدبلوماسية الخارجية للكنيسة، فإن حلم تحقيق الوحدة مع الكنائس الأرثوذكسية قد بدأ يداعب خيال كيرلس الرابع، فراح ينمى علاقات المودة والتعاطف مع بطريرك اليونان الملكانى إلى الدرجة التى جعلت الأخير يكل إليه عملية الإشراف على أمور الكنيسة أثناء غيابه فى القسطنطينية. كانت سياسته تقوم على أساس التسامح والنسيان، حتى بالنسبة لذكريات مجمع خلقيدونية وخيانة قورش المقوقس، ولكن الوضع الخاص للسياسة المصرية تحت حكم العائلة الخديوية جعل مغامرته الجديدة عملاً بالغ الخطورة. فحين تصور كيرلس الرابع إقامة علاقات أوسع مع الكنائس الخارجية، أثار لدى الخديوى مشاعر الغيظ والريبة التى كتمها فى نفسه، لأنه كان يخشى من التدخل الأجنبى خلال هذه الروابط الدينية. وقد انتشرت الشائعات على أفواه الناس، ولم تكتب أبدًا، قبل تنازل فاروق عن العرش، وذلك لأسباب بديهية، مؤداها باختصار أن سعيد باشا دس السم[٢] للبطريرك المشهور الطَموح. وفى ٣٠ يناير ١٨٦١م اكمل كيرلس مسيرته ومات مباشرة بعد مقابلته الخديوى، لكن الأقباط لا ينسونه حتى يومنا هذا.

كان عصر كيرلس الرابع غنيًا بأسماء الرجال المتميزين، بسبب تحلّيه بصفات القداسة والبساطة الفطرية التى تذكرنا بالأيام الأولى لآباء الكنيسة القبطية فى الزمن القديم. ومن بين هؤلاء، كان الأنبا ابرام[٣] مطران الفيوم (١٨٢٩ـ ١٩٢٤)، الذى كان يوزع مجانًا كل ما يملكه على الفقراء والمعوزين من أبناء مطرانيته دون تمييز بين مسلم ومسيحى. والأنبا باسيليوس[٤] (١٨١٨ـ ١٨٩٩م) الذى كرّسه كيرلس الرابع رئيساً لأساقفة بيت المقدس فى ١٨٥٦م. وقد أهلته شخصيته لأن يكون الممثل الرسمى للأقباط والممثل غير الرسمى للمصريين جميعاً فى هذا المركز الدولى. ولأنه كان متمتعاً بمواهب إدارية ممتازة، فقد استطاع توسيع أملاك الكنيسة القبطية فى الأرض المقدسة، وبنى بيوتاً رائعة لإقامة الحجاج، بل اكثر من هذا، بنى كنيسة صغيرة عند رأس القبر المقدس تحت القبة الرئيسية.

وثمة قصة تروى وهى أن قيصر روسيا عرض أن يدفع له مثقال حجمها من الذهب لكى يشتريها، فرد عليه رئيس الأساقفة بحذر انها ليست من ممتلكاته حتى يبيعها. ورغم أن هذه الواقعة تبدو غير حقيقية، إلا أنها ذات مغزّى مهم. فقد أصدر السلطان عبد الحميد، من خلال سلطاته، فرمانًا يؤكد ملكية الأقباط لدير السلطان، الذى أعطاه صلاح الدين للطائفة القبطية والذى اشتهى رجال الدين الأحباش ومازالوا يشتهون أن يكون لهم موضع قدم داخل حرمه.

أمام المنجزات العظيمة التى حققها كيرلس الرابع بدت شخصية ديمتريوس الثانى، (١٨٦٢ـ

---

١ ـ من المهم أن نعرف أن كيرلس قد استغل وقت رحلته الطويلة فى تعلم التركية على يد اثنين من Aghas اللذين اوفدهما سعيد ضمن بلاطه. روفيلة ص ٣١٥.

٢ ـ ناولر ص ١٣٢ـ ١٣٣، كتب عند نهاية القرن وسجل بصراحة جريمة اغتيال البطريرك بناء على أمر الخديوى.

٣ ـ استروثنان ص ١١٨، ايزوذوروس جـ ٢، ص ٥٣١.

٤ ـ إسكاروس جـ ٢ ص ١٩٨، وإسترونثان ص ١١٦ـ ١١٧ وإيزوذوروس، جـ ٢، ٥٢١.

١٨٧٠م) [1] ضئيلة الحجم. وفى عهود البطاركة اللاحقين أخذ خريجو كلية كيرلس يشغلون معظم الوظائف فى الدولة، ووصل بعضهم إلى أعلى المناصب الإدارية مثل بطرس غالى باشا الذى أصبح رئيساً لوزراء مصر بالإضافة إلى آخرين تميزوا فى خدمة الحكومة والشعب فى جميع المجالات. ثم ظهر جيل جديد من القساوسة المستنيرين، إلا أنهم لم يكونوا على مستوى العلمانيين من الأقباط. فالهيجومينوس فيلوثاوس إبراهيم عوض (١٨٣٧- ١٩٠٤م) [2] يعد مثالاً فى التعليم المتقدم وفصاحة اللسان، والخدمة العامة. ففى سنة ١٨٧٤م أصبح مديراً لمدرسة جديدة لتعليم الرهبان، وهو فصل خاص لدراسة العلوم اللاهوتية، يُختار من بين تلاميذه الأساقفة والبطريرك. وحارب الطرق الحديثة التى جاء الكاثوليك والبروتستانت للتبشير بها. وأكمل جمع القانون الكنسى الذى يحكم علاقات الأسرة. وتُعد عظاته الدينية من أفضل العظات، والحقيقة أن الحافز الذى أثاره كيرلس الرابع قد أثمر أعظم النتائج فى تكوين طليعة علمانية تقدمية مستنيرة، بينما ظل رجال الكهنوت للأسف الشديد يتلكأون خلف القطيع. هكذا بدأنا نرى نوعاً من عدم التوازن داخل المجتمع القبطى، الذى يفسر لنا ظهور السحب التى أخذت تتجمع فى الأفق وتنذر بمعركة جديدة بين أنصار التمثيل الشعبى والمحافظين.

---

١ إستروثمان، ص ٣١- ٣٢، وفولر ص ١٣٣- ٥.
روفيلة، ص ٣٢٣ يسجل إن الخديوى استدعى البطريرك وحذّره من السير على نهج سلفه قائلاً. إذا أراد شيئاً فعليه أن يفعله من خلال سلطات الخديوى. والتحذير طبعا له مغزاه المهم. ويؤكد المطران إيزيدوروس فى المجلد الثانى من تاريخه أن البطريرك كيرلس الرابع قد قُتل بالسم بسبب مشروعه للوحدة مع كنيسة روسيا والكنيسة الإنجليزية.
٢ - إسكاروس، ص ٢، ٨٥، إيزيدوروس جـ ٢، ص ٢٠٥، ١.

الفصل الخامس

عصر البابا كيرلس الخامس

الصراع بين الكهنوت المحافظ ودعاة التمثيل الشعبى

وُلد كيرلس الخامس فى سنة ١٨٢٤م، وتوفى فى سنة ١٩٢٧م[١] بعد عهد حافل بالاضطراب والذبذبة بين رجال الدين المحافظين ودعاة المجتمع التقدمي. كانت نظرته للحياة محدودة بحدود الماضى الذى عاش فيه، إذ كانت سنوات حياته الأولى مليئة بالحزن والأسى، حيث فقد حنا مطر (وكان هذا هو اسمه قبل أن يصبح بطريركاً) والديه وهو بعد شاب وعاش مع أخيه الأكبر حياة بسيطة. وفى سن العشرين أخذ عهد الرهبنة فى دير سيدتنا بدير السريان، ثم بعد ذلك فى دير البراموس الأشد فقرًا، وكلاهما يوجد فى وادى النطرون. وعانى هناك من حياة الفقر والحرمان. كانت مهنته الرئيسية بجانب المشاركة فى الخدمة والصلاة، هى نسخ المخطوطات لكى يكسب عيشه. وبعد حياة الزهد والتقشف، دعا البطريرك ديمتريوس الثانى الأب يوحنا للخدمة فى كاتدرائية القديس مرقس حيث أُتيحت له فرصة الاتصال بالمجتمع. واستجابة لتوسلات إخوته فى البرية، سمح له البطريرك بالعودة إلى الدير، حيث أقام حتى سنة ١٨٧٥م. ومات ديمتريوس الثانى فى هذا العام واجمع الأساقفة والأراخنة على دعوة الأب يوحنا لتولى منصب البطريرك باسم كيرلس الخامس. حيث شغل هذا الكرسى حوالى ثلاثة وخمسين عامًا. ومع أنه عُرف بصلاحه وورعه وحسن نواياه وهى صفات لا يتطرق إليها الشك، لكنه جمع فى شخصيته بين العناد المتصلب، وضيق الأفق الذى يتميز به رجل أمين اقتصر تعليمه على المعرفة التى حصل عليها من مهنته كناسخ للكتب. وكان يشاركه فى هذه الصفة رجال الكهنوت عمومًا الذين تم اختيارهم من بين أفراد الشعب البسطاء غير المتعلمين. فبعد كيرلس الرابع، انقلب الوضع هكذا وأصبح العلمانيون وحدهم هم الذين يحملون شعلة الإصلاح. فقد كان العصر الجديد عصر تحرر سياسى فيه حكومة برلمانية ولجان استشارية. وجاء كيرلس الخامس من عالم آخر مختلف فعجز عن مسايرة الأساليب الحديثة التقدمية. ومن ثم فقد أثار كثيرًا من الصراعات بين أنصار النظام القديم وأنصار النظام الحديث.

وقد يكون من الظلم أن نأخذ برأى الجماعة التى عارضت البطريرك وحكمت عليه بأنه عملاق شرير. فالجانب البنَّاء فى حياته العملية يمكن أن نلمسه فى استعادته لكثير من الكنائس وأديرة الرهبان والراهبات[٢]. كما أنه بنى كنائس جديدة فى كل أنحاء القطر، وافتتح كنيسة فى

---

١ - روفيلة ص ٣٢٩، يوسف منقريوس تاريخ الأمة القبطية ١٨٩٣، ١٩١٢م

وبالعربية: القاهرة (١٩١٣) ص ٥٩ إسترونمان، ص ٣٣، ٥ وفولر، ص ١٣٥، ٤٣.

٢ - من المهم أن نلاحظ أن منقريوس يذكر (ص٦٣، ٦٤) ثلاثة عشر ديراً للرهبان والراهبات فى القاهرة وحولها بالإضافة إلى البطريركية ودير واحد فى الفيوم.

أما عدد الكنائس المستردة فهو أربع كنائس بالإضافة إلى عشر كنائس جديدة تم بناؤها.

السودان. وفى بداية حياته كان قد افتتح مدرسة فنية قبطية للبنين وأخرى لتدريس الاقتصاد المنزلى للبنات. ولكن من الصعب أن نجد له دورًا يذكر فى تطور هاتين المدرستين. كذلك اشترى بيتًا واسعًا فى مهمشه بالقاهرة، بعد أن افتتح مبدئياً بإقامة منتدى إكليريكى للتعليم الدينى. وفى عام ١٨٩٦م أصدر نشرة دورية[1] تطالب الكهنة بأن يلتزموا بقواعد الحياة الدينية الصارمة. وإذا أمكننا أن نصدق ما يقوله أحد رجال البلاط المنحاز له بحماس، والذى كتب ترجمة لحياته، فإنه قد زاد دخل البطريركية من خمسة آلاف جنيه عند تنصيبه إلى ثلاثة وأربعين ألف جنيه فى عام ١٩١٣م بحسن تدبيره وإدارته للاقتصاد.[2]

وفى عهد البابا كيرلس الخامس رفعت الجزية من على كاهل الأقباط، وهى إحدى ذكريات العصور الوسطى الإسلامية البغيضة التى كانت تفرض على الذميين، والتى كانت قد الغيت تمامًا فى عهد سعيد باشا، وأصبح جميع المصريين خاضعين لنظام ضريبة موحدة.[3] أما التشريعات الأخرى التى أعقبت ذلك، فعلى الرغم من الإصرار على ذكر أن الإسلام دين الدولة، فإنها كانت تعلن احترامها للمساواة بين جميع المواطنين دون نظر للمعتقدات الدينية أو الأصول العرقية.

وعلى الجانب الآخر، أوضح المنتقدون لموقف البطريرك أنه يحيط نفسه بكثير من الكهنة الرجعيين، ويستمع إلى نصيحتهم ومشورتهم الشريرة.[4]

فى فترة خلو كرسى البطريرك بين رحيل ديمتريوس الثانى وتنصيب كيرلس الخامس قام بعض الأقباط الغيورين بتأسيس جمعية الإصلاح[5] التى قامت بعمل مسح شامل لحالة الأقباط الإجتماعية، والثقافية والدينية ووجدت أنها حالة محزنة بالقياس إلى الطوائف الأخرى. ومن أجل هذا تقدم أعضاء الجمعية للأنبا مرقس، رئيس أساقفة الإسكندرية والقائم مقام البطريرك،واقترحوا عليه أن يطلب من الحكومة أن توافق على إنشاء مجلس قبطى من أربعة وعشرين عضواً، يختارهم الشعب بطريقة الانتخاب وأن يكون لهم من السلطة ما يمكنهم من المشاركة فى إدارة أملاك الكنيسة على أسس سليمة ومفيدة. فوافق رئيس الأساقفة، وصدر المرسوم فى ٣ فبراير ١٨٧٤م بإنشاء أول مجلس للطائفة القبطية (مجلس ملّى).[6] برئاسة البطريرك أو نائبه. وعند تولى كيرلس الخامس منصبه كبطريرك وجد المجلس يمارس نشاطه، وبدا أن التعاون بينهما يدعو للتفاؤل، حيث تم الاتفاق على تأسيس معهد لاهوتى قبطى. ثم ظهرت أسباب الخلاف حين جرى النقاش حول إعداد الميزانية وأعرب الأعضاء عن رغبتهم فى التدخل المباشر فى تنظيم شئون الأوقاف القبطية. ورفض البطريرك بطريقة آلية أن يحضر

---

١ ـ النص الكامل منشور عند منقريوس ص ٦٩، ٧٣.

٢ ـ نفس المرجع، ص ٦٥.

٣ ـ Chauleur تاريخ الأقباط فى مصر ص ١٦١، جاك تاجر، ص ٢٢٨، ٢٥٤، ٢٥٥، فى عهد محمد على كان الأقباط لا يزالون يدفعون الجزية التى تبلغ ثلاثة آلاف جنيه، ولكنهم كانوا يتقاضون ٦٠٠٠٠ (ستين ألفاً) من الجنيهات من خدمتهم فى الدولة، جون بورنج، "تقرير عن مصر وكانديا Candia موجه للفيكونت" (لندن ـ ١٨٤٠) ص ٤٤، ٥.

٤ ـ روفيلة ص ٣٢٩.

٥ ـ جمعية التوفيق القبطية، روفيلة، ص ٣٤٣، ٣٤٤.

٦ ـ روفيلة، ٣٣٠، ٣٣١.

اجتماعات المجلس أو حتى يعين نائباً له فى السنوات السبع التالية، ففقد التشريع فاعليته. والأدهى من ذلك أنه أغلق الكلية الإكليريكية وكلية البنات. وأثار هذا الإجراء سخط الرأى العام، ورد المصلحون الغيورون على موقف البطريرك المعَوِّق للحركة بتكوين عشرات من الجمعيات الخيرية فى معظم المدن لرعاية المدارس القبطية وتوفير الخدمات الاجتماعية للفقراء دون اللجوء إلى السلطات الكهنوتية أو إلى ميزانية الكنيسة. لكن تعطيل المجلس كانت له نتائج أخرى مدمرة لا يمكن أن تكون ضمن اختصاص الجمعيات الخاصة. فحالات الزواج الشرعى، والطلاق، والميراث ومسائل الأحوال الشخصية، قد تأخر حلها أو أسىء التصرف فيها كثيرًا من جانب الكهنة وهو الأمر الذى أدَّى إلى انتشار السخط والاستياء على مدى واسع.

نجحت المفاوضات مع الحكومة فى إعادة إصدار مرسوم [1] يأمر باستئناف المجلس لأعماله. واحتج البطريرك العنيد شخصيًا لدى الخديوى، لكن التماسه رفض. وعندما عقد المجلس مرة أخرى، امتنع البطريرك عن حضور دوراته بناءً على أخطاء فنية. وتم انتخاب مجلس ثالث فى سنة ١٨٩١م، لكنه لقى مصير سلفه. وجرت مفاوضات أخرى ولكنها لم تحقق شيئاً. وكانت جمعية التوفيق القبطية قد تكونت من أجل تحقيق المصالحة، كما يستدل من اسمها، وكذلك لمواصلة الإصلاح. وتصاعدت الهجمات بين الاكليريكيين والعلمانيين فى وسائل الإعلام وفى الدوائر الحكومية. وتجاهل الخديوى التماسات البطريرك ورفض القصر علناً طلب السماح له بمقابلة الخديوى. وأبلغ الخديوى رئيس الوزراء بطرس غالى باشا، أن يطلب من البطريرك الامتناع عن مخاطبة البلاط الملكى خطاباً مباشراً. وفى نفس الوقت، تقدم أعضاء المجلس، فى وجه عناده المتصلب وعدم مراعاته للأوامر الرسمية، بطلب إيقافه عن تصريف شئون البطريركية وتعيين نائب من بين رجال الكهنوت ليقوم بالعمل مقامه. ذُكر اسم مطران صنبو. وعند سماع اسمه، أخذ البطريرك يشتط غضباً، ويهدد بحرمانه، ثم راح يتقرب من الدبلوماسيين الأجانب ليتوسطوا له عند الخديوى.

انزعج بطرس غالى من غرابة هذه الخطوة، فقام بمحاولة أخيرة لرأب الصدع وعقد اجتماعًا سريعًا مع البطريرك. وعلى الرغم من نجاحه فى انتزاع موافقة كتابية منه،[2] إلاَّ أن المحاولة لم تحقق شيئاً.

وأخيراً فى سبتمبر ١٨٩٢م، أمر الخديوى بنفى البطريرك كيرلس الخامس إلى دير البراموس. أما مساعده، ورئيس أساقفة الإسكندرية الأنبا مرقس فقد تلقى أمرًا بالتقاعد فى دير القديس بولس فى البحر الأحمر. وأثار هذا الإجراء تعاطف الشعب مع البطريرك وبخاصة لأن أحدًا لم يشك فى طهارته وحسن نواياه. وراح أصدقاؤه وخصومه يبذلون الجهود لدى الخديوى لإعادته، وتم ذلك فى فبراير سنة ١٨٩٣م[3] واستقبله أهل القاهرة استقبالاً ملكياً، ورافقه مندوب من الدولة، ومحافظ القاهرة، الذى أعاد تنصيبه رسميًا فى القصر البطريركى. ثم تمت الموافقة على المجلس وصدر العفو عن مطران صنبو وأُعيد المعهد، وافتتح قسم جديد

١ ـ نفس المرجع السابق، ص ٢٣٥.

٢ ـ نصوص نشرها منقريوس، ص ٤، ٣، ٦، روفيلة ص ٣٥١، ٣٥٢.

٣ ـ روفيلة ص ٣٦٣

للتعليم الثانوى فى الكلية القبطية. وصدر إعلان بالتوسع فى التعليم الدينى بافتتاح فروع للمعهد فى الإسكندرية وبوش ببنى سويف ودير المحرق فى أسيوط. ورغم اعتراضات المحافظين، فإن العناصر الحديثة من أنصار التيار الدستورى كسبت المعركة، وأصبح المجلس القبطى، حقيقة مقبولة فى الحياة العامة للأقباط.

بتسوية هذه الأزمة الدستورية داخل الكنيسة أصبح الأقباط احراراً فى التعامل مع المشاكل الناجمة عن طول عهد كيرلس الخامس. من هذه المشاكل ما كان يمس الكنيسة اليعقوبية السريانية، التى تتحد مع الكنيسة القبطية فى الطقوس والمعتقدات الثابتة والمذهب إلى الدرجة التى بات فيها من الطبيعى أن تتبادلا الأساقفة والرهبان بينهما على مدى تاريخهما الطويل. وقد تعكر هذا الموقف مؤقتاً بوقوع حادثة معادية. ومراعاة للتقاليد القديمة استقبل كيرلس الخامس أحد السوريين واسمه ناعوم ورحب به فى حظيرة الرهبنة القبطية ورقّاه فيما بعد عام ١٨٩٧م إلى وظيفة الأسقف باسم ايزودورس[١]، وعيّنه حينذاك رئيساً لدير البراموس. كان إيزودورس كاتبًا ومؤرخا للكنيسة لا يستهان به، لكنه انحرف بوضوح عن التقاليد الخاصة ببعض الموضوعات واتهم بالهرطقة. وبحكم موقعه فى رئاسة الدير، أثار عداء رئيسه المباشر وهو رئيس أساقفة الإسكندرية. أما فى داخل الدير فقد أدت سياسته الى تخريب حياة الإخوة الرهبان فى دير البراموس، فبعض الرهبان نبذ العقيدة القبطية الأرثوذكسية نهائياً، والباقى منهم هجر الدير. ولهذا عقد المجمع المقدس برئاسة كيرلس الخامس، وحوكم إيزودورس ووجد مذنباً فجردوه من رتبته الكهنوتية. فلجأ إلى بطريرك أنطاكية Antioch، الذى تجاهل الحكم وعيَّنه ثانيةً باسم كيرلس ايزودورس. بل إنه اختاره ممثلاً له ومنحه صلاحيات لاستعادة بعض الكنائس والأديرة المصرية ووضعها تحت سلطان السريان. وابلغت هذه القرارات مكتوبة إلى كيرلس الخامس والحكومة المصرية. ورفض البطريرك القبطى هذه المزاعم واثبت بطلانها بخطابات مماثلة أرسلها إلى أنطاكية وللسلطات المصرية. ولحسن الحظ مرت هذه الحادثة سريعًا ولم تُولها السلطات اى اهتمام يذكر.

أما المشكلة التى أخذت أبعادًا اكبر، واثارت صخبًا وضجيجًا قوميًا عاليًا فى ذلك الوقت، وكادت تحدث فتنة طائفية، إلا أنها أخمدت فى النهاية، فهى عقد المؤتمر القبطى[٢] فى سنة ١٩١١م بأسيوط للمطالبة بحقوق كاملة للأقباط فى الحرية ومساواتهم بباقى أبناء الوطن فى الفرص والواجبات، دون تفرقة بين مسيحى ومسلم على أساس الدين. وفى نفس الوقت جرت حركة مضادة بعقد مؤتمر إسلامى فى الإسكندرية لمعارضة مطالب الأقباط. واستاء الخديوى من الحركتين، وحاول البطريرك إقناع قادة المؤتمر القبطى بأن ينقلوا اجتماعهم إلى القاهرة تمشياً مع رغبات الحكومة، لكن الحركة هدأت بعد قليل. وبعد ثمانى سنوات، أصبح قادة المؤتمر القبطى من طليعة الأعضاء الوطنيين فى حزب الوفد الذين كانوا يناضلون من أجل

١ - يوجد تقرير كامل مزود بالوثائق فى كتاب منقريوس ص ٨٨- ١١١. وعند روفيلة، ص ٣٢٩- ٣٧١ أما وجهة نظر ايزودورس فى الموضوع فهى معروضة بإيجاز فى كتاب تاريخ الكنيسة القبطية جـ ٢، ص ٥١٢. لكنه يقدم مايسميه مأساته بصورة تفصيلية فى ملحق الكتاب، ورغم ذلك فإنه يورد تقريراً مقبولاً فى عمومه عن عصر كيرلس الخامس وعن الشخصيات القبطية فى ذلك الوقت، ج ٢، ص ٥١٣- ٥١٥.

٢ - قرياقص ميخائيل "الاقباط والمسلمون تحت الإدارة البريطانية" (لندن، ١٩١١م) ص ١٩، منقريوس، ص ٤٢٢.

استقلال وطن الآباء المشترك مصر، وطن المسيحيين والمسلمين على السواء. وفيما بعد حاول الإخوان المسلمون إحياء قومية طائفية، اى قومية على أساس الدين، وهى فكرة أثبتت تجارب السنين أنها شيء غير طبيعى مفروض بالقهر ومعاد للتقدم، ولهذا لم تجد ثورة يوليو اى صعوبة فى قمع حركة الإخوان المسلمين وكل سياستهم الرجعية المخربة. بل إن حوادث التخريب التى قاموا بها، مثل سلب ونهب إحدى الكنائس القبطية فى الزقازيق فى عام ١٩٤٧م، وحرق كنيسة السويس بالقنابل الحارقة فى يناير ١٩٥٢م قد أسقطها الأقباط من حسابهم واعتبروها أعمالاً إجرامية يعاقب عليهاالقانون العام. ولهذا فإنها لم تترك اى اثار وطنية عامة. وربما كان ابرز النتائج التى تمخضت عنها الأحداث المتتابعة منذ أيام كيرلس الخامس أن الوحدة الوطنية جاءت لتبقى، فالدين لله والوطن للجميع.

مجيء الإرساليات التبشيرية

تزامن مجيء الإرساليات الأوربية، كاثوليكية وبروتستانتية، مع حركة المعارضة القبطية التي اخذت شكلها الملموس في عهد كيرلس الخامس. ومع ذلك فإن محاولات المصالحة الكاثوليكية ترجع إلى وقت بعيد في التاريخ. فقد جرت المحاولة الأولى في مجمع قرارات فلورنسا Ferra- Florence Capuchin في عام ١٤٣٨. ١٤٤٥م. واعقبتها محاولة اخرى فاشلة في سنة ١٥٩٧م. وفي سنة ١٦٣٠م جاء راهب من باريس هو جوزيف ليكيرك Joseph Leclerc du Tremblay واسس مركزاً متواضعاً في القاهرة، وهذا المركز ورثه الأب اجاثانجلو أوف فندوم Agathangelo of Vendome. ولكن من الواضح انه لم يترك اثراً في اقباط مصر. وفي النهاية هاجر إلى الحبشة، حيث قتل في سنة ١٦٧٥م، ثم جاء الفرنسيسكان إلى الصعيد واستقر الجزويت في القاهرة. ولكن هذه الإرساليات لم تجد استجابة تذكر حتى سنة ١٧٤١م حين تحوّل انبا اثناسيوس مطران بيت المقدس إلى الكاثوليكية ومعه ثلاثة من اتباعه من غير ذوي التاثير. في ذلك الوقت، ايضاً حدث ان تحوّل العلاّمة القبطي روفائيل الطوخي إلى الكاثوليكية، واضطر ان يهرب إلى روما حيث قضى السنوات من (١٧٣٦حتى ١٧٤٩م) وهو يقوم بتحرير كتاب الصلوات القبطي العربي (الأجبية) Eucologion وكتب الصلوات الأخرى الخاصة بالكنيسة القبطية. اما الحملة الفرنسية (١٧٨٩. ١٨٠١م) فقد اعطت الإرسالية اللاتينية قدرًا كبيرًا من حرية التحرك في انحاء القطر، وأثرت في قلة من الأقباط لم يكن لديها اعتراض على الاتحاد مع روما، حتى نهض الأنبا يوساب الأباح Abahh مطران جرجا، المعروف بقداسته وفصاحته، للدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية فأسكت دعاية روما.

جاء دخول الكاثوليكية مصر في الحقيقة من خلال المساعي السياسية والذرائع النفعية لا عن طريق الاعتقاد الخالص المنزه عن الغرض. وكما تحكي القصة، فإن القنصل الفرنسي العام في مصر تقرب من محمد علي باشا وأوعز إليه بأن في إمكانه ان يطلب من بطريرك الاقباط، أو يأمره بأن يقدم ولاءه الديني إلى روما. ومن باب الإذعان، أصدر محمد علي إلى سكرتيره القبطي، وهو المعلم غالي، امراً بان يقوم نيابة عنه بالتصرف طبقا لهذا الطلب. وكان المعلم غالي، رجلاً واسع الحيلة، وبحكم معرفته لعناد الأقباط في مسائل العقيدة، اقترح أن يتحول هو واسرته إلى الكاثوليكية كخطوة أولى، وكمثال يمكن لبقية الأقباط أن يحتذوه. ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال، رغم أن الكاثوليكية جاءت لتبقى.

وضعت روما ادعاءاتها بالسيادة على الكنيسة القبطية موضع التنفيذ، فقامت في عام ١٨٩٥م بترقية كاهن كاثوليكي Uniato Catholic اسمه كيرلس مكاريوس إلى منصب سفير بابوي في أسقفية مصر، واختارت معه مساعدين أحدهما للصعيد والآخر للدلتا. وبدلاً من الاقتصار على الأقلية الكاثوليكية الضئيلة، اخذ كيرلس مكاريوس في إصدار النشرات الدورية التي يخاطب فيها الأساقفة والكهنة الأقباط ويدعوهم لتقديم الولاء لبابا روما. كانت صلاة القداس القبطي تؤدى الألحان في كل الكنائس القبطية الكاثوليكية باللغتين القبطية والعربية، وتتخللها بعض العبارات الضرورية المقحمة والتي تخص البابا ولم يتبين الناس الاختلافات وبدا

المخطط كله كمؤامرة واجهها البطريرك الأرثوذكسي كيرلس الخامس بحزم، فأرسل إلى الأساقفة والكهنة منشورًا طويلاً قويًا ليقرأ في جميع الكنائس القبطية. واخذت أصوات الوعاظ ورجال اللاهوت ترسل رعودها من فوق المنابر دفاعاً عن عقيدة الآباء، ولقد لعب الهيجومينوس فيلوثاوس عوض دورًا حاسماً في تطور الجدال.

أما نشاط الإرساليات البروتستانتية فبدأ في مصر بافتتاح كنيسة لاتحاد الكنائس المشيخية بالولايات المتحدة في سنة ١٨٥٤م، وانضمت جمعية تبشير الكنيسة الانجليزية إلى هذا العمل في سنة ١٨٨٢م. وابتدأ اول نشاط لها مع غير المسيحيين، وسرعان ما اخذت الطريق المختصر بتحويل الاقباط عن طريق تقديم منح دراسية ممتازة وخدمة اجتماعية راقية. وواجه الاقباط هذا النشاط بقوة وعزم.[1]

أسفرت هاتان المحاولتان عن تأسيس اقليتين من الكاثوليك والبروتستانت تتسمان بالنشاط والفاعلية. وقد أدى هذا التحرك الديناميكي إلى يقظة حديثة في الكنيسة القبطية. فاهتزت الكنيسة من أساسها بفعل هذا التحدي، الذي الهم ابنائها القدرة على إضاءة شعلة الماضي المجيد التي كانت قد أطفئت.

التجديد:

بعد وفاة كيرلس الخامس في أغسطس ١٩٢٧م، حققت قيادات النظام الكنسي انطلاقةً جديدةً خارج التقليد المتبع في انتخاب البطريرك. فحتى ذلك الحين، كان البطريرك المنتخب يتم اختياره من بين الرهبان ذوي الرتب البسيطة عن طريق الأراخنة أو الشخصيات البارزة في الطائفة، بالاشتراك مع قيادات الكنيسة طبقاً لتعاليم الديسقولية التي ظلت محل احترام وتقدير الآباء، بما فيها من التفسيرات التي وضعها كُتّاب العصور الوسطى. وفي العقود الأولى من القرن العشرين اهتز التوازن بين الكهنة والعلمانيين في نواحي التقدم والتعليم. فبينما كان أعضاء الطائفة القبطية يتقدمون بخطوات واسعة اجتماعياً ومهنياً، كانت الوظائف الكهنوتية يشغلها في الأساس رجال يفتقرون إلى العلم والتعليم. وازداد نفور العلمانيين من الكهنة مما كانت له نتائج خطيرة. وهكذا وجدنا أن الأساقفة ورؤساء الأساقفة يتلهفون على كرسي البطريرك لأنفسهم، في حين بقيت الطائفة على موقفها السلبي غير المهتم بالتطورات الكنسية. في وسط هذا المناخ جرى انتخاب آخر ثلاثة بطاركة كان أولهم هو رئيس أساقفة الاسكندرية والبحيرة المحنك، يوأنس التاسع عشر (١٩٢٧ـ ١٩٤٢م). وكان الثاني رئيس أساقفة اسيوط

١ ـ المصادر الآتية تتضمن بعض المعلومات الاساسية عن حركات التبشير البروتستانتية في مصر:

R. Anderson, History of the American Board of Commissions for Foreign Missions to the Oriental Churches (Boston, 1872); J. Batal, Assignment, Near East (N.Y.1950); A.J. Dain, Mission Fields Today: A Brief World Survey (London, 1956); A. Dempsey, Mission on the Nile (London, 1955); M. Fowler, Christian Egypt (London, 1901); Handbook of Foreign Missions of the United Presbyterian Church of North America (Philadelphia) and the Board of the Women's General Missionary Society (Pittsburgh); A.H. Hourani, Minorities in the Arab World (Oxford, 1947); C.R. Watson, Egypt and the Christian Crusade (Philadelphia, 1907);

For Further references, see V. E Moyer, A Selected and Annotated Fowler, pp. 235- 69, on Anglican Mission, 247- 9 on American Presbyterian Mission, 280- 2 on other Protestant Missions.

الذى خلفه باسم مكاريوس الثالث (١٩٤٤- ١٩٤٥م) وكان الثالث هو مطران جرجا يوساب الثانى (١٩٤٦- ١٩٥٦م). وقد اعتبره البعض حينذاك أفضل المرشحين لأنه تلقى جزءًا من تعليمه اللاهوتى فى اليونان. لكن العقم الظاهر وغياب خطط البناء فى النواحى الكنسية فتحا الطريق لبيع المناصب واستشراء الفساد فى عهد البطريرك الثالث. وكان رد الفعل إزاء تلك الحالة المحزنة صحوة عنيفة من جانب الأقباط.

كان الخلاف بين البطريرك يوساب والشعب القبطى حول نفوذ نائبه / تلميذه فى إدارة شئون الكنيسة المالى، وتنصيب الأساقفة خلافاً شديداً بل كان فضيحة من أسوأ الفضائح العامة فى تاريخ الأقباط.

فى النهاية تمّ طرد المجلس الطائفى المؤقت، وصدر مرسوم بتعيين لجنة مستقلة من أربعة وعشرين عضوًا من قيادات الأقباط[١] لمواجهة هذا الوضع المتدهور. وكان خطف البطريرك بواسطة المتطرفين من جماعة الأمة القبطية[٢] وهو عمل لم يسبق له مثيل، ودليلاً على تصاعد شعور الأقباط وقوة الرأى العام وقد لقيت اللجنة الجديدة ترحيباً على المستوى العام، لكن سرعان ما دخل أعضاؤها فى صراع مع البطريرك يوساب وحاشيته الفاسدة. فى نفس الوقت، أخذ البطريرك، بتأثير مستشاريه الأشرار، فى إثارة عداوة الأساقفة عن طريق الابتزاز المفرط والتهديد بتخفيض مراتبهم. ومن ثم انحازت القيادات الكنسية إلى جانب المجلس وشكّلت جبهةً موحدةً. وبعد عدة تحقيقات فى سلوك البطريرك صدر قرار مشترك من المجمع المقدس ومجلس الطائفة بإعفاء الأنبا يوساب من إدارة الكنيسة.

وتنفيذاً لهذا القرار صدر مرسوم من الدولة بتاريخ سبتمبر ١٩٥٥م، ووضع البطريرك يوساب تحت التحفظ فى منفاه بدير سيدتنا بدير المحرق فى أسيوط. واسندت اختصاصاته الروحية إلى لجنة كنسية من ثلاثة من رؤساء الأساقفة معروف عنهم التقوى. ومات الأنبا يوساب فى ١٤نوفمبر ١٩٥٦م، وتم انتخاب ناسك قديس اسمه مينا ليخلفه باسم كيرلس السادس، فى ١٠ مايو من نفس العام ففرح الأقباط بشروق فجر جديد.

الإصلاح الحديث :

حتى أشد اللحظات ظلامًا، كانت الكنيسة القبطية تجد المصلحين والتقدميين بوفرة بين أبنائها. فمحدودية التعليم فى صفوف الكهنة، أخذت تخلى مكانها لخريجى الجامعات الذين تقدموا لتسجيل أسمائهم فى سلم الوظائف الكنسية سواء كانوا من الرهبان أو العلمانيين وذلك فى عصر يوساب الثانى. ثم أخذت هذه الحركة طريقها فى النمو السريع منذ تنصيب الأنبا

١ - لأننى كنت من المعينين فى هذا المجلس، فقد وجدت الفرصة لمشاهدة أعمال جهاز الإدارة البطريركى من الداخل. وأنا أسرد هذه القصة من الذاكرة لا من المذكرات. إننى شاركت فى لجان فرعية عديدة للتحقيق فى بعض جوانب ذلك الموقف الناشىء. وقدّم بعض رجال الكهنوت شهاداتهم وجمعت محاضر الاجتماعات التى لو قدر لها أن تحفظ فى أرشيف البطريركية، فسوف تمد الباحثين مستقبلاً بتفاصيل كاشفة. وكانت علاقتنا مع الحكومة تتم من خلال العضو القبطى فى مجلس الوزراء، المرحوم عبد الملك جندى بك، وكان رئيساً سابقاً لإحدى المحاكم، معروفاً بنزاهته التى لا يتطرق إليها الشك.

٢ - "جمعية الأمة القبطية" بقلم كاتب حديث هو إدوار واكمين فى كتابه "أقلية وحيدة، قصة الأقباط فى مصر: صراع أربعة ملايين مسيحى من أجل البقاء" (نيويورك، ١٩٦٥).

كيرلس السادس الذى أحاط نفسه بمجموعة من المستشارين ذوى المكانة العليا، بخلاف ما كان عليه الحال فى عهود أسلافه. بل إن المجمع المقدس قد خصص جزءًا رئيسيًا من عضويته لذوى الرتب الصغرى والمؤهلين تأهيلاً عالياً من أبناء الطائفة. اى من رجال يجمعون إلى جانب التعليم والمعرفة الأمانة والتقوى والتفانى المطلق فى الخدمة.

كان من جراء توسيع نطاق الحريات الدينية فى ظل الدستور والميثاق الوطنى، أن تمكن الأقباط من بناء العديد من الكنائس لكى تتمشى مع أعدادهم المتزايدة فى أنحاء القطر. وبدأت عملية إحياء نماذج العمارة القبطية القديمة بجهود نفر من أصحاب الرؤى البعيدة والمهارة الفذة. ويعتبر بناء كنيسة سيدتنا بالزمالك آخر صيحة فى هذا الإحياء للقديم وتهيئة الجديد. كما أن إعادة بناء كاتدرائية القديس مرقس بالإسكندرية قد أتاح للعاصمة القديمة دارًا للعبادة تليق بها. وبرزت فى القاهرة أكثر من عشرين كنيسة، من الواضح أنها فى أكثر أحياء القاهرة ازدحاما بالسكان وهو حى شبرا. وحظيت الكنائس التاريخية برعاية وطنية ومساهمات لترميمها والحفاظ عليها وذلك من خلال المسئولين الطيبين فى لجنة المحافظة على الآثار العربية بمصلحة الآثار. إن تكاثر عدد الجمعيات الخيرية القبطية فى كل ركن من أركان الوطن، تحت رقابة دقيقة من وزارة الشئون الاجتماعية، قد أتاح للوطن تشكيلة مختلفة من المؤسسات من أهمها الكلية القبطية للبنات والمستشفى القبطى. لقد أثبتت الأيام أن المستشفى القبطى كان من أرقى المستشفيات فى مصر، وكانت خدماته تمتد لتشمل جميع المرضى دون اعتبار للديانة أو المذهب. هذا المستشفى افتتحته إحدى الجمعيات الخيرية فى عهد البابا كيرلس الخامس، ثم جرى توسيعه بعد ذلك بمعونة من الدولة. وتبعاً لأهميته بالنسبة لجماهير المرضى، قامت الدولة فيما بعد بتأميمه مع عدد من المستشفيات الأخرى المماثلة سواء كانت مسيحية أو إسلامية.

عند تأميم المؤسسات التعليمية فى عهد البابا كيرلس السادس، فإن مدارس الأقباط الخاصة العديدة، قد تخلّى عنها أصحابها لوزارة التربية والتعليم، لكن الدراسات اللاهوتية القبطية أصبحت من شأن المجلس الطائفى أساسًا. أما الكلية الاكليريكية القبطية، التى اقتنع الأنبا كيرلس الخامس بإنشائها فى صورة معهد بسيط قليل الأهمية، فقد تم نقلها من مقرها القديم بحى مهمشة إلى مبناها الفخم فى الأنبا رويس، وقد أضيف إليها ملحق بنى على أرضها الشاسعة وأصبحت تضم ثلاثة أقسام:

القسم المتوسط وتستمر الدراسة فيه خمس سنوات للصغار ممن يحملون شهادة التعليم الابتدائى فقط. والقسم المتقدم وتمتد برامجه ثلاث سنوات ويلحق به خريجو التعليم الثانوى، ثم الفصول المسائية وهى مفتوحة لجميع مستويات الطلبة المهتمين بدراسة اللاهوت وليس لديهم النية فى العمل الكهنوتى. أما رئيسها[1] الحالى فهو راهب من دير المحرق ويحمل دكتوراه الفلسفة فى القبطيات من جامعة مانشستر. وبالكلية أيضا قسم خاص هو، معهد القديس ديديموس للعميان، مهمته تدعيم عملية تعليم المرتلين الذين يشكلون عنصرًا هاماً فى احتفالات القداس القبطى. وهناك اعتراف ضمنى غير م.. لن بأنه لن يسمح برسامة أى كاهن قبل تخرجه

١ ـ دكتور وهيب عطا الله جرجس، وهو الأب باخوم المحرقى. كان تلميذاً سابقاً لأستاذ القبطيات البارز البروفسور والترل. وقد كتب عدداً من الكتيبات بالعربية والإنجليزية سبق الاستشهاد بها. وأصبح فيما بعد الأنبا غريغوريوس.

من هذه الكلية. وفى السنوات الأخيرة ضمت سجلات القيد فيها عديداً من خريجى كليات الآداب، والحقوق، والعلوم، والزراعة، والهندسة فى الجامعات المصرية. وبعد انتظار طويل، فإن تغلغل الباحثين الحقيقيين إلى المناصب القيادية فى الكنيسة قد يعتبر بدايةً مبشّرةً بنهضةٍ دينيةٍ فى حياة الأقباط.

وقد حدث فعلاً أن عدداً منهم خلف الأساقفة ورؤساء الأساقفة المتوفين من أبناء المدرسة القديمة فى مناصبهم.

بوحى من هذا التقدم فى التعليم الدينى، وبمشاركة من بعض الكهنة من خريجى الجامعات، قام الشباب القبطى بتأسيس جمعية مدارس الأحد لتعليم صغار الأقباط أمور دينهم وكنيستهم. إن قرون القهر والعزلة خلفت طبقة من الكهنة، كانوا يراعون تقاليد الطهارة الروحية حقاً، إلا أنهم كانوا يرزحون تحت نير الجهل، حتى صارت طرق العبادة بين الأقباط مجرد أطر شكلية لم يتبق فيها سوى القليل من الحيوية والوضوح. وكانت المهمة الأولى التى وضعتها قيادات مدارس الأحد نصب أعينها هى إزالة هذا الخطر عن طريق التطوع للتعليم. وبمعونة التبرعات البسيطة المتواضعة استطاعوا أيضاً إقامة مدارس ابتدائية عديدة فى المناطق البعيدة. كذلك انشأوا فى عواصم الأقاليم بيوتاً لإقامة الطلبة من ذوى الميول الدينية.

فى مجال الثقافة الدينية، هناك ثلاثة صروح بارزة حظيت بتقدير كبير فى الدوائر العلمية هى المتحف القبطى وجمعية الآثار القبطية، ثم معهد الدراسات القبطية.

أما المتحف القبطى فقد أنشأه المرحوم مرقس سميكة[1] (باشا) فى عام ١٩١٠م بموافقة الأنبا كيرلس الخامس. وكان هذا المتحف فى أول أمره قاعة واحدة بالقرب من الكنيسةالمعلقة، فى منطقة حصن بابليون بمصر القديمة. وبعد أن سلّح سميكة باشا نفسه بتصريح من البطريرك، قام بتمشيط الأديرة والكنائس التاريخية القديمة لجمع كل الأشياء ذات القيمة الأثرية لعرضها فى المتحف. وقد استخدم نفوذه الشخصى أيضاً للحصول على بعض الأدوات الموجودة فى البيوت القبطية العريقة، وأصبح المتحف يحظى باهتمام الدولة، فضمته فى النهاية إلى مصلحة الآثار وخصصت له بيتًا جميلًا على الطراز القبطى يقع فى نفس البقعة، ونقلت إليه كل الآثار ذات الأصل القبطى من المتحف المصرى بما فيها مجموعات الباويط وسانت جرميا الرائعة Bawit and St. Jeremias. كما نقلت إليه من المبانى القديمة بعض السقوف الكاملة المطلية بالألوان. وساهمت نوافذ الزجاج الملون فى تزيين الجو العام للمبنى وزخرفته. وسرعان ما امتلأ المتحف بفيض من القطع الثمينة. فخصصت قاعات لأعمال الحفر على الحجر، وللأعمدة ذات النقوش الأثرية وأحجار المقابر، وأعمال الخشب والأثاث والمعادن والمنسوجات، والتطريز، والفخار، والخزف الصينى، والزجاج، والعاج المزخرف بالحفر، والأيقونات والفريسكات وطلاء الجدران والأدوات المنزلية من كل نوع. لقد نما المتحف واتسع حجمه حتى أصبح يمثل حلقة ثمينة. بين المتحف المصرى ومتحف الفن الإسلامى. كما تطورت المكتبة إلى

١ . ابتدأ بعد ذلك إصدار سلسة نشرات خاصة، مليئة بالصور والارشادات بالإنجليزية والفرنسية والعربية. طبع الدليل العربى فى مجلدين (القاهرة، ١٩٣٠، ١٩٣٢م) أما الفرنسى والإنجليزى فعبارة عن كتيبات صغيرة طبعت فى القاهرة ١٩٣٧، ١٩٣٨ على التوالى.

خزانة حقيقية لمادة المصادر القبطية سواء المطبوعة أو المخطوطة.

فهى تحتوى على مجموعة من أجمل مخطوطات البردى القبطية، والأستراكا Ostraca وكل طرق الكتابة بالنقش. وتعد برديات الغنوسيين التى وجدها شينوبوسكيون Chenoboskion فى نجع حمادى من المقتنيات المتميزة التى تم الحصول عليها فى السنوات الأخيرة، وقد تم جمع الكثير من المخطوطات المسيحية العربية من مصادرها المختلفة.[١]

أما جمعية الآثار القبطية فقد أنشأها الأستاذ ميريت غالى حفيد بطرس غالى باشا، فى عام ١٩١٤م بالاسم الأصلى وهو جمعية أصدقاء الفن القبطى. وفى ١٩٣٨م أخذت اسمها الحالى واستطاعت الجمعية عن طريق نشرتها[٢] ان تشد إليها انظار الباحثين المتخصصين فى الدراسات القبطية من كل أنحاء العالم للمساهمة فى أعمالها. وتكاثرت منشورات[٣] الجمعية عمومًا. وقامت فى السنوات الأخيرة بعمل حفريات للكشف عن الآثار القبطية فى موقع دير القديس فيبامون Phoebamon´s Monastery فى طيبة Thebaid بالقرب من الأقصر.[٤]

يعتبر معهد الدراسات القبطية نتيجةً طبيعيةً لتطور المؤسسات السابقة. فقد أصبحت الحاجة ماسة إلى معهد تعليمى[٥] فى مصر يمكن عن طريقه توجيه عملية التعليم والتدريب والبحث فى مجال الدراسات القبطية. واستطاعت مجموعة صغيرة من المتخصصين بميزانية محدودة وتفان لا حدود له، أن تجعل المؤسسة الجديدة حقيقةً واقعةً فى مبنى الأنبا رويس الشاسع بعد أن منحهم مجلس الطائفة القبطى حق استخدامه. لقد أُنشئ المعهد لدراسة كل جوانب الحضارة المصرية فى الفترة المسماة بفترة التاريخ القبطى، وهو عصر الانتقال بين حكم الأسرات والحكم الإسلامى. وشملت الخطة إثنى عشر قسمًا دراسيًا، لم تكن كلها تعمل حينذاك أو حتى الآن، بل كانت تمثل اللغة القبطية واللغويات والتاريخ والدراسات الاجتماعية والآثار والفن والقانون والألحان الكنسية واللاهوت والدراسات الإثيوبية والإفريقية، والآداب السامية والمسيحية والعربية. وكان واضحاً منذ البداية أن المشروع، وإن كانت تعضده الكنيسة والمجلس الملى، ليس مشروعاً طائفيًا ولا دينياً ولكنه مدرسة تتجه إلى دراسة مرحلة الحضارة المصرية التى اتفق أن

١ - مرقس وسميكة (Sic) "كتالوج المخطوطات القبطية والعربية فى المتحف القبطى، والبطريركية، والكنائس الرئيسية فى القاهرة والاسكندرية واديرة مصر" مجلدان (القاهرة ١٩٣٩، ١٩٤٢).

٢ - ظهر من هذه النشرة خمسة عشر مجلداً من سنة ١٩٣٥ إلى ١٩٣٩م، منها الثلاثة او الاربعة الاول وهى لم تطبع بعد.

٣ - تتكون منشورات الجمعية من اربعة مصنفات ١. الفن والآثار ٢. الحفريات ٣. النصوص والوثائق ٤. متنوعات بلغت جملتها ٢٢ مجلداً مطبوعًا.

٤ - لقد تم ترتيب هذه الاكتشافات فى ثلاثة مجلدات بعنوان، "دير فيبامون فى منطقة طيبة "Thebaid"

1 - Archaelogy by Ch. Bachatly, 2- Texts by R. Rémondon, W. C. Till and Yassa´Abd al-Masih, and 3- Analysis of Vegetals and Materials by E. A. M. Greiss, A. K. El-Duweini and Z. Iskander. Tome II only published (Cairo, 1965). The death of some of the above - mentioned writers has delayed publication of further volumes of this important work.

٥ - قام الاب الفرنسسكانى سلفاميتر شولر فى عام ١٩٥٢ بتأسيس معهد قبطى كاثوليكى مماثل. ونشر مجموعة من الكتيبات عن الدراسات القبطية باسم "كراسات قبطية" عددها عشر. وانشا فرنسسكانى اخر هو:
Franciscan, Father Martiniano Roncaglia, under the name "Centro di studi orientali della Custodia Francescana di Terra Santa. It publishes a series called "Coptica". Both arc in Cairo. M. Cramer, Das Christlich-Koptische Agypten, Einst und Heute, p. 95;

كانت قبطية مسيحية وأبواب الدراسة فيه مفتوحة للباحثين من كل دين وكل طائفة دون أدنى تفرقة أوتمييز، وجاءت الاستجابة مؤيدة للفكرة داخل مصر وخارجها. وقد نمت حصيلة المراجع فى المكتبة بصورة مدهشة، وتصاعدت أعداد الطلبة المسجلين فى كشوف الدراسة.

إن العلاقة المتبادلة بين المؤسسات الثلاث المذكورة آنفاً سوف تثمر دون شك نتائج هامة فى ميدان العلوم الإنسانية فى مصر وسوف ترقى بمستوى رجال الكهنوت.

العلاقات الدولية والمسكونية:

مثل معبد مصرى كبير منعزل يقف حزيناً على حافة الصحراء، فى وجه العواصف التى ظلت سنين طويلة تهيل عليه الرمال حتى غاص تحت ركامها، هكذا عاشت الكنيسة القبطية القديمة حياةً موحشةً على هامش الحضارة المصرية دون أن يلحظها أحد حتى دفنت تحت رمال الزمن والنسيان. لكن مع هذا المعبد الضخم أيضاً، أثبتت الكنيسة أنها باقية وخالدة تستعصى على الفناء، حتى لو كانت رياح التغيير قد ضعضعتها. شأنها فى ذلك شأن أى كائن حى. فإن حيويتها القوية، وإن كانت قد ضعفت بفعل الحروب المتصلة، لكنها ظلت كامنة حية تحت الأنقاض. وقد أخذ أبناؤها على مدى السنوات القليلة الماضية، بفضل زيادة الأمن والحرية الداخلية والدعم والتعاطف الخارجى، فى إزالة الركام من حول صرحها العريق الذى أخذ يعطى إشارات بسيطة لإشعاع جديد. هذه المهمة هى جهد مشترك لابد أن تتعاون فيه كل المؤسسات التى سبق ذكرها مع سلك كهنوتى أخذ ينفض عن نفسه تراب الجهل والسلفية بالتدريج، ومع تلك المؤسسات الدولية التى تربى لديها اهتمام متزايد بتراثها التاريخى.

إن الكنيسة القبطية التى اختارت العزلة بفطرتها، كما اختارت حياتها الروحية الخاصة بها، وسارت فى الطريق الوعر، طريق ما لُقِبَ ظلماً بمذهب المونوفيزيتية "الطبيعة الواحدة" منذ الأيام السوداء لمجمع خلقيدونية فى سنة ٤٥١م، وهى تستعيد الآن إيمانها وثقتها فى أصدقائها وأعدائها القدامى الذين يعيشون فى أقاليم أخرى بعيدة وراء البحار. إن روح العزلة والشك الموروثة لدى البطاركة إزاء المسيحيين الآخرين من جميع الطوائف، يحل محلها تدريجياً إحساس متبادل بالتقدير والتعاون مع الكنائس والأمم الأخرى فى مجال العمل على مستوى المسكونة. وبالطبع قامت الكنيسة القبطية بتنظيم زيارات وعلاقات مع الإخوة فى الشرق وفى إفريقيا خارج حدودها القديمة، وهكذا تزداد درجة الوعى بتلك الصلة التاريخية فى كثير من المناطق. ففى أسيا وباستثناء علاقات المودة القائمة مع السريان والأرمن والهنود، فإن تكريس اسقف للكويت فى سنة ١٩٦٣م يعد حدثاً هاماً لا يصح التقليل من شأنه. وصارت الخدمة فى إفريقيا أوفر كثافة، كما أن تقارب الأمم فى هذه القارة لابد أن يتجلى عن طريق العلاقات الدينية مع مصر، مسيحياً وإسلامياً. فالعلاقات الإثيوبية مع الأقباط تحتل صورتها العامة مكانة ممتازة حقاً. لقد ظن البعض أن قرار إعفاء الكنيسة الأثيوبية من تنصيب رئيس أساقفة مصرى عليها، وهو تقليد صارت عليه الكنيستان منذ أيام فرومنتيوس Frumentius فى عام ٣٤٠م يعنى وقوع انشقاق بينهما. وهذا خطأ كبير. إن تكريس بطريرك Patriarch- Catholicos إثيوبى فى شخص الأنبا باسيليوس فى ٢٨ يونية ١٩٥٩م، كان خطوة حكيمة لمواكبة الإحساس

المتنامى لدى الإثيوبيين بقوميتهم. فقد كانت العلاقات بين الكنيستين علاقةً شخصيةً تتم من خلال شخص الأنبا سلامة وهو أجنبى عرقياً. أما الآن فإن الرابطة ليست شخصية بل عقائدية، لأن وثائق التكريس جعلت العلاقة أكثر عمقاً، وأكثر وضوحاً وأكثر صحة. إن "بابا الإسكندرية وبطريرك كرسى القديس مرقس" أصبح هو الرئيس المباشر لكل الكنائس الشقيقة التى تخضع لطاعته. لقد تجلى هذا الاعتراف بصورة حقيقية أثناء زيارة الأنبا كيرلس السادس لإثيوبيا، إذ بلغ العدد الإجمالى للأساقفة بإثيوبيا آنذاك أربعة وعشرين أسقفاً.

فضلاً عن ذلك، فإن للكنيسة القبطية أسقفين فى السودان، أحدهما فى الخرطوم والآخر لأم درمان. وهناك أسقف قبطى فى جنوب إفريقيا. وقد فتح رئيس غانا الأسبق نيكروما، الذى تزوج بسيدة قبطية من مصر، الأبواب لخدمة الكنيسة فى بلاده. ومع ذلك، فإن الأخبار المتأرجحة حول مشروع انضمام خمسة ملايين مسيحى إفريقى فى أوغندا والدول المجاورة للكنيسة القبطية مازال فى حاجة إلى تأكيد أكثر. وإن كان يبدو طبيعياً بالنسبة لهذه الأمم التى تحررت حديثاً جداً من المستعمر أن تتطلع إلى مصر من حيث القيادة الدينية والإرشاد الروحى من الكنيسة الإفريقية الأصلية والوحيدة.

اختفت مشاعر المرارة والقسوة سريعاً تجاه الكنائس الغربية فى أوربا وأمريكا نتيجة الاعتراف المتزايد بالكنيسة القبطية كحقيقة واقعة. وكان أول مظاهر الاقتراب الطبيعى نحو المسيحية الغربية هو ما حدث حين قررت الكنيسة القبطية أن ترسل وفداً من ثلاثة أعضاء[1] لتمثيلها رسمياً فى مجلس الكنائس العالمى، الذى عُقد فى إيفانستون Evanston بولاية إلينوى فى صيف ١٩٥٤م. وقد اعترض هؤلاء الأقباط على كلمة الترحيب التى وصفتهم بالقادمين الجدد، وقالوا، إنهم كانوا هناك حتى سنة ٤٥١م عندما قرروا اعتزال هذه الحركة فى طورها المبكر بعد ما تعرضوا له من مظالم فى مجمع خلقيدونية. ومع انبعاث روح الإخوة المسيحية من جديد، وروح الفهم والتسامح المتبادل، فإن الأقباط تخلوا عن خطتهم الثابتة فى العزلة لكى يؤدوا دورهم من جديد فى مجلس الكنائس بعد فترة توقف بلغت خمسة عشر قرناً. وقد أصبح وجودهم ملموسًا بشكل فعَّال فى مداولات المجلس وفى لجنته المركزية منذ إيفانستون. وقد وجد البابا كيرلس السادس فى تكريس أسقف خاص للخدمة والعلاقات المسكونية اقتراحاً جديراً بالتحقيق. ومنذ عام ١٩٥٤م لم يتخلف الأقباط أبداً عن أى اجتماع للمجلس، بل إنهم يرسلون مراقبين لهم فى مجلس الفاتيكان المسكونى الثانى.[2]

خرجت الكنيسة القبطية أخيراً من عزلتها وظهرت فى مجال الخدمة المسكونية. لكن هذا ليس هو المنتهى. فقد شهد ربيع ١٩٥٤م خطوة أبعد عندما أرسلت الكنيسة القبطية ثلاثة ممثلين لها وهم راهب واثنان من العلمانيين[3]، إلى المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى عقد فى بحمدون بلبنان وحضره ثمانون عضواً من القادة الدينيين، نصفهم من المسلمين ونصفهم من المسيحيين

١ ـ هؤلاء هم الأب مكارى السريانى (الأسقف صموئيل المتنيح) وهو راهب من دير السريان، والأب المتنيح صليب (محام سابق) و قسيس علمانى بالجيزة، وكاتب هذه السطور.

٢ ـ الأب باخوم المحرقى (د. وهيب عطالله جرجس) حضر المؤتمر كمراقب.

٣ ـ الأب مكارى (المتنيح الأسقف صموئيل)، المرحوم إسكندر فصيحى (قاض سابق فى المحاكم المختلطة). وكاتب هذه السطور.

جاءوا من كنائس كثيرة ودول بلغت ثلاثين بلدًا. والتقوا فى اجتماع جادلكى يتعهدوا أمام الله بأن يعملوا بغير توقف، وبثقة متبادلة بينهم، وباحترام لحقوق الآخرين، على تنمية التفاهم ومشاعر الأخوة بين المسلمين والمسيحيين[1] فالأقباط، الذين تعايشوا مع المسلمين ثلاثة عشر قرناً فى مصر، كانوا عاملا فعّالاً فى هذه الحركة الدينية الدولية، التى كانوا يألفون عناصرها الأساسية. فليس هناك ما هو أكثر قبولاً فى عقل الأقباط من هذا التعهد الآنف الذكر، الذى تأكد ثانيةً بإعلان الإسكندرية فى ١٤ فبراير سنة ١٩٥٥م، أن نعمل كل ما فى وسعنا لتنمية روح الصداقة بين الشعوب التى تؤمن بعقائدنا المحترمة، ولمحو الكراهية وسوء الفهم فى سبيل خلق أخوة وفهم متبادلين بكل طريقة مختلفة.[2] ربما كان هذا تلخيصاً لأمانى الأقباط على طريق العمل الدولى.

١ ـ كتاب الأخوة الإسلامية والمسيحية "مؤتمر بحمدون" ص ٢٢، ٢٣.
٢ ـ نفس المرجع السابق (إعلان الإسكندرية) ص ٢٢ـ ٢٩.

الملحق الأول

المعلم يعقوب

١٧٤٥ ـ ١٨٠١م

أ. د. أنور لوقا

المعلم يعقوب

١٧٤٥ - ١٨٠١م

ابن ملوى: محاسب أم تاجر؟

ولد يعقوب بملوى فى سنة ١٧٤٥م. ولا نعلم عن أسرته سوى اسم أبيه "المعلم حنا" واسم أمه "مريم توفيق غزال". ونجهل هل كان أبوه كاتباً كغيره من "المعلمين" الأقباط الذين تخصصوا فى إمساك دفاتر الأطيان وحساب الضرائب على الأرض، أو أنه تجاوز هذا الحد المهنى المتوارث - طبقاً للتقاليد الثابته إذ ذاك - وعمد إلى الاشتغال بالتجارة؟

لقد كانت بلدته ملوى فى القرن الثامن عشر ميداناً مواتيًا لهاتين المهنتين، فهى سوق من اشهر أسواق مصر الوسطى تتوفر فيها مواد التموين الضرورية للناس من قمح وعسل وزيت وتوابل ومن أقمشة القطن والكتان المنسوجة فى المدينة نفسها - وتلك صناعة مصرية عريقة (القباطى) - وهى من ناحية أخرى، بفضل موقعها الجغرافى وسط سهل خصب، قد أصبحت مركزًا لمقاطعة ميسورة تدر الخير العميم على "أرض الحرمين" أى الحجاز.

ذلك أن السلطة العليا فى ملوى كان يتولاها "أمير الحج"، وكان أعظم المماليك قدرًا بعد "شيخ البلد" (حاكم القاهرة). ويمثله فى المدينة "سردار"، ومهمته الرئيسيةهى جمع الضريبة السنوية المعروفة "بغلال الحرمين" على أيدى معاونيه من الكتاب الاقباط، ثم نقلها إلى الحجاز - بإشراف "قافلة باشى" عن طريق القاهرة والسويس والبحر الأحمر.

وإذا كانت المعلومات تنقصنا عن نشأة يعقوب فى ملوى وبداية نشاطه هناك مع أبيه على الأرجح، فإن نشاطه المقبل يشهد بخبرته كاتباً وتاجراً فى آن واحد.

وفى مزاولة هذا النشاط المزدوج، كما سنرى - شغْل المحاسب وشغل التاجر - تجديد جرئ، بل خرق لمبادئ تقسيم العمل فى مصر العثمانية، لأن الجمع بين المهن لم يكن مباحًا فى ظل النقابات المغلقة وانتماء كل مهنة إلى سلطة تنظيمية منفصلة. فهكذا استقل الأقباط بمهنة "الكاتب" اى بوظيفة تقدير الضرائب الزراعية، وأما تجارةالجملة فكانت وقفً على الأجانب أو رعايا الولايات العثمانية الأخرى. وقد ادى هذا الفصل بين الصناعات إلى ركود الحياة الاقتصادية من حيث هى تبادل، وباتت النقابات عاملاً من عوامل الجمود ومانعًا للتقدم والابتكار.

تجربة الاستقلال: على بك الكبير

استطاع يعقوب أن يتخطى تلك الحواجز انطلاقاً من وظيفته "مباشراً اى وكيلاً عامًا لإدارة املاك "سليمان بك" كاشف إقليم اسيوط ورئيساً لكتبة التزامه. فقد وجد بين يديه موارد ثروة طائلة يجنيها ويتصرف فى تدبيرها ويعمل على استثمارها وتنميتها بعد أن يؤدى أقساط الالتزام للديوان الدفترى (الذى يرأسه الدفتردار صاحب الشئون المالية).

ولا نعرف من تاريخ دخول يعقوب فى خدمة سليمان بك إلاّ أنه وافق حُكم "على بك الكبير"، أى دخول مصر فى عهد من الاستقلال عن السيطرة العثمانية. فقد أفلح على بك - هذا المملوك الصارم الذى ارتفع إلى منصب "شيخ البلد" - فى انتزاع ولاية مصر من السلطان (١٧٦٧-١٧٧٣م) وطرد الباشا التركى من القاهرة، ورفض دفع "المال الميرى" المطلوب للآستانة، وسك النقود باسمه هو، وحاول ضم الحجاز والشام إلى الدولة المصرية. ولكى يضمن نجاح مشروعاته حاول أن يحصل من الخارج على مساعدة بعض الدول الأوربية: فاتصل أولاً بجمهورية البندقية التى أيدته، غير أنها لم تلبث أن فقدت استقلالها، فاستعان بالروسية التى أزرته بأسطولهافى المياه السورية. كما حاول فى الداخل أن يعزّز نفوذه بالاعتماد على أوفى رجال بيته من المماليك، فرقّاهم إلى رتبة البكوية وعيّنهم لحكم الاقاليم. وكان سليمان بك واحدًا منهم. وهكذا اثبت طموح على بك الكبير أن فى مصر من إمكانيات التحرك وعوامل القوة ما يجعلها دولة مستقلة إذا أُحسنت قيادتها وإدارتها.

تأثر يعقوب تأثرًا مباشرًا بتلك التجربة، لاسيما وقد استنجد على بك الكبير بالصعيد منذ بدايتها حين حرَّض الباشا التركى "كشكش بك" ضده، فقد فالتجأ على بك حينئذ إلى جرجا. وتمكن حزب الصعيد من الانتصار على حزب الترك بالقاهرة.

كان يعقوب إذ ذاك فى الثالثة والعشرين من عمره، أى فى عنفوان الشباب وتفتح الإدراك، فى سن الحماسة والإقدام والتفاعل الخصب بأحداث الحياة. ولسوف ينخرط فى الصراع، ويضطر عقب أن يبلغ سن الأربعين إلى مقاتلة من هاجموه من الأتراك فى موقعة "المنشية" فى سنة ١٧٨٦م، حيث ينهزم رجال حسن باشا الجزايرلى قبطان البحر التركى الذين حملوا على "إبراهيم بك" و "مراد بك" وتعقبوهما حتى الصعيد الأوسط.

ومنذ تلك المعركة التى ابلى فيها يعقوب على صهوة جواده بلاء الفرسان الذين يحسنون الكر والفر، تغلغل فى وعيه معنى الاستقلال ووجوب الدفاع عن النفس والأرض بالسلاح.

مباشر سليمان بك: تجربة اقتصاد السوق

لم يشتهر سليمان بك فى التاريخ شهرة محمد بك أبى الذهب ثم مراد بك وإبراهيم بك، مع أنه كان نظيرهم ضمن الثمانية عشر مملوكاً الذين اصطفاهم على بك الكبير لإرساء سلطته على البلاد - وكان لسليمان أخ اسمه إبراهيم بك صاهر إبراهيم بك المعروف. وإنما اشتهر سليمان بك - حسب قول الجبرتى - "بحبه لجمع المال" فى إقطاعه الواسع حيث "استوطن أسيوط وبنى بها قصراً عظيمًا". تقلد يعقوب الإشراف على كل شئون القصر الجديد العظيم وعلى كل شئون الالتزام.

والالتزام نظام ربط الزراعة فى مصر بتادية الضرائب للسلطان. فقد أصبحت أراضى مصر ملكاً للسلطان التركى منذ الفتح العثمانى. والحكومة التركية لا تتعامل مع الفلاحين بل تعطى حق تحصيل الضرائب منهم لبعض الأفراد الأقوياء محليًا - ولاسيما المماليك، وهؤلاء يلتزمون بدفع الأموال الأميرية للحكومة ويتولون تحصيلها بمعرفتهم . ويوزع الملتزم الأرض على

الفلاحين بعد أن يحتفظ عادة بأجودها يستغله لحسابه الخاص، وتعرف هذه الحصة "بأرض الوسية" التى يستخدم الملتزم الفلاحين فى زرعها بطريق السخرة. فى هذا الإطار تصرف المعلم يعقوب وعمل على تنمية الإنتاج إرضاءً لمخدومه سليمان بك المحب لجمع المال. وتفتق ذهن يعقوب عن ترشيده لاستغلال الأرض والأيدى العاملة فلفتت ثماره من الأرباح الجزيلة انظار المعاصرين، فالجبرتى يشرح بإعجاب فى ترجمته لسليمان بك كيف أثرى هذا المملوك فيقول:

"أنشأ بعض بساتين وسواق، واقتنى ابقارًا وأغنامًا كثيرة. ومما اتفق له أنه جز صوف الأغنام - وكانت أكثر من عشرة آلاف - ثم وزعه على الفلاحين وسخرهم فى غزله بعد أن وزنه عليهم، ثم وزعه على القزازين فنسجوه أكسية، ثم جمع التجار وباعه عليهم، بزيادة عن السعر الحاضر، فبلغ ذلك مبلغا عظيما".

ويدل قول الجبرتى "اتفق له" على النجاح والتوفيق من ناحية وعلى جدّة هذه المبادرة من ناحية أخرى، فالاتفاق بمعنى المصادفة يشير إلى شىء خارج عن المألوف. وتلك مبادرة فذة فى التدبير تتجلى طرافتها فى انها ذات حلقات متواصلة يعتمد بعضها على بعض، تمتد من الأرض وتوفير الرى للمزروعات إلى الثروة الحيوانية ومنتجاتهاثم تصنيع هذه المنتجات الخام وتطويرها مرحلةً بعد مرحلة حتى تفضى العمليات بالسلعة الى منفذها التجارى الأخير. أى أنها ممارسة واقعية لاقتصاد "التحويل" فى الإنتاج بقصد التسويق والاستهلاك. وهذا هو مدار الفكر الاقتصادى الحديث، الذى يحطم الفواصل بين الحرف المنعزلة، ويؤلف بينها فى سياق افقى متكامل يذلل من تنافرها الرأسى المتمثل فى نقابات الطوائف، بل يجمع مصالحها باستهداف مصلحة واحدة نائية مشتركة، وبلوغ غاية بعيدة تفترض فعالية الارتباط التنظيمى. وكأن المعلم يعقوب قد فطن إلى أن "تحويل" الخامة و "التسلسل" فى معاملتها حتى تخرج الى السوق هما - إلى جانب رأس المال - أساس الاقتصاد المجزى. وذلك إرهاص محلى ببيئة الثورة الصناعية التى ستتمخض عنها أوربا.

وفى تنظيم الإنتاجية بأسيوط على هذا النمط السابق لأوانه، استخدم يعقوب جهازه الوظيفى المعتاد من الكتبة والمعاونين الذين يرأس إدارتهم فى أرض الوسية: كاتب "المِخْلة" المختص بتموين القصر وحاجات أهله، و "كاتب العليق" المسئول عن الخيل، و "كاتب الخزنة" أى المحاسب، و "الطرف" الذى يراجع قيمة العملات عند إنفاقها، فضلاً عن "كاتب اليد" الذى يتولى تحرير المراسلات. كما استخدم مرؤوسيه القائمين رسمياً بتحصيل الضرائب للالتزام، فالكاشفية مقسمة إلى جهات، والجهات إلى قرى، وعلى كل قرية "كاتب" هو الذى يجمع المال - نقدًا او عينًا - بمعاونة "صراف" و "مسّاح". وكانت الأسبقية لمهمة المسّاح الذى يحدد بالقياس أبعاد الأرض المزروعة فهى تتفاوت كل سنة عقب الفيضان وانحسار مياه النيل. وعلى رأس هذا العدد العديد من رجال الإدارة والإحصاء، والقياس والوزن والمتابعة وكان المعلم يعقوب هو الممسك - فى واقع الأمر - بزمام السلطة الإقليمية، يمارس فى تأدية وظيفته الشاملة كل ما يتمتع به الكاشف من نفوذ وامتيازات.

إسيوط: محط قافلة دارفور

كانت أسيوط من أشهر مدن الوجه القبلى وأهمها (٢٠٠ الف نسمة)، ترتفع القصور على تلالها الغربية العالية، وتمتد فى شمالها الحدائق، ويجرى من تحتها النيل وعليه ميناؤها فى ضاحية "الحمراء". أسيوط إذن باب الصحراء المؤدى إلى النيل، ومن امتيازات كاشفها تحصيل رسوم الجمرك المفروضة ليس فقط على السفن التى تشحن الغلال من جنوب الصعيد إلى القاهرة، حسب تقدير حمولتها بالأردب، بل كذلك على السلع المختلفة الواردة من السودان مع قوافل دارفور القادمة عبر "درب الأربعين" - وكانت رحلتها عن طريق الواحة الخارجية تستغرق بالفعل أربعين يوماً.

إنها قافلة جرارة تأتى فى السنة مرتين، يقود جمالها المحملة - التى يتراوح عددها بين الأربعة الاف والخمسة الاف - نحو مائتين أو ثلاثمائة من الرجال. وكانت تجلب من السودان الصمغ والعاج والجلود والتمر وريش النعام والتمر هندى وغيره من الثمار المجففة والتوابل فضلاً عن العبيد الذين يواصل النخاسون بهم الرحلة إلى القاهرة. مقابل تلك السلع كان تجار السودان يتقايضون أقمشة من القطن أو الكتّان صبغت أو نسجت فى أسيوط ذاتها، وأكسية من الحرير وكميات من الصابون وردت من سوريا، إلى جانب أرز الدلتا، والجوخ والأوانى المستوردة من أوربا. وهكذا أصبحت أسيوط ملتقى تجار الصحراء، وقلب إفريقيا جنوباً بسلع الشمال - لا سيما قطن الدلتا والشام الذى يغذى أيضاً صناعة النسيج بالصعيد، على حين بدأت مصنوعات أوربا ظهورها فى المنطقة.

وعلى امتداد تيارات التجارة الدولية تلك التى تجاذبت أطرافها من ثلاث قارات وتقاطعت خطوطها فى جمرك أسيوط بين يدى المعلم يعقوب يتضح لنا تطور فكر هذا الرجل. فقد أدرك مقدرات التوسع الاقتصادى بالتوسع فى تبادل السلع وراء الحدود المحلية، ولمس كيف تضاعف التجارة الخارجية دخلاً حيويا إذ ينصبّ فيها إنتاج تجربة "اقتصاد السوق" التى جرّبها بنجاح داخل منطقة أسيوط. ولا نعرف حجم الصفقات التى شارك بها يعقوب لحسابه ضمن تلك المبادلات المجزية المتتالية المنتظمة، ولكننا نستدل على أهميتها من توجه حياته الخاصة. فقد تحول مجراها الشخصى بموازة تحول نشاطه.

زوجة من حلب: أو روابط التجارة الدولية

كان يعقوب قد تزوج فى الخامسة والعشرين من عمره بابنة خاله "مختارة الطويل" المولودة مثله فى ملوى. ورزق منها ولدًا مات صغيرًا، ولم تلبث زوجته أن ماتت كذلك، وكان الطاعون متفشياً فى البلاد. وفى السابعة والثلاثين من عمره - أى سنة ١٧٨٢م - قرر يعقوب أن يقترن لا بقريبة له قبطية بل بفتاة سورية هى مريم ابنة التاجر الحلبى "نعمة الله بابوتشى".

واسم حلب يعنى أروج أسباب التجارة إذ ذاك فى بلاد الدولة العثمانية. كان بهذه المدينة ثلاثون سوقا تستقبل وتوزع سلعًا مصنوعة فى أوربا وخامات واردة من أسيا. وذلك بفضل موقعها على محور جغرافى يربط المحيط الهندى - عن طريق البصرة - بالبحر المتوسط. كما كانت

حلب تصدر الى مصر وإلى غيرها من الولايات العثمانية ما تنتجه أيضاً منطقتها العامرة المتسعة، وأهم محاصيلها القطن.

وتلك الزيجة القبطية الشامية - التى اغضبت بطريرك الاقباط من يعقوب - ظاهرة تاريخية من معالم ذلك العصر، جديرة بأن نتفهم مغزاها. ولن نصعد فى التاريخ إلى سلاطين المماليك الذين طردوا المغول والصليبيين من سوريا فى القرن الثالث عشر الميلادى وضموا القطر السورى إلى دولتهم فى مصر حتى هزمهم الجيش التركى فى سنة ١٥١٦م فى موقعة "مرج دابق" شمالى حلب، وفرض السيادة العثمانية على البلدين، مما ادى إلى ارتباط مصيرهما على نسق آخر. حسبنا أن نقف عند مغامرة على بك الكبير الاستقلالية، فقد هزّت دعائم النظام العثمانى فى أواخر القرن الثامن عشر واخلّت بتوازن القوى الحاكمة - وفى مثل هذه الفترات من تخلخل السلطة، اى من انحسار الاستبداد، تزدهر أحوال الأقليات المسيحية فى الدولة.

ويتضح انتعاش حلب فى زيادة حجم معاملاتها التجارية عندئذ مع الخارج، ووفود عدد كبير من تجارها المسيحيين إلى مصر مندوبين عن بيوتاتهم المشتغلة بالتصدير والاستيراد. لقد شكلت هجرة الشوام لمصر موجة عارمة بين سنتى ١٧٧٦م و١٧٩٨م، وطغى فى إحصاءات تلك الهجرة عدد الحلبيين على عدد الدمشقيين. والحق ان على بك الكبير هو الذى فتح ذلك الباب منذ سنة ١٧٦٩م حين سحب فجأة التزام الجمارك المصرية من أيدى الملتزمين اليهود - وكانوا يحتكرون استغلالها. ووضعها فى أيدى ميخائيل فخر ويوسف بيطار الحلبى. ذلك أن على بك الكبير، فى طموحه التوسعى باتجاه الشام أراد أن يموّل نفقات حملاته بالاعتماد على موارد طائلة تستطيع أرصدة الأثرياء الشوام أن تضمنها له، بينما تقصر عنها طاقة اليهود. ويعزز من فوز المسيحيين الشوام ما كان لبعضهم - كإبراهيم الصباغ وميخائيل البحرى - من مكانة ونفوذ لدى الشيخ "ظاهر العُمَر" صاحب عكا وحليف على بك الكبير.

ويسجل القنصل الفرنسى "مور" Mure هذا التحول المشهود فى تقرير له فى سنة ١٧٨١م إذ يقول: "منذ حوالى عشر سنوات أصبحت الجمارك المصرية فى أيدى الكاثوليك الشوام الذين استقروا بهذا البلد. ومنذ ذلك العهد تواصلت هجرة أبناء تلك الملة إلى مصر، حيث يتابعون سعيهم الوطيد لتنفيذ مشروع استيلائهم على التجارة بأكملها".

قصة تفوق الشوام

ويرجع ثراء تلك الطائفة من نصارى الشوام، وتميزها بالحركة فى الولايات العثمانية، إلى إفلاتها من ضغوط السلطة التركية المرهقة المفروضة على الأقليات. فقد فضّلت أن تنتمى إلى المذهب الكاثوليكى فى روما للإفادة من وضع "الحماية" القانونى الذى يمنحه السلطان لرعايا الدول المسيحية الأوربية فى دولته طبقا للاتفاقية المعروفة "بالامتيازات" Les Capitulations. وكان المسيحيون من أهل حلب أسبق إلى التمتع بتلك الحماية. ولكن نصارى الشام، الذين انتموا إلى بابا روما، حرصوا فى الوقت نفسه على شخصيتهم القومية، واستمسكوا باللغة العربية فى ممارسة طقوسهم الكاثوليكية وصلواتهم. ومن هنا كان تفرّد تلك الطائفة واشتهارها باسم المسيحيين "الكاثوليك اليونان" Grec Catholiques. واليونان إشارة إلى أرثوذكسيتهم

البيزنطية السابقة. والطريف أن ذلك الحرص على الأصالة قد تجلت آثاره الثقافية فى النهضة الأدبية العربية التى قاوم بها السوريون سيطرة العقلية التركية.

وأتاحت مقدرات حلب الجغرافية لأهل هذه الملة أن ينصرفوا إلى مزاولة التجارة داخلياً وخارجياً، دون التقيد بالقيود الديوانية والضريبية التى شلت سواهم. لذا اتسعت رقعة معاملاتهم حتى بلغت مداخل أوربا، لاسيما وبدايات الثورة الصناعية فى الغرب قد دفعت بالسلع الأوربية نحو الشرق. وأصبح لهؤلاء الشوام فى أواخر القرن الثامن عشر ممثلون ثابتون منهم لتجارتهم عبر البحر المتوسط، استقروا فى الموانىء الإيطالية كالبندقية وليفورنو وتريستا.

وأدت الضغوط المتشابهة التى تقع فى الولايات العثمانية على الأقليات المحلية إلى تقارب اجتماعى عام فيما بينها، نشهد على قمته الطبقية فى مصر تلاقى المصالح الاقتصادية لأصحاب النفوذ المالى - أى رؤساء الكتبة الأقباط ورؤساء الجمارك الجدد. هكذا نشأت علاقة المعلم يعقوب بملتزم الجمارك المصرية الأكبر "أنطون قسيس فرعون" الشامى، وكارلو روســـتى Carlo Rossetti التاجر البندقانى الواسع النشاط الذى لم تلبث النمسا أن عينته قنصلاً لها للإفادة من علاقاته الحيوية بالمنطقة. ولتوثيق الوشائج الاقتصادية الخاصة، وتعزيز المصالح التى يتبادلها ويتشاطرها فى مصر أطراف تلك الحركة التجارية المتنامية، انعقدت أواصر المصاهرة بين عائلات من أغنياء الأقلية الشامية وأغنياء الأقلية القبطية.

وكان الشوام فى القاهرة يسكنون قرب "الخليج" بين "القنطرة الجديدة" و "الموسكى" أى بين حى الأقباط من ناحية وحى الإفرنج من ناحية أخرى - حيث كانوا يقيمون الصلاة فى كنيستين كاثوليكيتين تعرفان "بالدير الصغير" و"الدير الكبير" - وكأنهم يرسمون على سطح خريطة المدينة مكانهم الوظيفى الجديد فى مجتمع يتطور.

ولعل فى السطور التالية المؤرخة بسنة ١٧٨١م من تقرير القنصل الفرنسى "مور" الآنف الذكر ما يلقى الضوء على الظروف التى اكتنفت خطبة المعلم يعقوب لبنت تاجر حلبى وزواجه بها فى العام التالى:

"فى مدة الثلاث أو الأربع سنين الماضية تمكن الكاثوليك الشوام من الاستيلاء على كل تجارة الهند وجزيرة العرب-النافذة عن طريق البحر الأحمر، وعلى تجارة الشام، وقسم من تجارة إزمير. وعما قليل ستصبح فى أيديهم تجارة المغرب بأكملها وهى عظيمة الحجم. إنهم يتولون تجارة ليفورنو بتماميها تقريبًا وبالتالى تجارة إنجلترا التى تنطلق منها. ويتقاسمون تجارة البندقية مع البنادقة. وقد أنشأوا أخيرًا مؤسسة لهم فى تريستا".

فى ذاكرة الأقباط

اعتبرت طائفة الأقباط سلوك المعلم يعقوب شذوذًا، ورفض البطريرك أن يبارك زواجه، بل أحسُ فى اقتران هذا الرجل البارز بكاثوليكية خطوة جديدة فى تقهقر الكنيسة القبطية الأرثوذكسية العريقة أمام تقدم المذهب الكاثوليكى فى مصر خلال القرن الثامن عشر. وانطبعت

صورة ذاك النزاع الداخلى فى ذاكرة الأقباط. فمما يرويه يعقوب بك نخلة روفيلة مؤلف "تاريخ الأمة القبطية" - المولود فى سنة ١٨٤٧م والمتوفى سنة ١٩٠٥م - نقلاً عن المعمرين من شيوخ الطائفة الذين استجوبهم ليعلم علم المعلم يعقوب: "أن رجال الدين لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله وأن البطريرك نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الخطة وبأن يعيش كسائر إخوانه، فلم يقبل. وعاودوه النصيحة مرة أخرى فجاوبه يعقوب جواباً عنيفاً فسخط عليه".

وسمع نفس المؤلف من قبطى مسن أيضاً صدى ما شاع بين معاصرى المعلم يعقوب من قصة "دخوله الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه، وطلبه أن يتناول السر المقدس وهو على ظهر جواده، واعتذر عن هذه الجسارة بأن من كان جندياً مثله يلزم أن يكون على الدوام فى أهبة واستعداد". وتلك صورة أسطورية تختلط فيها الوقائع المتفرقة وتتشكل الموضوعات المتباعدة تشكلاً مجازياً يجمع بينها فى سبيل إنشاء معنى معين. فهى تريد أن ترسم خطاً رأسياً مقلوباً يمثل العلاقة التى فيها يخضع رئيس الكنيسة رغم سلطته الروحية (المناولة) وسلطته الشرعية (عقد الزواج) لإدارة قائد عسكرى متمرد !

لكن هل تَنكّر يعقوب حقًا لصفته القبطية؟ لاشك أنه تعدى حدوداً طائفيةً محليةً ضيقةً، ليؤكد - فيما وراءها - تعايشًا أوسع بين الدين والمجتمع. وكأنه يطبق تطبيقاً عفوياً مبدأ التسامح الذى يفتقده فى بيئته، والذى كان يدعو إليه فى ذلك القرن من التاريخ ودون وعى من يعقوب، مفكرو عصر التنوير فى الغرب. وما التقارب الذى عمد يعقوب إلى إعلانه بين جماعتين متضامنتين على صعيد الاقتصاد - ومع ذلك تتنازعهما كنيستان مختلفتان - سوى محاولة أولى لحشد جانب من طاقات المقاومة، وهى القوة الاقتصادية، ضد السلطة السياسية التى تعيث شرائحها العسكرية فى البلاد فسادًا. والاقتصاد بنية أعمق وأخفى من ظاهر الحكم السياسى فى بنيان الدول. وقد ظل المعلم يعقوب وزوجته - فى إطارهما المذهبى الأوسع - على الوفاء والإحسان، فقبيل موته وهب يعقوب من أملاكه الأرض التى شُيدت عليها البطريركية القبطية بالقاهرة فى سنة ١٨٠٠م كما يقول على باشا مبارك فى خططه، وكذلك ستساهم أرملته فى بناء كنيسة "سان نيقولا دى مير" بمرسيليا التى سيفتتحها فى سنة ١٨٢١م ويرعاها "مكسيموس مظلوم" مطران "الكاثوليك اليونان" منتدبًا من حلب.

وفى ذكريات أقباط القرن الماضى التى تناقلوها بشأن المعلم يعقوب وردت، قبل توهمهم صورته العسكرية وهو يقتحم الكنيسة على صهوة جواده، هذه الملاحظة العابرة الحائرة: "يظهر أن يعقوب لم يحترف بحرفة الكتابة فى الدواوين مثل باقى عظماء أبناء أمته، بل كان من أصحاب الأملاك والتجارة". وهى ملاحظة جوهرية، ولكنها جاءت عرضاً لمجرد التدليل على غرابة سلوكه بالنسبة لأهل طائفته، تماماً كالاحتجاج بأنه "فضلاً عن مخالفته لهم فى الزى والحركات اتخذ له امرأة من غير جنسه". وغاب عن القائلين منطق ما استغربوه. ففى تلك العبارة مفتاح تطور يعقوب كما رأينا، وإحساسه بنبضات التاريخ الاقتصادى الذى عاصره.

الصعيد: مسرح التنازع على حكم مصر

لم تكن تجربة على بك الكبير الاستقلالية بدعاً إلا للناظر إليها من عتمة العشية. وأما يعقوب

"المباشر" المتيقظ فى قلب الصعيد، فقد شهد الأحداث من حوله تتالى وتسابق الزمن خلال العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر. وخاض من الملابسات والأخطار فى حاضره المتقلب ما أظهر له انحلال نظام الحكم:وهْن السلطان التركى القابع فى اسطنبول، وتنافر القوى المملوكية المتشرذمة فى أنحاء مصر والمتلهفة على المال تغتصبه فى الحال. ومكنته وظيفته الاقتصادية المتغلغلة فى واقع الأرض من الوقوف على تردى أوضاع المنتجين، واستفحال نفوذ الملتزمين، ودأب العسكر على الابتزاز وقطاع الطرق على مهاجمة قوافل التجارة. وفى هذا السياق من النزق والتخبط وسطوة العنف فى غياب سيادة الدولة برز على بك الكبير. وما كاد يمسك بزمام السلطة ويستقل بمصر بضعة أعوام حتى غدر به ربيبه "أبو الذهب"، الذى يهلك بدوْره بعد عامين من سفك الدماء، فينتهى الأمر إلى تسلط اثنين من مماليكه: إبراهيم بك ومراد بك. وإذ يتصدى لهما اسماعيل بك ممثل المماليك "العلوية" - نسبة إلى على بك الكبير - يستأنفان ما درجت عليه طائفة المماليك من سياسة الفر إلى الصعيد والكر إلى القاهرة.

كانت رقعة الصعيد بطبيعتها الجغرافية المديدة الوعرة النائية عن القاهرة ملاذ البكوات المنفيين أو الفارين من بطش خصومهم. هناك يستجمعون قواهم ليُغيروا على الشمال أو يهزموا الحملات التى تتعقبهم بمشقة، أو يدبروا مع قادتها المؤامرات. وكان صنجق جرجا أقوى حكام الأقاليم من البكوات المماليك، وأطولهم بقاء فى منصبه، لاسيما وهو يستند فى الجنوب إلى نجدة نظام حكم آخر أشبه بدولة فى الدولة عاصمتها فرشوط ويمتد نفوذها الفعلى من المنيا .. إلى أسوان. تلك هى دولة شيوخ العرب الهوارة الذين استقروا فى الصعيد الأقصى بعيداً عن منال السلطة المركزية فى القاهرة، وذلك بحيازة "الالتزام" على مساحات متتابعة شاسعة من الأرض عكفوا على العناية بزرعها وانتاجها، ووفروا ما يقتضيه استغلالها من استتباب الأمن وترشيد الإدارة.

ويتحدث الجبرتى وكثير من الرحالة بالإعجاب عن شخصية الشيخ همام (١٧٠٩ - ١٧٦٩م) أعظم أمراء الصعيد وآخرهم، ويجمعون على ذكر ثرائه وكرمه وهيبته، بل وعدله فى تصريف شئون مقاطعته التى يشرف على كتابها و "عمالها" مباشره القبطى بولص بن منقريوس. كان همام يعقد المجالس العامة لسماع الشكاوى والفصل فيها، ويقرض الفلاحين من المال ما يحفزهم على العمل المثمر. وكان يخطط بحصافته لمعاملات التجارة محليًا وخارجيًا، ولعلاقاته مع المماليك المضطربين والسلطة العثمانية فى اسطنبول. غير أن على بك الكبير، الذى انبرى حينئذ لسد فراغ عصره انطلاقاً من القاهرة، لم يكن له بد، بعد أن تفوق على غرمائه لينفرد بالسلطة، من أن يكسر شوكة همام فى الصعيد، فتذرع بمنازعته "التزام" قسم من الأرض وتحرش به وقضى عليه منذ سنة ١٧٦٩م. وورثت أسيوط الكثير من رخاء فرشوط التجارى ومرجعيتها السياسية فى ترجيح كفة بعض المتنافسين على بعض. وأصبح فى يدى يعقوب هذا المزيد من النفوذ ومن الرواج الاقتصادى. وبات خير من يقدر تدبير همام - أى "مؤسساته" كما نقول اليوم، من حيث استقرارها ونتائجها المجزية. وجعل يطورها لديه وينمّيها، ويقتبس فى كل المجالات التى يباشر الإشراف عليها أجدى النظم التى أرساها مصلح الصعيد.

دالت دولة همام، ودالت دولة على بك الكبير. ولم تبق سوى السيادة الإسمية للسلطان التركى الجالس فى إسطنبول، والفعلية لأعوانه - وأعدائه فى الوقت ذاته - من المماليك، الذين نشأوا على التناحر كذلك فيما بينهم، والذين ولأهم سليم الأول منذ دخوله مصر حكاماً - بصيغة الجمع - على أقاليمها كيلا يستقل دونه أحد بهذه المستعمرة. لقد وضع فوقهم نائبه "الباشا" فى القاهرة، وحولهم عسكره أى أوجاقاته السبعة وأهمها الانكشارية أو المستحفظان. وتفكك القطر لا إلى شمال وجنوب فحسب بل إلى "كاشفيات" صغيرة بلغت فى الصعيد وحده - عدا ولاية جرجا - أكثر من عشرين "كاشفية" (سبع كاشفيات بمصر الوسطى هى: إطفيح، الجيزة، الفيوم، بنى سويف، المنيا، أشمونين، منفلوط. وأربع عشرة كاشفية بمصر العليا هى: أسيوط، أبو تيج، طما، طهطا، إخميم، فرشوط، برديس، هو، بهجورة، قنا، قوص، إسنا، إبريم، الواح أى الواحات). وظن المسيطر التركى أن فى تفتيت وحدة الصعيد الإدارية هكذا ما يدرأ خطر العربان الطامعين فى الأرض وبخاصة عربان الهوارة.

والحق أن دولة العربان كانت الثالثة فى مصر - بعد دولتى الترك والمماليك. نزلت قبائلها خلال عصور مختلفة على أطراف مصر الخضراء تنتجعها ، فزاحمت السلطة المركزية بحكم طبيعة "صراع الطين والصحراء" حسب تعبير جمال حمدان. وفى القرن الثامن عشر ضرب همام أروع الأمثلة على ازدياد إمكانية اندماج العربان باستقرار الهوارة فى الصعيد.

وثمة دولة رابعة لم تلفت الأنظار لاختفائها فى نسيج المجتمع المصرى ذاته، هى دولة القبط المنحدرين من أقدم أهل البلاد والذين مازالوا يحملون اسمها بعد تعريبه. دولة أشبه بالغائبة ولكنها حفظت وحدة مصر. فبالرغم من تهميشهم وانطوائهم على عيش المستضعفين - وجملة سكان مصر إذ ذاك مليونان ونصف - ظل القبط وبأيديهم بصمات الأصالة يمدون جنوبًا وشمالاً شبكاتمن الخيوط الدقيقة هى التى أبقت، كماء النيل فى الأرض السوداء، على كيان مصر طوال قرون الاستنزاف. كان فى كل قرية كاتب قبطى يحسب حساب الأرض بالفدان والقيراط والسهم ويسمى المزروعات ويحدد كمياتها لتقدير الخراج. ومن اقاصى الصعيد إلى جمارك الإسكندرية ودمياط - فضلاً عن فريق القاهرة لدى "شيخ البلد" - انتشر الأقباط فى شرايين الإدارة على اتساع جغرافية مصر. وفى مختلف مواقعهم كانت تبلغهم جميعًا رسائل البطريرك عن طريق الأساقفة والكنائس أو الشخصيات الشهيرة فى مناطقهم. وكثيرًا ما كان يقوم البطريرك - مرقس ثم يوحنا فى أواخر العهد العثمانى - بجولات رعوية لمشاطرتهم الأسى فى النكبات وحضّهم على الصبر إزاء تعسف السلطة أو تفشى الأوبئة. كما كانت منشورات الكنيسة تحثهم دوريًا على التكافل الاجتماعى وتنهاهم عن شرور العصر كالميسر والسحر أو الرقص الماجن فى حفلات الزواج الخ.. وشكل هذا الوعى القبطى الكامن بالترابط الشامل - رغم تقطيع المقاطعات وتحكمّ العنف المباغت - قاعدةً لتماسك البنية التحتية فى مجتمع يفتقد وحدة التراب الوطنى.

وجاءت دولة خامسة هى الحملة الفرنسية التى جهرت بعزمها على تحطيم دولة المماليك

الذين طغوا وبغوا. جيش حديث التجهيز سرعان ما قاتل أولئك الفرسان العتاه فكشف عجزهم أمام فنون المدفعيةوالتخطيط الجماعي، واثبت انتماءهم إلى عهد بائد. كانت معركة إمبابة (٢١ يولية ١٧٩٨) مواجهة تاريخية، فرَّ على اثرها مراد بك وفلول اتباعه إلى الصعيد.

ودخل بونابرت القاهرة، واخذ في تنظيم إدارة مركزية. وبينما استقر بقيادته في قصر الألفي بك بحي الأزبكية، اختار علماؤه - وهم أكثر من مائة وخمسين عالماً متخصصًا - دار حسن بك كاشف مقرًا لمعاملهم وأدواتهم ومكتبتهم. فأسسوا "معهد مصر" على نمط "معهد فرنسا" في باريس. ولم يغير الفرنسيون الجهاز الضرائبي القائم لئلا تختل وظيفة حيوية هي تحصيل موارد الدولة، وكان على رأسه كبير المباشرين المعلم جرجس الجوهري. ولشهرة المعلم يعقوب في الصعيد كرائد للتنمية رشحه جرجس الجوهري مباشرًا لفرقة الجنرال ديزيه التي أمرها بونابرت بمطاردة مراد بك، فتحركت نحو الوجه القبلي في ٢٥ اغسطس ١٧٩٨م.

كان يعقوب بنشاطه الاقتصادي المحلي وبانخراطه في حركة التجارة الخارجية الجديدة قد تخطى - بفضل امتيازات منصبه - مضايق القيود العثمانية والمملوكية المتوارثة. نفذ من فجوات عصره إلى مجالات سوق دولية واسعة تناقض شلل مصر التي أزمن تقطيعها وتحجيمها. ولكي تنقشع آخر العقبات الكأداء من افق مصر، لم يكن بد من قوة رادعة تستأصل شأفة الترك والمماليك، قوة فتية تؤازرها العلوم كهذا الجيش الحديث الذي اخرجته أمة ثارت على استبداد ملوكها. لقد شارك يعقوب في مقاتلة الأتراك، وها هو ذا يشارك في خلع المماليك.

وراعت الفرنسيين منزلة يعقوب في أرجاء الصعيد، وأدهشهم حزمه ونفوذ كلمته. فلقد ظن الناس أن يعقوب هو "السلطان الكبير" وأنه قائد هذا الجيش الهائل الذي جرده لحسابه ضد المماليك، لاسيما وقد وقر في الأذهان - طبقاً لأوضاع ذلك العهد - أن الجيوش تتألف من جنود مرتزقة. وفي الواقع كان اختصاص يعقوب مقصورًا على التموين وتنظيم المعسكرات المتنقلة تنظيمًا ماديًا،إلا انه ابدى في المصادمات شجاعة وتنبهاً ومقدرةً دفاعيةً فائقة. وتجلت بطولته في النزال يوم وقع بمفرده في كمين نصبه المماليك ناحية "عين القوصية" ولو تقهقر أمامهم لهلك، فقارعهم، وظل على فرسه يناوشهم بالكرّ والفر إلى حين وصول طليعة ديزيه في (٢٤ ديسمبر ١٧٩٨م).

ولما استيقن المماليك - مخدوموه فيما سبق - من تفوقه عليهم، كتبوا إليه من طرف سليمان بك يلتمسون وساطته كي يكف الفرنسيون عن القتال نظير مقاطعة يتنازل عنها مراد بك للجنرال ديزيه. فردّ عليهم يعقوب ناصحاً أن يتقدموا هم بطلب الأمان. وأثبت التاريخ صوابه في تقديرموازنة القُوى. فإن مراد بك هو الذي اضطر إلى أن يوقع في ٥ أبريل سنة ١٨٠٠م معاهدة صلح مع الجنرال كليبر ، نصت على تنصيب مراد صنجقا لجرجا "بشرط أن يدفع للجمهورية الفرنسية "الميري" أي مال الخراج الواجب للسلطان".

روابط البريد ومحادثات أسيوط

واستمرت العمليات في الصعيد ثمانية عشر شهراً عصيبًا، تتبع يعقوب خلالها عن كثب سقوط فئة المماليك، رغم استنجادهم بالعربان والنوبيين والحجازيين واستصدار منشورات من

السلطان لتأييدهم.

وأثناء المعمعة - منذ يناير سنة ١٧٩٩م - تولى يعقوب مهمة إنشاء خدمة بريدية أساسية تربط بين الحاميات الفرنسية المتفرقة التى رابطت فى مواقع مختلفة جلا عنها المماليك وبين جرجا التى اتخذها ديزيه مقرًا لقيادته. فقام بتشكيل قوافل صغيرة من الهجانة، حدد لها مراحل بمحطات تتلاقى فيها على التوالى، ووفّر لها أن تسير ذهاباً وإياباً فى حراسة دوريات مسلحة متأهبة لردع البدو وقطاع الطرق الذين استفحل خطرهم، حتى لقد تصدّت عصاباتهم - قبل شهر واحد - لقافلة ضخمة قوامها مائتا تاجر قدموا من الهند عبر البحر الأحمر وسلكوا الطريق المعتاد من القصير إلى قوص.

وكانت مشكلة تأمين القوافل قد تفاقمت وأدت إلى أزمة دولية. فلم تكن اعتداءات البدو أو قطاع الطرق هى شر العقبات التى باتت تعترض تجارة البحر الأحمر المتزايدة الحجم فى أواخر القرن الثامن عشر، بل إن جشع المماليك أنفسهم بما فرضوه من الإتاوات على نقل البضائع والرسائل كان العائق الأكبر، مما أثار قلق البيوت التجارية وغضب القناصل واحتجاجاتهم العديدة، التى اشتدت لهجتها من جانب بالدوين وماجلون (Baldwin, Magallon) ممثلى إنجلترا وفرنسا. وأعلنت الحملة الفرنسية أنها جاءت لتأديب المماليك.

وضع يعقوب نصب عينيه - وهو العارف بحيوية تنقل القوافل والرسائل - لا أن يتيسر التواصل فحسب بل أن تنضبط سرعته. فيسافر البريد يوميًا بين المراحل الجنوبية الآتية: من جرجا إلى برديس، ومن برديس إلى فرشوط، ومن فرشوط إلى هو، ومن هو إلى دشنا، ومن دشنا الى السمطا، ومن السمطا إلى قنا ثم من قنا إلى إسنا. كما يسافر شمالاً من جرجا إلى أسيوط فالمنيا وبنى سويف.

وإن دلَّ إحكام هذا الجهاز البريدى على حنكة يعقوب فى التدبير ودرايته الاستراتيجية بالأرض، فقد اشتد وعى الصعيدى، وهو يضم بلدة إلى بلدة، بأن مصر جسم واحد، وأن المماليك قطعوه إرباً. هى "مقاطعاتهم" التى اباح لهم العثمانيون أن يتقاسموها، اى أن يتنازعوا عليها ويتطاحنوا لكى تخلو السيادة فى آخر الأمر للسلطان.

فطن يعقوب إلى آثام ذلك التقطيع المصطنع. وأحس عندماعمد إلى تربيط الأوصال كدبيب يسرى فى أعضاء كائن حى متكامل الوظائف شيئاً فشيئاً. وأيقن أن ما يلزم البلاد لكى تبلغ وحدتها المكانية التامة وتسترد بنيتها الأصيلة التى صاغها نهر النيل - وقديمًا سجّل التاريخ مولد مصر بتوحيد قطرها - هو حكومة شاملة جادة تنطلق من الإحساس باندماج مقومات المجتمع وإمكاناته المتضافرة وتسعى إلى ترشيدها. ولن يمهل التاريخ يعقوب لتحقيق ذلك، وإنما سيسند هذا الدور لمحمد على. فسينفق محمد على سنوات حكمه الأولى فى تحطيم قوى اللامركزية حتى يستقيم له بناء الدولة الحديثة فى مصر.

أما يعقوب قبل محمد على - وكلاهما خرج من دنيا التجارة - فقد أسفر له بوضوح تفتيق

الأوضاع البالية من حوله عن بوادر تنظيم مركزى يستخدم العقل فى تصريف الأمور، بل ويرتبها فى إطار تفكير فعّال يوافق ما "باشره" تلقائياً من تجديد فى أسيوط عندما خرق الحدود الفاصلة بين المهن ومد خطوط العمل الإنتاجى المتكامل المنطلق من الأرض إلى السوق ومن الجنوب إلى الشمال. وصدق فى ذلك النشاط عزمه حتى تطابق مع حياته الخاصة.

ويعود ديزيه إلى أسيوط فى ١٥ مايو ١٧٩٩م فيتخذها مقرًا لقيادته عدة أسابيع. يعقوب هنا رب الدار. والوقت سانح للتداول فى مقدرات الأفق المفتوح بعد انجلاء المماليك. وهو يلمس الفرق بين ما اعتاده من أبهة سليمان بك وأنانيته واستبداده بأتباعه وبين تساوى الفرنسيين فى الخضوع لنظام عام يشملهم، وحرصهم على جدولة ساعات اليوم، وأسلوبهم الجماعى فى التشاور لحل المشكلات ووضع الخطط واستخلاص القرار المناسب.

وكان ديزيه من أنجب أبناء الثورة الفرنسية، تعادل غزارة ثقافته جذوة حماسه، مما رفعه إلى رتبة الجنرال وهو فى الثلاثين من عمره. ولكنه ظل بسيط الطبع لا يتأثر بعنجهية العسكريين. ويقول زميله الجنرال بليار فى مذكراته عن تلك الفترة: "كنا نجتمع عند الجنرال ديزيه فيعرض كل منا مقترحاته وخططه ويشرح وجهة نظره وآراءه. وكان مدار الأحاديث حول السلام والحرب، والنظم السياسية، وأصل الشعوب". ونوقش الواقع المصرى، وكيف انحطت إلى دركه حضارة عريقة. ومنذ قرون والحكومات الجائرة ترهق الشعب والأرض. وبالمقارنة بين أمجاد الماضى وتدهور الحاضر وآمال المستقبل، قاس يعقوب - وهو يروى أطرافاً من تجارب أمسه فى عهد على بك الكبير - مدى التغيير الحادث. وما تقييم المسيرة بالنظرة التاريخية المترامية إلى إيجابيات الغد القريب سوى مفهوم "التقدم" - وهى الفكرة التى دفعت الفرنسيين إلى "التغيير" أى إلى الثورة. لقد أذكت تلك الأسمار لدى يعقوب إرادةً سياسيةً. لقى طموحه القديم إلى الحرية ما يدعمه الآن من منطق الواقع، ووجد انطلاقه نحو الاستقلال وسائل عملية لبلوغه.

وفهم يعقوب النموذج المرجعى الذى يتردد على ألسنة هذه النخبة من أبناء الثورة، وهو "التمدن" - فبهذه اللفظة سيترجم رفاعة الطهطاوى بعد ربع قرن كلمة civilisation التى تصدرت دراساته بمضمونها العام فى باريس، وسيجعل منها الإطار لبرنامج نهضة الوطن. وكانت فكرة التمدن محك القيم فى فلسفات القرن الثامن عشر التى اغتذى بها صانعو الثورة الفرنسية. ومن أدل علامات اقتباس "التمدن" لدى المعلم يعقوب أنه لم يكتف بتلبية الحاجات المادية العاجلة كالتموين والمواصلات، بل كان ذوّاقةً لأدبيات "المواعظ والاعتبار" فى أشكالها الجمالية من شعر ومسرح، وذلك جانب أهمله المؤرخون الجادون. أما عن المسرح فقد قدم يعقوب مساء ٨ فبراير سنة ١٨٠١م بمنزله بالقاهرة، عقب مأدبة عشاء دعا إليها القائد الفرنسى "عبد الله مينو" وكبار الضباط، تمثيل "كوميديا عربية" لا نعرف مؤلفها أو موضوعها أو ممثليها لشدة إيجاز الخبر الذى نشرته عنها صحيفة Le Courrier d'Egypte . ولكن اهتمام المعلم يعقوب بالمسرح سبق على كل حال أول تعريف بهذا الفن ورد فى "تخليص الإبريز" لرفاعة الطهطاوى. وأما عن الشعر فالقصيدة المنسوبة إلى يعقوب فى رثاء ديزيه - الذى لقى مصرعه بعد مغادرة مصر فى معركة "مارنجو"

بايطاليا (١٤ يونية ١٨٠٠م) - ليست من إنشاء يعقوب، وإنما استكتبها الأب رفائيل، كبير مترجمي الديوان، لكي يقوم كذلك بترجمتها إلى الفرنسية. وقد حاول رفائيل في أبياته الخمسة والثلاثين - بعد أن مهد للقصيدة بديباجة تقليدية ووسمها بعنوان "إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون" - أن ينسج على منوال ميمية ابن الفارض الشهيرة:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة .. سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكَرْم. فقال: ذرفنا على ذكر الحبيب دموعنا.. سكرنا بها ليوم البعث والحشر.

ورغم وحدة القافية فالوزن تغلب عليه الكسور، واللغة ركيكة متكلفة تصطف فيها التعبيرات البلاغية المستعارة من محفوظات قديمة بجوار تراكيب غريبة لا يتضح معناها إلا لمن يردها إلى المصطلحات الفرنسية الشائعة في منشورات هذه الفترة والتي نقل الجبرتي بعض نصوصها. وأضاف الناسخ أخطاء هجائية إلى ما يشوب الجمل من أخطاء نحوية. ولا يحق للناقد أن يحاسب يعقوب على رفائيل وأسلوبه، بل ينبغي أن نعرف فضل المباشر التاجر في إحلال وظيفة الشعر وإجزال العطاء لناظمه. فقد كان الشعر والشعراء، في عصور الركود لا يعيشون إلا على هبات الكبراء. ويمثل ذلك الكرم تطوع يعقوب أن يتحمل ثلث نفقات ضريح يقام لديزيه، وكأنه يريد مواصلة استضافته في مثواه الأخير كما استضافه في أسيوط حيث شكلت مناقشاتهما أفق تفكيره وأرست لديه مبادئ مشروع سياسي مصيري.

حتمية المقاومة

تولى يعقوب بعد عودته من الصعيد، في سبتمبر ١٧٩٩م، إدارة النظام المالي في مصر، إلا أنه لم يستطع تحقيق أي إصلاح تحت ضغط الأحداث التي تلاحقت وأجبرته على تكوين قوة مسلحة.

كان كليبر قد عقد مع ممثلي الدولة العثمانية في ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠م معاهدة العريش التي نصت على جلاء الفرنسيين وجدولته. وطوت الدولتان صحيفة القتال. ولكن الحكومة الإنجليزية رفضت إقرار الاتفاقية، فانتهز العثمانيون الفرصة ونقضوا عهدهم. وزحف يوسف باشا الصدر الأعظم حتى بلبيس، وتقدمت طليعة جيشه بقيادة ناصف باشا نحو المطرية. وهب الفرنسيون غاضبين فهجموا على الأتراك هجوماً حاسماً في موقعة عين شمس (٢٠ مارس-١٨٠٠م). وهرب ناصف باشا وبعض رجاله فتسللوا إلى القاهرة ومعهم من المماليك إبراهيم بك والألفي وحسن الجداوي. ويسجل عبد الرحمن الرافعي ما يلي: "ومع أن ناصف باشا كان في الواقع فاراً في ميدان القتال، وبالرغم من أن وصوله كان بعد أن حلت الهزيمة بالجيش العثماني، فإن الإشاعات قد طارت في المدينة بأن الجيش الفرنسي انهزم". وأشعل الهاربون - ليقلبوا الأوضاع - فتنةً طائفيةً احتدمت ضد الأقباط. ويلقي الجبرتي المسئولية على نصوح باشا الذي نادى: "اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم"، ويُبرز دور الحجازية والمغاربة في ارتكاب المنكرات من نهب وقتل، "ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعاً فيما على رأسها وشعرها من الذهب". وارتاع بعض أغنياء الأقباط فغادروا الحي ولجأوا إلى دور بعض أصدقائهم المسلمين في مصر القديمة. ولم يتزحزح يعقوب بل تحصن في الحي ونظم الدفاع

عنه والعيش فيه بشجاعة وحكمة طوال حصار دام عشرين يوماً. ويقول الجبرتى: "اما يعقوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى، واستعد استعداداً كبيراً بالعسكر والسلاح، وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت)، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى معه".

وأسفرت المحنة عن تأليف جيش من الأقباط، نظمه يعقوب على نفقته الخاصة، وجمع فى صفوفه شباباً من القاهرة ومن الصعيد. وتلك ظاهرة فذّة فى تاريخ مصر: جيش وطنى لاحظ شفيق غربال أنه "أول جيش كُوِّن من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة". وارتدى هؤلاء الجنود زيّاً خاصاً، ودربهم ضباط فرنسيون على أساليب الدفاع والقتال الحديثة تحت إشراف المعلم يعقوب الذى قلده كليبر قيادة الفيلق ملقّباً إياه بلقب اغا.

وقد ذهب بعض الكتاب إلى إدراج هذا الفيلق القبطى فى قائمة التشكيلات التى استحدثها بونابرت فى مصر وضمها إلى وحدات جيشه للاستعاضة بها عما يفقده من الرجال واختصاصاتهم منذ ما انقطعت صلته بفرنسا بعد شهر واحد من نزوله مصر، إذ حطم الإنجليز أسطوله فى موقعة أبى قير البحرية (١ اغسطس ١٧٩٨م). كانت تلك الفرق - كما تدل عليها أسماؤها - "الإنكشارية"، "المماليك"، "اليونان"، "السوريون" - تتشكل من أغراب نزحوا إلى مصر وافدين من مختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية. فهم أشبه بالجنود المرتزقة فى العصور السابقة. ويكفى لتمييز الفيلق القبطى أنه لم يظهر إلاّ مؤخرًا - فى ابريل ١٨٠٠م - أى بعد انقضاء ثلاثة أشهر على تقرير جلاء الفرنسيين فى معاهدة العريش، وأنه تعبير عن مقاومة حتمية ضد المماليك والترك فى سياق علاقة سياسية ترجع إلى ما قبل الحملة الفرنسية، وأنه تنظيم صدر عن تمويل مالى ذاتى. وستتجلى هذه الأصالة فى مشروع استقلال مصر الذى أصبح هدف المعلم يعقوب.

كم بلغ عدد رجال الفيلق القبطى؟ تختلف تقديرات المعاصرين: فالجبرتى يتخيل "نحو الألفين"، ونقولا الترك يذكر ٨٠٠ من الجنود والضباط. ولعل اكبر عدد بلغه الفيلق بالتحديد هو ٨٩٦ جندياً وضابطًا، حسب إحصاء وجدناه فى المحفوظات الفرنسية، تاريخه ٢٣ سبتمبر ١٨٠٠م. وكان يعقوب - الذى حاز رتبة "جنرال" فى مارس ١٨٠١م - يفخر بتغلب ضباطه وجنوده، ومعظمهم من أبناء الفلاحين، على جميع الصعاب التى اعترضت طريق تعليمهم. وبتعبير الجبرتى: صيّرهم عسكره وعزوته، وجمعهم من أقصى الصعيد. وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن فيها خلف الجامع الأحمر، وبنى له قلعة وسوّرها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام. وكذلك بنى ابراجاً فى ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية، وفى جميع السور المحيط والأبراج طيقاناً للمدافع على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهاراً وبأيديهم البنادق على طريقة الفرنساوية".

ويحلل شفيق غربال أهمية إنشاء ذلك الجيش فى تلك الآونة من تاريخنا القومى تحليلاً واضحًا حيث قال:

"كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكّن رجلاً من أفراد الأمة المصرية يتبعه

جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فساداً، على الرغم من أنه لا ينتمى لأهل السيف من المماليك والعثمانيين. وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيثما كانوا بالأمس: الصبر على مضض أو الإلتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبى الذى لا يؤدى لتغيير جوهرى، والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم. وهنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة، والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ولا يسهل كبح جماحه والذى قد يصل سريعاً لتحقيق اغراض حاسمة ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر. فكما أن العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم، فهى أيضاً سريعة القنوط خصوصاً إذا اصطدمت بجند مسلحين، حتى ولو كان أولئك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر من ترك وألبانيين ومن ماثلهم. وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على لا خورشيد. هذا الفرق بين الأداة التى اختارها السيد عمر، ليس فى الواقع إلاّ مظهراً لفروق أعمق. إذ ما حاجة هذا السيد نقيب الأشراف إلى جيش، والرجل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان، ولا يرمى إلى أبعد من أن يملى إرادته على القائمين بالأمر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء. أما يعقوب فله شأن آخر. إذ أنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لفئة من المصريين يد فى تقرير مصير البلاد بدلاً من أن يبقى حظهم كما كان فى الحوادث الماضية مقصوراً على التفرج أو الاشتراك فى نهب المهزومين. ذكر الجبرتى فى حوادث المحرم سنة ١٢١٨م فى كلامه عن اشتباك الألبانيين بأتراك الوالى العثمانى خسرو ـ ذلك الاشتباك الذى انتهى آخر الأمر بولاية محمد على، ذكر أن الألبانيين كانوا يقولون للعامة من أهل القاهرة: "نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة لكم بنا". أنتم رعية. تخضعون لمن ينتصر منا. هذا كل ما لكم !

أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك. وعول على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم الغربية. فكان سباقاً إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك. أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين فى جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية".

بعد جلاء الفرنسيين: مظهر التقديس

تحيلنا كلمة "الفرنسيس" إلى لغة الجبرتى، ولا سيما إلى مكان السجعة الذى أفرده لها فى عنوان كتابه "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس". وهو الكتاب الذى بادر بإهدائه إلى الصدر الأعظم يوسف باشا ممثل الدولة العثمانية التى عادت لاحتلال مصر. ويروى فيه عن الحملة الفرنسية ما روى فى تاريخه المعروف "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار"، غير أنه اشتد هنا فى لهجته والتزم هجاء الفرنسيين وأعمالهم وتقبيح كل ما يتصل بهم. عمد إلى ذلك ليبرئ ساحته، فقد تعاون مع الفرنسيين عضوًا فى الديوان أيام الجنرال مينو الذى خلف كليبر عقب ثورة القاهرة الثانية، وكان مينو من أنصار احتلال دائم لمصر. وبالمثل سارع الشيخ عبد الله

الشرقاوى - رئيس الديوان منذ أسسه بونابرت - إلى تدبيج مخطوط رفعه للصدر الأعظم المذكور وعنونه "تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين". ويظهر فى تعريفه لمذهب الفرنسيين دفاعه عن العلماء - حفظة الشرع - وما يؤدون من وساطة تقليدية بين الحاكم والمحكوم:

"إنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية... ينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء... ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمونهاشرائع... ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين... وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر، فإنهم جعلوا من جملة ديوانها جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع".

ورحب الوزير التركى - الذى لا يفهم العربية - بكتاب الجبرتى، وحمله إلى دار السلطنة حيث أمر بترجمته، فراج الكتاب بين الأتراك أكثر من رواجه بين المصريين. وكافأ الجبرتى فى صورة مرتب سخى عن عمل أسنده إليه هو تحرير التقاويم لاشتغاله بالفلك.

ومنطق الجبرتى والشرقاوى بسيط مكشوف، يتجلى فى فاتحة "مظهر التقديس": "حمداً لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا، وجعل الدولة العثمانية، والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا". أى أن القدسية كامنة فى الدولة العثمانية، فهى الخلافة التى تستمدّ من الله شرعية سلطاتها، وليس للعقل أن يجادل فى امتيازها.

وينطوى هذا الخطاب على بديهية العلاقة بين علماء "كلمة الله" وبين تلك السلطة العليا الممثلة فى المملكة الخاقانية. وهى علاقة بناها نظام الحكم منذ قرون على تبادل المصالح بين الجانبين من وراء ستار الدين:

أما الدولة العثمانية فحريصة على اعتراف العلماء لها بالخلافة. فالسلطان التركى حفيد الغز لا سليل قريش. ولكنه يهيمن على المنطقة بوصفه "خليفة المسلمين"، و "أمير المؤمنين"، و "خادم الحرمين". وتاريخيًا كان المغول قد قضوا على الخلافة العباسية ببغداد، فاخترع بيبرس من بين اللاجئين العباسيين إلى مصر خليفةً سمّاه المستنصر واكتسب من إيوانه سطوة واسعة على العالم الاسلامى. وربّى المماليك فى كنفهم أولئك الخلفاء الصوريين حتى أسر آخرهم سليم الأول عندما دخل مصر فى سنة ١٥١٧م، ونقل ذلك "المتوكل" إلى إسطنبول، فسجنه "لسوء سلوكه"، ثم قيل إن المتوكل نزل له عن القابه. وتلك رواية محدثة، أذيعت سنة ١٧٨٨م (أى بعد اهتزاز الدولة العثمانية: استقلال على بك الكبير، انفصال الوهابيين، هجمات الروس إلخ). بتشبث السلاطين على كل حال بوهم الخلافة حتى يبدده كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤م. والغريب أن يحاول الملك فؤاد فى مصر أن يرث هذا اللقب - بتأييد الإنجليز الذين أرادوا من خلاله بسط نفوذهم - رغم إدانة الشيخ على عبد الرازق فى كتابه الحاسم "الإسلام وأصول الحكم" ذلك المفهوم "عرشاً لا يرتفع إلا على رؤوس البشر، وتاجًا لا قوة له إلا بما يغتال من قوّتهم".

وأما علماء مصر فى فجر القرن التاسع عشر فقد استطابوا أن تعلو مراتبهم نتيجة ضعف الإدارة العثمانية، وأن يواصلوا التمتع بامتيازاتهم فى ممارسة "الالتزام" كالمماليك (فالشرقاوى

والسرسي وغيرهما من شيوخ الأزهر كانوا من أصحاب التزامات الأرض). وكان تفوّقهم على العثمانيين مضموناً إذ هم معلمو الشريعة الإسلامية ومؤوّلوها؛ ولا مكان لسواهم قانونًا يمكن الاسترشاد بمنظومته.

مظهر التقديس إذن "مظهر" لا مخبر، وظيفته الاجتماعية تشمل التستر على استغلال النفوذ واستنزاف "الرعية" - هذه الكلمة التى تعنى "القطيع" من البهائم. وفى التمسك بهذا المظهر، وجعله قيمة السلوك، بإخفاء قوة المرجعية المطلقة إليه، إلغاء للمعارضة وطمس للتفكير فى مقاومة الظلم.

وقد احتكر العلماء وظيفة التوسط لدى الباشوات والبكوات "لرفع المظالم"مما يوطّد فى نظام الحكم مكانتهم ومنافعهم الطبقية، التى صنفتها اجتماعياً واقتصادياً دراسات عفاف لطفى السيد. وصفحات الجبرتى حافلة بمشاهد ذلك التواطؤ المستمر بين الفئات الحاكمة. وحسبنا رواية الجبرتى فيما يلى لمساومة نشبت بين الباشا والعلماء (سنة ١٢٢٣هـ) سرعان ما طواها المتفعون جميعًا فى عباءة السلف الصالح - جامع عمرو بمصر القديمة حيث لحق بهم نقيب الأشراف عمر مكرم تتبعه الرعية؛ وبذلك تتكامل صورة المجتمع فى مصر بعد جلاء "الفرنسيس" وتتضح آليات إخضاعه "لمظهر التقديس":

اجتمع المشايخ عند الباشا، فقال لهم: اعملوا استسقاء وأمروا الفقراء والضعفاء والأطفال بالخروج إلى الصحراء، وادعوا الله بدلاً من أن يصلح الولاة الرى. فقال له الشيخ الشرقاوى: ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم. فقال: أنا لست بظالم وحدى، وأنتم أظلم منى، فإنى رفعت عن حصتكم (من الالتزام) الفرض والمغرم إكرامًا لكم وأنتم تأخذونها من الفلاحين... ثم اتفقوا على الخروج. والتقيا فى صبحها بجامع عمرو بن العاص لكونه محل الصحابة والسلف الصالح يصلون به صلاة الاستسقاء، ويدعون الله ويستغفرونه ويتضرعون إليه فى زيادة النيل. وبالجملة ركب السيد عمر والمشايخ وأهل الأزهر وغيرهم والأطفال واجتمع عالم كثير وذهبوا إلى الجامع المذكور".

يعقوب يرفض عودة السيادة العثمانية

رفض يعقوب عودة السيادة العثمانية وحُكم المماليك، وهو أدرى بذلك المزيج من التعسف والتناحر والنهب وحزم أمره على مغادرة مصر مع انسحاب الفرنسيين. لم يتخيّر الهجرة "للخلاص بنفسه، فمثله - كما يقول شفيق غربال - ممن يمكنهم تصفية الحساب الماضى مع العثمانيين المتنصرين"، وإنما خرج لتحقيق مشروع خطير هو السعى لدى الحكومات الأوربية لتقرير استقلال مصر. فلقد فطن إلى عبرة الأحداث التى دارت والتى انخرط فيها منذ عهد على بك الكبير، وأدرك أن دولة الترك لولا الفرنسيين لما انزاحت عن أرض مصر، ولولا الانجليز لما عادت لامتلاكها مقاليد السياسة. إذن لم تصبح فى أيدى الأتراك والمماليك، بل أصبحت بين يدى هاتين الدولتين الأوربيتين القادرتين. هكذاتطورت تجربته الاقتصاديةأولاً، والعسكرية ثانيًا، إلى مشروع سياسى شامل.

كان من شروط معاهدة التسليم التى ابرمها الجنرال الفرنسى بليار مع قائد الجيش الإنجليزى وممثلى الدولة العثمانية (٢٧ يونية ١٨٠١م) أنه "يحق لأى من سكان مصر على اختلاف أجناسهم إذا رغب اللحاق بالجيش الفرنسى فى رحيله، أن يرحل معه، ولا يجوز بعد رحيله أن تؤذى عائلته أو تصادر أملاكه". وخُصصت للمعلم يعقوب وعائلته، ولمن رضى من رجاله أن يتبعه، البارجة الإنجليزية "بالاس" Pallas. وما كاد حسين باشا القبطان يعلم فى ميناء أبى قير بتأهب يعقوب للسفر حتى كتب إلى الجنرال بليار راجيًا أن يثنى يعقوب عن عزمه، مؤكدًا عهود الأمان التى وردت فى إتفاقية الجلاء، مغدقاً على يعقوب عفوه وحمايته، ومتذرعاً باستبقائه للانتفاع بخبرته فى شئون الإدارة المصرية. ولكنه عبثاً الح فى طلبه، فسأل بليار ان يرسلَ إليه يعقوب شخصيًا ليعطيه الضمانات الكافية فى مقابلة خاصة. ورغم انعدام ثقة يعقوب فى عدوه حسين باشا القبطان بعد أن حاربه لا مع الفرنسيين بل فى موقعة المنشية قبل وصول الفرنسيين باثنتى عشرة سنة، فقد زاره ليبلغه إصراره على الرحيل. وأبحرت البارجة "بالاس" فى السادسة والنصف من مساء يوم الإثنين ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١م.

وكتب ربّان البارجة جوزيف إدموندز Joseph Edmonds رسالةً رفعها إلى وزير البحرية البريطانية (Right Honorable Earl Saint-Vincent) بتاريخ ٤ اكتوبر ١٨٠١م يقول فيها:

"اقلت البارجة "بالاس" الموضوعة تحت إمرتى، من مصر، رجلاً قبطيًا، ممتاز الشخصية، وخطير الشأن بوصفه أحد زعماء تلك الطائفة. وقد أبديت نحو هذا المغترب التعس بعض لفتات العطف البسيطة، فشجعه ذلك على أن يحدثنى عن بلاده. صرّح لى بأن أية حكومة كانت هى فى رأيه أفضل لمصر من حكومة الأتراك؛ وبأنه انضم إلى الفرنسيين بدافع الرغبة الوطنية فى تخفيف عذاب مواطنيه، فخذلهم الفرنسيون والآن أصبح المصريون يحتقرونهم كما احتقروا الاتراك، وبأنهم لا يزالون يأملون، بوساطة الحكومات الأوروبية، أن يصلحوا الأمر فى بلاده، وبأنه يرى أن رحلته إلى فرنسا ستؤدى إلى هذه النتيجة.

لقد حمله الفرنسيون على أن يعتقد أن بلادهم هى أقوى دول أوربا، وكانت قوة إنجلترا البحرية شبه مجهولة لديه، ومع ذلك فقد كان يعرف أنه بغير تأييد إنجلترا فإن رغبته فى أن يرى مصر تتمتع بالاستقلال مقضى عليها بالفشل".

وليس التهوين من شأن فرنسا مع الاعتراف بقوة إنجلترا البحرية - فى خطاب مسئول بريطانى إلى رئيسه الأعلى - سوى التعبير من جانب يعقوب عن صدمة اكتشافه لأسطول الانجليز فى لقائه بأول إنجليزى هو ربان السفينة. وأما مشروع يعقوب فمضمونه أن الدولة العثمانية قد باد عصرها، ولكن بريطانيا لن تستطيع الاستيلاء على مصر دون أن تتعرض للعقبات التى ادت إلى فشل الاحتلال الفرنسى (وهذا ما سيؤكده التاريخ فى سنة ١٨٠٧م عندما تنهزم حملة "فريزر" على رشيد رغم تحالف الإنجليز مع الألفى بك). ولن يضمن لإنجلترا المسيطرة على البحر ولفرنسا المسيطرة على البر مصالحهما فى مصر - الثرية بمواردها الزراعية وبتلاقى تجارات الهند وإفريقيا على أرضها - إلاّ مصر نفسها إذا استقلت دولياً. ومن شأن حكومة وطنية إذا قامت لا على مبدأ الاستبداد التركى بل على العدل

ويهدف إصلاح معيشة الناس، كحكومة شيخ العرب همام فى الصعيد، أن يوطدها الامتنان والاحترام والحب. وكيف يدافع المصريون عن استقلالهم؟ لا نتوقع أن يكون دفاعهم لرد اعتداء دولة أوربية إلا بعد زمن طويل، يستكمل خلاله الجيش الوطنى قدرته للرد على مثل هذا الاعتداء. وفى البداية يستطيع المصريون أن يستخدموا - على نفقتهم - عدة آلاف من الجنود الأجانب كنواة للقوة الوطنية، بها يسحقون المماليك ويصدون الأتراك - ولو أن الذهب يكفى لردع الأتراك المتكالبين على المال دائما.

وفجأة يصمت يعقوب. مات على أثر إسهال حاد قضى عليه فى اليوم السادس من الرحلة (١٦ أغسطس ١٨٠١م) لا شك بفعل قدح القهوة التركية التى ضيّفه بها حسين باشا القبطان قبيل سفره. وكانت البارحة بقرب جزيرة رودوس. ولم يُلقَ جثمانه فى البحر كما تقضى بذلك تقاليد السفن بل حُفظ - لمنزلته الخاصة - حتى ووري الثرى فى جبانة "سان مرتان" بمرسيليا بعد تشييع جنازته فى احتفال مهيب.

وعندما رست البارحة فى ميناء طولون (١٧ سبتمبر) سلم "لاسكاريس" - مترجم يعقوب - مذكرةً بمواد المشروع للربان جوزيف إدموندز الذى رفعها إلى حكومته مع رسالته الإيضاحية. وقد نشر هذه الأوراق المؤرخ الفرنسى جورج دوان G. Douin فى سنة ١٩٢٤م، وكان شفيق غربال قد وقف عليها فى محفوظات الخارجية البريطانية أثناء إعداد رسالته للدكتوراة، فترجمها إلى العربية ونشرها ملحقاً لدراسته بعنوان "الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١م" (دار المعارف ١٩٣٢).

يعقوب ولاسكاريس: نهاية الخلط بينهما

تطرح هذه الوثيقة التى سجل فيها لاسكاريس مواد مشروع يعقوب بعد وفاته إشكالية النقد التاريخى للنصوص: فكيف نفصل بين آراء يعقوب الأصلية وبين تصورات لاسكاريس التى ربما اختلطت بها ؟لقد تهور البعض - فى القرن العشرين - فنسبوا دون تمحيص إلى لاسكاريس ذلك المشروع بحذافيره. ولكن قراءة هذه الوثيقة فى سياقها التاريخى من المكاتبات التى تناولت الموضوع، واستقصاء آثار يعقوب ولاسكاريس للاستدلال على تجارب كل منهما واتجاهه، ثم إخضاع النص للتحليل اللغوى، كل ذلك أتاح لنا حل العقدة. واعتمدنا فى البحث على محفوظات وزارتى الخارجية والداخلية بباريس، ووزارة الحربية بڤانسين، وعلى محفوظات بلدية مرسيليا، ومحفوظات إقليمها

(Archives Départementales Des Bouches - du - Rhône)، مع الاسترشاد بمذكرات المعاصرين ومجموعات الصحف.

ويبدو التناقض بين الرجلين من أول وهلة فى الرسالة التى أرفقها بالوثيقة جوزيف إدموندز. فهو يشهد بمهابة يعقوب، ورجاحة شخصيته ونفوذه، وجدية محادثاته، بل وبحرصه على إبلاغ موضوعها إلى القائد العام ومنه إلى الحكومة البريطانية، وعلى تعهد له بعدم إفشائها تحسباً لعواقب الأمور. أما عن لاسكاريس فيقول: "إنه ذو عقلية متحفزة الخيال، وأظنه من أهل

البيمونت (شمال إيطاليا)، ويقال إنه كان من فرسان مالطة الذين غادروا الجزيرة مع بونابرت... ولم أفلح فى أن أتبين هل هو عضو من أعضاء الوفد أو أن مهمته مقصورة على السكرتارية والترجمة". مقابل الثقة فى يعقوب ومسئولياته، يثير لاسكاريس حيرة جليسه واستفهامه. ويتفق تقدير الربان الإنجليزى لكليهما مع معلوماتنا السابقة عن ماضى يعقوب، ومع تحرياتنا اللاحقة عن نشاط لاسكاريس.

"تيودور لاسكاريس يزعم أنه سليل أباطرة بيزنطة، وفارس من فرسان مالطة. والثابت لنا أن قيادة الحملة الفرنسية عيَّنته فى مصر مهندسًا معماريًا للإشراف على المبانى التى تحتلها. فتعلَّم بمخالطة المصريين لغتهم وعرف أحوالهم. ومن أفانينه - فى بعض رسائله إلى الجنرال مينو - صورة مدينة عظيمة يشيدها فى حضن النيل بين فرعى الدلتا تصبح عاصمة لإفريقيا وأكبر سوق للتجارة فى العالم، ويطلب التصريح له بإنشائها. إن الحلم بمستعمرة ذهبية يراود لاسكاريس فى معظم شطحاته، مما يفرض علينا مضاعفة الحذر من نثره فى مقام الحديث عن مصر المستقلة.

بمثل هذه العقلية لم يكن بد من أن ينحرف طريق لاسكاريس عن أهداف يعقوب. ولكنه واصل خدمة المصريين إلى أن وقَّعت فرنسا معاهدة إميان فى ٢٧ مارس ١٨٠٢م، وأقرت عودة مصر للباب العالى بدلاً من أن تنص الدول على استقلال مصر كما تمنى يعقوب صراحةً. وفى ٤ مايو ١٨٠٢م أخرج لاسكاريس مذكرة كتبها بعنوان: "هل من المفيد لفرنسا أن تقيم إمبراطورية الشرق ؟" دعا فيها الحكومة الفرنسية إلى التحرك لاستيطان شواطئ البحر الأسود - والطريف أن زوجة لاسكاريس كانت من أهل جورجيا. وأما ما يعنينا فهو العبارة التالية التى وردت فى رسالة لاسكاريس المؤرخة ٩ مايو ١٨٠٢م والمرفقة بمذكرته تلك إلى الجنرال مينو: "كنت أخشى أن أفسد قضية مصر والمصريين لو أننى منذ وصولى إلى باريس أعلنت الخطة التى اصطلحنا عليها" - يعنى خطة مشتركة اتفق عليها الاثنان، لاسكاريس ومينو، وهى خطة تناقض "قضية مصر والمصريين". وهكذا يعترف لاسكاريس بموضوعية المشروع المصرى.

وقد توخى الربان جوزيف إدموندز تدقيق الضابط البحرى فى نقل مبادرة يعقوب إلى رئاسة الدولة البريطانية. فروى كيف فاتحه الرجل الوقور بالحديث فى المسألة المصرية، ولخص أقواله - وهو الذى نعرفه، وما انتهت إليه تجربته بين جشع العثمانيين المالى، وعنف التخريب المماليكى، وفشل الحملة الفرنسية لتفوق الأسطول الإنجليزى. وذلك هو جوهر الوثيقة التى بنت على تلك الأسس حججها فى استقلال مصر وحيادها.

ونلتقط فى صلب النص إشارات مرجعية مستمدة من دراية المعلم يعقوب بأولوية التجارة الدولية المجزية التى يجتذب موقع مصر تياراتها من الهند وأواسط إفريقيا، وبمصالح فرنسا وإنجلترا الحيوية فى تدفقها عبر البحر المتوسط. ونقرأ عن اقتدائه فى الحكم الداخلى بنموذج همام: "أليس أى نظام أفضل من الطغيان التركى ؟ فلتكن الحكومة الجديدة عادلة حازمة وطنية، كما كانت حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد - وقد حدثتك عن تاريخه - فهى بالتأكيد ستكون موضع الاحترام والطاعة والحب". ولن يني الصعايدة عن ذكر نظام همام بالاعجاب، ومنهم

رفاعة الطهطاوى الذى سيتوسم فيه ـ بعد أن عرف فرنسا ـ نظام "جمهورية التزامية". و من أسماء الأعلام الواردة كذلك فى النص اسم مراسل يتعامل معه يعقوب شخصياً فى التجارة الخارجية هو الكونت "أنطون قسيس" المقيم فى تريستا. وكان أنطون قسيس من أنشط رجال جمرك الإسكندرية سابقًا، ثم خدم دولة النمسا في إحياء حركة السويس التجارية فقد كانت تلك "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" تلتمس مكانًا لها على طريق الهند، ومنحه الإمبراطور جوزيف الثانى لقب كونت، وأخيراً استقر فى ميناء تريستا حيث مد خطوط التصدير والاستيراد المتصلة بالشرق. وتمثل سيرته طور اندماج مصر الفعلى فى السوق العالمية بدافع التوسع الاقتصادى الأوربى، الذى اتخذ فى نهاية القرن الثامن عشر من رجال الجمارك وكبار التجار ذوى النفوذ عند المماليك أطرافاً فى المفاوضة والتعاقد، فهم القائمون عملياً بتنفيذ الشحن وتأمين الطرق و "الوكالات". لذا كان المعلم يعقوب أهلاً للمفاوضة السياسية مع سلطات الدول، وهو الخبير بمنتجات الأرض المصرية، وقيمة العملات الذهبية والفضية الأوربية، وطرق القوافل والتواصل التى تخترق بلاده، وأصناف السلع المتدفقة من الجنوب ومن الشام ومن موانىء شمال البحر المتوسط، فضلاً عن خبرته العسكرية القيادية.

وفكرة الحياد السياسى لمصر ـ عماد المشروع ـ ما كانت لتخطر على بال لاسكاريس. فمعناها بلغة عصرنا "عدم الانحياز". وقد اختمرت فى ذهن يعقوب عندما أراد الخروج من الاستعمار التركى الذى فرض على مصر الانكماش والضمور فوجد نفسه فى قلب الدوامة السياسية الدولية. لاذ بالتوازن ردًا على الاستقطاب الثنائى الذى نزعت إليه القوتان العظميان إذ ذاك، فرنسا وبريطانيا. فهل علم أن مصر الحرة فى القرن العشرين ستبدع "الحياد الإيجابى" وتتزعم حركة "عدم الانحياز" بين الكتلتين السوفييتية والأمريكية ؟ إنها حكمة عريقة نابعة من عبقرية المكان كما سيقول جمال حمدان الذى أبرز فى دراسة شخصية مصر "أن فكرة التوسط كامنة فى موقع مصر الحضارى". وبالرجوع تلقائيا لهذا المبدأ الراسخ لدى المصريين، قيّم محمد فهمى عبد اللطيف ـ وهو من محققى كتاب الجبرتى "مظهر التقديس" ـ أصالة دور المعلم يعقوب، فى مقال سبق حركة عدم الانحياز بنحو عشرين سنة:

"لعب هذا الرجل الداهية المغامر فى تاريخ مصر دورًا واسع النطاق. وكانت له فى تدبير الأمور وتطوّر الحوادث آمال واسعة، إلا أن الأمور سارت على غير ما كان يشتهى ويرغب. ولعل هذا الرجل أول سياسى مصرى فكر فى جعل المسألة المصرية مسألة دولية، على أن تستقل مصر استقلالاً تاماً عن الحكم العثمانى، وأن تكون باستقلالها هذا واسطة لكبح اطماع فرنسا وإنجلترا، وهما الدولتان اللتان كانتا تتصارعان على توطيد النفوذ فى مصر وفى حوض البحر المتوسط... يعقوب لم يقصد إلى الإقامة فى تلك البلاد متمتعًا بالرفاهية والأمان، ولكن كان فى نيته أن يثير قضية مصر فى المعترك الدولى، وأن يفاوض هو ومن معه فرنسا وإنجلترا على خطة لاستقلال مصر عن الحكم العثمانى وضمان حسن الصلة بينها وبين فرنسا وإنجلترا". (جريدة "البلاغ" ٢٢/١٢/١٩٤٧)

مات جنود مجهولون، وأسفر وجه مصر

اثبت ربان البارجة "بالاس" فى تقريره عن ركابها أن عددهم بلغ ٣١٠، منهم ٨٠ فرنسيًا والباقون من الأقباط. وفى "إحصاء الأشخاص الذين تبعوا الجنرال يعقوب" بتوقيع المستشرق چوبيـــر Jaubert فى مرسيليا ـ وتلك قائمة من ١١٥ اسمًا ـ نتعرف على عائلة يعقوب: أخيه حنين، زوجته مريم، ابنته منة، أمه غزال، أخته حنونة، وأخت زوجته لوسية؛ ثم العقيد غبريال سيداروس ابن تقلة شقيقة يعقوب، مع زوجته مريم وابنته راحيل وابنه إبراهيم وأخته وردة. ولا يوجد إحصاء شامل للألف وخمسمائة مصرى وشامى ويونانى الذين توقعت الحكومة الفرنسية وصولهم.

لم يكن لحنين من قوة الشخصية والمواهب ما تَميّز به أخوه يعقوب رئيسًا لوفد مصرى يريد أن يفاوض الدول للحصول على الاستقلال. هذا الوفد، وإن لم تتح له الظروف أن يتشكل رسميًا، كان يضم من حول يعقوب عبد العال أغا وبعض التجار نيابةً عن أنصارهم العديدين فى مصر (وثيقة ٢٥/١٠/١٨٠١م) وكان وكيله "نمر افندى" حسب توقيع الرسائل التالية لوفاة يعقوب ـ ولعله الترجمان "لطفى نمر" الذى استعان به لاسكاريس واستعاد اسمه لكى يحتفظ بمشروعاته الخاصة.

وظل مبدأ الاستقلال حيًا، فقد كتب المصريون حين نزلوا المحجر الصحى بمرسيليا إلى بونابرت: "مُرْ بأن تكون مصر مستقلة عند عقد معاهدة الصلح العامة"، وإلى وزير خارجيته يلتمسون "إبادة الطغيان الذى حاق بهم من جديد" (٢٣/٩/١٨٠١م). وبقوة الاندفاع الأول كرر حنين طلب مقابلة بونابرت. ثم غابت من الأوراق كلمة "المفاوضة" وصفة "المفاوضين" وظهرت كلمة "اللاجئين".

لم يحتمل بعضهم الغربة فرجعوا إلى مصر، حيث انتظرتهم سيوف الأتراك. وتفرع الذين استقروا بفرنسا ثلاثًا: طائفة التجار الميسورين الذين واصلوا الأعمال الاقتصاديةواندمجوا فى الطبقة الفرنسية الوسطى، وطائفة الفقراء الذين قررت الحكومة بعد لأى أن تصرف لهم إعانات ضئيلة، وطائفة العسكريين الذين استخدمهم نابليون فى حروبه فبَقى ذكرهم فى سجلات الجيش، بينما تشح المعلومات عن المدنيين. ولكن المختصين "بالأنساب" من مؤرخى منطقة مرسيليا استخلصوا أخيرًا من دراسة شهادات الزواج والوفيات حتى سنة ١٨٣٣م أن عدد أولئك الشرقيين ناهز الألف إذذاك ضمن أهل مرسيليا المائة ألف أى بنسبة ١٪.

فرز ضباط نابليون مجموع من وصل من الرجال، واختاروا أحسنهم لتشكيل فرقتين: أطلقوا على الأولى اسم "المماليك" ورصدوا لهؤلاء الفرسان نفقات الجياد والزى الشرقى بالسراويل والصدريات المزركشة والعمائم الخضراء، فكانوا مفخرة الإمبراطور، ومنهم حرسه، وطليعة جنده عندما يدخل مدينة فتحها، وقوة عارمة فى حروبه التى امتدت من جبال إسبانيا إلى ثلوج روسيا. وأطلقوا على الفرقة الثانية اسم "قنّاصة الشرق"، وهم من المشاة يرأسهم "نيقولا بابازوغلو" اليونانى، ونائبه العقيد "غبريال سيداروس". وقد اختلط فى كل من الفرقتين ـ

وهما بضع مئات - الأقباط والشوام واليونانيون، ثم غيرهم من الأجانب والفرنسيين الذين لزم تجنيدهم لكثرة القتلى والمشوهين على مر السنين.

وأهم من انتصاراتهم الحربية التى أضيفت دونهم لأمجاد نابليون، كان تأثيرهم الغريب الذى سرى فى الفنون وأدى إلى تطوير الذوق. فبسحنتهم السمراء وملابسهم الشرقية الخلابة أثاروا - بغير قصد - حركة البعث الفنى التى نشأت لاستيحاء الشرق انطلاقًا من مراسم المصورين (Carle Vernet, Gros, Guérin, Girodet, Géricault). فقد لبى هؤلاء دعوة السلطات لتخليد معارك نابليون فى لوحات عريضة، ثم اشتعلت جذوة الولع بالشرق بعد سقوط نابليون وتسريح "المماليك" واضطرارهم - كسبًا للعيش - أن يشتغلوا نماذج حيّة للرسامين. وآلت زعامة التجديد الاستشراقى إلى المصور "ديلاكروا" Delacroix الذى احتل إبداعه "الرومانتيك" عرش سلفه "دافيد" David مقلد الإغريق والرومان.

ومن الفن المرئى تسرب الهيام بالشرق إلى الأدب، وتجاوبت أصداء المشرق فى الثقافة الأوربية. فى فرنسا حيث أخصب الشعر والنثر، واستشرق "فيكتور هوجو"، و"لامارتين" الذى أعجب بمواويل المصريين فى مرسيليا وسافر إلى الشام، كما سافر لمصر نرڤال وفلوبير وتيوفيل جوتييه... إلخ. وكان قد ترجم المواويل شاعر جاء صبيًا مع هجرة يعقوب ونبغ فى باريس اسمه يوسف أجوب Agoub وكان أبوه صائغاً أرمنياً بالقاهرة. وسيستقبل أجوب بعثة الطلبة المصريين فى سنة ١٨٢٦م ويقوم بتدريسهم الفرنسية، فيتأثر بفكره رفاعة الطهطاوى ويترجم بعض شعره ونثره. ويموت أجوب وهو فى السابعة والثلاثين من عمره.

وممن صنعوا نهضة الاستشراق اللغوى فى أوربا فتى مغمور من أبناء أسيوط عمل كاتباً عند يعقوب ويحمل اسمه - إليوس بقطر - قاموس فرنسى عربى وضعه فأصبح عمدة الدارسين وبداية نقل ألفاظ الحضارة العصرية. ولكنه مات مكدوداً فى سنة ١٨٢١م فى الثامنة والثلاثين من عمره، عقب تعيينه أستاذاً للعربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس. أما العلاّمة القس يوحنا الشفتشى فلا نعلم متى مات - ومتى ولد - وهو الذى جمع بين تعمق اللغات القديمة فكان العضو الشرقى الوحيد فى لجنة تأليف موسوعة "وصف مصر" وتحمّل المسئولية العسكرية ضابطا فى الفليق القبطى. ونسى التاريخ وجوده مع أن شامبليون نقل عنه صوتيات اللغة القبطية، فكأن باعث الحضارة الفرعونية تسلم منه المفتاح الذى به فك رموز الهيروغليفية.

ومات جنود مجهولون وردوا ساحات القتال، نقرأ ما بقى من بعض أسمائهم فى محفوظات ڤانسين، وأهمها قائمة "المماليك" ولو أنها عجالة مقصورة على ٥٨٣ اسمًا. فيروعنا أن نتبين ضمن من "فقدوا" أثناء انسحاب جيش نابليون من روسيا - فى جليد نوفمبر وديسمبر ١٨١٢م - مصريين ولدوا تحت شمس القاهرة والصعيد مثل "أسعد عبد الملك" الذى حط فى فرنسا صبياً وخاض المعارك منذ ١٨٠٨م، و"المملوك ابراهيم" المولود بأسيوط فى سنة ١٧٨٣م، و"جرجس المصرى" المولود بالقاهرة فى سنة ١٧٩٢م، و"فرج تالوت" المولود بها والمجند منذ ١٨٠٨م. ويستوقفنا "بولس بركة" المولود بالإسكندرية، فقد حارب على كل الجبهات، ورغم طعنة سيف أصابته فى "ڤاجرام" سيق إلى روسيا حيث تجمدت خمس أصابع من قدمه اليسرى فأعيد إلى

مستودع اللاجئين بمرسيليا. وأُحيل إلى الاستيداع "تادرس القبطى" و"يوسف واصف" من مواليد القاهرة، و"يوسف نخاخلى" المولود فى فرشوط بعد إصابته بثلاث رصاصات فى ١٨١٢م، و "توما المصرى" ابن سعد ومريم بالقاهرة عقب إصابة قبضته اليمنى بالسيف فى مشاجرة بإسبانيا، و"يوسف ميخائيل" المولود فى أسيوط فى سنة ١٧٨١م والذى أصيب بندبة فى وجنته اليسرى. وأما "ميخائيل المصرى" المولود بالقاهرة فى سنة ١٧٨٦م فقد استبسل فى جميع معارك نابليون وكتبت له النجاة إلا فى معركة "إيلو" حيث جرحت ذراعه، ولكنه رافق الإمبراطور إلى منفاه بجزيرة إلبا (١٤ ابريل ١٨١٤م).

وقارئ مشروع يعقوب لا يعثر فيه على كلمة "قبطى". بل يجد مصر كيانًا سياسيًا وطنيًا رشيدًا، على وعى بمركزيته وتوسطه وتوازنه، بموقعه الجغرافى وموارد أرضه وطاقاته الاقتصادية، متفتحاً على المستقبل، يريد أن يتحرر من الاستبداد العثمانى ليستأنف دوره الحضارى بين الدول المتقدمة.

لذا لا نفصل هجرة المعلم يعقوب عن ثمارها الإنسانية - التى لم يتعمد غرسها. فقد أسفرت أعمال رجاله المغتربين النكرات عن ملامح وجه مصر. تجلت الأصالة الفرعونية دون أن يقال إن شامبليون تتلمذ على يوحنا الشفتشى. ونهل المستشرقون من اللغة العربية فى دروس إليوس بقطر وزملائه ومخطوطاتهم وكتبهم، على حين فتح قاموسه معجم اللغة العربية على مفاهيم العصر الحديث، فأطلقها من عقالها وأحيا فيها وظيفة التبادل مع الآخرين. تكاملت طبقات مصر الحضارية المرصوصة، وظهرت استمراريتها التاريخية. وتعبر عن هذه الحقيقة قولة لعالم الأنثروبولوجيا "نيوبرى" (P.E. Newberry) ترجمها جمال حمدان: "مصر وثيقة من جلد الرق، الإنجيل فيها مكتوب فوق هيروديت، وفوق ذلك القرآن، وخلف الجميع لاتزال الكتابة القديمة مقروءة جلية".

ومصداق ذلك تعريف طه حسين للشخصية المصرية بثلاثة عناصر: العنصر المصرى الخالص "الذى ورثناه عن قدماء المصريين" والذى نستمده "من أرض مصر وسمائها، ومن نيل مصر وصحرائها"، والثانى هو العنصر العربى الذى تمصر "فليست اللغة العربية فينا لغة أجنبية"، والثالث هو العنصر الأجنبى "الذى تقتضيه طبيعة مصر الجغرافية" ويأتيها دائماً من "اتصالها بالأمم المتحضرة فى الشرق والغرب" منذ اليونان قديما، والعرب فى العصور الوسطى إلى الغرب الأوربى والأمريكى الآن. "فشخصيتنا المصرية العربية أقوى من أن تمحى أو تزول، والحضارة الأوربية أقوى والزم من أن نُعرض عنها أو نقصر فى الأخذ بحظنا منها".

لقد التأمت العناصر الثلاثة فى مطلع القرن التاسع عشر: مات جنود مجهولون - أولهم المعلم يعقوب - وأسفر وجه مصر الحضارى.

Public Record Office, London. -F.O. 78 Turkey, vol.
Archives du Ministère des Relations Extérieures, Paris. Correspondance Politique, Turquie, vol. 203, 204,205, 206, 208, 218; Correspondance Commerciale, Le Caire, vol. 26, Alexandrie, vol. 19.

Archives Nationales, Paris. - Série AF ^{iv}, F^{7}, F^{15}, F^{10}III
Service historique de l'armée de terre, Vincennes.- Orientaux (1798 - 1815); Armée d'Orient: correspondance, situations, registres.
Archives départementales des Bouches-du-Rhône, Marseille. - 200 E 876, 892. L 338.
Archives communales, Marseille. Etat civil; cadastre; Réfugiés Egyptiens.
Archives départementales de Seine-et-Marne, Melur. - 6 M 183.

ثانيا. المخطوطات والمقالات

عبد الرحمن الجبرتي. عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بولاق ١٢٩٧/ ١٨٧٩. ٤ أجزاء.

مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس. تحقيق أحمد زكي عطية، عبد المنعم عامر، محمد فهمي عبد اللطيف، حنفي عامر. القاهرة، المطابع الأميرية ١٣٨٠/١٩٦١.

اسماعيل الخشاب . تذكرة لأهل البصائر والأبصار مع وجه الاختصار في أخبار القرن الثاني عشر. مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس، حققه محمد زكريا عناني. القاهرة، "أخبار الأدب" عدد ٧٣، ٧٤/ ٤، ١١ ديسمبر ١٩٩٤.

نقولا ترك. مذكرات نقولا ترك (١٧٩٨ ـ ١٨٠٤). نشرها وترجمها للفرنسية وعلق عليها جاستون ڤييت. القاهرة، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٥٠.

أحمد كتخدا عزبا. الدرة المنصانة في وقايع الكنانة، من عزلان السلطان محمد خان طاب ثراه سنة ١٠٩٩ إلى توليت السلطان عثمان خان دام نصره سنة ١١٦٨ وما اتى مصر من الباشوات إلى يومنا هذا (الخميس ٢٥ جمادى الأول سنة ١١٦٩). مخطوط بمكتبة مدينة جنيف (Ms. 0. 11).

على مبارك. الخطط التوفيقية الجديدة. بولاق ١٣٠٤ ـ ٦ / ١٨٨٦ ـ ٩. ٢٠ جزءا.

يعقوب نخلة روفيلة. تاريخ الأمة القبطية. القاهرة ١٨٩٩.

جمال الدين الشيال. التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر. القاهرة، النهضة ١٩٥٨.

عبد الرحمن الرافعي. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر. القاهرة، النهضة ١٩٢٩. جزء ١، ٢.

شفيق غربال. الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١. القاهرة، دار المعارف ١٩٣٢.

أحمد عزت عبد الكريم. تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية حكم إسماعيل (١٧٩٨ ـ ١٨٧٩). ضمن "المجمل في التاريخ المصري" تأليف بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب

جامعة فؤاد الأول ونشره حسن إبراهيم حسن القاهرة، الحلبى ١٩٤٢، ص ٢٨٥ ـ ٣٧٤.

وآخرون. دراسات تاريخية فى النهضة العربية، بإشراف محمد فهمى عبد اللطيف. "الجنرال يعقوب أو المعلم يعقوب وموقفه من الحملة الفرنسية". جريدة "البلاغ" ٢٢ ديسمبر ١٩٤٧.

لويس عوض. المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث (٢) الفكر السياسى والاجتماعى. القاهرة، دار المعرفة ١٩٦٣، ط ٢ سنة ١٩٦٦.

عبد العزيز محمد الشناوى وجلال يحيى. وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر. القاهرة، دار المعارف ١٩٦٩م.

محمد أنيس. الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ـ ١٩١٤). القاهرة، الأنجلو المصرية، بدون تاريخ.

محمد أنيس والسيد رجب حراز. ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأصولها التاريخية. القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٩.

طه حسين. فصول فى الأدب والنقد. "إلى الاستاذ توفيق الحكيم" ص ٩١ ـ ١٠١، القاهرة دار المعارف ١٩٦٩.

محمود متولى. الأصول التاريخية للراسمالية المصرية وتطورها. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤.

البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، بإشراف أحمد عزت عبد الكريم. أبحاث الأسبوع العلمى ١٠ ـ ١٥ مارس ١٩٧٩. القاهرة جامعة عين شمس ١٩٨٠.

جمال حمدان. شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان. القاهرة، عالم الكتب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤. ٤ أجزاء.

أحمد حسين الصاوى. المعلم يعقوب بين الأسطورة والتاريخ. القاهرة، دار الفكر ١٩٨٦.

ليلى عبد اللطيف أحمد. الصعيد فى عهد شيخ العرب همام. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧.

محمد نور نور فرحات. (المجتمع والشريعة والقانون ـ القاهرة ـ دار الهلال، يونية ١٩٨٦.)

إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر. القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ (سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٥٢).

محمد عفيفى: الأقباط فى العصر العثمانى. القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ (سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٥٢).

نسيم مجلى. لويس عوض ومعاركه الأدبية. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥.

نبيل السيد الطوخى. صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ـ ١٨٠١. القاهرة، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.

أنور لوقا. ربع قرن مع رفاعة الطهطاوى. القاهرة، دار المعارف ١٩٨٥.

حملة بونابرت ومصر: محاولة استعمارية فاشلة تكللت بهالات المجد الزائف.
"أخبار الأدب" العدد ١٦٥، ٨ سبتمبر ١٩٩٦. (ترجمة وليد الخشاب).

عودة رفاعة الطهطاوى. سوسة - تونس، دار المعارف ١٩٩٧.

Auriant, "Maallem Yakoub, dit le "Général Jacob", Commandant la Légion Copte (1798-1801), "L´Acropole, VI, 1931, pp. 137-146.

Auriant, La vie du chevalier Théodore Lascaris ou l´ Imposteur malgré lui, Paris 1940.

Bachatly. Ch., "Un membre oriental du premier Institut d´Egypte: Don Raphaël (1759-1831), "Bulletin de l´Institut d´Egypte, XVII 2, 1934-1935, pp. 237-260.

Belliard, A-D, Mémoires du comte Belliard publiés par Vinet, Paris 1842.

Brunon, Raoul et Jean, Les Mameluks d´Egypte. Les Mameluks de la Garde Impériale, Marseille n.d.

Charles -Roux, François, Les origines de l´expédition d´Egypte, Paris 1910.

Charles -Roux, Fr., Autour d´une route. L´Angleterre, L´isthme de Suez et l´Egypte au XVIIIe siè... Paris 1922.

Chevalier, M., "La politique financière de l´Expédition d Egypte (1798-1801), " Cahiers d´histoire égyptienne, VII-VIII, Juin 1955- Juillet 1956.

Daudet, Ernest, La Terreur Blanche. Episodes et souvenirs de la réaction dans le Midi en 1815, d´après des souvenirs contemporains et des documents inédits, Paris 1878.

Dehérain, Henri, L´Egypte turque. Pachas et Mamelouks du XVI^e au XVIII^e siècle.L´Expédition du Général Bonaparte (= Histoire de la Nation Egyptienne 5), Paris 1934

Delanoue, Gilbert, Moraliste et politiques misulmans dans l´Egypte du XIXe siècle (1798- 1882), Le Caire 1982, 2 vol.

Denon, Vivant, Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les Campagnes du Général Bonaparte, Paris 1802, 2 vol.

Douin, Georges, L´Egypte indépendante. Projet de 1801, Le Caire 1924.

GIBB, H.A.R. & Bowen, Haold, Islamic Society and the West, 2 vol., Oxford 1950-1957.
Girgis, Samir, The Predominance of the Islamic Tradition of Leadership in Egypt during Bonaparte´s Expedition, Bern-Frankfurt 1975 (European University Papers).
Gran, Peter, Islamic Roots of Capitalism: Egypt 1760-1840, Austin-London 1979.
Gozlan, Léon, "Les Réfugiés Egyptiens à Marseille," La revue contemporaine, Janvier 1866, pp. 31-47.
Guemard, Gabriel, "Les auxiliaires de l´armée de Bonaparte en Egypte," Bulletin de l´Institut d´Egypte, IX, 1926, pp. 1-17.
Haddad, George A. , "A project for the independence of Egypt, 1801, "Journal of the American Oriental Society, Princeton 1970, pp. 169-183.
Haddad, Robert M. Syrian Christians in Muslim society, Princeton 1970.
Hajjar, Joseph, Les Chrétiens Uniates du Proche-Orient, Paris 1962.
Homsy, Gaston, Le Général Jacob et l´expédition de Bonaparte en Egypte, Marseille 1921.
Hourani, A.H., "The Chanching Face of the Fertile Crescent in the XVIIIth Century," Studia Islamica, VIII, 1957, pp. 89-122.
Hourani, A. H.., "The Syrians in Egypt in the Eighteenth and Nineteenth Centuries," Colloque international sur l'histoire du Caire, 1969, pp. 221 - 233.
Jonquière, C. de La, L´expédition d´Egypte (1798-1801), 5 vol., Paris 1899-1907.
Kayata, P., Monographie de l´ église grecque catholique de Marseille, Marseille 1901.
Laurens, Henry, Origines intellectuelles de l´expédition d´Egypte, l´orientalisme islamisant en France 1698-1798,
Istanbul-Paris, 1987.
Laurens, Henry, L´expédition d´Egypte 1798-1801, Paris, 1989.
Louca, Anouar, "La Renaissance Egytienne et les limites de L´œuvre de Bonaparte", in Cahiers d´Histoire Egyptienne, VII/1, Févr. 1955, pp. 1-20.
Louca, Anouar, Voyageurs et Écrivains Egyptiens en France au XIX^{e} siècle, Paris 1970

Louca, Anouar, "Militaires Coptes en Egypte au XIXe siècle," in Minorités, techniques et métiers, Aix-en-Provence 1980, pp. 139-148.
Louca, Anouar, "Les cinquante jours à Marseille de Rifaa al- Tahtawi,", in L'Orient des Provençaux dans l'histoire, Marseille 1982, pp. 325-329.
Louca, Anouar, "Quels Mamelouks ?," ibid., pp. 340-353.
Louca, Anouar, "Les Mamelouks messagers de l'imaginaire," ibid., pp. 354-359.
Louca, Anouar, "Les sources marseillaises de L'Orient romantique," in Le miroir Egyptien, Marseille 1984, pp. 243-257.
Louca, Anouar, "Champollion entre Bartholdi et Chiftichi", in Rivages et déserts, Hommage á Jacques Berque, Paris 1988, pp. 209 -225.
Louca, Anouar, "Yaeqûb et les Lumières", Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée, no. 52, 53, 1989, pp. 63 - 76.
Louca, Anouar, L'autre Egypte, de Bonaparte à Taha Hussein, Paris 1998.
Loutfi el-Sayed, Afaf, "The role of the "ulamá" in Egypt during the early nineteenth century", in Holt, Political andSocial Change, London 1968, pp. 264 - 280.
Loutfi el-Sayed Afaf, "A socio- economic sketch of the "Ulamá" in the eighteenth century", Colloque international sur l'histoire du Caire, Ministère de la Culture, Le Caire 1972, pp. 313-319.
Pockocke, R. Voyages de Richard Pockocke, Paris 1772.
Raymond, André, Artisans et commerçants au Caire auXVIII^e siècle, 2 vol., Damas 1974.
Raymond, André, "Le Caire: économie et société urbaine à la fin du XVIII^e siècle",in L'Egypte au XIX^e siècle, R. Mantran (éd), Paris 1982, pp. 121 - 139.
Raymond, André, Grandes villes arabes à l'époque ottomane, Paris 1985.
Reymaud, Georges, "Les donnés de l'état civil et du cadastre (1801 - 1833)," in L'Orient des Provencaux dans l'histoire,
Marseille, 1982, pp. 368 - 370.
Rigault, Georges, Le Général Abdallah Menou et la dernière phase de l'expédition d'Egypte, Paris 1911.
Rousseau, François, Kléber et Menou en Egypte depuis le retour de Bonaparte (août 1799 - september 1801), Paris 1900.

Saman, Edouard, "L´église Saint-Nicolas de Myre de Marseille et les collaborateurs orientaux de Bonaparte, "Marseille,revue municipale, no. 124, 1er trimestre 1981, pp. 50-59.
Savant, Jean, Les Mamelouks de Napoléon, Paris 1949.
Valognes, Jean-Pierre, Vie et mort des Chrétiens d´Orient, des origines à nos jours, Paris 1994.
Volney, C.F. Chasseboeuf comte de, Voyage en Syrie et en Egypte (1782-1785), publ. par Jean Gaulmier, Paris-La Haye, 1959.

يوحنا الشفتشى معلم شامبليون

أ. د. أنور لوقا

يوحنا الشفتشى مُعلم شامبليون

أ. د. أنور لوقا

هذا رجل نجهل مولده ووفاته، وترددت الوثائق فى طريقة كتابة اسمه، فلم يدخل التاريخ الذى أدى مع ذلك فى مجراه الحديث دوراً حضارياً خصباً.

بحثنا عنه انطلاقاً من سيرة شامبليون، دراساته اللغوية المتخصصة التى أفضت به - فى فرنسا - إلى فك رموز اللغة المصرية القديمة بعد أن استعصت قراءتها على الناس طوال ألف وخمسمائة سنة. فقد استوقفتنا تسمية مختلطة غامضة فى سياق رسالة نابضة بالتحفز كتبها فى سنة ١٨٠٩م من باريس الفتى شامبليون - وهو فى السابعة عشرة من عمره - إلى شقيقه الأكبر ينبئه فيها بخطوات حاسمة يخطوها فى سبيل كشف أسرار الهيروغليفية، هذا الكشف الذى سيحققه فى سنة ١٨٢٢م، ولكنه يشاطر منذ ذلك الحين أخاه نشوة استشفاف الهدف فيقول له:

"لُغتى القبطية تتقدم وأجد فيها حقاً ما يبهجنى أعظم الابتهاج، ولك أن تتمثل سعادتى وأنا أتكلم لغة أعزائى أمينوفيس وسيتى ورمسيس وتحتمس!.. وسأذهب لأقابل فى كنيسة "سان روك Saint Rock" بشارع "سان أونوريه" كاهناً قبطياً يتلو فيها القداس ويدعى "إيكاها شبتشى Icaha Scheptichi" وسيعطينى هذا الأخير معلومات عن الأسماء القبطية وعن نطق الحروف.. إننى أسلس قيادى تماماً للقبطية. وأريد أن أعرف هذه اللغة المصرية كما أعرف لغتى الفرنسية، فعلى هذه اللغة أرسى أساس عملى الكبير فى أوراق البردى".

وتواترت الأغلاط فى نقل اسم الكاهن المذكور. أخطأ التلفظ به جميع من عرضوا لحياة شامبليون ودراساته حتى اختفى من الآفاق كل أثر يمكن أن نستقصيه للعثور على تلك الشخصية. ولا أضل عن ذلك من تسميته بـ "جياشاشفتدشى Jeacha Scheftidschy" فى كتاب "هارتلبن Haretelben" وهو أوفى مرجع علمى عن شامبليون (صدر فى مجلدين سنة ١٩٠٦).

لذا عمدنا إلى التنقيب عن صاحب هذا الاسم الغريب طى المراسلات العديدة المتبادلة إذ ذاك بين المشتغلين بنشر كتاب "وصف مصر" الموسوعى، والتى يضمها قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية بباريس فى ثمانية وخمسين مجلدا. وأول إشارة وقفنا عليها فى تلك الأوراق إشارة

مقتضبة وردت فى خطـاب مـن وزيـر الداخليـة "شـابتال Chaptal" إلى «كوستاز Coxtaz" بالمدرسة المركزية (Centrale Ecole) يسأله رأيه عن جدوى الاستعانة فى تأليف ذلك الكتاب المرجعى "بكاهن قبطى إسمه يوحنا يقال إنه واسع العلم باللغات الشرقية"، وأرفقت بسطور الوزير تلك المؤرخة ١٧ فلوريال من السنة العاشرة للثورة ١٨٠١م توصية من المواطن "لانجليس Langles" عميد مدرسة اللغات الشرقية بباريس يشيد فيها بفضل هذا الكاهن القبطى "يوحان" ويدعو إلى الإفادة من عمله لإضافة "أهم نصوص أدباء العرب التى تتحدث عن آثارها وجغرافيتها".

ولا يكتمل اسم يوحنا هذا أمامنا إلا فى مجلد آخر حيث نجد مسودة مذكرة منزوية، لا تحمل تاريخاً ولا توقيعاً، جاء بها: "فضلاً عن أربعة مستشرقين أعضاء فى لجنة التأليف، يعملون بدون مرتب سوى لواحد منهم، ضم الوزير شابتال إلى اللجنة منذ بداية المشروع مصرياً يدعى يوحنا شفتشى Chiftichy، لاجئاً من القاهرة وهو يتقاضى مرتباً زهيداً". وفى أسفل قوائم صرف المرتبات يلفت النظر بالفعل توقيع بحروف عربية أنيقة: "الشفتشى"، وفى بعض الأحيان "أبونا يوحنا" أو «القسيس يوحنا" - رئيس اللجنة - ستة آلاف فرنك، ومرتب المعينين فى الدرجة الأولى مثل "جوفروا سانت هيلير" أربعة آلاف فرنك.

وعندما واصلنا التنقيب فى وثائق «اللاجئين من مصر» ضمن محفوظات وزارة الحربية بقلعة "فانسين Vincennes"، وقعنا أخيراً على ملف عنوانه "Chiftgy"، وطالعنا أوراقاً نادرة غزيرة المضمون عن يوحنا الشفتشى جلت لنا ملامح وجهه الغائب.

أقدم تلك الأوراق قائمةبتاريخ ٢٧ فريمير من السنة الحادية عشرة للثورة/ ١٨٠٢م تستعرض تسع وثائق فى حوزة "المواطن حنا شفتشى اللاجئ المصرى القبطى المولود فى القاهرة الكبرى" تشهد على التوالى بأنه اشتغل مترجماً فورياً بمنطقة الجيزة ومحصلاً للمناقصات وكاتباً أول فى محكمة الشئون التجارية، ومترجماً للجنرال "ديستان" ثم للمواطن "دالونفيل" مدير رسوم طوائف الصنّاع، كما عمل - بناء على توصية العالم الرياضى "فورييه" - مترجماً لدى اللجنة التى شكّلهاالقائد كليبر لجمع مواد تاريخ الحملة الفرنسية. وتضيف شهادة بتوقيع الجنرال "داماس" رئيس هيئة أركان حرب أن المذكور كان رئيس فصيلة أى برتبة عقيد فى الفيلق القبطى، وبجسمه ندبة جرح خطير أصابه. وأحدث أوراق الملف - الذى يرجع إدارياً إلى عهد تقديم طلبه لنوال الجنسية الفرنسية - تزكية بتاريخ ٦ ابريل ١٨١٦م بروعنا أنها تحمل توقيعات سبعة من أشهر علماء القرن التاسع عشر (Berthollet, Jamard, Jollilot, Duvillier, Girard, Fourier, Delile) ولا يثنى هؤلاء العلماء بالإجماع على ثقافة يوحنا الشفتشى فحسب، بل ينوهون كذلك بزهده،

وتنازله عن نصف مرتبه لأرملتى شقيقيه وأولادهما الستة، فقد كان شقيقاه فى القاهرة من رجال الفليق القبطى واغتالهما الأتراك عقب عودتهم لاحتلال المدينة.

وكان هذا الكاهن مقيماً بشارع "سان روك" بباريس عندما قصده الطالب شامبليون ليأخذ دروساً خصوصية فى نطق اللغة القبطية. وظل راعياً فى كنيسة "سان روك" للأقباط المهاجرين الذين حطوا بباريس، حتى قرر فى سنة ١٨٢٥م أن يرحل إلى مرسيليا التماساً لمناخ ادفأ وانسب لحالته الصحية. وهناك عاش بين أهل الجالية المصرية التى خرجت مع المعلم يعقوب وبعده واستقر معظمها فى مرسيليا منذ ١٨٠١م. ولا ندرى متى وأين وافته المنية.

ولعل أبلغ عبرة تبقى من سيرة هذا المجهول الباسل الباذل هى أداء أمانته للتاريخ رغم ما أمضّ جيله من أوجاع التمخض عن مولد العصر الحديث. ولكى ندرك أهمية الفتح العلمى الذى اضطلع به شامبليون الذى مضى يستوحى كتابات مصر القديمة وأصواتها من طور إلى طور إلى طور اقدم. لقد تأكد شامبليون من أن آخر مراحل التكلم بلغة مصر هى المرحلة القبطية (و"قبط" تعريب لاسم مصر اليونانى "إيجيبتوس" الذى سقط مقطعاه الأول والأخير). ولقناعته بثبات أسماء الأعلام على مر العصور، تعلّم اللغة العربية، وعكف على أن يستشف فى الأسماء الحالية للأماكن فى مصر ـ أى أسماء المدن والقرى والنجوع ـ مايكمن وراء الحروف العربية التى ترسمها من أصوات أساسية تعيده إلى الطبقة القبطية من تلك الألفاظ. وتتبع الخيط الصوتى مهتدياً باللفظ العربى لا اليونانى، مقاوماً ظاهرة استعارة اللغة القبطية للأحرف اليونانية فى تسجيل أصواتها. وقد فطن هذا الباحث الفرنسى الشاب إلى أن اليونانيين الذين احتلوا مصر قد أطلقوا على الأوضاع فيها والمواضع مصطلحات من عندهم وتسميات أجنبية مستمدة من أساطيرهم، على حين احتفظ العرب منذ دخولهم مصر بنظم الزراعة العريقة فيها وعهدوا بمسح الأرض والمحاسبة على المحاصيل والخراج إلى الكتاب الأقباط انفسهم، فلم يغير المصريون تقاليدهم ومصطلحاتهم اللغوية فى ضبط المال، وواصلوا تسمية البلاد فى أحرف عربية بأسمائها الموروثة.

أيقن شامبليون إذن أن اللغة اليونانية بمصر لغة ميتة، أما القبطية فما زالت حية. وحصر همه فى البحث عن تراكيبها وعن أصواتها على وجه التدقيق. فهو يريد أن يبرهن على أن الرسوم الهيروغليفية ما هى إلا حروف لغة منطوقة ينبغى أن تحدد صوت كل حرف من حروفها لا أن نشطح بالخيال فى تأويل الصور المتتالية التى تمثّلها على الحجر أو البردية، صور الطيور والأجسام أو العيون والتيجان، فليست المسألة مسألة رموز ننطلق منها لتلفيق ما يروقنا من المعانى. ومن هنا كان انغماس شامبليون العميق فى اللغة القبطية التى جمع قواعدها ووضع

المعاجم لمختلف لهجاتها، وراح يترجم إليها كل ما يخطر بباله من عبارات بل ويخاطب نفسه بها إذا انفرد فى غرفته!.

ويتعوده على ذلك "الهذيان" القبطى وجد شامبليون فى يده مفتاح حجر رشيد، الذى أعيا جهابذة أوربا أن يقرأوا فى جزئه الهيروغليفى ما قرأوا من أسماء الأعلام فى جزئه اليونانى. لقد برز أمامهم جميعاً، مقتطعاً على حده خلال السطور، اسم "بطليموس"، كل فى نطاق خرطوشة واضحة، اى فى إطار بيضاوى يحدق تقليدياً بأسماء الملوك، سواء فى النص الهيروغليفى أو فى ترجمتيه الديموطيقية واليونانية. أما شامبليون فتجاوبت فى ذهنه أصداء اللغة القبطية وهو ينظر من ناحية إلى حروف "كليوباترا" ومن ناحية أخرى إلى حروف "بطليموس" الهيروغليفية: لاحظ اشتراك الاسمين فى خمسة أصوات، وإذا بحرف اللام فى كل من الاسمين صورة أسد - والأسد بالقبطية "لبو" كما لاحظ غياب صورة النسر فى اسم بطليموس على حين يتكرر النسر مرتين فى اسم "كليوباترا" مكان حرف الألف - والنسر بالقبطية "أهوم" أما صورة الفم - والفم بالقبطية "رو" - فتقوم مقام حرف الراء فى كليوباترا... أى أن صوت الحرف الهيروغليفى المصور هو صوت الحرف الأول من الكلمة القبطية التى يرسم مدلولها. وقد أدّى تمكن شامبليون من مفردات القبطية وإحسانه نطقها لا إلى كشفه هذا المبين فحسب، بل إلى تقدمه العجيب فى وضع قواعد لغة مصر القديمة وفهم ما استغلق من نظمها وفنونها وحضارتها عشرات القرون.

لقد اعتمد شامبليون فى بحثه عن مصر اعتماداً منهجياً على اللغة القبطية، وبمنهجه هذا تفوق على علماء عصره. وإذا كانت أولوية الصوتيات هى التى أوصلته إلى الهدف، فهو يعترف بفضل الكاهن يوحنا الشفتشى فى تلقينه النطق القبطى السديد. والحق أن امتياز شامبليون فى سباق علماء أوربا الذي احتدم من حوله لفك رموز الهيروغليفية - إنما يرجع إلى اختلاطه منذ شبابه فى حى من أحياء باريس بصفوة المثقفين الذين هاجروا من مصر على اثر الحملة الفرنسية - لا سيما الشفتشى وإليوس بقطر - وإلى استقائه المباشر عن مواردهم العلمية، مما لم يتوفر لمنافسيه فى إنجلترا وغيرها، حيث اقتصر الباحثون على التعامل مع حجر وبرديات، أو منسوخات تعوزها المراجعة، بعيداًعن شواهد الواقع المختلج الناطق المجيب.

وصعد فى سماء التاريخ شامبليون، واحتجب اسم معلمه «يوحنا الشفتشى». إن لقب «الشفتشى» كلمة من المصطلحات الفنية التى يستخدمها صائغ الذهب للدلالة على خيوطه الدقيقة المنقوشة فى حيز مفرغ من اللبة ولا يراها الناظر إلا فى شفافية الضوء. كلمة يمتزج فيها فعل "شَفْ/ يشف" بالسؤال العامى "شُفْت شئ؟" (أى هل رأيت شيئا؟). لذا نرجح انتساب

هذا الكاهن إلى أسرة من الصياغ - وصياغة الذهب حرفة متوارثة بين الأقباط منذ اقدم العصور. وإذ تصمت كل المراجع عن تعريفنا بهذا "الشفتشى"، نتأمل لقبه فنستوحيه معنى الشفافية الجوهرية التى آل إليها باختفائه، وإخلاء مكانه دون ضجة، بعد ان أبلغ رسالته الحضارية، وقاد شامبليون إلى استكناه مدلولات لغة مصر وتراثها.

الملحق الثالث

إليوس بقطر

أ. د. أنور لوقا

إليوس بقطر

١٧٨٤ - ١٨٢١م

أ. د. أنور لوقا

لعلَّ أوجز تعريف بهذا الرجل المجهول هو أنه صاحب أول قاموس يؤرخ به انفتاح المعجم العربى على حياة العصر الحديث .

وقد أثار اسمه "إليوس" تساؤل الباحثين، وظن بروكلمان أنه تحريف لاسم «إلياس»، ولكنا قرأنا اسمه "سيليوس Cilious" فى القائمة الرسمية للمدنيين الذين وصلوا إلى مرسيليا فى سنة ١٨٠١م (تاريخها ١٨ برومير من السنة العاشرة للثورة) على حين ورد فى القائمة أيضاً اسم "إلياس" إنما يحمله وافد غيره سورى هو "إلياس مهنا". فهل نفترض أن اسم "اليوس" المخطوط فى تلك القائمة الأولى بصوت السين فى بدايته اختصار لأسم "باسيليوس" وقد سقط مقطعه الأول؟ أم أن كاتب القائمة ادغم فى كلمة واحدة "سى – أى السيد – ليوس" ؟ إننا نرجح أن لفظة "إليوس" هى النطق العربى المباشر للكلمة اليونانية الذائعة التى تعنى الشمس (هليوس) والتى أصبحت تطلق كذلك على الأشخاص فهى من أسماء الأعلام، ولا ننسى أن اللغة القبطية قد استعارت قديماً الكثير من الألفاظ اليونانية واستخدمت أنماطاً منها فى الاشتقاق .

وُلد إليوس بقطر بمدينة أسيوط فى ١٢ أبريل سنة ١٧٨٤م. وبعد أن تلقى تربية الأقباط التقليدية التى تهتم بدرس الحساب وإمساك الدفاتر، اشتغل كاتباً فى خدمة المعلم يعقوب. وامتاز منذ صباه بالذكاء، وحب الاطلاع وإتقان التعبير. فلما نزلت الحملة الفرنسية بمصر، لم يلبث أن تعلم اللغة الفرنسية، فعمل "مترجماً فورياً". وكان ضمن رجال المعلم يعقوب الذين آثروا الهجرة عقب جلاء الفرنسيين وعودة مصر للسيادة التركية .

حطَّ إليوس بقطر فى مرسيليا حزيناً، إذ استهلَّ مقامه بتشييع جنازة رئيسه وعائله المعلم يعقوب الذى توفى فجاة على ظهر السفينة فى عرض البحر. واقتصر اشتغاله بالترجمة والكتابة على أوراق الجالية التى ارتحلت من مصر وتغيرت فى مرسيليا شئونها المعاشية والإدارية. ثم دفعه الطموح بعد عامين إلى أن يلتمس فى باريس وظيفة مترجم للمخطوطات العربية التى تحتفظ بها المكتبة الوطنية، ولكنه سرعان ما أدرك فى العاصمة أن مسعاه لدى وزير المعارف خليق بأن يغضب منافساً خطيراً سبقه هناك إلى الفوز بالتعيين فى منصب أستاذ مساعد للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس مع تكليفه بترجمة المخطوطات المتصلة بتاريخ مصر،

الا وهو "دون رفـائيل Don Raphael" الذى كان عضواً بالمجمع العلمى المصرى بالقاهرة وكبيراً لتراجمة الديوان، مما جعله على صلة مباشرة بأعلى رجال السلطة الجديدة فى فرنسا، لا سيما وقد جاء يحمل رسالة من المماليك إلى نابليون "القنصل الأول" (عن الأب انطوان رفائيل زاخورا الراهب المولود فى القاهرة من عائلة حلبية على مذهب الروم الكاثوليك، انظر جمـال الدين الشيال : تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٦٩-٨٠). تقهقر إذن الشاب الأعزل "إليوس" إلى مرسيليا وانطوى على همـوم عيشـه المضطرب المتواضع، متعللاً بأن مناخ الجنوب المشمس الذى يشبه مناخ وطنه خير لصحته من جو باريس .

ولكنه وطّد العزم على أن يتفوق ويبرز فى ساحة الترجمة بعمل مرموق هو تأليف قاموس فرنسى - عربى ينتهج فى إعداده المبادئ العلمية التى تفتقت عنها أنضج التجارب فى تصنيف المعاجم، ويمثلها إذ ذاك على صعيد اللغة الفرنسية المعجم الرصين الذى أخذت فى وضعه الأكاديمية الفرنسية. وهكذا اكبّ فى غرفته بمرسيليا (ميدان إمبريال رقم١) - رغم ظروفه العسيرة - على الدرس اللغوى حوالى عشر سنوات. فتعلّم اللاتينية، واستوعب كيف أدى تطور تلك اللغة القديمة - نحواً وصرفاً واشتقاقاً لفظياً - إلى اللغة الفرنسية الحديثة التى يمارسها والتى راح يتعمق دلالاتها بالتحليل والتأصيل ويقابلها بتفرع المعانى فى العربية. وكان من وسائل ارتزاقه إلى جانب خدمات "الكاتب العمومى" التى احترفها فى جاليته، إعطاء دروس خصوصية فى اللغة العربية للمبتدئين من الفرنسيين - لا سيمـا ومن ابناء مرسيليا ممن يتخصصون فى المعاملات التجارية مع الشرق. كما كان ينسخ المخطوطات العربية بقلمه الأنيق حسب الطلب، ومعظم الطلبات كانت تأتيه عن طريق صديقه الشامى ميخائيل صبـاغ (١٧٨٤-١٨١٦م) الذى تعيّن فى باريس ناسخاً بالمكتبة الوطنية، وكان يقصده تلاميذ المستشرق سليفستر دى ساسى S.de Sacy ،الأستاذ بالكوليج دى فرانس للحصول على نصوص عربية. وكان إليوس بقطر على صلة علمية وثيقة بذلك الأديب الحافظ والشاعر المفلق الذى كتب رداً على اسئلته سنة ١٨١٢م. بحثاً لغوياً ثميناً عنوانه "الرسالة التامة فى معرفة كلام العامة" (مخطوطة بمكتبة ميونخ) .

امتاز إليوس بقطر بالجدية والإتقان فى كل ما يطرقه من أعمال الترجمة والنسخ والتدريس، وترددت أنباء مشروعه المنهجى الكبير فى أوساط المستشرقين. وعرف بعضهم قدره، فاستعانت بخبرته وزارة الحربية فى سنة ١٨١٤م إذ استدعته إلى باريس لقراءة وترجمة عدد من الوثائق العربية فى محفوظاتها عجز عن فك خطوطها وفهمها مترجمو العاصمة. وتحولت المهمة إلى

وظيفة ثابتة أعانه مرتبها على مواصلة نشاطه الرئيسى فى تأليف قاموسه. ولكن تقلبات السياسة عصفت بمورد رزقه هذا أكثر من مرة، إذ ألغيت وظيفته فور سقوط نابليون فى سنة ١٨١٤م. فتوسط بعض العلماء لاستنقاذها ثم ألغاها البرلمان عندما قرر التقشف فى نفقات الدولة فى سنة ١٨١٧م ولم يتمكن الوزير من إدراجها إلا فى ميزانية العام التالى، وما كان أحوج اليوس فى تلك الآونة إلى مورد ييسّر له التفرغ لإنجاز قاموسه الغزير.

وأخيراً اعترف المسئولون عن التعليم العالى بفضله - بل ظهر لهم فراغ فى مدرسة اللغات الشرقية عقب استقالة "دون رفائيل" احتجاجاً على تقليص مرتبه فى سنة ١٨١٦م وإيثاره العودة إلى مصر، فلم يجدوا أجدر من إليوس بقطر لملء ذلك الفراغ، فعين فى سنة ١٨١٩م (بمرتب يعادل نصف مرتب سلفه تقريباً). والقى محاضرته الافتتاحية فى دار المكتبة الملكية فى يوم ٨ ديسمبر سنة ١٨١٩م أمام جمهور من الأساتذة والمستشرقين وأعضاء المجامع العلمية، فخلبهم بمعارفه وأرائه التى ردد صداها مقال حيّاه به العالم چومار Jomard المشــرف على نشر موسوعة "وصف مصر". بدأ إليوس بقطر باستعراض تاريخ العلاقات الثقافية بين أوربا والشرق العربى ثم أوضح منهجه فى تلبية مقتضيات ما تطورت إليه تلك العلاقات من تبادلات سياسية واقتصادية متنامية فى واقع دولى جديد عماده التواصل والتخاطب الصحيح. وانطلاقاً من تجربته التطبيقية فى الترجمة الفورية وفى معالجة موضوعات الحياة اليومية صاغ برنامجه لتدريس اللغة العربية لا بوصفها لغةً قديمةً كامنةً فى بطون الكتب بل لغة حية متحفزة على الألسن تؤدى جميع أغراض الكلام المعيشية. هكذا دعا إلى التحرر من قوائم الألفاظ المحدودة الشحيحة التى اقتصرت عليها قواميس الغربيين المتداولة حتى ذلك العهد. وفى مقابلها ألفاظ لاتينية أو إيطالية أو إسبانية (Golius, Lafafcica, Canes). وتعهد بإثراء حصيلة طلأبه عبر نصوص نابضة يقتطفها من أحاديث الرحالة العرب وأقوال الأدباء والشعراء، وأن يبنى تدريسه على شرح النصوص وعلى تمارين المحادثة الشفوية والإملاء والإنشاء. وبادر إلى تزويد تلاميذه بالأدوات اللازمة فنشر بالفرنسية أبجدية عربية مصحوبة بأمثلة" (١٠ صفحات طبع حجر) و"موجز تصريف الأفعال العربية"، وضاعف جهوده ليتحفهم بمعجمه المرتقب. وامتد نشاطه إلى المشاركة فى الحملة التربوية لتعليم الكبار للصغار (أى المتقدمين فى الدراسة للمبتدئين)، وإلى البحث التاريخى أيضاً. فقد قرأ وترجم من الكتابات العربية المحفوظة فى كاتدرائية بايو Bayeux ما ندَّ عن فهم مستشرقين شهيرين سبقاه (بيتى دى لاكروا Petis de la Croix وهامر Hammer).

ورسخت قدما إليوس بقطر إذ صدر فى يونيو ١٨٢١م - أى فى نهاية السنة الاختبارية

لتدريسه – قرار تثبيته فى كرسى اللغة العربية الدارجة بمدرسة اللغات الشرقية. إلاَّ أن القدر لم يمهله لكى يبدأ العام الدراسى الجديد بل اختطفه الموت فى ٢٦ سبتمبر. لقد سقط فى السابعة والثلاثين من عمره ضحية الإرهاق المتواصل والكفاح المرير ضد عوامل التحدى والحرمان وفجع فيه أصدقاؤه، ونعاه جومار وشامبليون .

لم يترك من ثروة لأرملته سوى مخطوط قاموسه الضخم الذى اتمه قبيل وفاته. واهتمت الأوساط العلمية بنشره، فأسندت إخراجه للأستاذ كوسان دى برسفال Caussin de Perceval خليفة اليوس بقطر فى كرسيه بمدرسة اللغات الشرقية. وعكف هذا المستشرق الكبير على تحشية القاموس بالألفاظ التى جمعها خلال رحلته إلى الشام أو استقاها من معجمى Canes و Di Silesia. وظهر المجلد الأول فى سنة ١٨٢٨م (٤٦١ صفحة من عمودين) والثانى فى سنة ١٨٢٩م (٤٣٥ صفحة). ولا ادل على حاجة الدارسين إلى هذا المرجع من إعادة طبعه فى باريس طبعة ثانية فى سنة ١٨٤٨م وطبعة ثالثة فى سنة ١٨٨٢م. وقد ظل هذا المصنف الزاخر بالعبارات الاصطلاحية والأمثلة السارية والمترادفات أداةً خصبةً فى أيدى المستشرقين والعرب على السواء. فقد اعتمد على مواده وأعاد تنسيقها لاستغلالها بصور مختلفة كاترمير Guatremere وجويل Gouelle بفرنسا ثم دوزى Dozy بهولندا عندما توفر فى أواخر القرن الماضى على تأليف قاموسه المعروف (Supplement aux dictionnaires arabes) وفى القاهرة أصدر عبيد غلاب فى سنة ١٨٧١م طبعة جديدة من قاموس إليوس بقطر زودها بالمصطلحات العلمية الجديدة أى بمجموعة من التوائم المتخصصة أضافها الأستاذ بالمهندسخانة، وقائمة المصطلحات الطبية التى وضعها الدكتور محمود أفندى رشدى خريج كلية باريس، وقائمة المصطلحات الحربية التى وضعها الضابط محمد أفندى مختار .

وهكذا جدد إليوس بقطر شباب اللغة العربية التى استمسك بها فى اقتحام مشكلات عصره، وحقق بمفرده، ورغم مشقات عيشه المضطرب، ما عجز عن تنفيذه أكثر من فريق فى المجامع العلمية المستقرة. وقد فطن اليوم باحثون فى جامعات بشرقى أوربا وغربيها إلى الظاهرة التاريخية التى يحفظ معالمها ونماذجها اللغوية هذا القاموس الذى تغذى به القرن التاسع عشر وأصبح وثيقةً على قدرة التعبير عن الحداثة كما جلاَّها عندئذ بالتأليف فى مختلف موضوعات النهضة نثر رفاعة الطهطاوى .

الفهـــرس

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

دراسة من ستة مجلدات فى حوالى ألفى صفحة

المجلد الأول : من تاريخ القبط

المجلد الثانى : الإيمان والعبادة والحياه النسكية

المجلد الثالث : الآثار و الفنون والعمارة القبطية

المجلد الرابع : الطب والعلوم والتعليم والحياة الإجتماعية
والصحافة القبطية
وتراث القبط فى اللغة العربية

المجلد الخامس : القانون الكنسى
والعلاقات الكنسية

المجلد السادس : اللغة القبطية
والموسيقى
والألحان

St. John the Beloved Publishing House (JBPH)

دار القديس يوحنا الحبيب للنشر